العدد (٧) السنة الخامسة
يوليو ٢٠٢٠م- مارس ٢٠٢١

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية اليمني
Center for Yemeni Political & Strategic Studies

مقاربات سياسية
POLITICAL APPROCHES

مجلة فصلية محكمة تعنى بالشأن السياسي اليمني ومحيطه الإقليمي والدولي

الاحتلال السعودي الإماراتي للأراضي اليمنية حدود المسؤولية وأبعادها من منظور القانون الدولي

- اليمن في حسابات الجيوبوليتيك الكبرى قراءة تحليلية من منظور إدراك صانع القرار"
- جذور التدخلات العدوانية السعودية في اليمن وامتداداتها
- عصر الإمام المتوكل على اللّه إسماعيل بن القاسم" تعزيز السيادة والتنمية والاستقرار في اليمن"
- إعلام مـا بعد الحقيقة: الأبعد والدلالات ميثاق الصعدي
- عثمـــانية العـــصر ..أطماع تتمدد وأحلام تتبخر
- أبعاد الحرب الاقتصادية الغربية الظالمة على سورية وتداعياتها

مقـومات النـهضة
قراءة في المشروع القرآني للسيد الشهيد حسين بدر الدين الحوثي

اليمن هي المحك
"النظام السعودي واستحقاقات الجغرافيا والتاريخ

من أزمة الوعي إلى وعي الأزمة
الملمح الاجتماعي والسياسي في المشروع الفكري للسيد حسين الحوثي

قواعد النشر في مجلة مقاربات سياسية

ترحب مجلة مقاربات سياسية بإسهامات الباحثين والكتاب والمتخصصين والمهتمين بقضايا اليمن ومحيطه الإقليمي والدولي، وتهتم في الصدد ذاته بنشر الدراسات الأصلية والمقالات التحليلية والتقارير وعروض الكتب المختارة، وذلك وفقاً لقواعد النشر التالية :

١- معايير إجازة هيئة التحرير للمواد الواردة للنشر هي: الموضوعية، الدقة، ودرجة التوثيق.

٢- أن تكون المواد المرسلة للنشر مطبوعة على الحاسوب بصيغة (word) بما في ذلك الجداول والرسوم البيانية، مع إرفاق نسخة مطابقة بصيغة (pdf) ، وترسل النسختان إلى عنوان البريد الإلكتروني الخاص بالمجلة.

٣- يشترط (كحد أقصى) ألا يزيد حجم البحث أو الدراسة عن (٦٠٠كلمة)، والمقال عن (٤٠٠كلمة)، والتقرير عن (٢٥٠٠ كلمة)، وعرض الكتاب ومراجعته عن (٢٠٠كلمة).

٤- يشترط أن يكون توثيق المصادر والمراجع متسقاً مع الأصول العلمية المتعارف عليها، وأن يتضمن هامش الإسناد المرجعي نمط التوثيق التالي:

أ- في الكتب: اسم المؤلف، عنوان الكتاب، مكان النشر، اسم الناشر، رقم الطبعة أو المجلد،تاريخ النشر، رقم الصفحة.

ب- في المجلات والدوريات: اسم الكاتب، عنوان الدراسة أو المقال، اسم الدورية، رقم العدد وتاريخه، رقم الصفحة.

ج- في المصادر والمراجع المتوفرة على المواقع الإلكترونية:تفاصيل عنوان المادة أو موضوعها متوفرة على الرابط:

عنوان الرابط للمواقع الإلكتروني منسوخاً عن الموقع ذاته

٥- يشترط أن يكون الإسناد المرجعي في هامش الصفحة وفقاً "إدراج الحاشية السفلية" المترافقة مع الإشارة المرجعية أعلى النص في متن الصفحة نفسها. وبترقيم جديد لكل صفحة على حدة.

٦- ترحب المجلة بنشر أي تقرير بردها متضمناً تغطية لمؤتمر أو ندوة أو حلقة نقاش، على أن يدخل موضوع الفعالية ضمن دائرة اهتمامات المجلة وتخصصها، وبشرط أن يكون حجم التقرير ضمن الحد المشار إليه في البند(٢)، وأن يتضمن رصداً موجزاً لأبرز ما تناولته أوراق العمل والتعقيبات بخصوصها والتوصيات، مع تدوين عنوان الفعالية ومكان انعقادها وتاريخها وأبرز المشاركين فيها.

٧- ترحب المجلة بنشر عروض الكتب ومراجعتها، بشرط أن يكون حجم العرض والمراجعة ضمن الحد المشار إليه في البند(٢)، وألا يكون قد مضى على صدور الكتاب أكثر من عامين، وأن يتضمن عرض الكتاب ومراجعته خلاصات مكثفة لمحتوياته في إطار رؤية تحليلية ناقدة لطروحات المؤلف واستنتاجاته، مع تدوين عنوان الكتاب واسم مؤلفه ومكان النشر واسم الناشر وتاريخ النشر وعدد الصفحات.

٨- تلتزم هيئة تحرير المجلة بتقييم أية مادة تصل إليها وفقاً لمعايير النشر الواردة في البند(١)، وإعلام الكاتب بنتيجة تقييمها خلال شهرين من تاريخ استلامها. ولا تعاد المواد المعتذر عن نشرها إلى صاحبها.

٩- تحتفظ المجلة بالحق في إجراء أي تغييرات شكلية على النصوص الواردة للنشر، بما يتلاءم مع نمطها العام في تحرير النصوص ومراجعتها وضبطها، كما يجوز للمجلة أن تطلب إجراء تعديلات شكلية أو شاملة للمادة قبل إجازتها للنشر.

مقاربات سياسية
POLITICAL APPROCHES

مجلة فصلية محكمة تعنى بالشأن السياسي اليمني ومحيطه الإقليمي والدولي
تصدر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية اليمني

رئيس التحرير:
أ-عبد الملك العجري

نائب رئيس التحرير:
د-سامي السياغي

سكرتارية التحرير:
عبد العزيز أبو طالب
عبدالرحمن العجري
يحيى شرف الدين

الإخراج الفني:
زينب بزيع إبراهيم

سعر النسخة:
للأفراد: ٥٠٠ ريال
للمؤسسات: ٢٠٠٠ ريال

خارج اليمن:
للأفراد: ٣٠ دولاراً
المؤسسات: ٧٠ دولاراً

جميع المرسلات باسم رئيس التحرير:
اليمن - صنعاء - حي الجراف
هاتف: ٩٦٧١٣٢٣٠٢٨+
صندوق بريد: ٤١٩٠

E-MAIL: yecscs@gmail.com
Website: www.yecscs.com

جميع الآراء الواردة في المجلة لا تعني بالضرورة وجهة نظر المركز او المجلة

المحتويات

افتتاحية ٦

دراسات ومقالات:

مقومات النهضة "قراءة في المشروع القرآني للسيد الشهيد حسين بدر الدين الحوثي" ١٠

من أزمة الوعي إلى وعي الأزمة "الملمح الاجتماعي والسياسي في المشروع الفكري للسيد حسين الحوثي" ٥٣

اليمن هي المحك "النظام السعودي واستحقاقات الجغرافيا والتاريخ" ٧١

الاحتلال السعودي الإماراتي للأراضي اليمنية "حدود المسؤولية وأبعادها من منظور القانون الدولي" ٨٤

أبعاد الحرب الاقتصادية الغربية الظالمة على سورية وتداعياتها ١٠٥

عصر الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم "تعزيز السيادة والتنمية والاستقرار في اليمن" ١٣٠

عثمانية العصر أطماع تتمدد وأحلام تتبخر ١٥٣

إعلام ما بعد الحقيقة: الأبعاد والدلالات ١٦٥

جذور التدخلات العدوانية السعودية في اليمن وامتداداتها ١٨٢

ملخص كتاب: "وصفات الربيع العربي" ٢٠٠

اليمن في حسابات الجيوبوليتيك الكبرى "قراءة تحليلية من منظور إدراك صانع القرار" ٢١٦

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية

بقلم مدير التحرير:
د.سامي محمد السياغي

يصدر العدد السابع من مجلة مقاربات سياسية في ظل استمرار العدوان الغاشم على الشعب اليمني ومقدراته منذ ما يزيد عن ست سنوات، ويأتي استمرار إصدار المجلة ليضيف فصلاً قوياً من العنفوان في متن سفر الصمود والتحدي اليمني إزاء صلف وعنف قوى العدوان وحصارها الغشوم على الشعب اليمني، وهو الحصار الذي طال سُبُل معايش اليمنيين ودواءهم والوقود الضامن لاستمرار عجلة الحياة في المستشفيات وتقديم الخدمات العامة ونقل المواد والبشر.

نحن في هيئة تحرير المجلة – كباقي أبناء شعبنا الصابر المجاهد – آمنا منذ البداية بأن سبيل المضي في نهج التحدي والبقاء يبدأ من الثبات على جادة الحق والتمسك بحبل الله والتوكل عليه دون مبالاة بأحاديث ودعايات الجبروت لقوى الهيمنة والاستكبار على المستويين الإقليمي والعالمي.

كما كنا مدركين منذ البداية أيضاً سنة الله ووعده الحق للمظلومين والمستضعفين من عباده بالنصر والتمكين؛ فقد هيأ الله (جل وعلا) الأسباب لنا للاستمرار بوتيرة نوعية حرصنا دوماً على أن تكون محل رضا قرائنا الكرام، كما وفقنا الله لاختراق حالة الحصار المادية على شعبنا وذلك من خلال ايصالنا صدى المجلة إلى المحيطين الاقليمي والدولي، وهو الأمر الذي يعكسه العدد الكبير نسبياً والمتصاعد لتحميل المجلة من الموقع الالكتروني للمركز وكذا تفاعل وسائل اعلام اقليمية متعددة معها، ناهيك أيضاً عن تشرُّف المجلة بأن انضم إلى قوام المساهمين بالكتابة فيها عدد من المفكرين والأكاديميين والكتاب العرب والأجانب بحيث أصبحت المجلة معبرة بامتياز عن واحدية الهدف والمعركة بين أولئك وأقرانهم اليمنيين في إطار ساحة المواجهة المندلعة عالمياً ما بين قوى التحرر وحماية سيادة الأوطان ونصرة قضايا الحق من جانب وقوى الهيمنة والاستكبار والاحتلال واغتصاب حقوق الشعوب في الجانب الآخر.

لعل المجلة قد أصبحت بالفعل جبهة بحد ذاتها في التصدي للعدوان على اليمن مؤزرة بتوفيق الله والعمل المتفاني لرئاسة تحريرها وطاقمها المتواضع عدداً المتوقد حماسةً ونشاطاً.

أمر آخر يتزامن مع هذا الإصدار السابع من مقاربات سياسية، حيث يعيش اليمنيون (المستضعفون) لحظات تأمل إيمانية عميقة، فها هُم يرون تجليات ما آمنوا به في

نهج قائدهم الثائر المجاهد تتحقق واقعاً ملموساً أمام أعينهم، إذ لم تطل فترة انتظارهم كثيراً حتى يروا ثمار صبرهم وصمودهم واحتسابهم وفزعتهم الأصيلة في وجه العدوان وثقتهم في قيادتهم الثورية وانتهاجهم للسبل الإيمانية التي حملتها القيادة؛ فاليمن ككيان وشعب لا يزال ثابتاً بوجوده الفاعل على خريطة المنطقة، ومن كان يروم من عدوانه الوصول إلى صنعاء أصبح اليوم يمسك

بتلابيب المُنْجدِين لإنقاذ آخر أوكاره في مأرب، ومن كان يعيث إجراماً في سماء صنعاء أصبح اليوم يعدُ اللحظات تحسباً لزيارة يقوم بها صاروخ باليستي أو طائرة مسيرة إلى الرياض أو أبوظبي، ومن كان يزبد ويرعد ويروي شروطه المسبقة لإيقاف عدوانه واحلال السلام في اليمن أصبح اليوم في نزول مستمر من برج تكبره درجةً درجة، والعالم هناك قائمٌ يتفرج على خيبة أمره ويشجعه على المزيد من النزول.

أمر آخر إضافي تتأكد انكشافاته بالتزامن مع صدور العدد السابع من مقاربات، ألا وهو المتعلق بحقيقة أن الحرب في اليمن كانت منذ بدايتها عدواناً خارجياً بامتياز، تظافرت فيها أهداف أربع دول بصفة رئيسية (أمريكا، اسرائيل، السعودية، الإمارات)، حيث تجذَّر ذلك الانكشاف مع ثبات اتجاه التحول المستمر والمتصاعد في موازين القوى لصالح قوى مقاومة العدوان في صنعاء، فقد اتضح بجلاء جوهرية دور تلك القوى الخارجية في التعاطي مع تبعات ذلك التحول في موازين القوى بشكل يؤكد تحكمها من الأساس في معطيات الملف اليمني بما يخدم مصالحها وبعيداً بالمطلق عن مصالح ورغبات وإرادة ما تسمى بـ"الشرعية اليمنية" ممثلة في هادي وحكومته وحلفائه المحليين.

فالملاحظ مؤخراً أن الرياض وواشنطن هما من يصيبه التوتر والقلق المباشر والحقيقي من معركة مأرب، وهما من يهدد ويلين ويناور ويبادر بهدف ثني اليمن المقاوم في صنعاء عن مواقفه الوطنية الواضحة، وذلك دون أي وجود أو تأثير يذكر لهادي وحكومته إلا في مناسبات محدودة تظهر فيها الحاجة لتحريك ستار التغطية اليمني للعدوان إلى هنا أو هناك. ومهما علا الضجيج الاعلامي الراهن لحكومة هادي ضد أنصار الله فإنه لا يمكن أن يحجب حقيقة تضاؤل وجود ودور تلك الحكومة ومرتزقة العدوان في ثنايا المشهد السياسي اليمني الراهن بخصوص الحراك الدبلوماسي الدولي الساعي للتعامل مع الملف اليمني وفق معطيات جديدة هي أقرب إلى مواقف وطروحات قيادة الثورة في صنعاء، بما فيها تأكيد حقيقة أن العدوان على اليمن هو عمل خارجي بامتياز.

وفي إطار المشهد اليمني الراهن وتداعياته الإقليمية، لا ريب أن اليمن ستكون آخر محطات اندحار المؤامرة الدولية والاقليمية على محور المقاومة وفي الملفات الساخنة في المنطقة، وبخاصة في ظل التحولات في المزاج الدولي تجاه أنصار الله واستيعاب بعض قوى العدوان لمسار موازين القوى في اليمن والإقليم، وكذا في ظل سفور حقيقة وجود الدور الاسرائيلي في ثنايا الملف اليمني ومساعي اسرائيل التدخلية والتوسعية في منطقة باب المندب.

وفي إطار المشهد سالف الذكر ايضاً، لا ريب أن المعطيات الراهنة يمكن أن تؤسس لإمكانية حل معضلات الملف اليمني وإحلال السلام في اليمن، السلام الدائم والعادل والشامل الذي يضمن المصالح المشروعة للأطراف كافة في اليمن والإقليم.

أما عما جادت به قريحة كتابنا في هذا العدد الجديد من مقاربات سياسية وفقاً لخطة الاصدار فإننا نضع بين يدي قرائنا الكرام عدداً من الدراسات والمقالات التحليلية التي تعالج طيفا متنوعاً من المواضيع.

ففي مسار اهتمامنا المستمر بفكر السيد الشهيد القائد حسين بدر الدين الحوثي يتضمن العدد قراءتين معمقتين لذلك الفكر من منظورين متنوعين ومتكاملين في الوقت نفسه؛ إذ يستعرض الكاتب البحريني الدكتور راشد الراشد في دراسته الضافية والموسعة ما أسماه "مقومات النهضة" في ذلك الفكر، منطلقاً من تحديد موجز لسبب انحطاط الأمة وتخلفها بعد مجدها وعزها، فيما يحلل الدكتور عرفات الرميمة في دراسته مسألة الانتقال من "أزمة الوعي" إلى "وعي الأزمة" في إطار قراءته للملمح الاجتماعي والسياسي في بالمشروع الفكري للشهيد القائد.

الكاتب السعودي فؤاد ابراهيم يقدم قراءته التحليلية - عن قرب – لطبيعة المعطيات التي تحيط بنظرة النظام السعودي إلى اليمن وموقعها في حساباته الجغرافية والتاريخية وعلاقة ذلك بالعدوان الراهن على اليمن، فاليمن وفقا للكاتب هي "المحك".

من جانبه، يتناول الدكتور عبد الرحمن المختار موضوعاً كاشفاً لأحد تداعيات العدوان على اليمن، وذلك بتقديم تحليل قانوني سياسي لمسألة هامة تتعلق بحدود مسؤولية دولتي الاحتلال السعودي الإماراتي للأراضي اليمنية وأبعاد تلك المسئولية من منظور القانون الدولي. كما يستعرض الكاتب الأستاذ أنس القاضي شأناً آخر ذي أهمية في تحقيق فهم أفضل لخلفيات المواقف السعودية تجاه اليمن، وذلك من خلال مقاله التاريخي التحليلي الذي يتناول فيه جذور التدخلات السعودية في اليمن وامتداداتها.

الباحثة السورية الدكتورة حسناء نصر الحسين تقدم قراءة تحليلية مركزة ونافذة في

استشرافها لجوانب السياسة التركية التدخلية تجاه سوريا، وذلك في إطار ما أسمته الباحثة بـ: "عثمانية العصر.. أطماع تتمدد وأحلام تتبخر"، فيما يحاول الباحث والكاتب السوري الدكتور وضاح عيسى الاقتراب من أبعاد الحرب الاقتصادية الغربية الظالمة على سورية وتداعياتها، وذلك وفق منظور تحليلي يجمع ببراعة ما بين القانون والسياسة والتاريخ.

كما يتضمن هذا العدد كتابات أخرى تناولت عدداً من الموضوعات، حيث يعرض الدكتور أحمد سنان الجابري – ترجمة عن اللغة الروسية – لكتاب: "وصفات الربيع العربي"، فيما تتناول

الباحثة ميثاق الصعدي موضوعاً شيقاً حول "إعلام ما بعد الحقيقة"، ويتناول الباحث عبد الملك حمران فترة زاهية من تاريخ اليمن في ظل عصر الإمام المتوكل على الله اسماعيل بن القاسم "تعزيز السيادة والتنمية والاستقرار في اليمن"، كما يقدم الدكتور سامي السياغي تحليلاً للوضع الجيوبوليتيكي لليمن بأبعاده المتعددة وإدراك صانع القرار اليمني لطبيعة ذلك الوضع وابعاده.

نرجو لقرائنا الكرام الفائدة المرجوة، ونسأل المولى (جل وعلا) أن يمدنا بعونه وتوفيقه وأن يبلغ بأعمالنا أحسن الأعمال وإيماننا أكمل الإيمان، إنه سميع مجيب.

مقوّمات النهضة

"قراءة في المشروع القرآني للسيد الشهيد حسين بدر الدين الحوثي"

د. راشد الراشد
المنامة - البحرين

المقدمة:

قليلون هم الذين استطاعوا أن يحيوا مجتمعاتهم فضلاً عن أممهم، ناهيك بالعالم والبشرية جمعاء، بل قليلون هم أولئك الذين صنعوا التاريخ بما قدموه وبذلوه في سبيل رُقي وازدهار وتطور بلدانهم وشعوبهم.

هؤلاء العظماء صانعوا التاريخ لم يشغلوا أنفسهم بصغائر الأمور التي تنهش طاقتهم الروحية والأخلاقية والفكرية، والتي هم بأمس الحاجة إليها صافية نقية، من أجل مشروع صناعة واقع أفضل لمجتمعاتهم، فتراهم يضعون كل طاقتهم النفسية والفكرية والعملية في اتجاه واحد، ألا وهو التفكر بحال المجتمع والأمة وحال البشرية، ولم يسمحوا لأنفسهم بالانزلاق وراء المغريات الآنية والرغبات الفانية التي ستشغلهم عن أوضاع الناس وأحوالهم، فتراهم يقضون جُلَّ وقتهم في التفكير والعمل يبحثون عن العلاّت ومكامن الأوجاع التي يعاني منها المجتمع، شادين العزم لإيجاد الحلول الناجعة لنهضة أمتهم وشعوبهم، والسبل الكفيلة بتحقيق هذه النهضة في حياتهم المدنية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. ولا يألون جهداً ولا وقتاً في حشد الطاقات والصفوف من أجل إنجاز المهمة.

السيد الشهيد حسين بدر الدين الحوثي (رضوان الله تعالى عليه) هو أحد هؤلاء التاريخيين الأفذاذ والذي رغم شهادته المبكرة إلا أنه ترك بصمة وأثراً هائلاً في حياة أمة بأكملها، ليس بمجتمعه فحسب بل على رغم الحروب الضروس المستمرة ليومنا هذا والتي تستهدف مشروعه الرسالي الكبير الذي أحيا به المجتمع اليماني من حوله، والذي استعاد به اليمانيون هويتهم الحقيقية وشخصيتهم الأصيلة، وأثّر في نفوس الملايين من البشر في القارات الست، ممن يتطلعون اليوم إلى ما حمله من مشروع نهضة شاملة في حياة الأمة لاستعادة كرامتها وعزتها، استطاع بمشروعه المسدد أن ينقذ أمماً ويحيي أمماً ويرتقي بأمم.

لقد شكّلت أوضاع الشعوب المتردية وحالة الانحطاط التي وصلت إليه من كل جانب هاجساً كبيراً في عقل وفكر السيد الشهيد عليه الرحمة، وحمل على كاهله ثقل المسؤولية مبكراً لتشخيص مكامن الخلل والخطل والعطب في حياتهم وما وصلوا إليه من سوء

أحوالهم، ومن ثم حمل عبء البحث فيما يمكن أن ينقذهمويخلصهم من جميع أوجاعهم وآلامهم ويأخذ بيدهم إلى شواطئ الانتصار على عوامل التخلف والانحطاط وإلى حيث العزة والكرامة والرفاه.

فوجد السيد الشهيد الحوثي (رحمه الله تعالى) أن السبب الرئيس لما تعيشه الأمة من ظروف صعبة لا يكمن في تسلط قوى الاحتلال والهيمنة فقط، بل وجده في ابتعاد الأمة عن قيم السماء وعن مبادئ الدين والعقيدة السليمة، وأن جلّ ما استطاعت قوى الهيمنة والسيطرة والتحكم تحقيقه هو إبعاد الناس عن دينهم الحق وعن عقيدتهم السمحة فكان لهم ما يريدون من أمر السيطرة والهيمنة والتحكم.

ومن هنا انطلق المشروع الرسالي الكبير للسيد الشهيد عليه الرحمة والرضوان ليعيد للأمة دينها وعقديتها وهويتها التي نزل بها الوحي الأمين على قلب القائد الأعظم للمسيرة النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله وسلم، فابتعدت عن واقع الدين المزّيف الذي كان من عمل أرباب قوى الاستكبار والهيمنة العالمية. وكانت خلاصة المشروع العودة إلى القرآن الكريم وما يزخر به من علوم ومعارف شاملة للحياة والكون.

ولم يكن مشروع العودة إلى كتاب الله العظيم مسألةً سهلةً أو بسيطة وإنما كانت تحدّياً كبيراً بحجم معضلة تحويل كتاب الله عز وجل الأعظم إلى مجرد قرطاس يزين أرفف مكتبات منازل المسلمين، ومجرد آيات للتبرك القشري في شؤون الحياة، إلى أن لف الجمود حياة المسلمين لأنهم فقدوا أهم مصادر الفكر والرؤية للحركة وتحمل المسؤولية في الحياة، ومواجهة جميع التحدّيات الإنسانية التي تعصف بالمجتمعات البشرية.

في هذا البحث الموجز نتناول بقليل من التفصيل المشروع القرآني للشهيد السيد حسين الحوثي (رضوان الله تعالى عليه) وخلفياته وجذوره، ثم نسلط الضوء على مقومات النهضة وشروط الانتصار وفق الرؤية القرآنية للشهيد السيد (رحم+ه الله تعالى).

- انحطاط الأمة وتخلفها.. قراءة في الأسباب:

قال الله عز وجل في كتابه العزيز: (وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)[1]، إن العزة في اللغة تدور حول القوة والغلبة، والرفعة والامتناع، فهي حالة مانعة للإنسان أن يُغلب أو يمتهن، لذا نرى أن الإنسان العزيز فيه خاصية جُبلت مع نفسه تمنع أن يهزمه الآخرون ويسيطروا على عقله وفكره ومبادئه وعقائده، فيحاول جاهداً إعزاز هذه النفس وإعزاز من حوله، ليتحول حينئذٍ إلى شمس تنير ما حولها.

وقد سعى الإنسان لتحصيل هذه العزة بكل ما أوتي من قوة، ولكن اختلفوا في تقديرها، فمنهم من رأى العزة في المال، ومنهم من رأى العزة في العشيرة، ومنهم من رأى العزة في السلطة بل قد يلجأ البعض إلى التزلف

١- سورة المنافقون، من الآية: ٨ .

لأصحاب السلطة وإن كان على حساب مبادئه وقيمه لتحصيل تلك العزة المزعومة يقول الله عز وجل: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً﴾[1]، وهنا قد يُتساءل كيف تكون العزة للمؤمنين والحال المُشاهد هو أنَّ الكثير من المؤمنين في هذه الحياة ليسوا بأعزة؟ بل إن المقلِّب في صفحات التاريخ الإسلامي والمدقق في أيامه المجيدة، لتأخذه الدهشة، خصوصاً عندما يقلب في صفحات العزّ النبوية والروحية المحمدية، التي أثّرت مواقفه بتلك الحقبة الزمنية من خلال التعامل بالقيم الإسلامية والتخلق بالآداب القرآنية، ليخرجهم من غياهب الجهل إلى مجالي النور ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [2]، وبين ما وصل إليه حال الأمة في واقعنا الحالي، فلا يرى تجلّي ذلك النور وتلك العزة في أيامنا الحالية وواقعنا المعاش، فالمتتبع للتاريخ الإسلامي ليعجب أشد العجب لهذا الانقطاع بين صدر الأمة وعجزها، ولهذا التغيّر الحاصل في كيان الأمة، وهذا التبدل في واقعها فبعد المجد أمست مُذعنة، وبعد القيادة أمست مُقادة، وبعد العزّ أمست مُهانة، حتى تحولت إلى لقمة سائغة في فم كُل آكلٍ ونهب مقتسم في يد كل طامع.

ليأتي السؤال ما سبب انحطاط الأمة وتخلفها بعد مجدها وعزّها؟

للإجابة عن هذا السؤال لا بد أن ندرس الجوانب التي أدت إلى عظمة المسلمين في تلك الفترة الزمنية وتخلفها وتراجعها فيما بعد، ويمكن إرجاع جميع الأسباب التي أدت إلى رفعة شأن الأمة الإسلامية آنذاك إلى سبب واحد رئيس وهو اتباع الأوامر الإلهية من خلال العمل بالدستور الرباني وهو القرآن الكريم.

فعندما تمسّكت الأمة بما جاء في القرآن الكريم، وبنت حياتها طبق تعاليمه وقوانينه وتوجيهاته، فازت وصَلُحت، فالقرآن المجيد بيّن أسس كل حاجة بشرية تؤمّن له حياته المعنوية والمادية، إذ وضع الضوابط العامة والقواعد الكلية للمسائل السياسية وإدارة الدولة وعلاقات المجتمعات ببعضها، وأصول التعايش والحرب والسلم والشؤون القضائية والاقتصادية وغير ذلك. حيث إن تطبيقها عملياً يملأ الحياة الإنسانية بالسعادة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[3]، فالملاحظ أن الأمة بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله وسلم، هجرت القرآن وتركت العمل وفقه، ونست بل تناست قول النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم:" إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِمَا لَنْ تَضِلُّوا- كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَ جَلَّ وَ أَهْلَ بَيْتِي عِتْرَتِي أَيُّهَا النَّاسُ اسْمَعُوا وَ قَدْ بَلَّغْتُ إِنَّكُمْ سَتَرِدُونَ عَلَيَّ الْحَوْضَ فَأَسْأَلُكُمْ عَمَّا فَعَلْتُمْ فِي الثَّقَلَيْنِ وَ الثَّقَلَانِ

١- سورة النساء: ١٣٩ .

٢- سورة التوبة: ١٢٨ .

٣- سورة النحل، من الآية: ٨٩ .

كتَابُ اللَّه جَلَّ ذكْرُهُ وَ أَهْلُ بَيْتي فَلَا تَسْبِقُوهُمْ فَتَهْلِكُوا وَ لَا تُعَلِّمُوهُمْ فَإِنَّهُمْ أَعْلَمُ مِنْكُم"[1]، كان هجر الأمة للقرآن يتمثل في انفصال واقعهم المعاش عنه تطبيقاً وتفسيراً وتأويلاً وذلك:

أولاً: لأنهم تخلوا عن عدل القرآن الكريم وهم العترة الطاهرة صلوات الله عليهم العارفين العالمين بتفسير القرآن وتأويله.

وثانياً: انشغلوا في تحصيل مناصب آنية وزبد زائل، وذلك إرضاءً للسلطة القرشية، ثم الأموية التي سعت جاهدة لدفن الإسلام وإرجاع الأمة إلى الجاهلية السابقة ولكن بقالب إسلامي جديد من صنع أيديهم.

فدُفنت معارف وعلوم القرآن الكريم على أيدي من يمكن أن نسميهم صناع الإسلام المزيف والمحرّف ذا النكهة الأموية والقرشية والذي استمر منهجهم إلى يومنا هذا، وذلك بجعل القرآن الكريم مجرد تحفة ديكورية لا قيمة حقيقية له ولا تأثير، وهكذا حقق طغاة قريش حلمهم في فصل القرآن عن روح الأمة وحياتها بعد أن استطاعوا أن يحولوا كتاب الله العظيم إلى مجرد وسيلة قشرية شكلية في حياة الأمة يفسرونه ويؤولونه بما يتناسب وأهواءهم ومشاريعهم الشخصية لا الأهداف الدينية السماوية.

فها هو القرآن في واقعنا اليومي يعيش غربة شديدة مع مظاهر الاحتفاء القشري بوجوده في بيوتنا كمسلمين، فلا نتعهده كما يجب كمنهج حياة ورؤية وبصيرة، بل نلوذ به كتحفة مقدّسة نزين بها أرْفُف مكتباتنا، ونجعل له وجوداً قشرياً في مساجدنا ومراكزنا الدينية فنلجأ إليه للتبرك فحسب عند قراءة الفواتح على الأموات وإحياء المناسبات الدينية.

غدا كتاب الله العظيم غريباً وهو يرقد بالقرب منا دون أن تكون له حيوية تذكر في التفكير أو النهج. ومن شدة ظلمنا لأنفسنا، كأمة، صرنا نجول ونصول هنا وهناك بحثاً عن العلم والمعرفة بينما يوجد في معظم منازلنا ودور عبادتنا هذا الكنز العظيم من العلوم والمعارف وهو كتاب الله العظيم،﴿ قَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً﴾ [2]، هذه الشكوى لا زالت إلى يومنا هذا مستمرة، فالقرآن عند كثير من المسلمين لا يتعاملون معه إلا على أنّه مجموعة أوراد وأذكار، يتلونه تلاوةً مجرّدة عن الروح، ويستخدمونه في زخرفة المساجد باعتباره عنواناً من عناوين الفن المعماري، غافلين أو متغافلين عن لبّه ومحتواه، هاجرين برامجه البنّاءة، تاركين التفكر به والتأمل فيه باعتباره الدستور الإلهي الذي أنزله على قلب المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم)

١- الكافي، الشيخ الكليني، ج ١، ص٢٩٤ .

٢- سورة الفرقان: ٣٠.

ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليعيش الناس السعادة الحقيقية في ظل تعاليم القرآن وأحكام الإسلام العظيم، لكننا أخطأنا الرؤية وأخطأنا الطريقة وضعنا في الطريق، ووصل الحال بنا إلى هذه الدرجة المؤلمة والقاسية من التخلف والانحطاط حيث يسيطر على أمتنا ومقدراتها من ليس لهم من العلم حظ ولا من الإيمان نصيب.

فما تعيشه الأمة الإسلامية اليوم من واقع سيء ومتخلف هو نتيجة لابتعادها عن القرآن الكريم، وابتعادها عن النهج القويم والبصيرة السليمة التي تعينها في التفكير والتخطيط وإيجاد الحلول لكل المعضلات التي تواجهها.

- القرآن الكريم كتاب حياة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [١]. منذ القدم بيّن أهل العلم والوعي والمعرفة أنّ القرآن الكريم "كتابٌ للحياة" وبرنامجٌ للتحرك ومشروع عملٍ ينبض بالحيوية والحركة وخريطةٌ للسلوك الإنساني والمدني والحضاري، فتعاملوا معه معاملة الحي يخاطبهم فيفهمون كلامه، ويخاطبون الله عز وجل من خلاله؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إذا أحبَّ أحدُكُم أن يُحدِّث ربَّه فليقرأ القرآن"[٢]، فكان العلماء يتحدَّثُون ويحَدَّثون بالقرآن، فاستنبطوا منه بصائر واضحة يستعينون بها في مسيرتهم الحياتية الحافلة بكل أشكال التحديات الدنيوية، فكل معضلة تعترضهم لاذوا بالقرآن، يقلبون صفحاته ويتأملون آياته ليعثروا على حل مشكلاتهم، فهذا رسول الله صلى الله عليه وآله عندما يسأل عن معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾ قال: يتبعونه حقّ اتّباعه[٣].

ثم جاء - من بعدهم - أجيال أساءت الفهم وضلت الطريق وتصورت أنَّ القرآن مجرد كتاب للطقوس الدينية الشكلية وليس له علاقة بإيجاد الحلول للعقبات التي تواجه المجتمعات البشرية ولا يمتلك أي رؤية في مجابهة التحدّيات المتعدّدة التي تعصف بحياة الناس والمجتمع!!

فأصبح القرآن لا يعني بالنسبة إلى حياة الكثيرين من أبناء الأمة شيئاً، فأخذوا يتعاملون مع كتاب الله العظيم باعتباره مجموعة من القضايا الميتافيزيقية، والقصص التاريخية، والطقوس العبادية، من دون الاستفادة منها في مقام التخطيط والتفكير وإيجاد الحلول لمشاكل الحياة وتعقيداتها وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله: " إنّ هذا القرآن مأدُبَةُ اللهِ، فتعلّموا من مأدبته ما استطعتم[٤]".

١- سورة الأنفال: ٢٤ .

٢- المتقي الهندي، كنز العمال، ج١، ص٥١٠، ح٢٢٥٧.

٣- جلال الدين السيوطي، الدر المنثور، ج١، ص١١١ .

٤- المتقي الهندي، كنز العمال، ج١، ص٥٢٦، ح٢٣٥٦.

من الطبيعي عندها أن يبحث الكثيرون منا عن "قيم ومناهج وتعاليم وبرامج للحياة" في مكان آخر، وهكذا أصبحت الأمة في ضلال وتيه وحيرة وضياع، وقد تشكل لها دينٌ ونهجٌ غير الذي نزل به الوحي العظيم على قلب نبينا الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، دين لا حياة فيه ولا حركة خالٍ من المسؤولية تماماً، كما سيطر منهج العبودية المطلقة للطغاة الحاكمين والقوى المهيمنة التي تبرر كل موبقاتها وجرائمها على أنها جزء من ثقافة الدين وفكر العقيدة.

لقد بذل الطغاة الذين وصلوا إلى سدة الحكم وسيطروا على أسباب السلطة في معظم بلادنا الإسلامية جُلّ وسعهم لفرض الأمر الواقع بمعونة دسائس القوى الاستكبارية المهيمنة ليصبح وجودهم جزءاً من الدين والعقيدة، ولتصبح طاعتهم من طاعة الخالق حتى وإن مارسوا الفحش وقاموا بظلم العباد والبلاد، وأصبح واقعاً مأساوياً حينما نجد اليوم الجزء الأكبر من الأمة يعتبر مخالفة الحاكم الظالم في جرائمه وفساده هو خطل في الإيمان.

لعمري كيف استطاعت آلة السلطة وما تمتلكه من أدوات ووسائل أن تجعل أفكارها الخبيثة ديناً في مقابل الدين الذي جاء به النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، وكيف استطاعوا أن يجعلوا من أمر الاستسلام لهم ولفسادهم ولعهرهم السياسي والأخلاقي جزءاً من طاعة الله وعبادته.

لكن مما لا شك فيه أن الأدوات التي تبحث عن السلطة والسيطرة والنفوذ في المجتمع تبذل جهوداً جبّارة لجعل دين عبادة الطاغوت حاكماً ومهيمناً على عقل الأمة، وتقوم بالترويج بأن الدين الذي نزل به الوحي الأمين على قلب النبي الأعظم لا يرتبط بالحياة وما تتطلبه من فكر وتخطيط وقرار، وأنه ليس له علاقة بما تحتاج المجتمعات البشرية من حلول لأوجاعها ومشاكلها المدنية والتقنية، وأن الدين هو مجرد صلاة وصيام وعبادة في المساجد، وأن القرآن الكريم مجرد كتاب يدعو الإنسان إلى الزهد في الدنيا، وصرف كل جهوده على الآخرة.

على ذلك فالسلطة وإدارة الدولة والحياة شأن آخر يقوم به من يستولون على الحكم والسلطة بفرض الأمر الواقع، وفي الجهة المقابلة يقوم هؤلاء، ولتحقيق أطماعهم في السلطة، بتسويق أن طاعة الحاكم هي من طاعة الله حتى وإن كان كل سلوكه مناهضاً ومناقضاً لأبسط قواعد الدين والعقيدة، وبكل أسف لتصبح ثقافة سائدة في معظم بلداننا الإسلامية.

لقد ردّ الراحل الكبير السيد الإمام الخميني رحمه الله تعالى على هؤلاء فيقول: "المستعمرون أشاعوا في المناهج المدرسية ضرورة فصل الدين عن الدولة وأوهموا الناس بعدم أهلية علماء الإسلام للتدخل في شؤون السياسة والمجتمع. وردّد هذا الكلام أذنابهم وأتباعهم. في عصر النبي (ص) هل كان الدين بمعزل

عن السياسة؟ هل كان يوم ذاك مختصون بالدين وآخرون مختصون بالسياسة؟ وفي زمن الخلفاء وفي زمن أمير المؤمنين علي(ع) هل فصلت السياسة عن الدين؟ هل كان يوجد جهاز للدين وجهاز آخر للسياسة؟ لقد تفوّه المستعمرون وأذنابهم بهذه العبارات كي يبعدوا الدين عن أمور الحياة والمجتمع ويبعدوا ضمناً علماء الإسلام عن الناس، ويبعدوا الناس عنهم، لأن العلماء يناضلون من أجل تحرير المسلمين واستقلالهم وعندما تتحقق أمنيتهم في هذا الفصل والعزل يستطيعون أن يذهبوا بثرواتنا ويتحكموا بنا.

أنا أقول لكم إنه إذا كان همنا الوحيد أن نصلي وندعو ربنا ونذكره ولا نتجاوز ذلك فالاستعمار وأجهزة العدوان كلها لا تعارضنا. ما شئت فصلّ.. ما شئت فأذن، وليذهبوا بما آتاك الله والحساب على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، وعندما نموت فأجرنا على الله. وإذا كان هذا تفكيرنا فلا شيء علينا ولا خوف علينا".

ثم يروي السيد الإمام الراحل هذه القصة: قيل إن أحد قادة الاحتلال البريطاني للعراق حينما سمع المؤذن سأل عن الضرر الذي يسببه هذا الأذان للسياسة البريطانية، فلما أُخبر بأنه لا ضرر من ذلك، قال: فليقل ما شاء ما دام لا يتعرض لنا!. ويضيف الإمام الراحل (رحمه الله تعالى): "أنت إذا كنتَ لا تمسُّ السياسة الاستعمارية وكنتَ في دراستك للأحكام لا تتجاوز النطاق العلمي الشكلي فلا شأن لهم معك؛ صلِّ ما شئت، هم يريدون نفطك أي شأن لهم بصلاتك"[1].

بهذا الفهم الخاطئ للدين، هل سيُنظر إلى القرآن بكونه كتاباً مرتبطاً بالحياة، كما عبّر هو عن نفسه حين قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[2]، أم أنّه كتابٌ مرتبطٌ بموت الإنسان لا بإحيائه؟!

أليس هذا هو بالضبط ما أراده المنشغلون بهوس السلطة والنفوذ، بجعل القرآن الكريم وفيه آيات الله العظام يتحول إلى مجرد كتاب طقوس ميتة لا حياة فيه ولا روح؟! ونحن بدورنا نتساءل: هل نزل القرآن الكريم - وهو كتاب الله الأعظم - لأجل هذا أم لأجل قيادة الحياة وبناء المدنية والحضارة الإنسانية؟!

والجواب: إن القرآن المجيد قد نزل لإدارة وقيادة الحياة بل الحضارة الإنسانية، وما حدث هو أن الأمة أخفقت في جعل كلام الله العزيز الجبّار ركيزة وأساساً للتفكير وعنواناً للحركة والعمل وتحمل المسؤولية، وسؤال مهم يطرح في المقام مع ما نراه من سيطرة التكفيريين للمشهد في معظم بلادنا الإسلامية وتقديمهم إسلاماً وديناً مشوهاً أيما تشويه، كيف لهذا الدين الحنيف الذي كان قبلَة الدنيا، ومحط أنظارها في كل خير وحق وفضيلة، ورقي وعلم ومدنية، كيف صار غرضاً يُرمى وسُبَّةً على أهله، وعاراً على البشرية؟!

١- روح الله الموسوي، الحكومة الإسلامية، ص٢١.
٢- سورة الأنفال:٢٤.

لقد كانت الأمة بالعشرات فنشرت تلك الثلة المؤمنة الحضارة لأن قائدهم وأسوتهم رسول الله (صلى الله عليه وآله) وسلم وكانت آيات الله المجيدة مصدر حركتهم وتفكيرهم وكانت تشكل كل هويتهم، أما اليوم صارت الأمة مليارين ولكنها أمة غير متصلة بمصدر المعرفة والنور وهو القرآن العظيم الذي كان يجب أن يضخ الحياة في بصيرتهم ورؤيتهم، ويجعل حياتهم أكثر عنفواناً تنضح بالحيوية والحركة.

فما وصل إليه واقع حال الأمة من تردي وتشظي يحتاج منا جميعاً إلى التفكير الجاد والمسؤولية لتشخيص العلل ووضع العلاجات اللازمة موضع التنفيذ على الأرض، وأن نبحث جميعاً عن جذور ما نعانيه من علل وأوجاع، وعن خلفياتها وأسبابها، وكذلك نتدارس أمر نتائجها وآثارها المدّمرة للدين والعقيدة والوجه الحضاري للأمة والمقدّسات، وذلك ليس من باب الترف الفكري وإنما لتحديد المسؤولية ووضع الحلول وتقديم المعالجات النافعة لكل ما تعانيه الأمة من أوجاع ومشكلات، وبذل الجهود في محاولة إعادتها إلى مجدها وغابر عهدها من العزة والكرامة، وبناء مدنيتها وحضارتها، بفكرها وثقافتها وهويتها النابعة من كتاب الله المجيد ونقاء آياته العظيمة.

- القرآن العظيم ومشروع نهضة الأمة:

العالم اليوم هو عالم العلم والتقدم والتطور المدني في مختلف المجالات، وهو عالم التقنية الرقمية المذهلة والهائلة، ولكن في المقابل تعيش البشرية واقعاً مزرياً وبائساً وتعيساً فالحروب ما زالت تفتك بالملايين في مختلف بقاع الكرة الأرضية، وما هذه الحرائق المشتعلة جراء الحروب في أكثر من منطقة من عالمنا إلا وجه حالك لما وصل إليه حال البشرية من ضياع ودمار.

فقد فقدت البشرية روح المحبة والسلام والأخوة والتسامح وكل قيم الخير ومناقب الفضيلة، وأصبحت الحضارة الإنسانية تئن تحت وطأة ثقافة الكراهية والبغض والعدوان، وهي اليوم خالية من كل القيم والمبادئ المعنوية التي يمكن أن تنهض بها من واقعها المشحون بأوجاع وآلام الصراعات الدامية التي تفتك بها، لتستوطن عوضاً عنها قيم السيطرة والنفوذ والتحكم، لأنها غرقت في وحل المادة حتى وصل الحال بها إلى إنكار الخالق، فتجرأ ذاك المسخ المدعو (دوكنز) حين كتب كتاباً بعنوان: (وهم الإله) ليضرب في صميم ما جاء به جميع الأنبياء والرسل الذين مرّوا على تاريخ البشرية والذين يصل عددهم لما يربو على ١٢٤ ألف نبي، كل ذلك من أجل المساهمة في تدمير القيم الأخلاقية التي تدعو إليها كافة الأديان السماوية ولتحل عوضاً عنها القيم الجاهلية وتزدهر فيها تجارة الانحطاط والتخلف والرجعية والدمار المنتشرة في العالم، كما نعيشه في واقعنا المعاصر اليوم.

فالحضارة الإنسانية في عالمنا اليوم في أزمة أخلاقية شائكة متعدّدة الأوجه والجوانب، وتعاني البشرية بسببها من مشكلة كونية معقدّة تتمثل بفقدان قيم الفضيلة والخير والمحبة والتسامح، وفقد قيمها الخيرة الأساسية والمتمثلة بالرحمة.

فحضارة اليوم فقدت إنسانيتها حقاً وصارت تتحكم في واقعها ومصيرها الأهواء والنزوات و الرغبات الجامحة في السيطرة والتحكم والنفوذ حتى وإن أدى ذلك إلى إزهاق الأرواح وتدمير شعوب بأكملها، وكم ينطبق عليها قول الله عز وجل عندما وصفها بخاوية على عروشها، وبئر معطلة، وقصور وناطحات سحاب مشيدة، وكم هو وصف دقيق عندما يقول الله عز وجل: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [1].

من الواضح أن البشرية بحاجة ملحّة اليوم لخارطة طريق يكون فيها الحل والعلاج لما تعانيه البشرية من بؤس وتعاسة وشقاء، يكون عمادها وركيزتها الأساسية العودة إلى القيم الأخلاقية ومبادئ الخير والرحمة وكذلك بسط قيمة العدل في المجتمعات الإنسانية لوقف معاناتها من الظلم والاضطهاد والقهر السياسي.

- السيد الشهيد الحوثي ومشروعه الرسالي الكبير في إحياء ونهضة الأمة:

تشكلت القناعة لدى مفكري الأمة بوجود وباء خطير محدق بعالمنا الإسلامي، أعظم خطراً من الحرب البيولوجية، فكان لابد من مشروع حضاري رسالي كبير، ينهض بالأمة من سباتها وغفوتها وغفلتها ومرضها، ويعالج السقم المستشري في دخل الجسد الإسلامي، فتحمل ثلة من مفكري وعلماء هذه الأمة تلك المسؤولية ومنهم السيد الشهيد حسين بدر الدين الحوثي رحمه الله تعالى، عندما وجد أن جميع آلام البشرية وأوجاع الأمم ناجمة عن ابتعادها عن نور الإيمان والعقيدة السليمة، واتباع الأهواء وسيطرة نزعاتها الشريرة، وبعد أن وصل إلى قناعة شديدة، عبّر عنها من خلال ما كان يلقيه من كلمات ومحاضرات، بقوله أنّ الحل للخلاص من كل أوجاع الأمة وآلامها يكمن في الرجوع والعودة إلى قيم السماء وتعاليم الدين العظيم، وذلك بالرجوع إلى رب السموات والأرض وكلماته وتوجيهاته، فكان كتاب الله العظيم هو محور الرجوع وفي الوقت ذاته محطة الانطلاق. يقول السيد الشهيد الحوثي (رحمه الله تعالى): "ما أكثر ما يُقرأ القرآن في أوساطنا! ما أكثر ما يسجل القرآن! ما أكثر الدارسين للقرآن خاصة في أوساط السنية! أليسوا أكثر منا تلاوة للقرآن؟ أشرطتنا تأتي من عندهم، ومصاحف من عندهم، وكل شيء من عندهم من الطبعات للقرآن الكريم أليس معظمها من هناك؟ إلا من بعد ما قامت الجمهورية الإسلامية في إيران وطبع القرآن طبعات أخرى في

١- سورة الحج: ٤٥ – ٤٦ .

إيران وإلا كلها جاءت من عندهم، لكن هذه النظرة القاصرة التي تفصل القرآن عن الله جعلت المسلمين يفصلون أنفسهم عن الله، وعن كتابه فعلاً" [1].

لقد أحدثت هذه الرؤية في فكر السيد الشهيد الكبير الحوثي (رضوان الله تعالى عليه) زلزالاً مدويّاً فبدأ يتمرد على واقع قَتَلَ جانبَ الحياة في كتاب الله المجيد، والذي فرضته السلطات الفاسدة التي تآمرت على الدين والعقيدة، والتي استطاعت أن تجعل من كتاب الله المجيد الذي يضخ الحياة وقيم السماء للبشرية جمعاء في الأرض مجردَ كتاب جامد لا حياة فيه.

السيد الشهيد الحوثي (رحمه الله تعالى) وجد أن أرباب السلطات الحاكمة في بلادنا الإسلامية قد استطاعوا إنجاز هذه المهمة القذرة وإتمامها على الوجه الأكمل عندما تمكنوا من فصل الأمة عن كتاب الله تعالى وجعلها تتعاطى مع آياته العظيمة بقشرية شديدة وبالغة الإسفاف وذلك بادعائهم أن كلام الله المجيد بعيدٌ عن واقع الأمة، وغير حاوٍ لمناهج التفكير ولا لحلول ناجعة لقضاياه المستجدة.

فبدأ بالتفكير بشكل جاد في كيفية استعادة الأمة لكتاب الله العزيز ولكن بعيون مختلفة عما فرضته سلطات الاستبداد والطغيان، وفي كيفية جعل عقول المسلمين تهفو إلى كتاب الله كملاذ لمعرفة سنن الخالق الكونية، لما يساعدها ويعينها للخلاص من تردي الأوضاع وسوئها في الأمة ويحلق بها إلى آفاق السمو والعلو والرفعة بين الأمم، وما أروع ما قاله إمامنا زين العابدين عليه السلام: " آيات القرآن خزائن العلم، فكلّما فتحت خزانة فينبغي لك أن تنظر فيها" [2].

فكانت الخطوة الأولى التي قام بها السيد الشهيد أن تعمق في قراءة القرآن العظيم وتدّبر في آياته المجيدة بعين واعية وعقل منفتح ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾[3]، لينهل من معينه الرؤية والبصيرة لتحمل مسؤولية ما توحيه وترشد إليه آياته الكريمة، وليجد ما يعينه على فهم الواقع البائس والمتردي، وبما يساعده على فهم سنن الخالق وقواعده وقوانينه الكونية، لينظر من خلاله في كل ما يتعلق بشؤون وشجون إدارة الحياة، وليحيط بطبيعة المسؤوليات الملقاة على عاتق الإنسان الذي سخر الله له كل شيء في هذه الدنيا، قال صلى الله عليه وآله: "من قرأ القرآن فكأنّما استدرجت النبوّة بين جنبيه، غير أنّه لا يُوحى إليه"[4].

١- محاضرات السيد حسين الحوثي، الدرس الثاني من دروس آل عمران: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ).
٢- الكافي، الكليني، ج٢، ص٦٠٩.
٣- سورة ص: ٢٣.
٤- المتقي الهندي، كنز العمال، ج١، ص٥٢٥، ح٢٣٤٩.

فصار - رحمه الله تعالى - ينظر إلى الأمة ويُشخّص أمراضها وآلامها من خلال القرآن، ويتأمل فيما يزخر به من هدى وبصائر، روي عن أمير المؤمنين (عليه السلام): "تدبّروا آيات القرآن واعتبروا به، فإنه أبلغ العبر"[1]. فتشكلت عنده الرؤية الواضحة بحاجة الأمة الماسة لاستعادة روحية القرآن الكريم وجعله المصدر الرئيس الذي يجب عليهم اعتماده في دنياهم كدستور ومنهج عمل، فكان هذا هو مشروعه الذي أسس عليه حركته في الحياة سياسياً واجتماعياً.

نطلق الشهيد بمشروعه رغم التحدّيات والمعطيات الصعبة التي تمر بها الأمة الإسلامية والمجتمع اليمني تحديداً، فجعل همُّه القرآن الحكيم درساً وبحثاً وتدقيقاً وتحقيقاً، ليجد في القرآن الحكيم ضالته وكل ما يحتاجه لترشيد مسيرته الرسالية المباركة، وبما يعينه على تحمل مسؤولية النهضة وحماية المجتمع من الاعتداءات التي تستهدف وجودهم وهويتهم الفكرية والعقائدية، وكان على إثر ذلك مصداقاً لقوله تعالى في غرة سورة البقرة المباركة، قال: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [2] ، فأخذ يلقي ببذور روح العودة إلى القرآن الكريم، وجعله كتاب حياة في المجتمع اليماني المميز بطيبته وعزته وشجاعته وإيمانه، ومضى يرعاه بإخلاص وتفانٍ، ويسقيه بعلم وحلم، ويراقبه بتطلع كبير، فأنبت الزرع وأثمر.

بعد أن تسلَّح بالتقوى فهداه الله تعالى بالقرآن، وأعطاه نوراً مبيناً، ولساناً ناطقاً بالحق والحكمة، فأفاض عليه القرآن العظيم حكمة صنعت مجد أمة في اليمن العظيم، لم تستطع قوى الشر في العالم مجتمعة أن تكسر إرادته وعزيمته لأنها تشبعت بالرؤية القرآنية وتسلّحت بقواعد الإيمان والعقيدة الصلبة، مما لا تكسرها إرادة أهل الظلم والبغي والعدوان.

فكانت إحدى ثمارها اليانعة تلك الحركة المباركة (أنصار الله) في يمن العزة والكرامة والإيمان، والتي جعلت رايتها ودثارها وشعارها - القرآن الكريم- وأصبحنا اليوم نلمس ثمارها اليانعة بما يعرف بالمسيرة القرآنية، لتُشكل منعطفاً تاريخياً مفصلياً مُهمّاً في حياة المجتمع اليماني، بل أكاد أجزم بأن تأثيرها تجاوز محطة انطلاقها – أعني اليمن العظيم - وأصبحت أفئدة الكثير من أبناء العالم الإسلامي الغيارى تهفو إلى هذه المسيرة وما أحيته في قلوبنا من روح وحياة، مستمدةً ذلك من كتاب الله العظيم وآياته المجيدة. وأصبحت المسيرة القرآنية مشروعاً وهوية قضية عابرة للقارات ولكل الحدود الجغرافية المصطنعة.

- السيد الشهيد الحوثي ومواجهة الجهل والتخلف والانحطاط:

١- غرر الحكم، عبد الواحد التميمي، ص٣١٨.
٢- سورة البقرة، آية ٢.

إن المتأمل في الظروف الموضوعية والحياة الواقعية في مدينة يثرب في الجاهلية، والأوضاع في الأمة الإسلامية بالأمس القريب وخاصة في اليمن العزيز يجدها تخور في جاهلية مظلمة كالحة شديدة البؤس والتعاسة، ترتع فيها كل أنواع المفاسد، ويعشعش فيها الظلم والجور، بالأمس كان يتحكم فيها اليهود ك (بني قينقاع)، وبني النضير وبني قريظة، اليوم أيضاً يتحكم في عالمنا الإسلامي اليهود من الصهاينة والاستكبار العالمي وأذنابهم في المنطقة.

فواقع الحال المتسم بأقصى درجات التوّحش من أجل السيطرة والهيمنة والنفوذ والتحكم هو واحد والقوم أبناء القوم، والاستهداف هو الآخر موحد، فلا بد من معالجة الموقف اليوم بالسلاح الذي تعامل به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع الجاهلية الأولى، أعني الإيمان بالله والتوكل عليه، وليس هناك طريقٌ لتعزيز الإيمان وترسيخ مبدأ وقيمة التوكل على الخالق عز وجل سوى القرآن العظيم.

لقد كانت آيات الله المجيدة حاضرة بكل معنى الكلمة في أسس التفكير والعمل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فما من حركة أو عمل قام به إلا وكانت آيات الله فيصلاً في الفكر والنهج والتطور، وهكذا فما قامت ولا استقامت للأمة مدنية ولا حضارة إلا بالقرآن الحكيم وتطبيق آياته المباركة: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [1]، لذا فليس هناك مناص لمعالجة الموقف المتأزم الذي تعيشه أمتنا في عصرنا الراهن إلا بالعودة والرجوع إلى كتاب الله العظيم لتعود للأمة عزتها وكرامتها، ولتضع حداً لمن يريدون استحمارها واستغلالها والسيطرة عليها والتحكم في مواردها ومجتمعاتها.

إن القرآن الكريم هو كتاب هداية ورعاية وإرشاد إلى كل العباد لما فيه نجاتهم، وعزتهم وكرامتهم، ومَنْ أجدر من أبناء الأمة بحمله والعمل وفق هدي آياته وبصائره. قال رسول الله (صلى الله عليه وآله): "إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحسرة والظلّ يوم الحرور والهدى يوم الضلالة، فادرسوا القرآن فإنّه كلام الرحمن وحرزٌ من الشيطان ورجحانٌ في الميزان"[2].

من المعلوم أنّ كتاب الله العظيم قد نزل للبشرية ككتاب رحمة وهداية، ونزل بلغة مبينة واضحة، وشرّفنا وكرّمنا به كأمة، وأعطانا تجربة حضارية راقية جداً نفخر بها بين الأمم، لولا تلاعب المنافقين واليهود بأفكار الشعوب، لكانت تجربتنا الإنسانية التي بناها وشيد دعائمها وأرسى ركائزها ومقوماتها النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم فخراً لبني البشر إلى يوم يبعثون.

١- سورة النحل: ٨٩.

٢- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ج٨٩، ص١٩.

لقد استوعب الشهيد الكبير السيد حسين الحوثي هذه الرؤية بكل أبعادها، ورأى أن النهضة الكبرى التي حققها نبي الأمة صلى الله عليه وآله وسلم كامنة في أن النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم قد جعل من آيات القرآن وسوره المباركة ركيزة وأساساً أوحد للإيمان بالله والتوكل عليه، وجعلها المنطلق في التفكير والتخطيط والعمل.

فتوجه السيد الشهيد عليه الرحمة والرضوان بقلبه وعقله إلى آيات الله العظيمة فأفاض في تفسيرها، وقدم دروساً ثرية في تشخيص واقع الأمة وسبل النهوض بها، كما قدّم تجربة رسالية حضارية رائدة خلاقة مازلنا نراها ونسمع عنها بكل فخر واعتزاز في جبهات ومواقع متعددة من المجابهة والمواجهة، ونراها ماثلة تتجدد بين حين وآخر، لتعيد تأكيد متانة هذه الرؤية ورسوخها في أذهان المخلصين والشرفاء من أبناء الأمة.

فها هي تجربة رجال أنصار الله وأجيالهم المتعاقبة، الذين تربوا على تلك الدروس القرآنية، مثالٌ حيٌّ متحرك لهذه الرؤية، وفي كل لحظة نتابع فيها إنجازات مشروعه الكبير في إحياء الأمة والنهوض بها، نجد أن القرآن الكريم حاضرٌ وبامتياز في قلوبهم وعقولهم، وكأن السيد الشهيد يقول عند كل محطة إنجاز: كل ما لدينا من القرآن، وما نحقق من إنجازات وانتصارات هو من القرآن، فالقرآن العظيم هو المنطلق، وهو الهادي والمرشد إلى كل مأثرة وعزة وكرامة.

لقد أصبحت الأمة اليوم وبفضل علمائها ومفكريها تنظر إلى القرآن الكريم حبلاً ممدوداً ومتصلاً بالخالق وبإرادته، وإنّ كل آية من آياته تمضي في سياق توجيهٍ وإرشادٍ إلهي محدد، فكتاب الله العزيز هو الطريق لمعرفة الخالق، وهو الطريق لمعرفة الوحي وما نزل به على قلب الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم، ومن خلال آياته تعرف الأمة وظائفها ومسؤولياتها الشرعية والعبادية، وذلك في شتى الموضوعات والمجالات الإنسانية، ومهما صغرت أو كبرت في التفاصيل والعناوين، [مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ] [١].

يقول السيد الشهيد: "المسألة من أساسها يجب أن تترسخ في ذهنك العلاقة بالله، العلاقة برسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم الثقة بالله، الثقة برسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم رسوله نفسه يكون له مقام عظيم عندك، تعرفه هو، تعرف حياته، وتعرف مواقفه، وتنظر إليه كرجل قرآني، تنظر إليه كرجل يدور مع القرآن ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [٢]، ألم يقل الله عنه هكذا؟ ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ من ربك﴾ [٣]، ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾ [٤]، أليست هذه آيات صريحة؟[٥].

١- سورة الأنعام: ٣٨.
٢- سورة الأنعام: ٥٠.
٣- سورة الأنعام: ١٠٦.
٤- سورة الزخرف: ٤٣.
٥- محاضرات السيد حسين الحوثي، الدرس الثاني من دروس آل عمران: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ).

ثم يأتي السيد الشهيد (رحمه الله تعالى) بتمثيل جميل ليوضح أهمية وضرورة معرفة الخالق عز وجل من خلال ما نزل به الوحي الأمين على قلب نبينا الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) حيث يقول: "الله ليس كأي رئيس دولة، أو رئيس مجلس نواب يعمل كتاباً، قانوناً، فنحن نتداول هذا الكتاب ولا نبحث عمَّنْ صدر منه، ولا يهمنا أمره، ما هذا الذي يحصل بالنسبة لدساتير الدنيا؟ دستور يصدر، أنتَ تراه، وهو ليس فيه ما يشدُّك نحو مَنْ صاغه، وأنتَ في نفس الوقت ليس في ذهنك شيء بالنسبة لمَنْ صاغه، ربما قد مات، ربما قد نُفي، ربما في أي حالة، ربما حتى لو ظلم هو لا يهمك أمره، لكن القرآن الكريم هو كل ما فيه يشدك نحو الله الخالق والمصور وإرادته ومشيئته وحكمته، فيعيش من يقرأ كتاب الله العظيم حالة العلاقة القوية بالله عز وجل، ويتنامى الشعور بالحب لله، بالتقديس لله، بالتعظيم لله، بالالتجاء إليه في كل الأمور، وفي مقام الهداية تحتاج إليه هو، حتى في مجال أن تعرف كتابه؛ ﴿إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً﴾ [1]، ألم يتحدث القرآن عن التنوير، والنور، والفرقان، التي يجعلها تأتي منه؟ ليس هناك شيء بديلاً عن الله إطلاقاً [2].. يضيف السيد الشهيد)عليه الرحمة والرضوان): "فأن تأتي للقرآن الكريم؛ هو أن تأتيه وفي ذهنك الله سبحانه وتعالى، والعلاقة القوسية بالله، والثقة القوية بالله؛ ولكن تأتي والقرآن في الأخير في تفكيرك فلا تستفيدَ من"[3].

يواصل السيد الشهيد قوله: "ففهم القرآن يحتاج لتسديد وهداية من الله، وتوفيق منه، ونور يقذفه الله في قلب من يشاء من عباده إذا أراد به الخير وهداه إليه، قال الإمام الصادق عليه السّلام: لَيسَ العلمُ بكَثرَةِ التَّعَلُّم، إنَّما هُوَ نورٌ يَقَعُ في قَلبِ مَن يُريدُ اللهُ أن يَهديَهُ، فَإذا أرَدتَ العلمَ فَاطلُب أوَّلاً في نَفسِكَ حَقيقَةَ العُبوديَّة، واطلُبِ العِلمَ بِاستِعمالِه واستَفهِم اللهَ يُفهِمكَ"[4]. وهو ما تشير إليه الآية الكريمة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [5].

- القرآن العظيم والطريق إلى الله:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [6]، يعيش الإنسان في هذه الدنيا أعواماً مديدة، يطلب فيها العلم والمعرفة للوصول إلى هُدى الخالق، لذلك فهو بحاجة للبحث عن الطريق الصحيح المؤدي إلى الله عز وجل، وهو بحاجة أيضا أن يسأل نفسه بين الحين والآخر ماذا عرفت عن ربي؟ وماذا عرفت عن نبّي؟ وماذا عرفت عن قرآني؟ قسّم العلماء الطريق المؤدي إلى الله عز وجل إلى طريقين رئيسين يوصلان صاحبهما إلى معرفة الخالق.

١- سورة الأنفال: ٢٩.
٢- محاضرات السيد حسين الحوثي، الدرس الثاني من دروس آل عمران: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ).
٣- المرجع السابق.
٤- منية المريد، زين الدين العاملي ص١٤٩ و١٦٧؛ ومشكاة الأنوار، ثقة الإسلام الطبرسي ص٣٢٦، وبحار الأنوار، محمد باقر المجلسي، ١ / ٢٢٥ / ١٧
٥- سورة البقرة: ٢٨٢.
٦- سورة الفاتحة: ٦.

الأول: الإمعان و التفكر في عظمة الخالق وصنعه، فإن كل موجود في هذا العالم يوصل الباحث إلى أن هناك خالقاً مدبراً لهذا الكون، لذلك دعا العلماء الناس إلى التفكر في أدق المخلوقات و أعظمها من الذرة إلى المجرة ﴿قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [1]، وقال الله تعالى في موضع آخر: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [2]، وغير ذلك الكثير من الآيات التي تدعو الباحث إلى النظر في عظيم صنع الله تعالى ومخلوقاته، التي تصل به إلى الله تعالى.

الثاني: النظر في القرآن الكريم وفهمه وتدبّره، فإنّ القرآن الكريم كلام الله تعالى، وهو الطريق للفهم والعلم والمعرفة الحقة الذي يوضّح للباحث أسماء الله، وصفاته، وعظيم صنعه، فيصل به إلى علمه سبحانه، وإحاطالته، وهيمنته، ويستيقن الإنسان من خلاله صفات الجلال والكمال، ويعرف حال من آمن منهم، وحال من كفر، ويعيش وصف الجنة والنار، والبعث والحساب، وغير ذلك، فيُقبل عليه محبّاً له، طامعاً في رحمته ووصله، مستعيناً بآياته على مصاعب الدنيا وعوائق الحياة.

وهذا ما نستفيده من السيرة القرآنية لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حياته العملية لأنه صلى الله عليه وآله وسلم كان يستعين بالله أولاً، وبالقرآن ثانياً لقيادة الأمة وصناعة نهضتها، وتزكيتها وتعليمها وبناء حضارتها.

يقول السيد الشهيد حسين الحوثي (رحمه الله تعالى): "يجب أن نفهم بأن القرآن نفسه هو أيضاً وسيلة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم يهتدي به لأنه كلام الخالق سبحانه وتعالى، ويعرف منهجية عمله وحركته من خلال هديه، ويعرف أساليب الحياة المتعددة من خلال آياته، ويعرف الطرق إلى الله من خلال حروفه ومعانيه، فيتطور أسلوبه وتنمو معارفه كما يريد الله سبحانه وتعالى، وتتنوع لديه الطرق فيعرف أفضل الطرق إلى الله ومن خلال تقييمه.. بما يعتبر طرقاً ومناهج وأساليب في خطاب الآخرين، في محاولة جذب الآخرين إلى عبادة الله والدفع بهم إلى أن يطلعوا على القرآن الكريم ويتفهموا من خلاله ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾"[3].

- القرآن منهاج تربية وعمل:

إنّ القرآن العظيم منهاج حياة جاء ليبيِّن للبشريَّة طريقَ نجاحها، وسُبُل رقيِّها وتقدُّمها، فجاء القرآن الحكيم مستوعباً لكل قضايا الأمة ماضيها وحاضرها، واضعاً المنهج الأكمل، كي تعيش منسجمة مع نفسها ومع الآخر، فحدَّد علاقات الأفراد بربِّهم سبحانه وتعالى، وحدَّد علاقاتهم بالأسرة وبالمجتمع الذي يعيشون فيه،

١- سورة الفاتحة: ٦.
٢- سورة يونس: ١٠١.
٣- سورة الروم: ٢٢.
٤- محاضرات السيد حسين الحوثي، دروس من هدي القرآن، سورة البقرة (الدرس الرابع).

كما حدَّد علاقات الدُّول بعضها ببعض، كل ذلك بنظرة شموليَّة، وقواعدَ كليَّة صالحة لكلِّ زمانٍ ومكان. والقرآن الكريم في المشروع القرآني للسيد الشهيد حسين الحوثي عليه الرحمة والرضوان هو منهاج للتربية والعمل في آن معاً وهو عنوان دائم للحركة وتحمل المسؤولية، لا مجرد كتاب جامد مفصول عن تفاعلات الحياة وإدارة معتركها كبنود ومواد الدساتير الوضعية الجامدة.

يقول السيد الشهيد الحوثي عليه الرحمة والرضوان في أحد كلماته في تفسير القرآن الكريم: " عندما يصطفي الله عز وجل من الملائكة رسلاً، ومن الناس رسلاً وأنبياء، لأنه لا يوجد أحد يمكن أن يكون بدرجة لا يحتاج فيها إلى الاهتداء بالله، والاهتداء لنفس المهمة التي هو يتحرك لأدائها، والاهتداء بنفس الكتاب الذي هو يتحرك لتبليغه؛ لأن من عظمة كتب الله - وبالذات القرآن الكريم - أنه لا يأتي كعبارات تُقرأ على الناس كبنود معينة جامدة؛ كمادة واحد، واثنين وثلاثة إلى آخره - كالقوانين والدساتير الوضعية - بل هو في نفسه يُربِّي من يقرأه بتأمل وعناية، ويُوجهه قارئه ويرشده، ويُقدِّم له مناهجَ وأساليبَ وطرقَ، (وذلك لأنه) واسع بشكل رهيب في مجال الطريقة التي يمكن أن يسلكها لمعرفة ماذا هدى الله وماذا شرع"[1].

يؤكد السيد الشهيد (رضوان الله تعالى عليه): "إن تشريع الله سبحانه وتعالى واسع جداً، وهدايته واسعة جداً، وأيضاً مع هذا نفسه يعلم كيفية المنهج والطريقة والأساليب التي يجب أن يسلكها الناس في عملهم وفي كيفية صياغة سلوكهم وعلاقاتهم مع الناس"[2].

إذاً، القرآن الكريم هو المنهج الرَّباني الذي وضَعَه الله سبحانه وتعالى، لتنتظم حركةُ الحياة في الكون وفي الأمم، وقد ضمن الله عز وجل بالقرآن للإنسان المنهجَ القويم الذي يُصلح له الحياة، ويُحقِّق له الاستقرار ولم يترك الإنسان هَمَلاً في هذه الدنيا وحيداً دون مُرشد أو قائد، وهذه - بحق - نعمةٌ عُظمى ومِنَّةٌ كبرى تستوجب على أُولي الألباب الشُّكر للهِ سبحَانه وتعالى.

- القرآن الكريم مشروع نهضة:

شغل المشروع القرآني قلب السيد الشهيد الحوثي وعقله، فراح يصيغه نظرياً، ثم قام من الناحية العملية بإسقاطه على واقع المجتمع اليمني المرير، ومضى يطرح مشروعه القرآني كطريق لإنقاذ أمته المسحوقة، وشعبه المعذب، ومجتمعه المحارب، ثم رمى بنظره الثاقب إلى أقصى الأمة الإسلامية فرآها في حالة مزرية تعيش واقعاً مريراً ومهيناً من الذل والخنوع لأنظمة لا تخشى الله ولا تراعي أي حرمة.

١- محاضرات السيد حسين الحوثي، سورة البقرة (الدرس الثالث الرمضاني).
٢- المرجع السابق.

لقد كان مؤلماً وقاسياً ما شاهده من الخضوع المذّل لمعظم بلاد المسلمين، لأبناء مَنْ مُسخوا قردة وخنازير وأبناء عبد الطاغوت منذ آلاف السنين، الذين قاموا من سُباتهم، وتجمَّعوا من شتاتهم، وزحفوا إلى خير أمة أخرجت للناس فأذاقوها الويل والثبور، وأناموها، وخدّروها، وراحوا يدجنونها كما يريدون، يضخون في عقولهم ثقافة اليأس والخنوع والاستسلام، فيقودونهم دون وعي وإدراك لحتفهم ومصيرهم المشحون بالجهل والتخلف والتبعية وبما نسميه عصر الانحطاط، حيث تسير الأمة خلف من يستعبدها ويسوقها نحو حتفها، كما القطيع الذي يسير خلف الجزار إلى موته بلا إرادة ولا عزة أو كرامة.

فأطلق السيد الشهيد (رحمه الله تعالى) صرخته المدّوية وصاح بالمخلصين من أبناء الأمة لينهضوا من سباتهم المصطنع والمصنوع، وسعى رحمه الله تعالى إليهم بعزيمة وإصرار شديدين ليستيقظوا وليستفيقوا من سباتهم، ومشى إليهم بمشروعه القرآني، لينبههم ويرشدهم إلى ضرورة العودة إلى كتاب الله العظيم أولاً، ولينقذهم من واقع السقوط في وحول هيمنة الاستكبار والصهاينة ثانياً، فيما حذرهم من الوقوع في براثن مصائدهم لتدمير الهوية المرتكزة على تعاليم الوحي والنبوة، والتي رأى أن أخطرها هو إبعادهم عن هدي القرآن وإرشاداته وتعاليمه، ونبههم من خطورة الاستسلام لما فرضوه من أمر واقع، وضخ فيهم بصائر الرفض وعدم القبول بالحياة في مستنقعاتهم الآثمة التي تستهدف وجودهم وهويتهم بالكامل، لتسهُلَ على أعداء الأمة مهمتهم المشؤومة في السيطرة والهيمنة عليها.

لقد كان السيد الشهيد على قناعة تامة، وإيمان راسخ، بأن مشروع النهوض بالأمة وإنقاذها من الجهل والتخلف والتبعية، وتحريرها من براثن سيطرة الاستكبار والصهيونية العالمية ممكنٌ إذا تمسكت الأمة بهدي القرآن الكريم وتعاليمه وسارت وفق مناهجه وتمسكت بهويتها دون تزييف أو تحريف، فانطلق السيد الشهيد الحوثي رحمه الله تعالى بمشروعه بعزيمة وإصرار كبيرين، خاصة وأن الكثيرين من أبناء الأمة مالوا عن الطريق وخرجوا عن الجادة، ليتيهوا في عالم الإحباط والخنوع فآمنوا بأن لا قدرة للإنسان على تغيير واقعه وما عليه إلا الاستسلام والتسليم، فزرعت في عقولهم بفعل مكائد شياطين الإنس، أفكار الخنوع والخضوع والهوان، وأصبحت الأمة بفعل ذلك تشعر بالعجز والإعاقة عن قدرتها على التغيير، وتشربت معنويات المجتمعات الإسلامية بفقدان الأمل، وبدأوا ينظرون إلى حال الأمة بنظرة يائسة بائسة ميؤوس منها.

مما أدى إلى سيطرة الغرباء والفاسدين على مقدرات الأمور في معظم بلادنا الإسلامية المترامية الأطراف، حتى جاء السيد الشهيد رحمه الله تعالى، حاملاً مشروعه القرآني

لينجَحَ في تحويل طاقة اليأس المدّمرة في الأمة إلى طاقة خلاقة كبيرة، واستطاع أن يربّي ويخرّج من مدرسته أجيالاً مؤمنة كان لها الدور الأبرز في نفض غبار الكسل والخمول عنها وعن من حولها، وأن تطرد اليأس المتجذر في نفس الفرد والمجتمع، وضخ روح التغيير والتطلع إلى آفاق جديدة ترتكز على هَدي الآيات الشريفة من كتاب الله العزيز، وأن تتحمل مسؤولياتها من منطلق التكليف الإلهي وأداء الواجب الشرعي والوظيفة الأخلاقية والدينية والإحساس بقوة الحق الذي تتمسك به وتدعو إليه، لا الاستسلام للأمر الواقع الفاسد والظالم، فالحق وقيم الخير والفضيلة أولى وأحق أن تُتَبع.

هذه القافلة المؤمنة بقدرة الله المطلقة في هذا الكون، وبمشيئته على إحداث التغيير ونصر المؤمنين في أي لحظة من لحظات التاريخ -إذا تصدى أهل الإيمان وتحملوا مسؤولياتهم الأخلاقية والشرعية تجاه حفظ دينهم وأوطانهم ومقدّساتهم بصدق وإخلاص وتفان- فإن الله قد وعدهم بالنصر حيث قال تعالى: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴾ [1]، وقال عز وجل: ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[2]. قال سبحانه وتعالى: ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا انصروا اللَّه يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾.[3] وقال عز وجل: ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّه فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾.[4]

وآيات عديدة تتحدث عن نصر المؤمنين وتؤكد على شروط ومعايير النصر وعلى رأسها الإيمان بالله عز وجل والصبر على تحمل المسؤوليات وما يقتضيه التكليف الشرعي والأخلاقي في مجابهة الفساد والظلم والتوكل على اللهِ في الحركة والتفكير والعمل. يقول الله عز وجل: ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [5].

هكذا تحرّكت آيات الذكر الحكيم في قلب السيد الشهيد عليه الرحمة والرضوان، وعمل بعقله وجوارحه وبكل ما يستطيع من أجل النهوض بواقع الأمة، وأنشأ جيلاً مؤمناً في مدرسته استعادوا هويتهم الإيمانية بحق وعادت آيات الله تصبغ فكرهم وسلوكهم وكل حياتهم، ولديهم فهم وفكر قرآني منفتحاً على الحياة وعلى منظومة القيم والمبادئ التي يزخر بها القرآن العظيم بروحها وأريحيتها، وهم اليوم يجدون أن أمر الكرامة

١- سورة القصص: ٥.
٢- سورة الصف: ١٣.
٣- سورة محمد: ٧.
٤- سورة آل عمران: ١٦٠.
٥- سورة البقرة: ٢٤٩.

بيدهم لا بيد غيرهم، وأن التغيير ممكنٌ ما دامت آيات الله العظيمة تتحرك وتنبض في قلوبهم وعقولهم، وما دام القرآن بين صفوفهم قائم.

فالقرآن المجيد هو حبل النجاة للأمة، وهو سفينتها للإبحار نحو النصر على الأهواء وكل الانحرافات التي تنخر في جسد الأمة، وهو طوق الأمان لتحرير الأمة من براثن الجهل والتخلف والعبودية للطاغوت، مع أهل بيت نبينا الأعظم (صلوات الله عليهم أجمعين) الذي جمعهم حديث الثقلين (الكتاب والعترة)، فهم كسفينة نبي الله نوح (عليه السلام) التي عصمت مَنْ ركبها من الغرق، فقد قال صلى الله عليه وآله وسلم: "مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح في قوم نوح مَنْ ركبها نجا ومَنْ تخلَّف عنها غرق"[1].

من هنا، فإن المخلوقات عندما استجابوا لدعوة نبي الله واعتصموا في سفينة نوح عليه السلام نجاهم الله من الطوفان وأنقذهم من الغرق، وكذلك الحال في هذه الأمة التي تغرق الآن في مستنقعات الفساد والضلال، وتحيط بهم المشاكل من كل حدب وصوب، وأشدها إحاطة الأعداء بها وتحزب الأحزاب عليها من جديد، لإبادتها وسحقها، بقيادة ومخططات صهيونية وغربية حاقدة، وأيدٍ آثمة منافقة تكفيرية تريد أن تعيد الأمة من رحاب عبادة الله إلى وحل عبادة الطاغوت والخضوع له.

فأخذ السيد الشهيد حسين الحوثي بهمَّة رجال الله الكبار، وبشجاعة أهل الإيمان الذين لا يخشون في الله لومة لائم، يصدح بآيات القرآن الحكيم، قارئاً ومفسراً ومبيناً تلك الأبعاد الكونية في الآيات القرآنية، وكأنه يُخاطب به، وينزل عليه، وكأنه هو المكلف بتبليغ آياته وأحكامه للأمة الغافلة على أكتاف جاهلية عبادة الطاغوت من دون الله تعالى، فحرك في الأفئدة والنفوس روح الإيمان المستَّقاة من كلام الله الجبّار، ورسم طريقاً واضحاً لا يتيه من يسلكه ولا يضيع، وقد وضع عقل الأمة أمام حقيقة زيف إيمانها عندما تكون قاعدته الأساسية مرتكزة على عبادة الطاغوت وما تمليه إرادته.

لقد كانت الأمة تغط في سبات عميق، بينما يعيث المجرمون والفاسدون في أرضهم وبلادهم الفساد والخراب، فعمل السيد الشهيد عليه الرحمة بجد ومثابرة على إيقاظهم من غفوتهم، والأخذ بأيديهم من كبوتهم، فأشار لهم أن هذا كتاب الله الأعظم فلا تهجروه، وانفضوا عن أنفسكم غبار الجهل وتمسكوا به، فإنه حبل الله الممدود من الأرض إلى السماء فهو حبل النجاة والخلاص من شرور النفس والشيطان والطاغوت، وفي بحر آياته تكمن كل سبل الرشاد والهداية والفلاح قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ

١- للحديث ثلاثة طرق:
- عبد الله بن عباس: أخرجه الطبراني (٤٦/٣، رقم ٢٦٣٨) قال الهيثمي (١٦٨/٩) أبو نعيم في الحلية (٣٠٦/٤)،
- حديث عبد الله بن الزبير: أخرجه البزار كما في مجمع الزوائد (١٦٨/٩)،
- حديث أبي ذر: أخرجه البزار (٣٤٣/٩)، والطبراني في الكبير (٤٥/٣، رقم ٢٦٣٦)، وفي الأوسط (٣٥٤/٥ رقم ٥٥٣٦) وفي الصغير (٢٤٠/١، رقم ٣٩١)، قال الهيثمي (١٦٨/٩) والخطيب (٩١/١٢).

الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾[2].

الدعوة إلى القرآن الحكيم ليس باعتباره كتاباً مسطوراً فحسب، ولا مجرد كتاب في رق منشور، بل هو دستور الخالق العظيم للبشرية، يزخر بكل ما تتطلع إليه الإنسانية من حياة رقي ورشاد عبرت عنه آيات الله المجيدة بالحياة الطيبة فقد قال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[3].

هكذا فإن في بحر آيات كتاب الله العظيمة يكمن فوز ونجاح الأمة وانتصارها وتألقها، فالقرآن الكريم يستوعب كل تفاصيل الحياة وما يمكن أن يرقى إليه عقل الإنسان من فكر وتطلع، وهو يشمل كل العوالم والأكوان، فقد قال الباري عز وجل: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾[4].

- الإمام علي عليه السلام مفتاح معرفة القرآن:

إنّ العلاقة بين الإمام علي عليه السلام والقرآن المجيد علاقة متجذرة وثابتة، حيث ارتبط الإمام عليه السلام بالقرآن الكريم ارتباطاً موضوعياً، فقد شهد نزول الآيات المباركة في جميع مراحلها، ابتداءً من الخطاب السماوي الأول: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ إلى آخر آية نزلت من السماء، وقد اهتم النبي الأكرم صلَّى الله عليه وآله وسلَّم بسيد الأوصياء عليه السلام عناية خاصة، فكان مولى الموحدين عليه السلام دائم السؤال للنبي، فإذا سأل أجابه وإذا سكت ابتدأه، وعلّمه ألف باب من العلم كما هو المشهور في كتب الحديث والسيرة، وقد اختصه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعهد له بما لم يعهد لغيره كما ورد عن ابن عباس: "كنَّا نتحدَّث أنَّ النبي صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عهد إلى علي سبعين عهداً لم يعهد إلى غيره"[5].

وشهد له النبي (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم) بأعلميته وعلاقته مع القرآن كما جاء في قوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: " علي أعلم الناس بالكتاب والسُّنّة" [6]، وقوله صلَّى الله عليه وآله وسلَّم: "علي مع القرآن والقرآن مع علي"[7]. وقد أملى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على علي (عليه السلام) الآيات النازلة من الله عز وجل، فخطّها بيده الشريفة، كما قال (عليه السلام): "إنَّ كل آية أنزلها على محمد صلَّى الله عليه وآله وسلَّم عندي

١- سورة البقرة: ٢٥٦.
٢- سورة الإسراء: ٨٢.
٣- سورة النحل: ٩٧.
٤- سورة النحل: ٨٩.
٥- حلية الأولياء، ج١، ص٦٨.
٦- المعيار والموازنة، ص١٠٢.
٧- الصواعق المحرقة، ص١٠٢.

بإملاء رسول الله وخط يدي"[١]. فكان علي بحق أعلم بالقرآن وتأويله؛ رُويَ عن الأصبغ بن نباتة أنَّه قال: لمَّا بويع أمير المؤمنين علي عليه السلام بالخلافة، خرج إلى المسجد فقال: "سلوني قبل أن تفقدوني؛ فو الله إنِّي لأعلم بالقرآن وتأويله من كل مُدَّع علمه، فو الذي فلق الحبَّة وبرأ النَّسَمة لو سألتموني عن آية لأخبرتكم بوقت نزولها وفيمَ نَزلت"[٢]. ويقول عليه السلام: "سلوني عن كتاب الل، فإنَّه ليس من آيةٍ إلا وقد عرفت أبليلٍ نزلت أو بنهارٍ، في سهْلٍ أو جبلٍ"[٣]، وهذا لم يدّعه غير علي (عليه السلام).

لقد كان الإمام علي (عليه السلام) وهو سيد الوصيين وإمام المتقين وقائد الغُرِّ المحجلين وأمير المؤمنين، بشخصه وشاخصه هو كتاب الله الناطق، ويمثل التجسيد الحي لكتاب الله العظيم بسوره وآياته وحروفه، وهو الذي عنده علم الكتاب كله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.[٤] عن أبي سعيد الخدري قال: سألتُ رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وآله وسلم عن قول اللَّه جلّ ثناؤه: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ قال صلى الله عليه وآله وسلم: "ذاك أخي عليّ بن أبي طالب"[٥].

على الرغم من ذلك تسمع هناك من يقول: لا ذاك عبد الله بن سلام اليهودي، لأنهم كانوا إذا احتاجوا إلى مسألة سألوا عنها اليهود! في حين أن هارون هذه الأمة بين ظهرانيهم، إمامهم ووليهم وسيدهم علي بن أبي طالب (عليه السلام) الذي كان يقول لهم مراراً وتكراراً: "سلوني قبل أن تفقدوني، هذا سفط العلم، هذا لُعاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، هذا ما زقّني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زقّاً زقّاً، سلوني فإن عندي علم الأوّلين والآخرين"[٦].

قال علي (عليه السلام): "سلوني عن طرق السماء، فإنّي أعلم بها من طرق الأرض، سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّ بين جنبيَّ علوماً كثيرة كالبحار الزواخر"[٧]. وقال عليه السلام: "سلوني قبل أن تفقدوني، فإنّي لا أُسأل عن شيءٍ دون العرش إلاّ أخبرت عنه"[٨]. كان عليه السلام بينهم قرآنا حياً متحركاً، لو سألوه عن طرق السموات، بل عن العرش وما فوقه وما تحته، لأخبرهم ولكن كانوا كالبهائم المربوطة، أو القطعان السائمة، لا يفقهون شيئاً مما يقول، ولا يعون ما قيمة وقدر أن يكون الإمام علي (عليه السلام) يعيش بينهم وبين ظهرانيهم، كأنهم خشب مسندة حتى ملَّهم، وضجر منهم حيث قالك "اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ مَلِلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، وَسَئِمْتُهُمْ

١- الاحتجاج، ج١، ص١٥٣.
٢- الإرشاد للمفيد، ص١٥ و١٦.
٣- مناقب آل أبي طالب، ج٢، ص٤٣.
٤- سورة الرعد: ٤٨.
٥- الأمالي للصدوق: ٨٩٢/٦٥٩، روضة الواعظين: ١٢٥؛ شواهد التنزيل: ٤٢٢/٤٠٠/١.
٦- التوحيد: ١/٣٠٥، الأمالي للصدوق: ٥٦٠/٤٢٢، الاحتجاج: ١٣٨/٦٠٩/١؛ المناقب للخوارزمي: ٨٥/٩١، فرائد السمطين: ٢٦٣/٣٤١/١.
٧- ينابيع المودّة، ٢٠٨/٣ وص ٢٢٣
٨- كنز العمّال: ٣٦٥٠٢/١٦٥/١٣ ، وإرشاد القلوب: ٣٧٧.

وَسَئِمُوني، فَأَبْدِلني بِهِمْ خَيْراً مِنْهُمْ، وَأَبْدِلْهُمْ بِي شَرّاً مِنِّي، اللَّهُمَّ مِثْ قُلُوبَهُمْ كَمَا يُمَاثُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ"[1]. وذلك لأنه كان قرآنا يتحرك بينهم ويقاتل معهم ويهديهم وينور طريق حياتهم، أما هم فكانوا كالخفافيش يبحثون عن الظلام ويفتشون عن الفساد ويقتدون بكل منحرف ضال مضل كمعاوية وزبانيته من حثالات بني أمية وصبيان قريش الظالمة، فكان عليه السلام يقول لهم: "سلوني عن طرق السموات" فيسألونه عن جمالهم الضائعة، و: "سلوني عن القرآن" فيسألونه كم شعرة في رؤوسهم العفنة، فلو سأله أولئك الجفاة الغلاظ عن كل آية من آيات القرآن تفسيراً وتأويلاً وعلماً كونياً لكانوا سادوا العالم منذ ذلك الحين، ولصعدوا إلى السموات منذ قرون، ولانتهى بهم المطاف ليكونوا سادة هذا العالم وقادته.

- القرآن الكريم كتاب حياة:

لقد أكد السيد الشهيد الحوثي مراراً وتكراراً على أن القرآن العظيم هو كتاب حياة وفي آياته سر نهضة الأمة ورقيها وازدهارها، وهو منهاج وطريق للبشرية نحو العزة والكرامة والسعادة، حيث كان رحمه الله يقول: "لأن القرآن مربوط بالحياة، وبالحركة، والأحداث لها دخل كبير في الاستفادة منه، والجهاد في سبيل الله، ونصر دين الله، والاستجابة لله فهي تكون بهذا الشكل، ولها دخل كبير، في مقدار وحجم الاستفادة منه، وفي تبيينه وشرحه".[2]

كما وصف السيد الشهيد حركة النبي الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) بقوله: "بالنسبة لحركة رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله حركته هي من التبيين، حركته هي تطبيق، فلا تتصور أن باستطاعة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجلس في مسجده ويبين القرآن كلمة كلمة، ويبين معانيه بهذا النحو كاملاً، بل هو نصه تنزل عليه مرتباً، أو منجماً - كما يقولون - على مدى ثلاثة وعشرين سنة، لأن القرآن الكريم جاء ونزل مرتبطاً بالحركة، ومتفاعلاً مع واقع الحياة وأحداثها"[3].

لم يتقبل السيد الشهيد حسين (رضوان الله تعالى عليه) فكرة تحجيم القرآن الحكيم وحصره في أفق محدد، بل انتقد الذين حجَّموا القرآن بالتشريع، وحصروا آيات الأحكام بـ(٥٠٠) آية فقط، لأنه كما قال في القرآن أكثر من ستة آلاف آية فكيف حصروه وقيدوا أحكامه بذاك العدد فقط، فهم في الواقع ضيَّقوا واسعاً من رحمة الله وهدايته للناس. ويقول السيد الشهيد في هذا الصدد: "عليهم أن ينظروا إلى القرآن ككتاب هداية، وهذه العبارة تكررت في القرآن الكريم بشكل كبير، كلمة: هَدى، هُدى، يَهدي .. وثم يأتي البعض ليؤطر الموضوع

١- نهج البلاغة، خ ٢٥.
٢- محاضرات السيد حسين بدر الدين الحوثي، ملزمة مديح القرآن، الدرس السادس.
٣- المرجع نفسه.

ويحجِّمه، بدعوى أو بمبرر نصوص الأحكام الشرعية، ثم نأتي فنلغي نصف القرآن الكريم ونحصره في أنه كتاب تشريعي يهتم فقط بالأحكام التعبدية".

ويضيف قائلاً: "نعم هذه واحدة من مهامه، كمصدر أساسي ورئيسي في التشريع، ولكن كلمة تشريع نحن قد أطرناها، وضيقناها فيما يتعلق بالأحكام التي نعرفها، ويقرأها الناس في العبادات، والمعاملات، وهذه كلها والتي يحصرونها في خمسمائة آية من القرآن الكريم ومن حق الأمة أن تتساءل: أين باقي آلاف الآيات وأين تم الذهاب بها. القرآن هو كتاب هداية، يهدي الناس إلى صراط مستقيم، إرشاد لهم، إرشاد واسع بسعة الحياة كلها، وكل شؤونها، وكل مجالاتها، والأزمنة كلها على تعاقبها إلى يوم الدين"[1].

فاعتبره السيد الشهيد الحوثي (رحمه الله تعالى) كتاباً واسعاً، وذهب إلى وصفه بأنه أعظم من سعة الحياة، مستنكراً على الذين يؤطرونه فقط في بضع آيات منه، بل ويتعجب السيد الشهيد (عليه الرحمة والرضوان) كيف يمكن لهؤلاء البعض أن يحصروا ويقيدوا العلم كله، والدين كله في إطار خمسمائة آية فحسب!

يتساءل السيد الشهيد عن مصير آلاف الآيات وماذا على الأمة أن تعمل بها؟! "فإذا كان القرآن العظيم هو كتاب هداية في كل مجالات الحياة، وفي كل شؤون الحياة، كما نرى في نهاية المطاف عند التأمل في بحر آياته العظيمة، فإننا سنصل إلى نتيجة واحدة وهي أن نفس العبادات هذه هي واحدة من وسائل الهداية وليست هي كل الهداية، إنما هي فقط وسيلة من عدة وسائل عملية للهداية، وسائل تربوية، وسائل ترويضية، والعبادات، المعاملات، كثير من أحكامها تجدها تصب في هذا الجانب؛ وهنا نقف لنتساءل: كيف لهذه الأمة هذه أن تكون مهتدية إذا اقتصرت على الـ (٥٠٠) آية وتركت مصير آلاف الآيات إلى المجهول والعدم. الربا لماذا هو محرم، البيوعات المجهولة، البيوعات المنهي عنها، الأشياء هذه كلها تجدها في الأخير تنتهي إلى أن يكون الناس أمة واحدة، وتهدف إلى أن يكونوا أمة واحدة، وأن تكون الخلافات والاختلافات قليلة بينهم، وأن يكون هناك تكافل فيما بينهم.. أليس هذا كله يقدمه كله عبارة عن وسائل في إطار العنوان الكبير وهو الهداية، هداية الأمة إلى الصراط المستقيم في كل شئونها، وفي كل مجالات حياتها؟[2]".

هكذا ينظر السيد الشهيد (رحمه الله تعالى) إلى القرآن الحكيم (كتاب الهداية) نظرة كوّنية شاملة، ولا يمكن، أو ربما لا يجوز، أن نحصره بعدد محدود من الآيات ونقضي حياتنا وأعمارنا نبحث فيها دون غيرها من آلاف الآيات الكريمة التي لها الشأنية نفسها في الهداية والإرشاد لعباد الله، لأن القرآن يجب أن يُنظر إليه كمنهج سماوي، إلهي للحياة برمتها وليس لجانب محصور فيها كالأحكام الفقهية المختصة بجانب العبادات والمعاملات فقط.

١- محاضرات السيد حسين الحوثي، ملزمة القرآن كتاب هداية، (الدرس السابع).
٢- محاضرات السيد حسين الحوثي، ملزمة مديح القرآن (الدرس السابع).

- السيد الشهيد وأمة القرآن:

المتتبع لحياة وسيرة السيد الشهيد الكبير حسين الحوثي، والدارس لبعض فصولها في هذا العصر المشحون بالأسى والتخلف والرجعية والانحطاط، يجد أن الرجل كان يعيش حالة من الهاجس الكبير حول مصير الأمة وما آلت إليه، ويحمل هماً كبيراً في كيفية إعادة الوعي والنشاط إليها بعد أن غرقت في وحول الفساد والرذيلة والانحطاط الذي تغلغل فيها حتى النخاع.

فكان الحل والدواء والطريق إلى الشفاء مما تعانيه من علل وأسقام، وتحقيق الشرف والعزة والكرامة، هو بالعودة إلى الإسلام، ولكن أيّ إسلام؟ إنه ذلك الإسلام النابع من القرآن الكريم بدون تزييف أو تحريف أو تزوير.

ورأى أن العودة إلى كلام الله الواضح والمبين هو الطريق لإحياء قيم ومعالم الدين التي من خلالها يمكن إعادة مجد الأمة وبناء حضارتها المنشودة، وهو معجزة رسوله الكريم صلى الله عليه وآله وسلم الذي صنع بها كل إنجازاته التاريخية العظيمة، ذاك الكتاب النوراني والصحيفة القدسية الذي رفع من قدر وقيمة أمة كانت تسمى جاهلية، وجعلها أمة متقدمة، بَنَت حضارة راقية على مستوى الإنسانية.

وجد السيد الشهيد (عليه الرحمة) أن الحل بين يدي الأمة ومعها وفي بيت كل واحد من أبنائها، فهو يرى أن سبب التردي الذي تعاني منه الأمة يكمن في أنها هجرت كتاب الله العظيم وتركت علومه ومعارفه التي يزخر بها، فهجرها العز والفخر والشرف وحتى الدين الذي لم يتبقَ منه إلا رسمه واسمه وشكله.

ورد عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام): "ألا لا خير في قراءة ليس فيها تدبّر"[1]. إن السيد الشهيد قرأ القرآن العظيم حق تلاوته فوجد فيه كل ما ينقص الأمة الإسلامية، وكل ما يلزم في حياتها، ولا تحتاج في مشروع نهضتها إلا لتعود إليه بقلبها وأفكارها وإيمانها، وأن تعيده إلى واقع حياتها فتعيش الحياة بالقرآن، وفي أفكار القرآن، وتحت أضواء وأنوار القرآن، وتستلهم هداية القرآن الشاملة، وتسترشد منه الصراط المستقيم الذي يضمن لها السعادة وبناء الحضارة الإنسانية المتقدمة في سمو أخلاقها ورفعة طموحاتها وتطلعاتها.

هكذا انطلق السيد الشهيد (عليه الرحمة) من القرآن في المجتمع اليمني الطيب، ليبذر بذور الهدى والنور، فأيقظ نفوساً طالما هجعت، وأناساً قلّما خضعوا لغير الله تعالى، فهم شعب أبي الضيم، عظيم اليقين بالله

١- معاني الأخبار، الشيخ الصدوق، ص٢٢٦.

رب العالمين، فحرَّكهم فانتبهوا، وقاموا ملبِّين نداء القرآن الذي ملأ الآذان بالحق، والآفاق بالنور، والحياة بالهدى، والبشر بالسعادة والكرامة والعزة والشرف الحقيقية.

فدفع حياته المباركة كلها فداءً للقرآن العظيم، وأهل اليمن والإيمان، فمضى شهيداً لمشروعه وعظمته، ولكن بذوره التي زرعها، ورؤيته النورانية التي رسخها في وجدان الأمة، لم تُقتل كما أراد الأعداء بقتله أن يقتلوا مشروعه ويميتوا بذوره، ببغيهم وطغيانهم، كي لا تستعيد الأمة كرامتها وهويتها التي أضاعها الاستكبار بين ركام التيه والضلال والحيرة.

ذاق أهل اليمن الكرام معنى وقيمة العودة إلى كتاب الله العظيم ومصادر الوحي الجليلة دون سواها من أوهام البشر وترهاتهم، وجربوا طعم الحب الإلهي، وعاشوا في النور، وعرفوا طعم الكرامة والشموخ في حياتهم، فرفضوا العودة إلى سابق عهدهم المرير، من الفقر وقبول الظلم والاستسلام له، رافضين بإباء وشموخ عصور الذل والهوان، وأيادي التكفير التي سامتهم سوء العذاب، فتمسكوا بحبل الله المتين.

وها هي المسيرة القرآنية التي زرع بذورها السيد الشهيد (رضوان الله تعالى عليه) فغرس في نفوس الأمة حب كتاب الله العزيز وعشق آياته تؤتي ثمارها اليوم بقيادة فرد من أبناء المدرسة القرآنية نفسها هو سماحة العلم السيد عبد الملك بدر الدين الحوثي (حفظه الله تعالى) الذي تربى على المنهج ذاته، وسار عليه بكل تفاصيله، وراح يبدع في قيادته للمشروع القرآني، ويقوم اليوم بكفاءة وجدارة عالية بضخ الفكر القرآني في القلوب بما يتسم بالعمق والشمولية، وينير به العقول لبناء حضارة إنسانية راقية برقي ما جاء في كتاب الله من آيات هداية ورشاد.

وهاهم رجال المسيرة القرآنية يُسطِّرون ملاحم البطولة المذهلة، ويصنعون الانتصارات الباهرة على قوى الإجرام وقطعان الظلم والظلام وقوى الشر والعدوان والهيمنة في العالم من أتباع الاستكبار العالمي وحركة الصهيونية العالمية.

- القرآن ومدرسة العزة والكرامة والشرف:

لم يزل كتاب الله العزيز يبثُّ في قلب المؤمن وروحه هذا الشعور العظيم، الشعور بالعزَّة المستمدَّة من عِزَّة هذا الدين وقوته، والمسْتَلْهَمة من آيات كتابه وتعاليمه، عِزَّةٌ تجعله يترفَّع عن كلِّ ما من شأنه أن يَحُطَّ من قدره، أو يُرْغِمه على إعطاء الدَّنيَّة في دينه.

ففي العديد من آيات الكتاب الكريم، ينبِّه المولى (تبارك وتعالى) على هذه القضية، والتي ينبغي على المؤمن أن يجعلها نُصْب عينيه، فلا يغفل عنها، ولا يتساهل بها؛ لأن الإسلام إنما جاء بالعِزَّة لأتباعه والرفعة لأوليائه،

يقول سبحانه: ﴿وللَّه الْعِزَّةُ وَلِرَسُوله وَلِلْمُؤْمنينَ﴾ [1]، ويقول: ﴿أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ للَّه جَميعاً﴾ [2] فإذا كانت العزة كلها لله ومن الله وفي الله، فمن أين يمكن ابتغاء العزة في غير ذلك؟

يقول السيد الشهيد الحوثي (رحمه الله تعالى): "الله هو الذي قال: أن دينه، أن هداه هو شرف وعزة وكرامة لك ولقومك ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[3]. يخطئ الكثير من الناس عندما يتجهون إلى التدين القشري، فيخضعون أنفسهم ويذلونها أمام سلاطين الجور والاستبداد، حتى تظهر في الأمة نماذج تجسِّد الدِّين وكأنه ذلّة، وكأنه ضعة، وكأنه خضوع، نعم هو ذلة فيما بين المؤمنين، لكن في تعاملهم مع بعضهم البعض، هو بشكل تواضع من بعضهم لبعض، لكنهم أعزة على الكافرين، ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[4].

العزة لله، والله يُريد للأمة أن تكون ذات عزة واقتدار، ويُريد لنا جميعاً أن نكون أقوياء، وأن نكون كرماء، وأن نكون شرفاء، لكنه هو وحده من سيمنحها لمَنْ يسيرون على هديه، لمَنْ يلتزمون بالعمل بهديه، لمَنْ يعبِّدون أنفسهم له، فبمقدار ما نعبِّد أنفسنا لله سنكون أعزاء، وسنكون كرماء، وسنكون أقوياء في الدنيا، وسنحصل على العزة والرفعة في الآخرة، والدرجات العظيمة في الآخرة والفوز برضوان الله الأكبر ونعيم الجنة.

وحتى مَنْ يتجهون إلى التديُّن، أو يتجهون إلى طلب العلم بحثاً عن العزة ليقال له: الأستاذ الفلاني، أو العلامة الفلاني، هو أيضاً ممَن يغلط في البحث عن العزة، إن العزة هي في أن تضع نفسك أمام الله، وأن تكسر نفسك أمام الله، أن تعبِّد نفسك أمام الله، أن تكون نيتك كلها نية رُشد - كما قال الإمام زين العابدين عليه السلام- في أعمالك كلها، وهو الذي سيعزك، هو الذي سيرفعك"[5].

بما أن أمة القرآن هي أمة الشرف والكرامة، فإن عليها أن تضطلع بمسؤوليات تتناسب وهذه المكانة والدرجة الرفيعة التي حباها الله إياها، من الارتقاء بالإنسانية إلى مدارج الكمال والفضيلة، ومروراً بالدفاع عن مكتسبات الأمة وحماية منجزاتها وانتهاءً بالنهوض بها في مختلف مجالات الحياة، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [6]. نعم في منهج العزة والكرامة كل الفخر والشرف، والرفعة والسؤدد

١- المنافقون: ٨.
٢- النساء: ١٣٩.
٣- الزخرف: ٢٤.
٤- المائدة:٥٤
٥- السيد حسين الحوثي، ملزمة في ظلال مكارم الأخلاق (الدرس الأول).
٦- سورة الأنبياء: ١٠.

في هذه الدنيا، يقول ربنا – أيضاً: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[١]. هذا هو الشرف المؤيد الذي لا يضاهيه شرف ولا يدانيه فخر على مدى العصور والدهور، أعطاه الله للأمة إذ جعل منهم رسولاً، وكتاباً يفهمونه ويفقهونه.

يقول السيد الشهيد رحمه الله تعالى شارحاً وموضحاً هذه النعمة وهذا الشرف العظيم الذي وهبه الله تعالى للأمة: " لأهمية التذكير بفضيلة السبق التي كان العربُ معروفين بأنهم كانوا سباقين إلى ما فيه الشرف، والرفعة، ألم يكونوا هكذا؟ سباقون إلى ما فيه شرف ورفعة، ويتنافسون فيما بينهم على مقامات الشرف، والرفعة، والإباء، يقول لبني إسرائيل أنفسهم: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾ [٢]، يفوزون بشرف السَّبق في مستقبل الرسالات كما فازوا في ماضيها، في أيام أنبياء بني إسرائيل، عندما فاز الكثير منهم، حيث كانوا يجاهدون تحت راية موسى، وعيسى، وغيرهم من الأنبياء)عليهم السلام جميعاً) [٣].

ونحن المسلمون يقول لنا، ولو كنا كما كان يُراد لنا: خير أمة، نأمر بالمعروف، وننهى عن المنكر، ونؤمن بالله لكان خيراً لنا، لكان خيراً لنا في دنيانا وآخرتنا.

- انحطاط بني إسرائيل:

يتساءل السيد الشهيد (رحمه الله تعالى): لماذا انحطَّ بنو إسرائيل؟ ويجيب: "لأن المؤمنين منهم قليلون، وأن أكثرهم الفاسقون، هكذا تكون الأمة، في حالة كهذه، معرضة للاستبدال، أن يستبدل الله بها غيرها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[٤]، يعني قوم آخرين غيركم ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾[٥]، هذا هو الفضل، والذي يعني: التأهيل لحمل الرسالة، والتأهيل هنا يعني بأن تناط بكم مسؤولية كهذه، هو شرف، وهو فضل عظيم".

كما يشير السيد الشهيد الحوثي إلى أن الله سبحانه وتعالى ذكَّر الأمة الإسلامية بالنعمة العظيمة والشرف العظيم لهم بأن يكون محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) منهم، لم يحسبوا لها حسابها، كانوا يرفعون أصواتهم فوق صوته، ويجهرون له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض، فجاء الله في كتابه الكريم يؤدبهم، أنتم لا تعرفون مَنْ هو هذا الرجل، محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، أنتم لا تعرفون عظم النعمة به عليكم،

١- سورة الزخرف: ٤٤.
٢- سورة آل عمران: ١١٠.
٣- السيد حسين الحوثي، ملزمة الدرس الرابع من دروس آل عمران.
٤- سورة المائدة: ٥٤.
٥- سورة المائدة: ٥٤.

منَّ عليهم بأن كان كتابه الكريم بلغتهم، ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾[1]. وذكرهم بالشرف العظيم ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[2]، لشرف لَكَ ولقومك ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾[3].

يضيف السيد الشهيد (عليه الرحمة والرضوان): "فالمسئولية كبيرة، ضياع ما هو شرف لك في الدنيا وفي الآخرة، ومن شرَّفك به هو الله، سوف تُسأل عنه يوم القيامة بين يدي الله ﴿وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾، لم يهتموا بهذا! شرَّفهم بأن اختار لهم قائداً، يؤمنون، ويسلِّمون بأنه أعظم فارس ومقاتل، وأنه أكملهم بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، علي بن أبي طالب (عليه السلام)، فلم يلتفتوا إلى هذا، اختار لهم أهل بيته ليكونوا قرناء مع كتاب الله، فيكونون هم مَنْ تلتف حولهم الأمة، فرفضوا هذا، وبحثوا عن قدوات من هنا وهناك، من بخارى، ونيسابور، وطبرستان، وجرجان، وغيرها من المناطق الأخرى، حتى لم يعودوا يبحثون عن قدوات من العرب! البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجة، من أين هم؟ من هناك، أعاجم! وابن جرير، والرازي، وفلان، وفلان، من أين هم؟."

يؤكد السيد الشهيد (رحمه الله تعالى) بأن العرب أنفسهم، من اختير لهم قدوة نبي من أنفسهم، وقائد من أنفسهم، وهداة وأعلام من أنفسهم، وكتاب بلغتهم، يرفضون هذا، ويطلِّعون عليه كتاب البخاري! أين كتب كتاب البخاري؟ ومَنْ هو كاتب الكتاب هذا؟ لاحظ كيف يستبدلون هم لأنفسهم! ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا..﴾[4]، اهبطوا، أليس البخاري لديهم وهم يقولون إنه الكتاب الأول بعد القرآن؟ وعملياً، يقولون: «السنة حاكمة على القرآن»، وأعظم كتاب لديهم في السنة هو البخاري.

ويقول (رحمه الله): "إذا كان أعظم كتاب لدى العامة هو كتاب البخاري فإذاً وضعوه ليكون عملياً هو الحاكم والمتقدم على القرآن، أليس هكذا؟ ألم ينبذوا كتاب الله الذي نزل بلسانهم، ويبحثون عن كتاب من بخارى؟ ينبذون رسول الله الذي هو من أنفسهم، وفي أكثر من آية ﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[5]. منهم (عربي)، أنت أيها العربي، مَن كنتَ تنافس، ومَن كنتَ تكاثر الآخرين حتى بالأموات، وكانوا يتنافسون في العدد، وفي البحث عن مقامات الشرف، حتى ينطلق بعضهم مع بعض ليقول: هذا عَمِّي، وهذا خالي، وهذا جدي، في المقابر ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[6]، وكان هذا التكاثر الحقيقي، كان هذا الشرف الحقيقي."

١- سورة الشعراء: ١٩٥.
٢- سورة الزخرف: ٤٤.
٣- سورة الزخرف: ٤٤.
٤- سورة البقرة: ٦١.
٥- سورة آل عمران: ١٦٤.
٦- سورة التكاثر: ٢.

يقول الشهيد (رضوان الله تعالى علي): "حتى القراء الذين اختاروهم، قراء للقرآن، وأصحاب القراءات من أين هم؟ أكثر هم من أمثال هؤلاء الموالين. وهكذا فإن هداتهم، وقادتهم، وأعلامهم، في التفسير، في الحديث، في القراءات كلهم من غير العرب، أما كان أبناء الأمة الذين نزل فيهم كتاب الله العظيم هم منهم جديرون بأن يكون الشرف العظيم لهم؟ وأن يكونوا هم الحفاظ وهم المقرئون وهم المفسرون، الآن أن تلتف الناس حول البخاري؟ أليس شرفاً لأهل بخارى؛ أن منا البخاري، ومنا فلان، ولأهل نيسابور، أن منا مسلم بن الحجاج، وهكذا، أليس فخراً لأولئك، وشرفاً لأولئك؟."

كما يضيف السيد الشهيد (عليه الرحمة): "كان الشرف للعرب أن يكون منهم نبي الأمة، منهم آخر الرسل، وهو سيد البشر، وكان فخراً حقيقياً للناس، لكن لم يكونوا بمستواه، فبلغتهم نزل القرآن، ومنهم أعلام الأمة، ومنهم هداة الأمة، ومنهم قادة الأمة، منهم علي، ومنهم أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لكن لا، فقد ضيَّعوا هذه المنزلة وهذه المكانة وهذا الشرف العظيم[1].

نعم؛ ضيَّعوا أهل الفخر والشرف، فضاعوا، بعد أن فقدوا شرفهم وفخرهم وسؤددهم وصاروا يفخرون بغيرهم كمَنْ تُفاخر بشعر غيرها - كما في المثل العربي - والعجب العجاب من هؤلاء الأعراب الذين لا شرف لهم - أصلاً - ولا فخر، ولا ذكر في الذاكرين، الذين ابتُلينا بهم في هذا العصر الأسود، باتباعهم الصهيونية من الخارج، والقرظية من الداخل (الوهابية والسلفية التكفيرية)، يأتون ويتطاولون على أهل الشرف، وأصل الشرف في الدنيا والحياة، من أهل البيت الأطهار الأبرار (عليهم السلام) وشيعتهم، ليصفوهم بالفرس والمجوس وغيرها من الصفات التي تلبسهم ولا تنفك عنهم بحال من الأحوال، ويفتخرون بما ليس لهم ولا هو منهم للأسف الشديد.

فبلاء الأمة بهؤلاء المنافقين، الفاسقين الذين شوَّهوا كل ما هو جميل وحضاري في تاريخ أمتنا الإسلامية باسم (الإسلام) وباسم رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) وكتاب الله الحكيم، فصاروا رمزاً للإرهاب والجريمة والفساد في هذه الحياة.

إن ما قام به السيد الشهيد هو مشروع متكامل الأركان والزوايا فهو يستهدف إنقاذ الدين من التشويه والتحريف والتزوير الذي لحق به، إذ أصبح الدين مجرد قشور سطحية لا حياة لها ولا تأثير في واقع المجتمعات المسلمة فضلاً عن عدم إمكانية تأثيرها، والحال هذه، في حياة البشرية كرسالة كونية أراد الله تعالى بها أن تكون منطلقاً لصناعة الحضارة الإنسانية التي يسودها العدل وكل قيم الخير والفضيلة التي تزخر بها تعاليم الدين المجيد، وهذا هو ما كان السيد الشهيد (رضوان الله تعالى) عليه يتطلع إليه وما كان يحمله من

١- الشهيد السيد حسين الحوثي، ملزمة الدرس الرابع في تفسير سورة آل عمران.

طموح، حيث قرر أن يعود بالقرآن والآيات إلى ساحات الصراع الحضاري الذي تخوضه الأمة الإسلامية بكل المعاني والمباني، لأنها لن تنتصر إلا بسلاحها وفكرها ودينها الحق، فيبدأ من صياغة شخصية أبناء الأمة ثم لينطلق على إثرها بصياغة شخصية وهوية الأمة بأن يكون القرآن الكريم وآيات الله العظيمة هي الأساس والمرتكز في التفكير والتخطيط والعمل.

- مقوّمات النهضة وشروط الانتصار:

حياة الأمم على هذه الأرض تتشابه إلى حد بعيد مع حياة الإنسان، فهناك فترات يصل فيها الإنسان إلى قمة عطائه، وكذلك هي الأمم والحضارات فلهم فترات جمعوا فيها المجد من كافة أطرافه، غير أن دوام الحال من المحال – كما يقال- فبعد الرخاء تأتي الشدة، وبعد أن تتألق الأمم من كافة النواحي، وبعد أن يسطع نجمها، يخفت ضياؤها بسبب عوامل الضعف والانحدار التي تعتريها.

لا يمكن أن تضعف أمة من الأمم إلا من خلال تواجد أسباب الضعف وعوامل الانحدار والتردي في جسدها، ولعلّ العامل الرئيسي لضعفها والذي يعتبر أساس انحدارها وجوهره الحقيقي، يكمن في عدم الاهتمام ببناء الإنسان وفق المنهج القرآني المرسوم من الله عز وجل، والانشغال عنه بأمور أخرى، يظنها المحتاج الفقير عظيمة الشأن والركيزة الأساس كما حدث في قصة سور الصين العظيم، فبدلاً من أن ينشغل الصينيون في بناء الإنسان وتوعيته والارتقاء به وتهذيبه، انشغلوا برص الحجارة فوق بعضها البعض ظناً منهم أن السور العظيم الذي يعملون على تشييده سيقيهم نيران الهجمات الخارجية، غير أن الأعداء لم يحتاجوا لا إلى هدم السور، ولا إلى تسلقه حتى، فكل ما فعلوه هو رشوة الحارس الصيني الذي قام بإدخالهم بشكل طبيعي إلى داخل أسوار الصين.

إذاً الأمة التي تبحث عن الانتصار لا بد عليها أن تبحث عن عوامل الانتصار، ولا شك بأن الله عز وجل قد رسم معالم وعوامل النجاح والازدهار في كتابه العزيز، فيعلمنا الله عز وجل الحاجة إلى التخطيط للوصول إلى أفضل النتائج المرجوة، فقصة نبي الله يوسف (عليه السلام) خير شاهد على ذلك، ففيها تخطيط لخمسة عشر عاماً ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِه إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ❖ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْد ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ❖ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾[1]. كما أشار الله إلى أهمية العمل وإنشاء وصنع كل ما يخدم الإنسان في سبيل نهضته وتطوره ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ

١- سورة يوسف: ٤٧ – ٤٩.

شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [١]. فلا بد على الأمة إن أرادت الانتصار في ساحات الصراعات النفسية أو الاجتماعية أو الأممية، أن تعود إلى كتاب الله العزيز، ورفع الغشاوة التي وضعت على أعين المسلمين من قبل اليهود وأعوانهم، هذه الرؤية شكلت المشروع الحضاري الكبير الذي نهض به السيد الشهيد الحوثي فقد تحدث كثيراً عن أن مشكلات الأمة والعالم الإسلامي نابعة من "اليهود والنصارى"، ولأهمية ما كان يطرحه من رؤية في هذا السياق نورد هنا مقتطفات من كلامه (عليه الرحمة والرضوان).

يقول السيد الشهيد (رحمه الله تعالى): "لابد أن تعود الآيات إلى ساحة الصراع من جديد، وهي تذكرنا وتؤكد علينا بعظم المسئولية، فإذا كان هناك مَن يندفع من منطلق استشعاره بعظم المسئولية؛ ليقول، وهذه هي الهداية على أرقى مستواها، وتصوير الواقع على أوضح ما يكون، وبما يكشف أن الله يهدي، يهدي الناس هنا إلى كيف يكونون مواجهين في ميدان المواجهة مع أهل الكتاب، اليهود والنصارى، الذين يكنون الكراهية والعداء للمسلمين".

ويؤكد (رضوان الله تعالى عليه) في مقطع آخر من كلامه: "إن الله تبارك وتعالى بعد أن أرشدنا إلى الوحدة وإلى التقوى في كتابه العزيز فإنه عز وجل قد نهانا عن التفرق، وبين لنا خطورة التفرق في الدنيا وفي الآخرة، ثم أكد لنا بأن هذه الآيات هي حق، ثم أكد بأنه سبحانه وتعالى معنا، وأن له ما في السموات وما في الأرض، وسيهيئ الأمور لنا، كما يتحدث أيضاً عن أولئك الذين يدعونا الآن لمواجهتهم، كأنه يقول لنا هكذا: الذين نحدثكم عنهم في هذه الآيات، وإننا نؤهلكم لمواجهتهم، ولقتالهم هم ضعاف، وأليس هذا عامل آخر يبعث على الانطلاق؟"

كما أشار (رحمه الله تعالى) إلى أن: "الباري (عز وجل) في العديد من آيات الذكر العظيم يقول لنا بأنه متى ما كنتم بهذا المستوى؛ متوحِّدين معتصمين بحبل الله جميعاً، وكنتم على هذه الثقة العالية بالله، وتعتقدون أن له ما في السموات وما في الأرض، فإنه لن يُغلق الأجواء أمامكم، ولن يدعها مغلقة أمامكم."

ويضيف السيد الشهيد: بعد أن ذكّر الله العزيز بخطورة أولئك (اليهود والنصارى) على حياتنا وديننا وآخرتنا؛ يقول عنهم: "هم أيضاً متى ما كنتم بهذا المستوى فسيصبح واقعهم هكذا: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً﴾[٢]. فما يقومون به ضدكم عندئذ هو طقطقة هنا، وطقطقة هناك لا قيمة لها، ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾" [٣].

١- اسورة لحديد: ٢٥.
٢- سورة آل عمران: ١١١.
٣- المرجع نفسه.

يتساءل السيد الشهيد (رحمه الله): "وماذا بقي لنا بعد هذا؟ إذ من يعدنا بالنصر والغلبة والتفوق والنصر؟ ومَن الذي يقول هذا؟ أليس هو الله، الذي يعلم الغيب ويعلم ما في السموات وما في الأرض، ويعلم السِّر في السموات وفي الأرض، كما يعلم كيف سيكون اليهود الذين ضرب عليهم الذلة والمسكنة، كيف سيكونون في ميدان القتال والمجابهة." وقال (رضوان الله تعالى عليه): "بأن الأشخاص الذين يثقون بالله يتكلمون بملء أفواههم بكل تحدي لإسرائيل عند رأسها، كسماحة السيد حسن نصر الله، وأمثاله، بكل صراحة وبكل قوة، من منطلق ثقته بصدق القرآن، أن هؤلاء الصهاينة أجبن من أن يقفوا في ميدان القتال صامدين، وجربوهم فعلاً، في جنوب لبنان، كيف كانوا جبناء، يهربون، فجندي صادق ومؤمن بالله حق الإيمان واحد يردُّ قافلة، ورتل من الدبابات والشاحنات العسكرية، أرعبوهم حتى أصبح اليهود متى ما خرج اليهودي من جنوب لبنان إلى داخل فلسطين يبكي من الفرح، ويقبِّل أسرته، لأنه خرج من بين غمار الموت".

كذلك، يؤكد السيد الشهيد بأنّ الصهاينة ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً﴾[1]، أي إن إعلامهم وجميع أعمالهم ستصبح هباءً منثوراً، وتتبخر عندما تتوحد كلمة وجهود المؤمنين ويصبحون على مستوى عالٍ من الوعي، والثقة بالله، والاعتصام بحبل الله المتين، والأمر بالمعروف والنهي، حتى يكتشفون ما يدبره الآخرون ضدهم، عندئذ تُهزم كل وسائل إعلامهم وقنواتهم، وجميع مؤامراتهم في مجال الاقتصاد والإعلام، وتصبح مؤامراتهم الدنيئة مجرد أذية، تُسبب قليلاً من الإزعاج، كذباب يحدث طنيناً ثم يرحل.

لقد تحدّث السيد الشهيد حول الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾ قائلاً: "أليس الله الجبّار يؤكد لنا أن كل شيء من جانبهم يتبخر، وسيفشل؟ وأن كل مؤامراتهم تصبح مجرد أذى، لا فاعلية لها، وإن نزلوا إلى ميدان المواجهة المسلحة ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾ يفرون من أمامكم ﴿ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ ولا يجدون مَن ينصرهم، وهم فعلاً لا يجدون ولن يجدون من ينصرهم، لا الله، ولا حتى تلك الشعوب الأخرى، وستتخلى شعوب الغرب عن اليهود، إذا ما وجدونا نحن، مَنْ مصالحُهم داخل أراضينا، هكذا قال أحد المسئولين الغربيين عندما قالوا لهم: لماذا لا تقفون مع المسلمين؟ قال: لستم بمستوى أن نقف معكم، ولا بمستوى أن نتخلى عن إسرائيل؛ لأن إسرائيل هي المهيمنة".

ويشير السيد الشهيد إلى الله العظيم: ﴿ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ بالتأكيد على أنّ هذه العبارة "ينصرون" فعل مبني للمجهول، أي فاعله مجهول، أي: لا يحصل لهم نصر من أي طرف آخر، لا من قبل الله، ولا من قبل أحد من البشر.

١- المرجع نفسه.

ويضيف (رحمه الله تعالى): "﴿ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾ تعني بالتأكيد بألَّا يكون هناك مَن يقف معهم وينصرهم، وأليس هذا مما يشجع على مواجهتهم حتى المواجهة المسلحة، قل للناس الذين يقولون: كيف يمكن؟ مَن يستطيع لإسرائيل وأمريكا؟ مَن يستطيع أن يقف في وجه إسرائيل، مَن يستطيع أن يواجه إسرائيل؟ في النهاية يصبح لدينا شعوراً بعيداً عمَّا قاله الله سبحانه وتعالى: أن هؤلاء الذين هم خصوم ألدَّاء، وخصوم خطيرين جداً جداً، هم ليسوا خطيرين في ميدان المواجهة المسلحة".

ويتساءل (رحمه الله تعالى): "﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ﴾[1]، أليست هذه الآية من آيات الله حقيقة؟ ثم يقول: لقد جربها المؤمنون في جنوب لبنان ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ﴾، منهم أصحاب الضمير في قوله: يقاتلوكم؟ أنتم يا هؤلاء، وليس هذه المجاميع؛ لأنهم قد قاتلوا بعض الجيوش العربية، أليس كذلك؟ لأنهم لم يكونوا من هذه النوعية، ممَن يعتصمون بحبل الله جميعاً، وينطلقون بثقتهم بالله، وينطلقون وفق ما هداهم الله في هذا القرآن الكريم، فالقرآن الكريم هَدى حتى إلى القيادة التي يجب أن تكون هي القيادة للأمة كيف يجب أن تكون، ومن أين تكون، فعندما تتوفر للأمة هذه المقومات وإن كان شعباً واحداً، أو جنوب شعب، كما هو في جنوب لبنان، سيولونهم الأدبار، وسينهزمون من أمام وجوههم".

كما يؤكد السيد الشهيد (رضوان الله تعالى عليه): "إن هزيمة الدول العربية أمام الكيان الصهيوني لما تجمعت سوريا ومصر والأردن، وعدة بلدان، وهزمتها إسرائيل، ألم يهزمهم اليهود؟ ليس لأن القرآن الكريم لا ينطق بالحقائق أو أن الله تبارك وتعالى لا يفي بوعوده لنصر المؤمنين، كلا ولكنهم -أي الدول العربية- لم يكونوا متمسكين بحبل الله كما يجب أن يكون. إن القرآن الكريم وفيه كلام الله العزيز هو حقائق لا تتخلف إطلاقاً، لكن الذي حدث من هزائم للدول العربية إنما لأن الدول العربية تلك كانت مجتمعة على مصالحها الدنيوية الضيقة وليس للدفاع عن دين الله وعن مقدسات الشعوب العربية والإسلامية، ولو اجتمعوا آلاف المرات وهم على هذا النحو، لن ينتصروا أبداً أمام إسرائيل، وستهزمهم إسرائيل كما هزمتهم في النكبة (١٩٤٨) وفي النكسة (١٩٦٧) وما بينهما".

ويوجه السيد الشهيد الحوثي (رضوان الله تعالى عليه) كلامه لأبناء الأمة: "ابدأوا كونوا بهذا المستوى من الإيمان والعقيدة وسترون النصر بعيونكم، وأن أولئك اليهود ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنْصَرُونَ﴾[2]. لقد أصبح الناس في جنوب لبنان لا يخافون إسرائيل، وهم يتحدونها في وضح النهار، ويقيمون العروض العسكرية تحت مرأى أقمارها، وعلى مسمع وسائل إعلامها، ويتحدونها بكل جرأة وقوة، مع أن هؤلاء الفتية لا يمثلون إلا حزباً واحداً فقط، في جنوب لبنان، بينما هزمت أمامها جيوش دول

١- سورة آل عمران: ١١١.
٢- سورة آل عمران: ٤.

عربية متعددة؛ (سبعة جيوش كانت في النكسة) لأنهم كانوا غثاء كغثاء السيل، ليس لهم من الإيمان نصيب بنصر الله"[1] .

هنا يضع السيد الشهيد حسين الحوثي (عليه الرحمة والرضوان) شروطاً للنصر ويوضح أبعادها المتعددة فيقول: للنجاح في مواجهة العدو شروط وللنصر مقومات وأهم تلك هذه الشروط والمقومات هي:

أولاً: الإيمان المطلق بالله: "والثقة بالله الواحد القهار والتوكل عليه دون سواه وما يتطلبه من كفر بالطاغوت وأدواته وأساليبه وخططه". ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [2]،

ثانياً: وحدة صفة جبهة الإيمان: "من خلال عقل وفكر الأمة الواحدة التي يصطف فيها المؤمنون الصادقون منه صفاً واحداً كالبنيان المرصوص للدفاع عن دينهم وكرامتهم ولحماية مواردهم ومقدّساتهم". ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوص﴾ [3]،

ثالثاً: القيادة الرسالية المؤهلة والصالحة: "والتي تؤمن وتحمل المشروع الإيماني الكبير على عاتقها للدفاع عن دين الله ومقدّسات الأمة. والقيادة الموّحدة هنا يجب أن تكون من أهل الشرف والفخر من آل محمد عليهم أفضل الصلاة والسلام، وأشياعهم وأتباعهم الذين اختارهم الله على علم على العالمين". ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ [4].

في عالمنا المعاصر فإن المواجهة حاصلة، والحرب قائمة، والعدو شرس ونزق ووقح، نزل بكل قوته وخبثه ودهائه، وسخر له أعظم قوة وإمبراطورية ظهرت على وجه الأرض حتى الآن (الولايات المتحدة الأمريكية) حيث وحدتهم المصالح والمطامع في السيطرة والتحكم ببلادنا الإسلامية الواسعة، وجَمعَهم العداء والبغض لهذه الأمة المرحومة بفكرها المقاوم والمعتز بهويته وثقافته وفكره القرآني، لأنها الأمة التي استعصت على التهجين والتطويع والتركيع، لما تمتلكه من ثقافة راقية ودين عظيم وكتاب عظيم.

لقد أيقن الغرب أنهم لن يتمكنوا من هزيمة أمة أو شعب أو حتى فرد واحد من مجتمعنا الإسلامي مادام لديه مصدر إلهام ومعرفة، يعمل على توجيهه وشحذ همته ولذلك كانت استراتيجيتهم المعتمدة هي العمل على فصل الأمة عن كلام الله المجيد وجعل القرآن مجرد كتاب للطقوس الشكلية والعبادية المحضة، دون أن

١- محاضرات السيد حسين الحوثي، ملزمة دروس آل عمران، الدرس الرابع.
٢- سورة آل عمران: ١٦٠.
٣- سورة الصف: ٤.
٤- سورة الأنبياء: ٧٣.

يكون كتاب يمدهم بفلسفة ورؤية شاملة للحياة. وارتكزت استراتيجيتهم على مقولة: أنكم لن تستطيعوا أن تهزموا المسلمين وتخضعوهم ما دام عندهم القرآن.

- الرجل الأمة:

وفي الاتجاه المقابل صبت الصهيونية الغاصبة كل حقدها وغضبها على المسلمين، وسخروا كل ما لديهم من مكر وخبث وضغينة ليحرفوا هذه الأمة ويبعدوها عن دينها وفخرها وشرفها، فخرج إليهم رجل ضعيف في بنيته، المتواضع في ملبسه ومظهره، وبعمامته السوداء البسيطة، فقلب السحر على الساحر، وقلب المنطقة كلها على رؤوسهم، وخلط أوراقهم وأفشل مخططاتهم.

نعم؛ إنه روح الله الموسوي الخميني (قدس سره)، المرجع الديني الكبير الذي فقه حيل الغرب وألاعيبه في السيطرة على العالم الإسلامي، وأدرك بأنّ مسؤولية الأمة تكمن في العودة إلى الله، فعمل على إعادة وهج الدين وحيويته إلى روح وعقل الأمة، ونطق بفقه المسؤولية والحركة، متجاوزاً بذلك فقه اليأس والجمود والقشريات، وعرف موارد الأمور ومصادرها، وبّين منابع قوة الأمة، ونقاط ضعفها، وشخّص العدو بدقة وميَّز بين الأعداء القريب منها والبعيد، وأعطى لكل منهم اهتمامه في ثورته الإسلامية المباركة التي انطلقت، لتُعيدَ الأمة إلى الحياة من جديد، بعد أن أبعدها الشيطان عن ساحات الصراع الحضاري، وراح يُعِدُّ العدة لذبحها وسحقها من خارطة الوجود.

فالثورة الإسلامية المباركة وبتعبير المرجع الديني الكبير الشهيد السيد محمد باقر الصدر (قدس سره) أيقظت الأمة وأطلقت المارد الإيماني من قمقمه، ولكن في الوقت نفسه استنفرت شياطين الإنس والجن وراحوا يمكرون بها، ويدبّرون لها المعاطب والمقاتل، وأول مكيدة كانت حرباً دامت ثمانية سنوات، خسرت فيها الأمة الكثير من الرجال والأموال والمشاريع بسبب جاهل كان لعبة بيد الأمريكان والعربان في نجد وهم قرن الشيطان الرجيم.

ودرس السيد الشهيد الحوثي التجربة، وقرأ القرآن الحكيم بوعي ومسؤولية، فوهبه الله الحكمة، وأفاض عليه من نعمة الفهم القرآني العظيمة، فراح يفيضُ بالقول السديد ويعطيها للعطشى في اليمن العظيم، فتلقفوها وتناقلوها فيما بينهم، فأنبتت فيهم الحكمة التي كانت بذورها كامنة في قلوب أهل اليمن الطيبة، وذكّرهم بقول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيهم: "الْإِيمَانُ يَمَانِيٌّ وَالْحِكْمَةُ يَمَانِيَّة" [1]، أعطوه قيادتهم بعد أن رأوه منبعاً للخير والعطاء والفكر الأصيل وتحمله للمسؤولية، فسار بهم ليُعيدهم إلى سابق

١- الكافي، ج٨، ص٧٠.

عهدهم في أمتهم حيث قال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [1].

يقول السيد الشهيد في مسؤولية الأمة: "نفهم من هذا ما هو أسلوب القرآن الكريم في جلب كل ما يمكن أن يكون مساعداً للناس أن ينطلقوا، وفي القيام بما يريد الله سبحانه وتعالى أن يقوموا به، كما يذكِّر باستشعار المسؤولية الكبيرة على المسلمين، بدءاً من أولئك المسلمين الذين كانوا في أيام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يذكِّرنا، كما ذكَّرهم سابقاً، بتلك المسؤولية الكبيرة، بأن عليهم مهمة إصلاح أوضاع الأمة والناس، ولردِّهم إلى دين الله، ولرفع الظلم عنهم، لتعم وتنتشر هذه الرسالة العظيمة في أوساط البشرية وتنعم بها جميعاً".

ويؤكد (رحمه الله تعالى): "إنها مسؤولية كبيرة جداً، وهي في نفس الوقت تذكير بنعمة عظيمة، هي: أن الله العظيم قد اختار هذه الأمة لأن تُناط بهم هذه المسؤولية الكبيرة، فمَنْ يعرف قدر وقيمة الوسام الذي قلَّدهم الله سبحانه وتعالى به، وهو وسام شرف عظيم، أن يكونوا أهلاً لئَن يحملوا هذه الرسالة؛ وليلتفوا حول راية هذه الرسالة، فيتحركون في أوساط الأمة، لإصلاح العباد، وتطهير الأرض من الفساد، ليحوزوا شرف السَّبق، شرف أن تُصلح الأمة بل والعالم على أيديهم، وأن تُطَّهر من فساد المضلين على أيديهم".

ويضيف السيد الشهيد: "أليس هذا شرفٌ عظيم، ونعمةٌ كبرى؟ وهي مسؤوليةٌ كبرى ونعمةٌ كبرى، وشرفٌ عظيم، يدفع مَن يرى لهذا قيمته الكبيرة إلى أن ينطلق فعلاً، ليدفع هذه الأمة إلى أن تنطلق فعلاً في ميدان العمل، وفق ما هداها الله سبحانه وتعالى إليه، في مجاهدة أهل الكتاب، من اليهود والنصارى، وهم مَن يشكلون أعظم خطر على البشرية؛ لأنهم كما قال الله عنهم: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً﴾"[2].

فنرى كيف اجتمعت عملية الدفع بالناس الدفع بالمسلمين بالعرب بأهل البيت ليتحملوا المسؤولية أيضاً وعلى مختلف درجات الأولوية داخل هذه الأمة، فالمسلمون يتحملون مسؤولية كبيرة أعظم من غيرهم وأهل البيت وشيعتهم يتحملون مسؤولية كبيرة وأعظم من غيرهم.

نحن حينما نتأمل بآيات القرآن الكريم نجد عوامل مهمة للدفع بالناس إلى أن ينطلقوا وأن يهتموا بقضاياهم المصرية، ومن هذه العوامل:

- العامل الأول: أهمية الإعداد

١- سورة آل عمران: ١١٠.
٢- سورة المائدة: ٦٤.

فهناك خطورة كبيرة إن لم يعمل أبناء الأمة على تأهيل أنفسهم ليكونوا بمستوى المواجهة قال تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[١]. كما تحذر الآيات المباركة من خطورة التفرق والاختلاف بعد وضوح الشواهد قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٢].

- العامل الثاني: نصرة اللّه تعالى للمجاهدين

فالله تعالى يذكرنا في أكثر من موقع بأنّه سيهيئ الأجواء التي يمكن أن تفتح انفراجات كبيرة أمام العاملين والمجاهدين في سبيله، كما يقول عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٣]. كما تؤكد هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [٤].

- العامل الثالث: التذكير بالنعمة والمسؤولية الكبرى

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[٥]. أليس هذا وسام شرف عظيم جداً؟ فنحن كأمة أنيط بها حمل هذه الرسالة، إن نتحرك فعلى أيدينا تُطّهر الأرض من فساد مَن يسعون في الأرض فساداً، وعلى أيدينا - كأمة مؤمنة - يتم إعلاء كلمة الله، وعلى أيدينا يكون إصلاح عباد الله. وهذا السبق فضيلة عظيمة.

فقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ هو مقارنة بالأمم الأخرى، في ذلك العصر أما في هذا العصر، فنفهم من سياق الآية القرآنية العظيمة أن مسؤولية الأمة تتمثل اليوم في هذا الاصطفاء، والذي لا يأتي لمجرد الاصطفاء وإنما يناط به مسؤولية كبرى وهو الاختيار الواعي الذي ستبنى عليه مسؤولياتنا الكبرى كأفراد ومجتمع وأمة، وخلاصتها كما نفهم من سياق الآيات القرآنية المجيدة هي: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ

١- سورة الأنفال: ٦٠.
٢- سورة الأنفال: ١٠٥.
٣- سورة العنكبوت:٦٩ .
٤- سورة آل عمران: ١٠٨ - ١٠٩ .
٥- سورة آل عمران: ١١٠ .

وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[1]. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو إطار واسع يشمل العمل في كل مجالات الحياة وليس جزءاً منها، فيتضمن العمل في سبيل الله وإعلاء كلمته، وتطهير الأرض من الفساد والمفسدين.

أما ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[2]، فينحو السيد الشهيد إلى القول بأن أهل الكتاب حينما فرَّطوا بأنفسهم، ولم يعودوا بمستوى المسؤولية التي أنيطت بهم، فقد باءوا بغضب من الله، وعندما جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهم مَن كانوا ينتظرون الجهاد بين يديه، وكانوا من قبل يذكِّرون الكافرين، ويستفتحون به على الكافرين أنه سيأتي نبي يُبعث، وسنقاتلكم تحت رايته، لكنهم لم يكونوا مؤمنين حقاً فخسروا أنفسهم ومكانتهم وأصبحوا عاراً على البشرية.

هذا يدفعنا للوصول إلى نتيجة مهمة وهي أنه عندما تخلى أهل الكتاب عن مهامهم وأصبحوا غير جديرين بتحمل المسؤولية، بل أصبح أكثرهم فاسقين، والمؤمنون فيهم قليل، اختار الله سبحانه وتعالى المسلمين، أن يكونوا هم مَن يقوم بحمل الرسالة تحت راية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

يذكِّر الله (عز وجل) في كتابه العظيم بأن حمل الرسالة هو شرف عظيم، وأن أولئك الذين لم يكونوا بمستوى الأمانة التي قُلّدوها في آخر أيامهم، وهم أهل الكتاب ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ﴾[3]، قد حرموا هذه النعمة الكبيرة، أما أنتم فقد اخترتم أن تقوموا بالمهمة تحت راية محمد (صلى الله عليه وآله وسلم). فأهل الكتاب أنفسهم لو استشعروا عظم المسؤولية لعرفوا أن المسألة هي على هذا النحو: أنه متى اختار الله نبياً من أنبيائه، فليكن من هنا أو من هناك فالأمر إليه، ولهم الشرف العظيم بأن يقاتلوا تحت راية هذا النبي أو ذاك إذا تطلب الأمر الإلهي ذلك، حتى وإن لم يكن من بني إسرائيل؛ لكنهم بدل أن يتفاعلوا بإيجابية مع أوامر الله تعالى غضبوا جداً عندما لم يأت النبي من بني إسرائيل، وقالوا: لماذا يأتي النبي من بني إسماعيل؟! يا لعجبي من منطقهم! أو ليس: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾[4].

المجال لا يزال أيضاً أمامهم مفتوحاً وكما تقول الآية القرآنية الكريمة: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَابِ ءَامَنُوا وَٱتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّتِ ٱلنَّعِيمِ﴾[5]؛ لأنهم هم مَنْ يُفترض بهم أن يكونوا أول مَن يؤمن

١- المرجع نفسه.
٢- المرجع نفسه.
٣- سورة آل عمران: ١١٠.
٤- سورة الأنعام: ١٢٤.
٥- سورة الأنعام: ٦٥.

بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهم كانوا مَن تجمَّع منذ زمن نحو المدينة لما عرفوا أنها ستكون مُهاجَر النبي الذي سيُبعث في آخر الزمان، فتجمعوا تجمعات كبيرة حول المدينة المنورة وداخلها[١].

هكذا هي سُنن الله في هذه الحياة، وهي - أيضاً - من السُنن والقوانين الاجتماعية التي سارت عليها الأمم والمجتمعات البشرية من بدايتها إلى اليوم وستستمر لنهايتها، لأن الطغيان والاستكبار في الأرض ورفض تحمل المسؤولية الرسالية في الإصلاح والصلاح سيؤدي إلى عواقب وخيمة؛ قال تعالى: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً ❖ اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً» [٢].

من أهم وأعظم تلك العواقب والعقوبات أن الله (تبارك وتعالى) سيستبدل بهم غيرهم من البشر يحملون المسؤولية الرسالية إن لم يتحملوها أولئك، وهذا ما لمسه الشباب الإيراني من الإمام السيد الخميني (عليه الرحمة والرضوان) والشباب اليمني من السيد الشهيد حسين بدر الدين الحوثي (رضوان الله عليه)، فنهضوا لأنهم أدركوا كم ستكون الخسارة فادحة إذا باءوا بغضب من الله واستبدل الله بهم غيرهم من الشعوب.

لا سيما وأولئك الشباب يرون عدوهم أمام أعينهم يتربص بهم الدوائر، وينتظر السقطة حتى يسرع إليهم فيذبحهم، وهم من رفع شعار "بالذبح جيناكم" عند اجتياحهم لأكثر من منطقة في بلادنا الإسلامية كالعراق وسورية، عندما غزت أراضينا قطعان التكفير الصهيو - وهابية المجرمة، وراحوا يعيثون في الأرض فساداً وإفساداً، وقتلاً، وحرقاً، وإغراقاً، وتدميراً وتشريداً، فلم يتركوا حُرمة إلا انتهكوها، ولا حراماً إلا أحلوه، ولا حلالاً إلا حرموه، فاستباحوا الحرمات والدم والمال، وهتكوا الأعراض، ولم يتركوا موبقة من موبقات الشر إلا وارتكبوها.

هذه جرائمهم شاهدة على فكرهم التكفيري التي لا يشبهها فكر ولا ثقافة إلا ما نجده في نصوص التوراة المحرفة، وثقافة رب الجنود، وإلههم "يهوه"؛ الذي يحب السيف وسفك الدماء، بل هو متعطش لسفك الدماء بشكل عجيب وغريب، حتى أن إحدى الكاتبات المسيحيات، وهي (عهد صوفان) تصفه بالإرهابي وأن هناك (أفلام رعب في التوراة)، لما فيه من القتل والذبح التي لم ترد في أي نصٍّ أرضي عدا عن نص سماوي، حيث يأمر بالقتل والحرق لكل شيء بشكل فظيع وشنيع جداً.

١- محاضرات السيد حسين الحوثي، دروس سورة آل عمران: (الدرس: ٤).
٢- سورة فاطر: ٤٨ .

يقول أحد القساوسة المنصفين: "التلموديون فقط كانوا يمتلكون هذه النزعة أنهم شعب الله المختار وبأنه يجب أن تكون كل الأمم عبيداً عندهم، ويجب أن يمتلكوا الأرض ويصادرون الجنة، وكانوا يحاولون أن يتميزوا بدينهم عن باقي البشر أي إن الله لهم فقط، حتى لم يدعوا الناس لمعرفة الرب أقله بمحاولة لإنقاذهم، هذا لأنهم لا يؤمنون بالمساواة، وكانت شرائعهم حسب رغباتهم، فهم يعتبرون أنفسهم أوصياء على هذه المسكونة، وكانت من شرائعهم القتل، والتدمير، والسبي، والنهب، وهذا موجود في تلمودهم".

ثم يقول: "ولا يوجد دين سماوي على وجه هذه الكرة الأرضية يأمر بالقتل، تحت أي ذريعة من الذرائع، فقط التلمود هو الذي يأمر بالقتل والتدمير، ولا يعقل أن يكون هذا كلام الرب، هم يجيدون صناعة هذه الحروب ويمتلكون كافة الوسائل الخادعة لإشعالها، فهم يعرفون كي يزيفوا الحقائق ويغيروا مسار التاريخ والشعوب، ولا يوجد شيء يستطيع أن يقف بوجههم" .

- الصهاينة والدور المشؤوم:

ما نلاحظه اليوم من الإرهاب والعنف في العالم، وانحطاط وتدهور في القيم الإنسانية الرشيدة، تقف عصابة الصهيونية المتدثرة باليهودية وراءه، فلم ينزلوا في بلد إلا أفسدوه، ولم يسكنوا في قوم إلا أثخنوهم بالجراح وفرَّقوهم، وهذا ديدنهم منذ يعقوب النبي (عليه السلام)، وكانت أول جريمة لهم بحق أخيهم نبي الله يوسف الصديق (عليه السلام).

اللافت أن اليهود قوم يجيدون المراوغة والكذب، فهم يرتكبون أبشع الجرائم ضد الإنسانية إلا أنهم لا يُظهرون أنفسهم على حقيقتها، ولا يكشفون عن مخططاتهم التدميرية، وإنما يرمون بها غيرهم ليبقوا متفرجين، ثم ليستثمروا نتائج ما فعلوه خير استثمار - كما نرى ونسمع اليوم - فكل ما يجري في بلاد المسلمين نابعٌ من صميم الفكر الصهيوني الدموي الإرهابي.

لقد أظهر اليهود قدرة فائقة على التخفي وراء شخصيتهم الحقيقية، وغلّفوها بمسحات من القيم الإنسانية ليغرزوا مخالبهم في صدر العالم بلا وازع من ضمير أو أخلاق، وهذه المرة أظهروا مخالبهم ولكن بلباس الدين الإسلامي واخترعوا قصة ما يُسمى "الوهابية والسلفية التكفيرية"، فغذُّوهم بفكر ظلامي لا علاقة له بالإسلام لا من قريب أو من بعيد، وراحوا يُكفِّرون الأمة بكل طوائفها ومذاهبها وبلدانها، حتى وصلوا إلى

١- الماسونية أسرار نشأتها وتاريخ ظهورها، ناجي أمهز، ٢٠٢٠/٠٢/١٠، متوفر على الرابط:
http://webcache.googleusercontent.com/search?q=cache:Xnbb4OiYaA0J:nbs-news.com/news%3FID%3D53405+&cd=3&hl=ar&ct=clnk

مرحلة التنفيذ، فأطلقوا قطعانهم المجرمة التي دربتها لهم شركة (بلاك ووتر) الأمريكية سيئة الصيت، حتى أنها غيَّرت اسمها أخيراً من بشاعة عناصرها وإجرامهم بحق الإنسانية.

فكفَّروا الأمة كمقدمة لاستباحة دمها ومالها وعرضها، ومسخت كل مَن دخل إليها وأخرجته من دينه ونفسه، ثم من إنسانيته، ليقدم على كل جريمة تُطلبُ منه، فلا يكون له دين يردع ولا ضمير يمنع، لأن دينهم على مقاسهم، وكما يريدون تماماً، وأما الضمير فقد أماتوه منذ نعومة أظفارهم بعد سقيهم التراب معجوناً بدماء الأبرياء.

فالكارثة الكبرى التي حلت على الأمة الإسلامية ليست اليهود في فلسطين، بل الكارثة العظمى هي الفكر التكفيري، لأن اليهودي جبان رعديد، وذليل حقير، وأما هؤلاء المجرمون فإنّهم يتسمون بالإسلام الرحيم، فيقتلون، ويقطعون رؤوس الأبرياء، ويحرقون ويسرقون وينهبون ويزنون ويفعلون كل جريمة بـ"التكبير" حتى اخترعوا فتوى: "كل شيء حرام حتى تُكبِّر عليه يصير حلالاً لك".

هنا مكمن الخطر الكبير الذي تتعرض له الأمة الإسلامية بالإبادة الجماعية على أيديهم وبسيوفهم وبما اخترعته الإدارة الأمريكية وسمته: "الجيل الرابع للحرب"، وهو الفناء الذاتي لكل شعب لا يقر لهم ولمخططاتهم بالرضوخ والخضوع.

- عود على بدء:

إن ابتعاد الأمة عن أهم مصادرها المتمثلة في كتاب الله العظيم هو سبب ما تعيشه من انحطاط ودمار وتخلف، ويقول السيد الشهيد الحوثي في هذا الشأن: "عندما ابتعد المسلمون عن القرآن الكريم، ولديهم أشياء كثيرة فيها أشياء كثيرة من الضلال، وصلت الأمة هذه إلى حالة الضياع في عصر قد يكون من أزهى عصور الدنيا"[1].

لقد أكد السيد الشهيد في أكثر من موقع خلال تفسيره لبعض آيات القرآن الكريم بأن الأمة إذا عادت وبنت حركتها على أساس القرآن الكريم وانطلقت من وحي تعاليمه وتوجيهاته لا يمكن أن تهزم أو تحبط، وهذا هو سر انتصار الأمم عندما تواجه التحدّيات الصعبة والقاسية في حياتها. يقول السيد الشهيد: "تأتي هذه

١- السيد حسين الحوثي، الدرس الثالث عشر من تفسير سورة آل عمران.

الأحداث المؤلمة والمؤسفة في عالمنا الإسلامي من خلال تحرك الأمريكيين والإسرائيليين ومعهم دول الغرب، ولكن من يتأمل هذه الأحداث بنظرة قرآنية لا يمكن أن يحصل لديه إحباط، ولا يأس، بل يمكن أن يرى على ضوء هدى القرآن الكريم هذه الفترة من أفضل وأحسن الفترات بالنسبة للإسلام وللنهوض به مجدداً في حياة الأمة، خاصة لمن يعرفون كيف يتحركون في سبيل الإسلام فعلاً من الناحية العملية، وهنا نؤكد بأن من لا ينظرون إلى الوقائع والأحداث من حولنا نظرة قرآنية فإنهم يجدونها فترة مظلمة وفترة قاتمة ومعتمة رهيبة، والتي ربما هي فعلاً رهيبة وخطيرة، وهي كذلك لمن لا يتحركون على هدى القرآن، فهي خطيرة ورهيبة فعلاً، هنا في الدنيا، وفي الآخرة" .[1]

- الخاتمة:

لقد بَعُدَت بين العمل بكتاب الله تعالى وبين المسلمين الشُّقة، واتسعت دائرة الهوة إلا من رحمه الله تعالى، الأمر الذي يندى له جبين كل مسلم غيور على دين الإسلام، فيحزن لغربته بين الأنام، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[2]، لذلك جعل الله تبارك وتعالى الإيمان به وبرسالته سنَّة ماضية، فكرَّم من اتبع هداه وابتغى بطاعته رضاه، وجعل الذل والهوان على من جانب صراطه المستقيم واتبع في الغيِّ هواه، فكان لابد في ظل ذلك من أن يوجد بين المسلمين من يرثي لحال إخوته المستضعفين، الذين أمسوا لا يُحسَدون على حياتهم بعد بعدهم عن القرآن الكريم، ويأسى لواقع أمرهم بعد حيادهم عن صراطه المستقيم.

فيُعْنَى بالقرآن الكريم هذا الكتاب الرباني الحكيم، وينادي المسلمين للعودة إلى نهجه القويم، وهذا الشعور النبيل، وإن وجد في جميع أنحاء العالم - في أفراد وجماعات - فإنه وُجِدَ أيضاً في يمن العز والشهامة والكبرياء عند رجلٍ من رجال الله تبارك وتعالى.

معلناً أن تمسك الأمة بكتاب الله العزيز والعترة المباركة هو السبيل الوحيد للخلاص من

١- السيد الحوثي (ره)، ملزمة آيات من سورة الكهف.

٢- سورة الأعراف: ٩٦ .

جهلها وتخلفها، والسبب للتخلص من هيمنة قوى الاستكبار وأنظمتها المستبدة على مقدرات الأمور في معظم بلادنا وشعوبنا، والعودة إلى القرآن الكريم بما يزخر به من فكر ومعرفة وتوجيهات وإرشادات، فهو الطريق الأمثل لإيجاد الحلول والعلاجات الناجعة لكل المشكلات العالقة التي تعاني منها ليس المجتمعات الإسلامية فحسب بل المجتمع الإنساني برمته، وهذا الذي دعا السيد الشهيد الحوثي للعودة إليه، إلى كتاب الله العظيم كأقوى سلاح يمكن أن تواجه به الأمة أعدائها.

فنظر بعين الله مستعيناً به وبكتابه المنزل على نبيه الأكرم (صلى الله عليه وآله) للنهوض ونفض غبار الجهل والتخلف والذل والخمول عن كاهل الأمة اليمانية، لتتساقط أمام مشروعه كل الرؤى والنظريات الشيطانية التي عبثت في مجتمعاتنا فساداً وإفساداً، وما ذلك إلا لشمولية الطرح وعمق الرؤية التي تحلى بها، والتي يمكن من خلالها أخذ الدروس والعبر لتغيير واقع حال الأمة إلى الأحسن والأفضل، مستعينين بعمق الإيمان وكمال الرؤية وفقه المسؤولية التي يضخها كتاب الله (عز وجل) في عقل الأمة ووجدانها ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾ [1].

١- الأسراء: ١٠٩ .

من أزمة الوعي إلى وعي الأزمة

«الملمح الاجتماعي والسياسي في المشروع الفكري للسيد حسين الحوثي»

د. عرفات الرميمة
باحث في الفكر العربي الإسلامي

مقدمة:

من يقرأ ملازم السيد حسين الحوثي ويتأمل فيها جيداً، يجد أن كل ملزمة منها تحتوي على ثلاثة محددات رئيسية هي: الفكرة الرئيسية التي تتحدث عنها، ثم معلومات عامة تدعم تلك الفكرة وتقويها، ثم مجموعة من التوجيهات التي أراد الوصول إليها من خلال تلك الفكرة تعمل على توجيه سلوك الفرد باعتباره لبنة في صرح بناء المجتمع.

يمكن أن يرسم القارئ في مخيلته بعضاً من ملامح المشروع الفكري للسيد حسين نظراً لبروزها بشكلٍ واضح، ومن تلك الملامح البارزة نجد الملمح الاجتماعي الذي نتبّين من خلاله أن مشروعه كان مشروعاً شعبوياً وليس نخبوياً. وذلك هو الشيء المهم الذي فات الكثير من المفكرين والمصلحين، وهو أن مشاريعهم الفكرية تتوجه غالباً إلى النخب . وهم قلة قليلة . وتهمل عموم الشعب الذي بإمكانه أن يحدث التغيير متى ما فهم الفكرة وأدركها وشعر بصدقها وبقربها منه ومن همومه ومشاكله المُعاشة. فخطاب السيد حسين كان بالأساس موجهاً لعموم الشعب وبلهجتهم العامية البسيطة التي يفهمونها، لكن مضمونه لم يكن بعيداً عن النخب التي تدرك أهمية تلك الأفكار في أحداث التغيير المنشود وإن صيغت في قالب عامي بسيط.

لكن الأفكار وحدها لا تكفي من أجل إحداث التغيير المنشود في المجتمع، لابد للأفكار من شخصية كاريزمية تستطيع أن تعيش بها ولها ومن أجلها وتحولها إلى واقع معاش يراها الناس من خلال سلوك الشخص الذي ينادي بها، بحيث يكون هو التغيير الذي يُريد أن يحدثه ويراه في المجتمع، لأن المبدأ حين يتجلى في السلوك فإنه يتغلغل في نفوس الآخرين عن طريق اللاوعي.

هذا ما ميّز السيد حسين الحوثي الذي كان يمتلك شخصية كاريزمية حوّل بها مشروعه القرآني والفكري إلى واقع معاش أحدث تغييراً فارقاً في حياة تلاميذه والمجتمع الذي عاش فيه ونقله نقلة نوعية وفي غضون سنوات قليلة من المحلية إلى العالمية.

- عن الشخصية الكاريزمية وكاريزما الشخصية:

من يتعرف على شخصية السيد حسين عن قرب ويسمع خطاباته . أو يقرأها بعد تفريغها وكتابتها في ملازم . ويقرأ ما كُتب عنه، سواء من أعدائه أو محبيه، يدرك أن من يتخلى عن السلطة والمنصب والجاه ويتفرغ لإنجاز مشروع فكري يهتم بإعادة بناء الأمة هو شخصية كاريزمية بكل ما للكلمة من معنى، ومن لا يساوم على المبادئ التي آمن بها ويسترخص حياته ثمناً لما يؤمن به فهو شخصية فذة واستثنائية. لقد كان السيد حسين من "الشخصيات الاستثنائية التي صنعت تحولاً تاريخياً في الحياة المعاصرة برغم كل ما واجه مشروعه الفكري الثقافي القرآني من ظلم وتكفير وتعتيم وافتراء وتضليل، بسبب مواقفه الواضحة والصادقة والصريحة المتمثلة في صدقه مع نفسه قبل صدقه مع الآخرين"[1].

لقد كان في مجتمعه رائداً للتنمية البشرية . إذا جاز لنا إطلاق هذا اللفظ من خلال إعادة الثقة لأفراد المجتمع بأنفسهم . وكذا المجتمعية، وذلك من خلال متابعته لمعظم المشاريع الخدمية مشجعاً الناس على الالتحاق بالتعليم، حاثاً لهم ومشجعاً على الاهتمام بالزراعة وعلى التعاون على البر والتقوى. ويمكن أن نقول إنه كان صالحاً في نفسه مصلحاً لمجتمعه على غرار المصلحين الكبار في كل زمان ومكان، وتماشياً مع السنن الإلهية التي أكد عليها القرآن "أن الأرض يعمرها المصلحون في كل زمان ومكان"، كما قال تعالى: (وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ) «الانبياء: ١٠٥».

ذلك يعني أن تلك الوراثة شرعة دينية وسنة اجتماعية وحقيقة تاريخية وسمة حضارية على أساس أن عملية الإصلاح للمجتمع والارتقاء بالأمة وبناء حضارة الرحمة الإنسانية ترتكز على تأهيل وإعداد وإنتاج الفرد الصالح في ذاته الذي يُثير الاقتداء ويُغري بالاتباع من خلال سلوكه وعلاقاته مع الغير والعمل على تشكيل الأمة القائمة على الحق في ذاتها وفي علاقاتها الحاملة لقيم الحق إلى غيرها لأن وجودها يدلل على خلود منهج النبوة وقدرته على الإنتاج في كل زمان ومكان[2].

١- يحيى جحاف، صعدة القضية والإعلام، صنعاء، مركز عدن للبحوث، م٢٠١٦، ص ٦٥.

٢- ينظر: مقدمة عمر عبيد حسنة لكتاب رؤى الإصلاح عند الإمام محمد الخضر، كتاب الأمة، قطر، (العدد ١٥٩)، م٢٠١٣، ص٥ - ٦ .

إن وجود المُصلحين في فترات مختلفة من الزمن هي سُنّة إلهية وضرورة اجتماعية تحتاجها المجتمعات فطرياً، لكن ذلك لا يعني أنهم يبدؤون من العدم، بل إن عملية الإصلاح تراكمية وهذا هو الشيء الذي يمتاز به المصلحون، "الأفذاذ الذين يأتون في أوقات من التاريخ متباعدة أو متقاربة يبدو لي أن تعبير"، "إنهم يبدؤون من العدم"، ونفي وجود قابليات تشكل استجابة لدعوتهم محل نظر، لعل الأولى أن نقول: إنهم استطاعوا أن يكتشفوا مواطن الخلل فأصلحوه واكتشفوا القابليات فوظفوها وأثاروها وشحذوا فاعليتها"[1].

لقد وصف القرآن الكريم العلماء المعلمين بأنهم ربانيون قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ «آل عمران:٧٩».

السيد حسين الحوثي كان من العلماء الربانيين، وهم "أولئك الذين خلُصت حياتهم لله في سبيل إصلاح وتربية خليقته، إنهم ربانيون منسوبون إلى الرب وهي الصفة الإلهية المشتقة من التربية، همهم تربية هذا المجتمع على هدى الله وتنشئته التنشئة الفاضلة بحسب ما يُريده عز وجل"[2]. قد لا يوافقه البعض على كل ما ذهب إليه في مشروعه الفكري وقد يختلفون مع بعض ما ورد فيه، لكن المنصفين منهم لا يملكون سوى الاعتراف بأنه كان إنساناً صادقاً بكل ما تعنيه الكلمة، فلا يمكن أن تجد تناقضاً بين أقواله وأفعاله على الإطلاق، كان مؤمناً بما يقول عرفنا من خلاله عظمة الحق وقوته، عرفنا من خلاله شمولية القرآن وحكمته[3].

كما كان قائلاً وفاعلاً لما آمن به بقوة تفوق الوصف. حتى في أشد المواقف صعوبة وحرجاً . والمتتبع لنشأته وتطوره الفكري يلاحظ أنه تفرّغ نهائياً وأعطى "كله" للقرآن، فأعطاه القرآن بعضاً من أسراره، هداية وفهماً وتدبراً وتأملاً والأهم من كل ذلك تطبيقاً للقرآن في واقع الحياة . وهذا هو الذي جعل منه شخصية مميزة عن غيره من المفكرين والمصلحين . حتى إنه كان يستدل على كل حركة أو عمل أو نشاط بآية من القرآن، لقد قدم ـ رضوان الله عليه . منهجاً عملياً للحياة كان فيه القدوة والمثل الأعلى جسّده في حياته قولاً وعملاً وسلوكاً، قدمه بكماله وجماله وجاذبيته حتى وصل إلينا من خلال التغيير الذي أحدثه ومن خلال المسيرة القرآنية التي التزم بها تلاميذه ومريدوه والتي خرجت قائداً حكيماً بمواصفات السيد القائد عبدالملك الحوثي (حفظه الله).

١- محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، القاهرة، مكتبة نهضة مصر، ط٧، ٢٠٠٥م ، ص٦٢.

٢- حمود الأهنومي، التربية في فكر الشهيد القائد، صنعاء، المجلس الزيدي الإسلامي، م٢٠١٧، ص١٢.

٣- يحيي قاسم أبو عواضة، صفحات مشرقة من حياة الشهيد القائد، صعدة، مؤسسة الشهيد زيد علي مصلح، م٢٠١٣، ص ٥٨ .

سوف نحاول أن نقترب من المشروع الفكري للشهيد القائد السيد حسين بدر الدين الحوثي، لنرى بعضاً من ملامحه التي تميّز بها عن غيره من المشاريع الفكرية والإصلاحية الإسلامية، وسوف نقتصر في هذه الصفحات على الملمح الاجتماعي، لمعرفة سر التغيير الذي أحدثه في المجتمع ونتعرّف على الملمح السياسي الذي أراد أن يسير عليه حكّام الأمة الإسلامية.

وأهم ما ميّز الملمح الاجتماعي في المشروع الفكري للشهيد القائد هو ما أطلقت عليه:

شعبوية الشكل.. نخبوية المضمون:

استطاع السيد حسين أن يُحدث التغيير المنشود من خلال خطاباته ومحاضراته العديدة التي ألقاها على طلابه ومريديه في بداية الأمر وعلى الجموع الغفيرة في معظم مديريات محافظة صعدة . خصوصاً بعد أن ذاعت شهرته . وقد طبقها في سلوكه المعاش وأصبحت الجماهير تتسابق كي تستمع إلى ما يقول وتعود وقد فهمت المراد من الخطاب وتغيرّت أفكارها تبعاً لما عرفت وفهمت.

لقد قدّم السيد حسين خطاباً شعبوي الشكل، نخبوي المضمون. ومن يقرأ تاريخ الفلسفة يلاحظ أن المقالات الفلسفية الرئيسية . من لدن أفلاطون إلى هايدغر . تنزع إلى إعطاء الأولوية للخطابة وللكلام وتحذر من الكتابة، فأفلاطون (٤٢٧ . ٣٤٧ ق. م) يعتبر الكتابة غريبة عن الحياة ومعادية لها في الوقت نفسه والسبب في ذلك أنه يمكن قراءتها في سياقات متغيرة . زماناً ومكاناً وتبعاً للحالة النفسية للقارئ . وتكون حينها قابلة للتأويل وغير ثابتة المعنى، وبالتالي فهي لا تضمن الحقيقة . كما يفعل الكلام، الصوت الحي . لأنها تكون تابعة للرأي المتقلب. ففي محاورة (فادروس) التي كتبها أفلاطون . على لسان سقراط . نجده يهجو الكتابة هجاءً لاذعاً، ويعتبر أنها تقرّب النسيان في النفوس وتهمل الذاكرة بدل أن تنمي العلم والذاكرة كما يقول أنصارها. وأنصار الكتابة لا يمكن أن يصلوا إلى العلم بل لن يحرزوا غير (دعوى العلم)، وذلك لأن شأن الأقوال المكتوبة "قد يُخيل إليك أنها تنطق نطق أذكياء الأشخاص لكن اسألها أن تفسر لك ما تقوله، فلا تُجيب إلا بشيء واحد في تكرار لا يحيد أبداً"[1].

أولى ملامح المشروع الفكري للسيد حسين أنه ظل مشروعاً شعبويّاً . وليس مشروعاً نخبوياً مؤدلجاً . انبثق من الناس ولهم ومن أجلهم من خلال الخطاب المباشر الذي يعلو من خلال تواضعه ويقترب من الناس من خلال لمسه لهمومهم وابتعاده عن الذات والأنا، ويُفهَم لديهم من خلال ابتعاده عن الغموض وعن استخدام المصطلحات الغربية والغير مفهومة.

١ – نقلاً عن: جورج طرابيشي، نقد العقل العربي .. إشكاليات العقل العربي، بيروت، دار الساقي، م١٩٩٨، ص٣٠.

لقد قدّم السيد حسين النص القرآني بخاصيته التي امتاز بها عن غيره، باعتباره يخاطب عقول ووجدان وعواطف الجميع واستطاع من خلاله الوصول إلى عقول الناس وعواطفهم، لأنه عرف بالضبط ما يحتاجه الناس؛ "نحن بحاجة جميعاً إلى أن نسمع النص القرآني الذي يخاطب وجدان كل شخص فينا، فالخاصة لا يمكن أن يعطوا العامة ما يمكن أن يعطيه الخطاب القرآني، وقد يفهمُ الخاصة مالا يصل ولا يرتقي فهم العامة إليه من خلال القرآن، وكل ما يقدمه الخاصة حول القرآن هو ينعكس أيضاً بأن يرتقي بمستوى ذهن العامة إلى فهم القرآن أيضاً أكثر، فالقرآن لا غنى للناس عنه"[1].

أهم نقطة ركز عليها السيد حسين في خطابه للناس هي أنه لم يتمركز حول ذاته . كما يفعل البعض . بل ابتعد عن ذاته وعن هواه الذي يجعل كل خطيب يبحث عن الشهرة كهدف مباشر من خلال خطاباته، لكنه لم يفكر في ذلك ولم يفعله، بل جُل ما ركز عليه هو أن يجعل الناس تعود إلى القرآن، لم ينسب لنفسه الفضل بأنه قد جاء بفكرة جديدة أو بمنهج جديد أو بأي شيء جديد غير مألوف بالنسبة للمجتمع كي يكون متميزاً عنهم، لكن تميّزه الحقيقي أنه بمقدار ما ابتعد عن التميّز زاده ذلك تميّزاً، وذلك هو الأسلوب الصحيح بالنسبة له وكما قال: "والأسلوب الصحيح، إذا كنت تريد أن تؤثر في الآخرين، لا يكون همك أن تبني شخصيتك - كما يقول البعض - فأنا أريد أن أحدثهم، لأؤثر فيهم أنا، ليعرفوا من أنا، لا حاجة لهذا... فنحن لم نأت بجديد، إنما نشكو من الجديد، نحن نشكو من الجديد الذي هو دخيل على أهل البيت وعلى الزيدية، إنه هو الذي ضَرَبنا، هو الذي أثر علينا، هو الذي فرق كلمتنا، هو الذي جعلنا أذلة مستضعفين، جعلنا نصمت، نسكت على الرغم مما يواجه به الإسلام، والمسلمون من قبل أعداء الله، فأنا شخصياً لا أقول جديداً، بل من كتاب الله، وما نعلمه من قدماء أهل البيت (عليهم السلام) ومنهجهم، فعندما يلمس الآخرون تأثيراً لكلام آتي به، إنما هي بركة القرآن الكريم، وبركة أئمة أهل البيت (صلوات الله عليهم)"[2].

لم ينسب الفضل لنفسه ولم يحاول أن يمثل دور البطولة . كما يفعل البعض . بل حدّث الناس بما تعلّمه من مصادره الموثوقة وقال لهم أن بإمكان كل واحد منهم أن يفعل كما فعل هو ويعود للمصدر نفسه، ليعرف أن التأثير في الناس ليس بفضل الشخص بل بفضل القرآن، ذلك الصدق هو الذي قرّبه من الناس وأصبح المعبّر عنهم وعن تطلعاتهم.

استعمل السيد حسين مع تلاميذه ومُريديه الخطاب المباشر عن طريق الكلام الشفهي مبتعداً عن الكتابة . إلا أن قام بعض تلاميذه بتفريغ خطاباته وكتابتها في ملازم ليستفيد منها من لم يسمعها . كان فصيحاً

١- السيد حسين الحوثي، الثقافة القرآنية، صعدة، (د. ن.)، ٢٠٠٢م، ص ١٦.
٢- السيد حسين الحوثي، وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن، صعدة،(د. ن.)، ٢ /١١/ ٢٠٠٢م، ص ٣.

بليغاً. يقول ما يعرف ويعرف ما يقول وكيف يقوله. مراعياً في خطابه لمقتضى حال المخاطبين، فخاطب أبناء مجتمعه بلهجتهم الدارجة التي يعرفونها ويفهمون معانيها ، مبتعداً عن التفيهق الوعظي . المنهي عنه . والتكلف الزائف، المليء بالمصطلحات التي يستخدمها من يسمون أنفسهم مثقفين الأمر الذي يصنع الحواجز بين الخطيب وسامعيه وقد يجعل من عدم الإلمام بالفكرة والوصول إلى لبها سبباً في إبهامها وغموضها عن طريق استخدام الكلمات المعقدة "ولذلك كان أعداد الطلاب والزائرين للسيد حسين بدر الدين الحوثي لسماع محاضراته يزداد يوماً بعد يوم، لا سيما وهو يُجيد الأسلوب المحاضراتي والخطابي القريب من قلوب الناس وثقافتهم والغير متكلف المدعوم بالدليل القرآني مما جعل المجتمع بكل شرائحه يلتف حوله وينهل من معينه"[١].

كان السيد حسين يعرف ما للكلام المباشر. من خلال الخطابة. من أهمية في تغير نفوس الناس ومدى تأثير الكلمات في تغيير الواقع وبحسب كلامه " الكلمات في مراحل معينة هي من تفجر أوضاعاً، هي من تهز عروش الظالمين، هي من تبني أمة، لكن ستجد نفسك - أنت المؤمن المقصر - في مرحلة لا تستطيع أن تقول كلمة"[٢].

لقد جعل من الخطاب وسيلة لإيصال أفكاره للناس. وليس غاية بحد ذاته. فليس مهماً لديه تنميق الألفاظ والعبارات لكن الأهم لديه هو وصول المعنى المفهوم، الذي تبنى عليه المواقف فيما بعد، وكما قال: "لا نحتاج إلى أن ننمق الكلام معكم، ولا نحتاج إلى أن نرتب العبارات معكم. وأيضاً لسنا من أهل هذا، لا يهمنا الألفاظ بقدر ما تهمنا القضايا التي يجب أن نتحرك فيها، بقدر ما يهمنا الأشياء التي يجب أن نتبناها"[٣].

فكان بليغاً بكل ما تحمله الكلمة من معنى من خلال توظيفه المفردات والعبارات التي تتلاءم مع ما تقتضيه المناسبة وهذا هو فحوى البلاغة التي تعني "إقناع المخاطب بخطاب محكم البناء ليقبله العقل منسجم اللفظ ليقبله الذوق، عميق الدلالة لتقبله الروح مفعم بالحس الإنساني لتذوب فيه العاطفة ولا يمكن لأحد أن يصدر عنه خطاب تتوافر فيه هذه الشروط إلا إذا ألمّ بشخصية المخاطب وخصائصها النفسية والاجتماعية والتاريخية"[٤].

١- صبري الدرواني، صعدة الحرب الأولى: الأسباب والتداعيات، (د. م. ن)، (د. ن.)، ٢٠١٣م، ص ١٨ .
٢- السيد حسين الحوثي، الهوية الإيمانية، صعدة، (د. ن.)، ٣١/١/٢٠٠٢، ص ١٢ .
٣- السيد حسين الحوثي، خطورة المرحلة، صعدة، (د. ن.)، ٢٠٠٢م، ص ١٧ .
٤- ابراهيم فليليح، "البعد التربوي للبلاغة والتواصل"، مجلة الكلمة، بيروت، (العدد ٦٠)، صيف ٢٠٠٨م، ص١١١.

إذا كان الغرض من كل خطاب هو أن يصل المعنى بأي وسيلة إلى المخاطب، على اعتبار أن اللغة هي مجرد وسيط وحامل رسالة. وإن كانت وسيطاً غير محايد كما تقول بعض النظريات النقدية المعاصرة. هي وسيلة وليست غاية بحد ذاتها، وهنا تتجلى حكمة وعبقرية السيد حسين وهي أنه خاطب الناس باللغة التي يفهمونها واستخدم الأفكار البسيطة التي وصلت إلى عقول مُريديه وتلاميذه وغيرت نفوسهم وواقعهم، وهذه هي ميزة كل خطاب نهضوي، يجعل من الإصلاح وسيلة وغاية في الوقت نفسه ، يبدأ من الفكر وينتهي بتغير الواقع؛ "لأن الفكر الذي ينتج عن النظر في النص الديني قد حافظ على خصوصية الارتباط به وذلك بالعمل على صياغة مفاهيمه وتصوراته من خلال إخضاع اللغة العادية الموروثة تاريخياً إلى اللغة الدينية التي هي فوق التاريخ والفكر اللغوي المتبادل"[1]. و إذا كانت الحكمة تعني: "لفظ مشتق من أحكم، يُحكم، أي أتقن النظر والعمل، فالحكمة: هي إتقان النظر والعمل"[2]. وهي باختصار "خلاصة عقل يتأمل وقلب يتألم" . كما قال رضا عواضه . وبناءً عليه:

كان السيد حسين حكيماً من عدة نواح: فقد اعتزل لسنوات مع القرآن يتأمل بفكره حال الأمة ويتألم قلبه لما وصلت إليه من ذلة وصغار لا تليق بها خصوصاً أنها أمة القرآن، وكل ما سبق يدل على أنه كان حكيماً بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، فقد عرف الماضي وفهم الحاضر واستشرف المستقبل، وكذلك عمل خلال مسيرته على تطبيق مفهوم الحكمة قولاً وعملاً وجعلها سلوكاً معاشاً في حياته، فهو قد خاطب الناس على قدر عقولهم وباللغة الدارجة التي يفهمونها، وكان يبسط لهم الفكرة وينزل بها إلى مستوى إدراكهم، وهذا هو تفسير ابن عباس عينه للحكمة بأنها: "أخذ الناس بصغار العلم قبل كباره"، وهي تعني كذلك أن نحدث الناس بما يطيقون ويفهمون "حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله" . كما رواه البخاري عن الإمام علي بن أبي طالب باب كتاب العلم . والأهم من ذلك أن تلاميذه ومريديه كانوا يلاحظون أنه يقول كل ما يفعل ويعيش ويفعل ما يقول، و هذا يتماشى مع تعريفه للحكمة أنها: "تتجسد بشكل مواقف، بشكل رؤى، بشكل أعمال، هي تعكس وعياً صحيحاً، وعياً راقياً، تعكس زكاءً في النفس، تعكس عظمة لدى الإنسان"[3].

لقد عمل السيد حسين على إيصال أفكاره للناس من خلال اللغة البسيطة التي يفهمونها . فقال ما يُفهم وفهموا ما قال . وجعل من مشاركة الناس في الحوار جسراً لإيصال الأفكار الهامة التي رددها في معظم

١- محمد بنيعيش، "الفكر الإسلامي وإشكالية التحديد المنهجي"، مجلة الكلمة، بيروت، (العدد ٦٣)، ربيع ٢٠٠٩م، ص ٩١.

٢- ابن منظور، لسان العرب، (مادة: حكم).

٣- السيد حسين الحوثي: الثقافة القرآنية، مرجع سابق، ص.

خطاباته متكئاً على بناء الفرد من خلال القرآن من أجل النهوض بالمجتمع من خلال فهم الماضي وتجاوز الحاضر للمستقبل لإحداث التغيّر المطلوب.

نقد السيد حسين للواقع والتطلع للمستقبل:

كل مشروع فكري يُراد له أن يكون مشروعاً نهضوياً للمجتمع وللأمة عليه أن ينطلق من قضايا المجتمع التي تشغل بال الأمة قاطبة ويهتم بالقضايا التي تؤرق بال الأمة ولا يخلو منها كل مجتمع ويمكن قياس نجاح كل مشروع نهضوي - عربي أو إسلامي - واختبار صدقّية أطروحاته النظرية واتساقها مع الواقع وقابليتها للتطبيق العملي من خلال عاملين رئيسيين:

الأول: هو التغيير الملموس الذي تحدثه في نفوس أفراد المجتمع وصداه الذي يمكن سماع دويه من خلال سلوكهم المعاش.

والثاني: يمكن تلمسه من خلال مواقف الدول الاستعمارية الغربية - والكيانات الوظيفية التابعة لها في المنطقة العربية من ذلك المشروع - قبولاً أو رفضاً - ولنا في المشروع القومي الناصري خير دليل على ما نرمي إليه. وكل مشروع فكري يسعى للتغيير ويهدف للنهوض بواقع الأمة عليه أن يبدأ من فهم الحالة الراهنة للواقع الذي يعيش فيه، ليدرك حجم الأخطار المحدقة بالفرد والمجتمع على حد سواء، وينطلق بعدها لبناء البديل الحضاري الإسلامي المستمد من رسالة الإسلام العالمية - باعتباره رحمة للعالمين - إن "نقطة البداية أو الانطلاق نحو بناء (البديل الحضاري الإسلامي العالمي) تكمن في محاولة فهم الحالة الراهنة لأمتنا والعالم من حولها، هذا العالم الذي صار يؤثر في كل شيء فيها، فيتدخل في سياساتها واقتصادها بل وطرائق تعليمها وتدريبها وتربيتها بحيث صار يختار لها مما تقرأ وما تدرس وما تسمع وما ترى ولسان حاله يقول - كما بين القرآن الكريم - ما قال فرعون: (ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد)[1].

إذاً، من خلال فهم الواقع وتقييمه - بغرض تقويمه - ومقارنته بحال المجتمع سابقاً أو بواقع مجتمعات أخرى - خصوصاً المجتمعات المعادية - وقراءة الواقع من خلال الرؤية القرآنية نستطيع أن نرى الواقع بعين القرآن، ومن هنا يجب أن يتحرك كل مفكر "من الواقع إلى القرآن ومن ثمّ إلى الواقع حاملاً معه تصوراً قرآنياً عن الأزمة التي تعصف بواقعه الراهن على خلاف من يحبس نفسه داخل النص بعيداً عن الواقع فإنه يعجز عن

١- طه جابر العلواني، نحو منهجية معرفية قرآنية، بيروت، دار الهادي، ٢٠٠٤م، ص ١١ .

تقديم حلولاً عملية لمشاكل الحياة وإنما يبقى في عليائه ينظر إلى الواقع من برج أوهامه وتصوراته الخاطئة في حل مشاكل الواقع"[1].

قد يظن بعض المفكرين - خصوصاً القائلين بـ"تاريخية القرآن" وأبرزهم نصر حامد أبو زيد - أن من يقول بأن النص القرآني يستطيع أن يساهم في فهم مشاكل الحاضر وحلّها هو نوع من إهدار البعد التاريخي، من خلال التوحيد بين الفهم والنص؛ "وذلك أن التوحيد بين الفهم والنص - حيث يقع الفهم في الحاضر وينتمي النص إلى الماضي (لغة على الأقل) - لا بد أن يعتمد على إهدار البعد التاريخي"[2].

من أزمة الوعي إلى وعي الأزمة:

كان المجتمع اليمني يعيش أزمات وعي عديدة دينية وفكرية وسياسية واقتصادية، لكن أخطر الأزمات التي كان يعيشها هي أزمته في فهمه للقرآن واعتباره كتاباً يُتلى على الأموات ولا علاقة له بواقع الأمة وبحياة المؤمن المعاشة.

لكن السيد حسين كان يعرف ويؤكد دائماً في جلّ محاضراته أن أزمتنا هي أزمة وعي ، وأن القرآن الكريم هو كتاب هداية للفرد وللأمة تحتاج إليه في كل زمان ومكان، وأن فهمه - ومعرفة أنه كتاب هداية - هو المفتاح الذي سوف يفتح جميع الأبواب المغلقة لتغيير الواقع المعاش في جميع المجالات وعلى مختلف الصُعد، من أجل ذلك نبه المجتمع إلى أزمات الوعي التي يعيشها ونوّره وأخرجه من ظلام أزمات الوعي، إلى أنوار وعي الأزمة، وجعله يعي الأزمات التي يعيشها باعتبار ذلك الوعي هو البداية الحقيقية لعلاج الأوضاع التي يعيشها المسلمون - وخصوصاً في بلد الإيمان والحكمة - ذلك الوعي الجديد هو المدخل والمقدمة المنطقية لتحقيق النهضة التي تبدأ من وعي الحاضر لتتجاوزه إلى المستقبل ، فالنهضة - في جوهرها - "هي رؤية للمستقبل على ضوء الواقع وتحدياته ومشكلاته وما يؤثر فيه، من دينٍ وتراث وثقافة معينة ومن ثم تأتي الرؤية النهضوية في هذه الأمة مصبوغة بصبغة هذا المزيج كله"[3].

كان السيد حسين يعي أهمية القرآن في حياة الفرد - والأمة - باعتباره كتاب هداية، نور مبين نستطيع من خلاله أن نواجه ظلمات الواقع ومشكلاته وتحدياته، لأن النص القرآني هو نص حيّ وواعٍ، لأنه من الله

١- ماجد الغرباوي، إشكاليات التجديد، بيروت، دار الهادي، (د. ت.)، ص ٧٤.
٢- نصر حامد أبو زيد، نقد الخطاب الديني، القاهرة، سينا للنشر، ط٢، ١٩٩٤م، ص ٧٩.
٣- جمال سلطان، جذور الانحراف في الفكر الإسلامي الحديث، برمنجهام، مركز الدراسات الإسلامية، ١٩٩١م،
ص ١٨٥.

سبحانه وتعالى "لدرجة أن القرآن يبدو وهو كتاب مخطوط حي وواعٍ أكثر منا فيما نحن عليه في كل عصر يستطيع أن يكلمك بما أنت عليه، وواقعك عليه، وكيف واقعك"[١].

هذا ما يميزه عن غيره من معجزات الأنبياء السابقين التي كانت خاصة بزمان ومكان محدد مخصوص وتنتهي في حينها، أما القرآن فهو فوق حدود الزمكان. الزمان والمكان. لأن دلالاته منفتحة على كل العصور "والحال أن النص القرآني منفتح من حيث دلالاته على كل العصور وكلّ يفهمه بحسب رهانات عصره ومتطلبات التاريخ"[٢].

إن النظرة الجدلية التفاعلية بين النص والواقع. والعكس بالعكس. هي النظرة القادرة على تصحيح وتعديل انحرافات الواقع من خلال تبادل الأدوار بين النص والواقع أو ما أسميه "نصنصة الواقع ووقعنّة النص"، لقد عمل السيد حسين على تغيير الواقع الاجتماعي من خلال تنوير وعي الأمة كمقدمة لإصلاح الواقع السياسي الذي يُجيّر الامة للسياسي باعتباره الحاكم والمتحكم في مصير الأمة.

سياسية الواقع وواقع السياسية عند السيد حسين:

من المعلوم أن الفكر السياسي عبارة عن ممارسة عقلية بشرية. كأي فكر آخر. الغرض منه تنظيم شؤون الحياة من خلال ترتيب مقدمات معلومة للوصول إلى نتائج يراد الوصول إليها. وعلى اعتبار أن علم السياسية. في أبسط معانيه. يناقش واقع السلطة ووقعها وأثرها على حياة الناس، فواقع السلطة في تعاملها مع الناس هي المقدمات التي تأتي ثمارها من خلال سلوك الناس واستجابتهم لذلك الواقع.

لقد استوقف الواقع المعاش. سواء المحلي أو الإقليمي والدولي - وتعامل السلطة مع الناس وتعامل القوى الدولية مع الدول المحلية والإقليمية، السيدَ كثيراً، محاولاً أن يشخص الواقع العربي الإسلامي لينفذ إلى الأسباب التي تجعل من خضوع الناس للسلطة المحلية، انعكاساً طبيعياً لخضوع الحكام العرب لهيمنة القوى الدولية وخصوصاً الولايات المتحدة الأمريكية التي أعطت لنفسها الحق لقيادة العالم والتحكم في شؤون الشعوب بمنطق القوة وليس بقوة المنطق.

وجلُ ما فعله السيد حسين في مشروعه الفكري أنه نظر إلى الواقع العربي الإسلامي بعين ونظر إلى القرآن بالعين الأخرى، وقارن بين ما هو كائن في ذلك الواقع وما ينبغي أن يكون عليه حال العرب والمسلمين كما يراه القرآن، وهذا ما أقصده بالقول بأن السيد حسين وقعّن النص ونصنص الواقع "فكان يُقدّم النص

١- السيد حسين الحوثي، من نحن ومن هم. صعدة، (د. م. ن.)، (د. ن.)، ٢٠٠١م، ص٣.
٢- محمد بنيعيش، الفكر الإسلامي وإشكالية التحديد المنهجي، مرجع سابق، ص ٢٤.

القرآني ثم ينطلق من جوهره ودلالته وهديه ونوره ومضامينه إلى الواقع، فيقّيم هذا الواقع ويشخصه ويحدد الموقف اللازم، كل ذلك من خلال النص القرآني"[1]. ومن المعلوم أن مواقف كل مفكر من الواقع تتعدد "بتعدد الثقافات التي يحملها، فإذا كانت ثقافة مسؤولة وملتزمة، فإنه سيتخذ من واقعه موقفاً مسؤولاً وملتزماً "[2].

لقد نظر السيد حسين للواقع نظرة شمولية فاحصة حاولت أن تربط بين أحداثه لترى ما فيه من ترابط ولتعرف أن من يقف وراء تلك الحوادث. التي تختلف مكاناً. كيان واحد ويدُ واحدة وبأدوات واحدة أيضاً، ووفقاً لتلك النظرة "تعامل مع الواقع كله على أنه مترابط الحلقات والأجزاء وأنه يشكل وحدة موضوعية في نهاية الأمر ووفق هذه المنهجية الشمولية قدم طروحاته القرآنية ذات الأثر العلمي الكبير"[3].

لأن ثقافة السيد حسين ثقافة قرآنية بحتة، فهو يّقيّم الواقع من خلال المنظور القرآني وينظر إليه نظرة معيارية. لا تهتم بما هو كائن فيه بل بما ينبغي أن يكون بحسب الرؤية القرآنية. ويقارن الواقع الذي يعيشه العرب والمسلمون وحالهم مع أعدائهم مع نظرة القرآن لما يجب أن يكون عليه حال المؤمنين. كونهم كذلك. وحال أعدائهم من اليهود وبعض النصارى. وهذا هو جوهر مشروعه الفكري: عرض الواقع المعاش على القرآن وقراءة أحداثه بعين القرآن ومن خلاله أيضاً، وكما قال: ينبغي "أن يكون هناك عودة صادقة من جانبنا إلى القرآن الكريم، نتأمله جيداً، ونتدبر آياته، نتأملها، ونقرأ الأحداث من خلالها، ونقرأها ونحن نحمل الأحداث لنعرضها على القرآن الكريم، من أجل أن نهتدي بالقرآن الكريم، وسنعرف في الأخير وضعنا الذي نحن فيه، ذلك الوضع الذي نجعله أمراً طبيعياً بالنسبة للدنيا نقول: هذا حال الدنيا! ليست هذه حال الدنيا، هذا هو حال المقصرين، هذا هو حال المفرطين، هذا هو حال العاصين"[4].

على سبيل المثال: إذا كان القرآن يقول عن اليهود (وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ)، وبمقارنة ما يقوله القرآن عن اليهود بالواقع اليمني والعربي يظهر الوضع خلافاً لما قاله القرآن، وهنا مكمن الخلل؟ ولأن القرآن هو كتاب الله. الذي قد أحاط بكل شيء علماً، فهو يعلم الماضي والحاضر والمستقبل. فهو يعرف حال الواقع أكثر منا، وبما أن الواقع خلاف ما قاله القرآن فيجب أن نبحث إذاً عن السبب الذي جعل حالنا خلافاً لما حكاه

١- المشروع القرآني: انطلاقته ومعالمه، المناهج والبحوث بالدائرة الثقافية لأنصار الله، (د. ت.)، ص ٢٢.
٢- محمد محفوظ، نظريات التخلف في الفكر العربي المعاصر، مرجع سابق، ص ٦٠ .
٣- عبدالوهاب الوشلي، قراءة في الفكر السياسي لحركة أنصار الله، بيروت، دار المحجة البيضاء، ٢٠١٥م، ص ١٢.
٤- السيد حسين الحوثي، خطورة المرحلة، مرجع سابق، ص ٩ .

الله ولماذا وجد هذا الحال؟ وهو يتساءل: "أليس العرب الآن أذل من اليهود؟ أليس العرب الآن أذل من النصارى؟ أولسنا نحن الزيدية، ونحن أهل البيت أذل العرب؟ حقيقة"[١].

الأدهى من ذلك أن العرب والمسلمين ليسوا في موقع الذلة فقط، بل إنهم تحت أقدام اليهود والنصارى، هذا الوضع ليس وضعاً طبيعياً مطلقاً، إنه وضع مرضي يستدعي العلاج فوراً، وهذا ما جعل السيد حسين يسأل مستنكراً . وليس متعجباً . " أليس المسلمون الآن، أليس العرب الآن تحت أقدام اليهود والنصارى حكومات وشعوب؟ ألم يقل الله عن اليهود والنصارى أنه قد ضرب عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله؟ هل رفعت الذلة والمسكنة عنهم؟. لا لم تُرفع، ما يزالون، لكنا نحن من أصبحنا أذلّ منهم، من ضُربت علينا ذلة ومسكنة أسوأ مما ضربت على بني إسرائيل، هل تفهموا هذا؟"[٢].

هذا الوضع البائس والمزري . بالنسبة للعرب والمسلمين . وضع خطير جداً لا يرضى الله سبحانه وتعالى . الذي أراد لهم أن يكونوا في موقع العزة والقوة لا موقف الذل والخضوع وإنما يرضي الأعداء فقط. لقد وصل الحال بالعرب والمسلمين أنهم لا شيء، أصفار على يسار الواقع العالمي لا قيمة لهم على الإطلاق وكما قال: "نحن في وضعية خطيرة جداً مع الله، ونحن في وضعية خطيرة جداً أمام أعدائنا، ونحن في وضعية خطيرة في تفكيرنا وثقافتنا، نحن تحت الصفر، ولا أدلّ على ذلك من أننا نرى أنفسنا جميعاً - بما فينا زعماؤنا - لا أحد منهم يجرؤ على أن يقول كلمة قوية في مواجهة اليهود! أليس يعني هذا أننا تحت الصفر"[٣].

من ينظر إلى الواقع يرى أن العرب والمسلمين يشاهدون إسرائيل تحتل المسجد الأقصى في فلسطين وتضرب لبنان، ويشاهدون أمريكا تغزو أفغانستان بحجة محاربة الإرهاب، وتغزو العراق بحجة امتلاكه السلاح الكيميائي الذي لم يجدوا له أثراً، وتهدد أمريكا بضرب بعض الدول العربية . ومنها اليمن . بحجة الإرهاب، والخطر الأمريكي المحدق يدق أبواب الجميع لكن المجتمع لا يشعر بأي خطر، يعيشون حالة من التيه الفكري والنفسي وعلى جميع المستويات، ذلك هو الواقع المؤلم وتلك هي حالة العرب والمسلمين في بداية الألفية الجديدة .

١- المرجع نفسه، ص ٤ .
٢- السيد حسين الحوثي، لا عذر للجميع أمام الله، مرجع سابق، ص٣ .
٣- المرجع نفسه، ص ٦.

فعلى المسلم الحقيقي أن يهتم بما يحدث في العالم . على الصعيد المحلي والإقليمي والدولي . وأن يبقى منتبهاً لما يدور حوله "لأن المسلم يحمل رسالة عالمية ومن يحمل رسالة عالمية عليه أن يُدرك الوقائع والأوضاع العالمية كلها وخاصة طبيعة وعلاقات القوى الكبرى المؤثرة في هذه الأوضاع"[1].

والإنسان الذي يعيش في الواقع جسداً فقط . يعيش ليأكل ويأكل ليعيش . لا يهتم بما يحدث في واقعه ولا تثيره تحركات أعدائه ولا يستخدم عقله ليفهم ما يحدث، فهو تائه لا محالة، فعندما "ترى نفسك أنك لا تتعقل ما يقال لك، أنك لا تهتم بما يُطرح أمامك، أنه لا تثيرك الأشياء هذه التي تشاهدها في الساحة العالمية فاعلم بأنك تائه، أنت واحد من التائهين، أنت واحد ممن ضربت عليهم الذلة والمسكنة"[2].

هكذا شخَّص السيد حسين الواقع ووجد أن فيه خللاً من خلال علاقة الفرد المسلم بالحاكم أو من علاقة أولئك الحكام بالدول الكبرى . وخصوصاً أمريكا . وأدرك أن الحاكم والمحكومين محشورون في دائرة التيه نتيجة لبعدهم عن القرآن الكريم.

دائرة التيه:

من يشاهد الذل الواقع على العرب والمسلمين يدرك أنه جعلهم في حالة خوف دائم في الحاضر وقلق مستمر من المستقبل، في تلك الحالة تَساوي لديهم فيها كل شيء: الجهل والمعرفة، العدو والصديق، الموت والحياة، إنهم باختصار يعيشون الآن ضمن "دائرة التيه" في كل شيء، وكما قال السيد حسين: إن الفرد والمجتمع يعيشون "حالة تيه، تيه نفسي، تيه فكري، مشاعرنا كلها تاهت، الخطر على أبوابنا، ونحن لا نحس بشيء، ولا نصدق ما يقال، ولا نهتم، ولا نكترث! أليس هذا هو التيه؟"[3].

المشكلة التي وقع فيها العرب والمسلمون وأدخلتهم دائرة التيه أنهم لم يعرفوا الله المعرفة القرآنية الحقيقية التي تؤدي بهم إلى الثقة المطلقة به، وسوف يظل الدوران في دائرة التيه المفرغة ما داموا لم يتعرفوا على الله ولم يثقوا به، وذلك هو لب مشكلتهم الحقيقية "مشكلة العرب، مشكلة المسلمين أنهم لم يثقوا بالله، ولهذا لم يرجعوا إلى كتابه، ولم نثق برسوله (صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله)، لم يثقوا بالله، ولم يثقوا برسوله، ولم يعرفوا الله المعرفة الكافية، المعرفة المطلوبة، ولم يعرفوا رسوله (صلوات الله عليه

١- محمد جابر الأنصاري، رؤية قرآنية للمتغيرات الدولية، القاهرة، دار الشروق، ط٢، ١٩٩٩م، ص ٢٦.
٢- السيد حسين الحوثي، لا عذر للجميع أمام الله، مرجع سابق، ص٥ .
٣- السيد حسين الحوثي، خطورة المرحلة، مرجع سابق، ص١٢ .

وعلى آله) المعرفة الكافية، المعرفة المطلوبة، فظلوا دائماً يدورون في حلقةٍ مفرغة، وظلوا دائماً يتلقون الضربة تلو الضربة، مستسلمين، مستذلين، مستكينين"[١]

وعندما يفيق البعض من حالة التيه ويلاحظون واقعهم المعاش، سيعرفون أنهم يبتعدون عن هُدى الله وكتابه بمقدار ما يقتربون ويتقربون من أعدائهم، سيكتشفون سراب المدنيّة ووهم الحضارة الزائف - التي جعلت من الإنسان سلعة تباع وتشترى وترساً من ضمن التروس التي تحرك المصانع - وكما قال السيد حسين: "وفعلاً شهد الواقع، شهد هذا الزمان أننا أصبحنا نتنكر لكتاب الله، نتنكر لهدي رسل الله، نتنكر حتى لقيمنا العربية وننطلق وراء بني إسرائيل، ننطلق وراءهم باعتزاز، ونحن نقول: هذه هي الحضارة، هذا هو التقدم، هذا هو التطور، وهذا هو التمدّن! ولم نشعر بأنه الانحطاط، وأنه الذلة، وأنه الدناءة، وأنه الضلال والضياع"[٢].

حينها سيعرفون حجم الأخطار المحدقة بهم وسوف يدركون بعدها أن هناك داءً خطيراً يستدعي العلاج، ومعرفة سبب المرض جدير بمعرفة العلاج، والسبب الرئيس فيما وصلنا إليه هي حالة الازدواج التي يُسميها علم النفس "الشيزوفرانيا" أو الانفصام في الشخصية، بمعنى: أننا نعيش بشخصيتين، أحدهما تكره العدو على مستوى الوعي والأخرى تقلده على مستوى اللاوعي، وذلك عندما "أصبحنا نتثقف بثقافتهم، أصبحنا نحرص على أن نقلدهم في كل شيء بدءاً من كبارنا إلى أطفالنا ونسائنا، أصبحنا ننظر إليهم نظرة إكبار وإعظام وإجلال، أصبح الشخص منا يعتز بأنه أصبح شخصاً عصرياً وحضارياً عندما يمثلهم ويقلدهم في شؤون حياته فما الذي حصل؟ شقينا كما شقي آدم"[٣].

إن إدراك الواقع نوع من التشخيص لمعرفة المرض، لكن المرض الذي يعاني منه المجتمع العربي ليس مرضاً عضوياً يسهل علاجه، بل هو مرض يمس الذات العربية، إنها حالة الانفصام في الشخصية التي أدت بهم للدوران ضمن دائرة التيه وسببت لهم ألماً نفسياً حاداً أثر سلباً على تفكيرهم وعلى سلوكهم، والسبب فيه أنهم يعانون نقصاً في الكرامة، وكما قال: "إننا نعيش الألم النفسي، نعيش ألماً شديداً ليس من نقص في الفيتامينات إنما من نقص في الكرامة وفي العزة، نقص في الحياة الكريمة التي أراد ديننا أن تتوفر لنا، نعيش الألم فأين هو العلاج؟"[٤].

١- السيد حسين الحوثي، يوم القدس العالمي، صعدة، ١٣/١٢/ ٢٠٠١م. ص ١٢ .
٢- السيد حسين الحوثي، لتحذّن حذو بني إسرائيل، صعدة، ٧/٢/ ٢٠٠٢م، ص ٢ .
٣- السيد حسين الحوثي، من نحن ومن هم، مرجع سابق، ص ٤ .
٤- السيد حسين الحوثي، لتحذّن حذو بني إسرائيل، مرجع سابق، ص ٧.

من أجل ذلك دق السيد حسين ناقوس الخطر في مجتمعه، داعياً الناس إلى ضرورة النظر للواقع لفهم ما يحدث قلائلاً: "يجب على الناس أن يلتفتوا بجدية إلى واقعهم"[1]. وعندما يلتفت المسلمون إلى واقعهم سيدركون أن حالة التيه التي يعيشونها سببها الإعراض عن القرآن. كما قال تعالى:﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾«طه:١٢٤». والمعيشة الضنكى كما قال السيد حسين: "عندما يكون الفساد هو المنتشر، عندما يكون الباطل هو السائد، عندما يكون الظلم هو الذي يحكم، عندما تكون النفوس مهزومة، ذليلة، محتقرة، وأهل الباطل هم سادة العالم، هم الرافعي رؤوسهم في هذا العالم"[2]. وتلك هي المعيشة الضنكى عينها التي يعيشها العرب والمسلمون والتي حذرنا القرآن منها بسبب الإعراض عن كتاب الله سبحانه وتعالى وعن هداه.

وهذا هو الواقع الذي يعيشه اليوم العرب والمسلمون، وهو الذي سبب لهم التيه والضلال، ولا يمكن الخروج من دائرة التيه النفسي إلا عن طريق العودة إلى القرآن. والذي دعا إليه السيد حسين في مشروعه الفكري. والثقة المطلقة بالله تعالى التي تعطي الذات الثقة بذاتها "هذا التيه الرهيب جداً جداً لا يمكن أن يكون المخرج منه إلا عن طريق القرآن والثقة بالله سبحانه وتعالى"[3].

عندما يتعافى المجتمع من الألم السيكولوجي. النفسي. يستطيع البحث عن علاج للمرض الفسيولوجي. الجسدي. فيكتشف أن المرض العضوي الذي أصاب المجتمع العربي أنه يعيش في حالة من الجوع المادي الذي يجعله دائم الاحتياج للأعداء لتوفير غذائه، كل ذلك يخلق نوعاً من العبودية المقنّعة والتبعّية الدائمة لهم. التي ولّدت الألم النفسي. وليس هناك من علاج لذلك سوى الاعتماد على الذات وتوفير لقمة العيش بزراعة أرضنا، وكما قال: "نحن نعيش الجوع الذي سيجعلنا مستسلمين أمام أعدائنا فأين هو الغذاء من أوطاننا؟ هذا هو العلاج الحقيقي، هذا هو العلاج الحقيقي"[4].

يضرب السيد حسين مثالاً لحالة التيه التي يعيش فيها الفرد المسلم. والمجتمع على حد سواء. من خلال ما أسميه "وهم المعاصرة" أو "المعاصرة المزعومة" التي تستغني بالشكل عن المضمون وبهامش الحضارة وقشرتها عن متنها ولبها، وهي لا تقل خطراً عن الآبائية والتقليد التي حذّر منها القرآن مراراً وتكراراً في العديد من آياته التي يمر عليها معظم المسلمين وهم يقرؤون القرآن ويمرون عليه مرور الكرام دون أن يتدبروا فحواها ومضمونها.

١- السيد حسين الحوثي، لا عذر للجميع أمام الله، مرجع سابق، ص٥ .
٢- السيد حسين الحوثي، فإما يأتينكم مني هُدى، صعدة، (د. ن.)، (د. ت.)، ص٢ .
٣- السيد حسين الحوثي، من نحن ومن هم، مرجع سابق، ص ٦ .
٤- السيد حسين الحوثي، لتحذّن حذو بني إسرائيل، مرجع سابق، ص ٧ .

المعاصرة المزعومة في قفص الاتهام:

وجه السيد حسين نقداً لبعض الأصوات التي تسعى لنقل الثقافة الغربية بغية تمثلها في الواقع الإسلامي كشرط للنهوض واللحاق بركب العصر تحت مُسمى "المعاصرة"، مما يعني التخلي عن الدين وعن القيم التي نحملها . باعتبارها تشّكل هويتنا التي نتميّز بها عن غيرنا . على أساس أنهم لم يجدوا أثراً يذكر للدين في واقعهم المعاصر، وكما قال: "وقد ظهر في الأمة مثقفون يدعون إلى التخلي عما نحن عليه، وأن نتثقف بثقافة الغرب، حتى نلحق بركاب الغرب! هذا شاهد أنه وجد من داخل هذه الأمة من يتنكر للدين كله عندما لم ير لهذا الدين أثراً في الحياة، وعندما وجد الحياة هناك على أبرز مظهرها لدى الغربيين تنكر للدين كله، وحاول أن يثقف نفسه بثقافة الغربيين"[١].

لقد ظهرت العديد من الأصوات لبعض المفكرين . عرباً ومسلمين . أرادت أن تكّيف الدين مع مستجدات العصر، خصوصاً تلك التي جعلت من العصرّنة ومسايرة العصر - شكلياً - مقياساً يجب أن نفصَّل الإسلام على مقاسها كي يلحق بركب الحضارة قبل أن يتجاوزه الزمن، وهو يرى أن من الواجب علينا أن نؤسلم العصر بدل أن نُعصرِن الإسلام، وذلك لأن القرآن يحتوي العصر ويتجاوزه وليس العكس، وكما قال: "من الغريبَ عندما تسمع أحياناً من يقول لك من بعض الناس: هذا العصر اتسع، والشؤون اتسعت، لازم نحاول نؤقلم الدين، كي يتكيف مع مظاهر هذا العصر، وإلا قد يتجاوزه الزمن، تتجاوزه الحياة، يتجاوزه التطور!. مهما تشعبت الحياة، مهما تقدمت الحياة، مهما اتسعت عمارة الأرض، يظل الإسلام أوسع، ويظل القرآن أوسع، وأشمل، وأكمل، هذا شيء لا شك فيه"[٢].

تلك الدعوات التي جعلت من اللحاق بركب الغرب وسيلة وغاية للنهوض المنشود، ليست جديدة وإنما بدأت في مستهل القرن العشرين . وما قبله . فكم تعالت أصوات سُمعَ صداها تقول: "يجب أن نلحق بركاب الغرب، من قبل مائة سنة بدأت من مصر، ومن بلدان أخرى.. يجب أن نتثقف بثقافة الغرب، يجب أن نلحق بركاب الغرب، يجب أن نعمل على كيف نتطور مع الغرب.. طيب! نساء العرب أصبحن يقلدن الغرب تماماً هل تطوروا؟ هل وصلوا إلى ما وصل إليه الغربيون؟! لا، لأنهم يتصورون أن المسألة هي أن بإمكاننا أن نصل إلى ما وصل

١- السيد حسين الحوثي، الوحدة الإيمانية، صعدة، (د. ن.)، (د. ت.)، ص ٧ .
٢- السيد حسين الحوثي، الإسلام وثقافة الاتباع، صعدة، ٩/ ٢/ ٢٠٠٢م، ص ٢ .

إليه الآخرون، ونحن العرب لدينا مسؤولية مهمة كان بالإمكان أن تجعلنا - لو نهضنا بها - فوق أولئك الآخرين ويكونون هم من يفكرون في اللحاق بركابنا، فالمسألة لا تتأتى، لن تحصل"[1].

لقد اعتبر السيد حسين أن تلك الدعوات للمعاصرة قلّدت الغرب شكلاً فقط ولم تصل إلى ما وصلوا إليه على مستوى المضمون من خلال الاكتفاء الذاتي والاعتماد على الذات في كل مناحي الحياة، لقد كان تقليدهم للغرب مجرد مظهر "مظاهر الغرب... مجرد مظهر يتعلق بالزي، أو بالنمط المعماري، أو بأي تقليد من تقاليد الحياة والمعيشة، ينطلقون ليلتزموا بها"[2].

ذلك التقليد الشكلي لم ولن يؤت ثماره في الواقع، والدليل على ذلك - كما يقول السيد حسين: "أن المصريين انفتحوا على الغرب قبل الصينيين، وأين الصين وأين مصر؟! الصين أصبحت دولة صناعية كبرى"[3]. والمصريون لا يزالون يعتمدون على الغرب في معظم حاجياتهم وخصوصاً في قوتهم الضروري.

هو يرى أننا عندما نتكلم عن المعاصرة من الطبيعي أن تنصرف الأذهان مباشرة إلى الغرب ظاهرياً بحكم المظاهر العصرية التي يتم الترويج لها، لكننا لا نرى المعاصرة على حقيقتها من خلال التكتلات الغربية التي تتوحد . برغم جميع العوائق التي بين أعضائها . لضرب المسلمين، وهذا هو الأهم بالنسبة للسيد حسين: "عندما يقولون: العصر والحضارة، ألسنا نصرف أذهاننا إلى الغرب، إلى بلدان أوربا وأمريكا، وتلك الجهات منطقهم اليوم هو منطق الكلمة الواحدة، الموقف الواحد، التكتل لضرب المسلمين؟"[4].

إذا كان من الضروري أن نساير العصر . ونتعصرّن كما يود البعض . فليس من الضروري أيضاً أن نقلد الغرب جملة وتفصيلاً، ونتلقى كل ما يأتينا من قبلهم من منتجات وأفكار ومفاهيم باعتبارها بديهيات ومسلمات، دون نقدها وتمحيصها، إن ذلك يعني أن نلغي هويتنا وشخصيتنا، فمنطق العصر الذي نعيش فيه يفرض علينا أن نكون أقوياء أولاً، ونتوحّد ونتكتل كي نزداد قوة أمام الأعداء الذين تكتلوا لضربنا، ومن يرى غير ذلك كما قال السيد حسين: "هو لا يفهم العصر، إذا أنت تريد أن تتأقلم مع هذا العصر، منطق العصر هذا هو منطق القوة، كن قوياً، ابنِ أُمّةً قوية، هو عصر التكتلات في جانب الأعداء لضَرْبِنا... التكتلات، القوى، الموقف الواحد، الخطة الواحدة، هذا هو منطق العصر، هل نظن أن منطق العصر هو "الرأي والرأي الآخر"؟! والأشياء

١- السيد حسين الحوثي، سورة آل عمران (الدرس الثاني)، ٩/١/٢٠٠٢م، ص ٨.
٢- السيد حسين الحوثي، الوحدة الإيمانية، مرجع سابق، ص ٧ .
٣- السيد حسين الحوثي، في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (الدرس الثاني)، صعدة، ٢/٢/٢٠٠٢م، ص ٥ .
٤- السيد حسين الحوثي، الإسلام وثقافة الاتباع، مرجع سابق، ص ١٠ .

من هذه الحريات والانفتاحات وأشياء من هذه.. هل تريد أن تتعامل مع هذا العصر؟ هل تريد أن تتصرف بمنطق العصر؟ ابنِ نفسَك، ابنوا أمة واحدة، كتلة واحدة، موقف واحد، هذا منطق العصر"[1].

بدون أن يكون العربي قوياً في نفسيته وفي مواقفه من العدو المتربص، وبدون التوحد والاعتصام بحبل الله المتين والتكتل سياسياً وعسكرياً واقتصادياً بين العرب، فلن يلحقوا بركب العصر الذي لا يعرف سوى منطق القوة ومبدأ البقاء للأقوى، فالشعوب قاطبة وإن كانت تعطف على الضعيف إلا أنها أولا وأخيراً تحترم القوي وتضع له ألف حساب.

- الخاتمة:

النتيجة التي نصل إليها هي أن السيد حسين بدر الدين الحوثي كان يمتلك فكراً واعياً وناقداً ويمتلك رؤية مكنته من تشخيص مواطن الخلل التي يعاني منها مجتمعه المحلي، وتعاني منها الأمة الإسلامية برمتها. كان يعرف ويؤكد دائماً في جلّ محاضراته أن أزمتنا هي أزمة وعي، وأن القرآن الكريم هو كتاب هداية للفرد وللأمة تحتاج إليه في كل زمانٍ ومكان وأن فهمه. ومعرفة أنه كتاب هداية. هو المفتاح الذي سوف يفتح جميع الأبواب المغلقة لتغيير الواقع المعاش في جميع المجالات وعلى مختلف الصُعد، من أجل ذلك نبه المجتمع إلى أزمات الوعي التي يعيشها ونوّره وأخرجه من ظلام أزمات الوعي، إلى أنوار وعي الأزمة وجعله يعي الأزمات التي يعيشها، باعتبار ذلك الوعي هو البداية الحقيقية لعلاج الأوضاع التي يعيشها المسلمون. وخصوصا في بلد الإيمان والحكمة. ذلك الوعي الجديد هو المدخل والمقدمة المنطقية لتحقيق النهضة التي تبدأ من وعي الحاضر لتتجاوزه إلى المستقبل.

لقد عمل من خلال مشروعه الفكري على تلمس الحلول الواقعية والبسيطة لكل تلك الاختلالات من خلال العودة الجادة والصادقة إلى القرآن الكريم باعتباره طوق النجاة الذي يعتصم به المسلمون من جميع المشاكل والمؤامرات التي تحيط بهم.

١- المرجع نفسه، ص ١٠ .

اليمن هي المحك

"النظام السعودي واستحقاقات الجغرافيا والتاريخ "

فؤاد إبراهيم
عضو الهيئة القيادية في حركة خلاص
في الجزيرة العربية

مقدمة:

كان قرار الحرب على اليمن في ٢٦ مارس ٢٠١٥م بمثابة أول اختبار للعهد الجديد بقيادة سلمان ونجله محمد، في وقت كان يتأهب فيه فريق الحكم لعملية انتقال واسعة النطاق تطال كل مرافق الدولة والمجتمع. وضع سلمان ونجله «المدلّل» مسألة الحرب في طليعة الرهانات التي يمكن عبرها إحداث فارق جوهري في معادلة السلطة، ومن ثَم في موازين القوى الإقليمية بعد الثورة في اليمن في الحادي والعشرين من سبتمبر ٢٠١٤م.

لم يكن من السهولة بمكان ملء الفراغ الكبير الحاصل بعد غياب الملك عبد الله في ٢٣ يناير ٢٠١٥م، فقد كان عبد الله بمثابة «الأمل» لدى طيف كبير من المواطنين، تعويلاً على دور مأمول يمكن أن يلعبه بإدخال إصلاحات سياسية وتحرير المرأة ونقل المملكة إلى مرحلة جديدة. وبصورة إجمالية، إنّ المكانة التي حظي بها الملك عبد الله - بصرف النظر عن مدى واقعيتها - لا يمكن لسلمان تعويضها إلا بعمل استثنائي وخارق، فكان بحاجة إلى «خارج» يمكن الرهان عليه في تحقيق أهداف أخرى من بينها: مشاغلة الداخل بحادث خارجي، والحصول على «منجز» ما يمكن من خلاله بناء كاريزما موازية، وبحيث يكون المنجز في جزء منه رافعةً لابنه مُحمد بن سلمان (وزير الدفاع حينها) الّذي سوف يتحوّل إلى «قائد تاريخي» فيما لو نجح في كسب رهان «عاصفة الحزم». إن كلمة «رهان» تختزن ما كان يتطلع إليه محمد بن سلمان لناحية تغييرات كبيرة يتطلع لإجرائها في حال جاءت نتائج العدوان على اليمن كما تمنّاها.

لابد من التذكير بأن الفراغ لم يقتصر على الداخل، فقد حظي عبدالله بمكانة إقليمية أيضاً، بصرف النظر أيضاً عن مدى صدقيتها، وكان على العهد الجديد الحفاظ على الدور القيادي للمملكة في المنطقة، وكذلك لتقوية علاقاته مع الحلفاء الإقليميين والغربيين الأساسيين(١).

أمام استحقاقات كبرى، كانت الشروط الدفترية تملي أعمالاً استثنائية. وتحت قيادة سلمان، وضع العهد الجديد نفسه أمام عاصفة من الأسئلة في الداخل، أي وسط جمهور السلطة الذي خضع لتأثير خطاب موتور وإقصائي على مدى عقود في التعليم الرسمي (المناهج الدينية التي تنطوي على رؤية اقتلاعية إزاء كل ما هو آخر غير وهابي) وفي المساجد ومراكز التوجيه الديني (المدارس والمعاهد الدينية ومراكز الدعوة والمخيمات الصيفية، ...إلخ). كما دخلت المؤسسة الإعلامية بكلّ أدواتها وعلى رأسها القنوات الفضائية لتشعل ثورة غرائزية غير مسبوقة، وإذا بالتطابق المذهل بين لغة المثقّف الرسمي والعامي، القريب من السلطة، ولم يعد بالإمكان التمييز بين ما هو متعالٍ ومتسافل. لقد استعاد النظام السعودي في الحرب خطابه الطائفي القائم على تكفير المختلِف وتسويغ قتله ونهبه وسلبه. هو الخطاب الذي بدا وكأنه قد توارى في زمن السلم، وإذا به يتظهّر وكأنه الذخيرة الاحتياطية التي يلجأ إليها النظام في الشدائد تماماً كما هو الخطاب القبلي والمناطقي.

يمنياً، قطعت الرياض الطريق على الحوار بين اليمنيين، وفقاً لما ورد على لسان المبعوث الأممي (الأسبق) جمال بن عمر، الذي كشف عن أن اليمنيين كانوا على وشك التوصّل إلى اتفاق للخروج من الأزمة فجاءت الحرب على اليمن لتقطع الطريق على ذلك الاتفاق. وعليه: فإن الرياض بذلك قد وضعت اليمنيين أمام خيارين أحلاهما مرّ: إما أن يعود اليمن إلى بيت الطاعة السعودي، أو الحرب.

في واقع الحال، لم يستغرق قرار الحرب لتصفية الحساب مع اليمن وقتاً طويلاً، وقد قاد السعودية إلى التعجيل باتخاذ بالقرار معطيان رئيسيان:

الأول: قرب التوصل إلى اتفاق نووي بين إيران والسداسية الدولية، بما ستترتب عليه من تفاهمات سياسية شاملة في المنطقة.

والثاني: استكمال الثورة اليمنية «التصحيحية» التي انطلقت في ٢١ سبتمبر ٢٠١٤م لمراحل بسط سيطرتها على كامل التراب اليمني، الذي يعني خروج اليمن من نطاق الهيمنة السعودية التي دامت عقوداً من الزمن.

١- Martin Reardon, Three bold moves by King Salman, Aljazeera website, 01 May 2015;available at https://www.aljazeera.com/indepth/opinion/2015/05/saudi-arabia-king-salman-reshuffle-150501053335493.html

- اليمن وخلاف الأمراء:

على الرغم من توافق أمراء آل سعود على إبقاء اليمن ضعيفاً مرتهناً، إلا أن الحسابات فيما بينهم كانت مختلفة هذه المرة، انطلاقاً من المصلحة السعودية أولاً وأخيراً. فقد كانت مقاربة ولي العهد ووزير الداخلية السابق محمد بن نايف للمسألة اليمنية تصدر عن عقل أمني، على أساس قناعة مفادها أن اليمن مصنّفة كدولة فاشلة - بحسب وثيقة للسفارة الأميركية في الرياض تعود إلى شهر مايو ٢٠٠٩م - سرّبها موقع ويكيليكس ونُشرت في الأول من ديسمبر ٢٠١٠م. حينذاك كانت خلاصة تقييم محمد بن نايف أنه: «لدينا مشكلة اسمها اليمن»، وأنّ بلاده تشعر بالقلق بخصوص احتمال استغلال تنظيم القاعدة في جزيرة العرب عدم الاستقرار في اليمن لشنّ مزيد من الهجمات داخل أراضيها، بعد أن تمكّنت بمساعدة خبراء أجانب من وقف حملة للمتشددين في العام ٢٠٠٦م[١].

مقاربة ابن نايف القائمة على مبدأ تأمين الحدود الجنوبية للمملكة السعودية من هجمات القاعدة كانت تلتقي مع مقاربة مجتمع الأمن القومي الأميركي الذي كان ينسّق مع ابن نايف في سنوات سابقة لمواجهة تنظيم القاعدة.

لم يكن ابن نايف على وفاق مع ابن عمه «اللدود» محمد بن سلمان في طريقة إدارة الحرب، وقد تبين للأول حجم المخاطر التي تنطوي عليها الحرب على الأمن القومي السعودي في حال استمرارها. لذلك، قاد محمد بن نايف مبادرة - بغطاء أولي من سلمان - للحوار مع حركة أنصار الله، والتي بدأت في مارس من العام ٢٠١٦ في منطقة (عَلَبْ) الحدودية، وكانت المبادرة في حدّ ذاتها بمثابة دلالة بالغة على الانقسام الحاد داخل العائلة المالكة، وأيضاً مؤشر على مسار الحرب على اليمن. فقد عبّر أمراء آخرون عن رفضهم لاختطاف محمد بن سلمان قرار الحرب والسلم وعدم الإصغاء للنصائح بوقف الحرب. وكان هناك قلق من أن ينعكس الاستمرار في الحرب سلبياً على تماسك العائلة المالكة في ظل تحديات أمنية واقتصادية وجيوسياسية متعاظمة.

في الوقت الذي بقي فيه محمد بن سلمان متمسكاً برهان إحداث خرق عسكري كبير كالسيطرة على مداخل العاصمة صنعاء، بما يجعله في موقع القادر على إملاء الشروط في المفاوضات؛ فإن محاولات محمد بن نايف للانسحاب من الحرب بطريقة لائقة لم تنقطع، وكانت مفاوضات الكويت التي دامت شهوراً ثلاثة عام ٢٠١٦م حيث لعب الجانب الأميركي دوراً تخريبياً للحل، وذلك بحسب ما كشف عنه رئيس المجلس السياسي في أنصار الله الشهيد صالح الصمّاد (الرئيس السابق للمجلس السياسي الأعلى في اليمن)[٢].

١- https://wikileaks.org/plusd/cables/09RIYADH670_a.html

٢- الرئيس الصماد يكشف عن " مؤامرة وتهديد أمريكي" باستهداف الاقتصاد والعملة المحلية، موقع)العمل نيوز(، ١ أكتوبر ٢٠١٦ م؛ متوفر على الرابط:
https://www.sahafah24.net/show663088.html

كان يمكن لنجاح محمد بن نايف في إنهاء الحرب أن يغير شكل السلطة، لانعكاسه - حكماً - على صورة محمد بن سلمان الذي سوف يظهر في موقع الفاشل.

لقد سعى الملك سلمان في الأيام الأولى لتوليه مقاليد السلطة إبراز ابنه كمرشح محتمل لاعتلاء العرش. وعمل على إقناع الإدارة الأميركية بجدارة نجله بوراثته. وقد حمل «البيان المشترك» الصادر عن البيت الأبيض حول لقاء القمّة بين سلمان وأوباما في ٤ سبتمبر ٢٠١٥م دلالات خاصة، وأهمها الفقرة الأخيرة من البيان التي تضمنت الإشارة إلى الدور المستقبلي للأمير محمد بن سلمان في فتح الآفاق المستقبلية للشراكة الاستراتيجية[١].

كان انخراط ابن نايف في ملف الحرب على اليمن بمثابة إنذار مبكر لابن سلمان بضرورة احتكار قرار الحرب وتقليص أي دور يمكن أن يلعبه خصمه. وقد تزايدت التوترات الداخلية بعد أيام من عودة سلمان وابنه من واشنطن، كما يفصح عن ذلك إصدار الملك - بإلحاح من ابنه محمد - أمراً ملكياً في ١٠ سبتمبر ٢٠١٥م بإعفاء سعد بن خالد بن سعد الله الجبري (وزير الدولة وعضو مجلس الوزراء) من منصبه. وكان الجبري، اللاجئ حالياً في كندا، عضواً في مجلس الشؤون السياسية والأمنية، ويعدّ شخصية مقرّبة من محمد بن نايف، وأمضى سنوات طويلة في وزارة الداخلية بصفته مستشاراً أمنياً، وهو من طلب ترقيته للوزارة، ثمّ أصبح الذراع الأيمن للأمير محمد بن نايف. وكان الجبري مسؤولاً عن متابعة الملف الأمني والاستخباري الخاص باليمن، وقدّم معطيات حول مسار الحرب تتعارض مع ما كان يقدّمه فريق محمد بن سلمان، الأمر الذي دفع الأخير إلى طلب إعفائه، وكان ذلك مقدمة لإزاحة محمد بن نايف عن السلطة. لا شك أن الجبري يحتفظ بالكثير من أسرار الحرب على اليمن، ولا شك أيضاً أن روايته تنطوي على مفتريات كثيرة انتصاراً لموقفه بعد الخروج من المشهد السياسي ودفاعاً عن سيده بن نايف.مهما يكن، فقد أثار إعفاء الجبري قلق الحكومات الغربية وأجهزة الأمن القومي في الولايات المتحدة بوصفه واحداً من أهم رجالات الاستخبارات السعودية الذين كانوا على صلة بالغرب. ويقال إن الجبري أثار أسئلة حول تكتيكات محمد بن سلمان في الحرب خشية أن تكون «القاعدة» تتنامى بقوة هناك[٢].

١- https://obamawhitehouse.archives.gov/the-press-office/2015/09/04/joint statement-meeting-between-presidentbarack- obama-and-king-salman

٢- David Ignatius, A cyclone brews over Saudi Arabia, Washington Post, October 13, 2015, available at: https://www.washingtonpost.com/opinions/a-storm-brews-in-saudi-arabia/2015/10/13/886328c0-71e1-11e5-9cbb-790369643cf9_story.html

بحسب (ديفيد أوتاوي) فإنّ واشنطن لديها سببٌ وجيه للنظر باهتمام إلى محمد بن نايف: «فالأمير ليس فقط من الجيل الشاب، ولكنه كان مهندس الحملة السعودية الناجحة في منتصف العقد الأول من الألفية الثالثة لتقويض (القاعدة) في المملكة. كما أصبح بطل العائلة بعد هجوم إرهابي ضده داخل قصره في أغسطس من العام ٢٠٠٩م، والتي نجا منها بجروح طفيفة»[٢].

تجدر الإشارة إلى أن زيارة محمد بن نايف إلى واشنطن في يناير ٢٠١٣م، وإجراءه لقاءات عالية المستوى مع كلٍّ من الرئيس أوباما ووزيرة الخارجية (هيلاري كلينتون) ورئيس مجلس الأمن القومي (توم دونيلون) وعدد آخر من كبار المسؤولين في الإدارة الأميركية؛ قد خلقت انطباعاً لدى كثير من المراقبين، وكذلك المواطنين، بأن محمد بن نايف هو الشخصية الأثيرة لدى واشنطن. ولذلك، فسّر المراقبون إعفاء الجبري من منصبه بأنه بداية تجريد ابن نايف من مصادر قوته الرئيسة. وقد تداولت أوساط مقربة من العائلة بأن تحقيقاً سرياً أجراه فريق يقوده محمد بن نايف، بإدارة من قِبَل سعد الجبري، حول تقييم الأخطاء في حرب اليمن.

على أي حال، فإن مسلسل الإعفاءات التي طالت رؤوساً كبيرة في التراتبية السياسية كان مقدراً لها أن تطال ابن نايف نفسه، فبعد إعفاء ولي العهد (مقرن بن عبد العزيز) في أبريل ٢٠١٥م، كان على محمد بن نايف الاستعداد لأن يكون الرأس الثاني في المقصلة السياسية، وهو ما حصل في ٢١ يونيو ٢٠١٧م حيث تم تجريده من مناصبه كافة. وبذلك تكون مفاصل السلطة بالكامل قد أصبحت بيد محمد بن سلمان. وكان إعفاء وتجريم متعب بن عبد الله (وزير الحرس الوطني السابق)، واعتقال إخوته باستثناء تركي بن عبد الله اللاجئ في فرنسا، بمثابة الفصل الأخير في حرث السلطة.

- اليمن والمراوحة القاتلة:

كل التغييرات الحاصلة في الداخل السعودي جاءت على الضد من منطق التاريخ، فلا هي ناجمة عن انتصارات عسكرية ولا منجزات اقتصادية، ولا حتى اختراقات أمنية. هي ببساطة وليدة فارق القوة المدعومة أميركياً.

١- David B. Ottaway, The Struggle for Power in Saudi Arabia, ibid

في العدوان على اليمن، لم تتغير الجغرافيا، فلا القوات السعودية ولا حلفاؤها نجحوا في تغيير الخارطة الجيوسياسية بصورة فعلية، ولا تمثل التموضعات العسكرية في بقع متفرقة على الأرض اليمنية تغييراً جغرافياً حقيقياً، حيث تأتي ضمن معادلة المتغيرات الميدانية، وهذا يحيل تبعاً إلى المتغير التاريخي المفقود، إذ لا تغييرات تاريخية ما لم تكن مشفوعة بتغييرات جيوسياسية فارقة وثابتة.

بعد مرور ست سنوات على الحرب، بدا واضحاً أن التقديرات العسكرية والجيوسياسية لدى الجانب السعودي غير مكتملة في الحد الأدنى، الأمر الذي انعكس في المرحلة الأولى على بنك الأهداف المقررة للحرب، والتي تبدلت بصورة مفاجئة بعد شهر من اندلاعها من «عاصفة الحزم» إلى «استعادة الأمل» ثم ما لبثت أن دخلت المجهول. وبات السؤال المركزي داخلياً: ما جدوى هذه الحرب؟ وإلى متى؟ بالنظر إلى الاستنزاف المالي والبشري، حيث قدرت بعد أيام من الحرب كلفة الطلعات الجوية لمائة طائرة حربية بـ ١٧٥ مليون دولار شهرياً، فيما قدر دبلوماسي خليجي كلفة الهجمات الجوية بمليار دولار شهرياً. ومنذ العام ٢٠١٥م قادت السعودية تحالفاً عربياً بهدف إعادة عبد ربه منصور هادي إلى السلطة، إلا أن الرياض، وعلى الرغم من آلاف الغارات الجوية والحصار الجوي والبحري بكلفة تتراوح بين ٥-٦ مليارات دولار شهرياً، قد فشلت في تحقيق هذا الهدف[١].

في حقيقة الأمر، أن قبول الرياض بمبدأ التفاوض يعني أن الحرب فقدت زخمها ومبررها. ولذلك بدأت منذ منتصف العام ٢٠١٩م قنوات التواصل بين الجانب السعودي والجانب اليمني لجهة العمل من أجل التمهيد لوقف الحرب. المفاوضات المتراوحة بين الحماسية والمتعثرة والجامدة - تبعاً لوتيرة صراع المحاور وأوضاع الإقليم - أكدت بأن السعودية استنفدت وسائلها وأغراضها من الحرب العقيمة ضد اليمن. باتت القيادة السعودية على قناعة بألّا مناص من القبول بواقع اليمن الجديد الذي يمثل فيها «أنصار الله» رقماً صعباً، وهذا ما يظهر في تصريح وزير الدولة للشؤون الخارجية (عادل الجبير) في ٦ ديسمبر ٢٠١٩م بقوله: «إن كل اليمنيين بمن فيهم الحوثيون لهم دور في اليمن»[٢]. تصريح من هذا القبيل قد يثير حفيظة اليمنيين الذين يرون فيه تدخلاً سافراً في شؤونهم الداخلية، ولكنه يمثل، في وجهه الآخر، تحولاً جوهرياً في الموقف السعودي بالنظر إلى أهدافه المعلنة والحقيقية في بداية الحرب والتي كانت ترمي إلى الإقصاء التام لحركة أنصار الله عن صنعاء وعن السياسة اليمنية بصورة شاملة.

١- The United States Could End the War in Yemen If It Wanted To, The Atlantic, September 2018; available at: https://www.theatlantic.com/international/archive/2018/09/iran-/yemen-saudi-arabia/571465

٢- https://sabq.org/Wjp4bh

مع اقتراب قمة العشرين برعاية سعودية والمقررة في الرياض خلال يومي ٢١ . ٢٢ نوفمبر ٢٠٢٠م، كان على الرياض القيام بخطوات عملية وعاجلة من أجل إغلاق هذا الملف قبل موعد القمة. وفي ظل تنامي قدرات اليمنيين الصاروخية والعسكرية، بعد معركة «نصرٌ من الله» الحاسمة في صيف ٢٠١٩م، أصبحت الرياض معنيّة أكثر من أي وقت مضى بالتوصل إلى نهاية سريعة للحرب لأن النتائج أصبحت تتجاوز ميدان القتال وتطال هيبة ومكانة السعودية في الإقليم والعالم. وبصفةٍ عامة، لا أحد يعلم ما تخفيه «مفاجآت اليمن» حتى موعد القمة المقبل.

على الجانب الآخر، قد تكون جائحة كورونا واحتمال تحويل القمة من الواقع الحقيقي إلى الواقع الافتراضي خياراً إنقاذياً مؤقتاً بالنسبة للرياض، ولكنها لن تغير من حقيقة أن الحرب باتت عبئاً على النظام السعودي، وأن المستفيد منها هو من يجني الأموال من وراء اشتعال أوارها، أي الدول التي تبيع السعودية والإمارات السلاح على أنواعه.

نجدد التذكير بأن الحرب العدوانية على اليمن أُعلنت من واشنطن على لسان سفير المملكة في واشنطن عادل الجبير (وزير الدولة للشؤون الخارجية حالياً)، وأن التحالف العربي لدعم الشرعية في اليمن ضم أحد عشرة دولة هي: مصر، والأردن، والمغرب، والبحرين، والسودان، وقطر، والصومال - وإن كانت السعودية والإمارات هما القوة الفعلية على الأرض - وخلف هذه الدول تجمع دولي يتألف من عشرات الدول في أمريكا وأوروبا تزوِّد السعودية والإمارات بالسلاح والتقنية العسكرية والاستخبارية. باختصار؛ إنها حرب كونية على اليمن.

- الخلاف السعودي ـ الإماراتي:

خَلْف التحالف الصلب، والمصيري إلى حد كبير، الذي يجمع الرياض وأبو ظبي يكمن خلاف خفي، وقد تكون الأرض اليمنية، ولا سيما الجنوبية منها، المسرح الذي تتجلى فيه الخلافات نظراً لوجود ممثل لكلٍ منهما في الميدان.

يجدر لفت الانتباه إلى أن ثمة إشارات مكتومة عن دور للإمارات عبر ولي عهدها محمد بن زايد في تحريض وزير الدفاع وولي العهد محمد بن سلمان، على الحرب في اليمن.

إن مشاركة القوات السعودية والإماراتية في الحرب على اليمن، تعبر عن اتفاق ثنائي سابق، وإن التحالف العربي بقيادة السعودية هو إسقاط متأخر لذلك التحالف. لم يكن ولي العهد السعودي السابق (محمد بن نايف) مسروراً وهو يرى خصمه الإماراتي (محمد بن زايد) يمارس دور الصانع الحقيقي لقرار الحرب والمسيِّر لدفة القرارات المصيرية لمملكة آل سعود، في ظل عمل القيادة العسكرية في البلدين معاً لإعداد خطة الهجوم وإرسال القوات.

لكن انغماس السعوديين والإماراتيين في حرب مشتركة على اليمن لا يخفي خلافاتهم التي طفت على السطح في مرحلة مبكرة. على سبيل المثال، سعى نائب مدير شرطة دبي السابق (ضاحي خلفان) في سلسلة تغريدات له على حسابه في «تويتر» (مايو ٢٠١٥م) إلى التشكيك في جدوى الحرب، حيث كتب في إحدى تلك التغريدات: «تستطيع دول التحالف بما لديها من آلة عسكرية جبارة أن تحتل عدن، ثقوا تماماً، ولكن كم سيبقون؟ سنة، سنتين، ثلاثاً؟ في النهاية سينسحبون»، وعاد وكتب: «التحالف أنجز إنجازات رائعة، ثم أعلن وقف الحرب وقلنا صح. بقي الحذر من أن يجر الأمر إلى أوسع من ذلك»، كما خلص إلى أن: «صوملة اليمن غلط، الحرب كما تريد حزماً وعزماً تريد حسماً وتريد عقلاء يملكون أدوات الحسم، ليس من طرف واحد ولكن من كل الأطراف، وإلا فإنها نار الحرب».

أحدثت تغريدات خلفان تلك صدمة في الأوساط السياسية والإعلامية السعودية، واضطر وزير الخارجية الإماراتي عبد الله بن زايد أن يكتب رداً في العاشر من مايو من العام نفسه على حسابه في تويتر بما نصه: «لتكن ثقتك في قيادتك التي تشارك القيادة السعودية حزمها وأملها، وترفض وضع يدها بيد صالح الذي استرخص أرواح اليمنيين وغدر بجيرانه».

على أي حال، لم توصد تغريدة عبد الله بن زايد باب الأسئلة حول خلفية سلسلة التغريدات الناقدة التي كتبها ضاحي خلفان، لا سيما وأن اختيار تويتر مكاناً للرد ليس مألوفاً، فيما كان السعوديون ينتظرون موقفاً علنياً وفي وسيلة إعلامية رسمية. ولذلك، لم تتعامل الصحافة السعودية بجدية مع رد عبد الله بن زايد، بل على العكس وضعت تغريدات خلفان في إطار «سياسة» إماراتية وليست مجرد «رأي شخصي».

في رد فعل غاضب، كتب داود الشريان، الإعلامي السعودي المقرب من العائلة المالكة، مقالاً بعنوان «ضاحي خلفان من يمثل؟»، تخفى فيه وراء «المغردين» لتمرير ما يشاء من مواقف ومنها القول بأن تغريدات خلفان «تمثل رأي دولة الإمارات على نحو ما، أو أنها تسريبات لحوار مشابه يجري في الأروقة السياسية الإماراتية».

على الرغم من توضيح خلفان بأن رد وزير خارجية بلاده عليه هو للتمييز بين موقفه والموقف الرسمي في الإمارات، فإن الشريان لم يقبل منه التوضيح على أساس أن: «رجال الأمن في البلاد العربية لا يتحدثون بهذه الطريقة، ويظلون يعبرون عن رأي الأنظمة ومواقفها حتى بعد ترك مواقعهم». وخلص إلى أن: «ضاحي خلفان ليس مستقلاً، ولا يصلح لهذه المهمة، واستمرار لعبه هذا الدور خطأ مهني».

في مقاربة مشابهة، كتب خالد السليمان مقالاً بعنوان «المغرد ضاحي خلفان!»، ربط فيه بين دور خلفان حين كان يتقمص دور الضابط السابق في قضية اغتيال عملاء الموساد للقائد الفلسطيني في كتائب عز الدين القسام التابعة لحركة حماس (محمود المبحوح) في أحد فنادق دبي في يناير ٢٠١٠م، ودوره مغرِّداً على تويتر، لجهة تطابق الأسلوب الاستعراضي في الدورين. وعلى طريقة الشريان، فإن السليمان لم يتعامل مع تغريدات خلفان بكونها «رأياً شخصياً»، ولكن: «وبحكم موقفه الأثير لدى القيادة في إمارة دبي عبر عن مواقف سياسية دون أن يخرج من المنطقة الضبابية للفصل بين الرأي الشخصي المستقل والرأي الرسمي غير المباشر».

على أي حال، لم تكن تغريدات خلفان مجرد زلة قلم أو «رأي شخصي»، فقد كشفت تطورات لاحقة عما هو أكثر من خلاف تكتيكي في إدارة ملف الحرب على اليمن. ففي منتصف يونيو ٢٠١٦م ألقى وزير الدولة للشؤون الخارجية الإماراتي أنور بن محمد قرقاش محاضرة بعنوان «الإمارات والتحالف وأزمة اليمن»، حضرها ولي العهد محمد بن زايد، وقال ما نصه إن الحرب في اليمن: «عملياً انتهت لجنودنا ونرصد الترتيبات السياسية، ودورنا الأساسي حالياً هو تمكين اليمنيين في المناطق المحررة». وأشار إلى أن: «عاصفة الحزم واستعادة الأمل التي قادتها دول التحالف بقيادة المملكة العربية السعودية ودعم ومساندة الإمارات حققت أهدافها العسكرية بكل جدارة»، كما غمز من قناة الرئيس اليمني المنتهية صلاحيته (عبد ربه منصور هادي) بقوله: «إن الشرعية اليمنية ليست في البقاء بالمنافي والفنادق وإنما داخل اليمن».

كان الموقف الإماراتي واضحاً لا لبس فيه لجهة إعلان نهاية الحرب من جانب الإمارات، وأن الحرب حققت أهدافها، وأن على عبد ربه منصور هادي العودة إلى بلاده وإنهاء حالة التسكع في الفنادق. بهذا الوضوح كان الموقف الإماراتي، ما أثار تحفظاً سعودياً، واضطر قرقاش للتراجع عن تصريحه بدعوى سوء فهمه، وأكد على استمرار المشاركة الإماراتية إلى جانب السعودية في الحرب على اليمن، وكتب في حسابه على تويتر: «القوات المسلحة الإماراتية مستمرة مع السعودية ودول التحالف حتى إعلان انتهاء الحرب على اليمن». وتجدر الإشارة هنا إلى أن الإمارات شاركت بقوة برية في الحرب على اليمن قوامها (٣٠٠٠) جندي إماراتي، وإن التقدم البري في جنوب اليمن قد تم التخطيط له بشكل كبير بواسطة الإماراتيين.

في مشهد آخر، لم تمنع قواعد الاشتباك بين قوات التحالف بقيادة السعودية حصول حوادث متكررة تقع في خانة «النيران الصديقة» بين القوات الإماراتية والسعودية، بما في ذلك إسقاط طائرة حربية إماراتية بواسطة صواريخ مضادة للطائرات نسبت إلى «تنظيم داعش»، وفسرها الإماراتيون على أنها رسالة سعودية.

إن صراع النفوذ بين الإمارات والسعودية على اليمن ليس خافياً، فالمصالح المتضاربة فيما يرتبط بميناء عدن، والنفوذ البري عبر صحراء حضرموت، والمشاريع الطموحة في جزيرة سقطرى، والسيطرة الإماراتية الميدانية على جنوب اليمن وشرقه تثير ارتيابات مشروعة حول التحالف السعودي الإماراتي. فالخلاف بين الرياض وأبو ظبي - بحسب مصادر يمنية وأجنبية - يتجاوز الحرب ويستوعب شبكة التحالفات في الداخل اليمني. ومن المعروف أن علي عبد الله صالح كان يحظى بتقدير لدى الإماراتيين، على عكس السعودية التي تتمسك بحليفها عبد ربه منصور هادي، والذي تخوض قواته مواجهات مسلحة مع نظيرتها الإماراتية في أكثر من مكان في اليمن، بما في ذلك جزيرة سقطرى التي تحتلها الإمارات.

بات واضحاً لدى اليمنيين في الشمال والجنوب أن صراع مصالح يتسم بالشراسة والدموية بين الرياض وأبو ظبي يجري بشكل يومي على الأرض اليمنية، وأن الطرفين على استعداد لتخريب مخططات متبادلة قد تصب في صالح اليمنيين وتعيق حركة التحالف، من بينها إفشال السعودية في يونيو ٢٠١٩م مخططاً إماراتياً انقلابياً بفرض سيطرتها الكاملة على المحافظات الجنوبية والشرقية إلى جانب جزيرة سقطرى تمهيداً لإعلان «الانفصال» عن الشمال. ورد في التفاصيل المنشورة في صحيفة (الأخبار) اللبنانية في ٢٠ يونيو ٢٠١٩م نقلاً عن مصادر مقربة من عبد ربه منصور هادي أن: «حلفاء الإمارات كانوا يخططون لقيام مجموعات عسكرية، على رأسها ضباط رفيعو المستوى موالون للمجلس الانتقالي الجنوبي (الموالي لأبوظبي) بالتمرد على القادة التابعين لحكومة الرئيس المنتهية ولايته عبد ربه منصور هادي، وإعلان تأييد القواعد والثكنات العسكرية في المحافظات الجنوبية لمطلب فك الارتباط عن الشرعية». يترافق ذلك - وفقاً للمصادر نفسها - مع: «الإيعاز للنقابات العمالية والمهنية بالسيطرة على المؤسسات الحكومية في عدن، كالبنك المركزي ورئاسة الوزراء ووزارة المالية والمصافي وشركة النفط والاتصالات وغيرها»، من خلال: «إطلاق احتجاجات داخل تلك المؤسسات، والدفع بالموظفين الموالين للمجلس الانتقالي للسيطرة على إداراتها، ليعقب هذا الأمر تدخل قوات عسكرية تابعة للمجلس، والاشتباك مع أي قوات قد تحاول إخماد الانقلاب». لكن - وفقاً للمصادر نفسها - سارع السعوديون إلى التدخل في اللحظات الأخيرة لمنع الانقلاب، محذرين من أن أي هجوم عسكري أو محاولة للسيطرة على المؤسسات الحكومية ستؤدي إلى سقوط عدن خصوصاً، والجنوب عموماً، في أتون حرب أهلية شاملة تمهد لعودة «أنصار الله»، كما ستتسبب بانهيار البنك المركزي ووزارة المالية.

إجمالاً، باتت اليمن ساحة صراع ما بعد إقليمي، وأن من يقرر في هذه الحرب لم يعد السعودي ولا الإماراتي، ولا حتى الأوروبي. باختصار، إنها شأن أميركي بامتياز، وهذا ما أبلغه الأوروبيون بلغة فصيحة لليمنيين، وهذا ما يدركه السعوديون والإماراتيون أيضاً.

لكن، ثمَّة ما يستحق النقاش حول السبب الذي يجعل الإماراتي الرابح الأكبر في الميدان اليمني على حساب السعودي الذي يتحمل العبء الأكبر، مالياً ونفسياً وسياسياً، ويجني المكسب الأقل. ثمَّة إشارات إلى الخصائص الشخصية الفارقة بين القيادتين في أبو ظبي والرياض، وقدرة الإماراتي على المناورة التي جعلت منه رابحاً دائماً، والأكثر وثوقاً لدى الأميركي، بما يجعله المتعهد الفعلي له ليس في الملف اليمني فحسب بل في ملفات أخرى أيضاً في المنطقة على حساب السعودي.

إذا كانت السعودية أرادت استغلال اليمن لإيصال رسالة ما إلى العالم بأنها لا تزال دولة محورية، ولها كلمة الفصل في شؤون المنطقة، فإن الرسالة وصلت عكسية، ولذلك وجدت القيادة السعودية نفسها أمام مأزق حقيقي، يضطرها لقبول أي مبادرة أو استراتيجية خروج تحفظ ماء وجهها ولا تخرجها من الميدان بهزيمة واضحة. ولكن من يقول إن السعودية تملك قرار وقف الحرب؟

في الحساب العسكري، ووفق المعطيات الراهنة، فإن الحرب على اليمن دخلت منذ سنتين على الأقل مرحلة المراوحة العقيمة بالنسبة للسعودية. كان يمكن لمفاوضات ستوكهولم (٤ ـ ١٥ ديسمبر ٢٠١٨م) أن تؤسس لمرحلة جديدة تختلف عن جولات المفاوضات السابقة التي لم تكن الولايات المتحدة في وارد دعمها بصورة جدية. فقد تأكد بوضوح أن عدم واقعية فكرة تعديل موازين القوى العسكرية في اليمن في غير صالح حركة أنصار الله التي أثبتت تفوقاً حاسماً في الجانبين السياسي والعسكري. وسوف تبقى الأعمال العسكرية قائمة في موازاة الجولات التفاوضية لغاية واحدة وهي تحسين شروط التفاوض.

المناخ الدولي يتبدل تدريجياً، ويضغط من أجل وضع نهاية للعمليات العسكرية بعد تفاقم الأزمة الإنسانية، والتي قد تترك تأثيراتها السلبية المباشرة على الدول الغربية المشاركة في الحرب لا سيما الولايات المتحدة وبريطانيا.

سلسلة القرارات المتوالية الصادرة من حكومات أوروبية لوقف مبيعات الأسلحة إلى السعودية تشكل خطوة جوهرية في الطريق نحو قرار وقف الحرب. بطبيعة الحال، ليس من المنطقي إغفال المناورات الإعلامية أو «لعبة القط والفأر» في السياسة الغربية، حيث تدفع الحكومات برلماناتها وإعلامها لتصعيد قضية وقف تصدير السلاح إلى دول العدوان ـ ولا سيما السعودية والإمارات ـ بدعوى وقف المجازر ضد الأبرياء في اليمن، لتصبح العملية بمثابة ورقة الضغط على كل منهما من أجل المزيد من الصفقات العسكرية.

نتذكر الإيجازات التي قدمها كل من مايك بومبيو (وزير الخارجية) وجيم ماتيس (وزير الدفاع) أمام الكونغرس حول الحرب السعودية على اليمن، والتي نعتاها بكونها «قضية أمن قومي»، ومهدَّت إلى استصدار قرار لوقف المساعدات الأميركية العسكرية للسعودية من أجل وقف الحرب. وكان المشرِّعون الأميركيون قد صوتوا بـ: (٦٣ – ٣٧) لتقديم قرار عارضته الإدارة الأميركية لوقف دعم

السعوديين في اليمن. ولكن في نهاية المطاف، بقي السلاح يتدفق على السعودية والإمارات وبقيت لعبة التجاذب أيضاً مستمرة.

في ٢٨ نوفمبر ٢٠١٨م شدَّد بومبيو على أن الضلوع في اليمن هو من متطلبات الأمن القومي الأميركي، وأن وقف التدخل: «سيلحق ضرراً شديداً بالمصالح الأمنية القومية لأمريكا وحلفائنا وشركائنا في الشرق الأوسط»، بل زاد عليه بأن: «إنهاء الدعم العسكري الأمريكي للتحالف الذي تقوده السعودية في اليمن، والذي يشتمل على تبادل المعلومات الاستخباراتية وتحديد الأهداف، سيؤدي في الحقيقة إلى المزيد من الوفيات»[1]. إذاً هكذا تبرر الولايات المتحدة لنفسها ولحلفائها المعتدين قتل اليمنيين وتدمير منشآتهم الحيوية، وتجويعهم، وحصارهم، وموتهم بالمرض والفقر، للحد من الوفيات؟! بل ربط بومبيو الأمن القومي الأميركي بدعم السعودية، وتابع أنه بإنهاء هذا الدعم فإن: «التحالف بقيادة السعودية لن يحصل على مشورتنا وتدريبنا حول الاستهداف، ولذلك سيموت المزيد من المدنيين.. وستحصل الجماعات الإرهابية في اليمن على ملاذات أكثر أماناً»[2].

- من محمد إلى خالد:

كان نقل ملف اليمن إلى نائب وزير الدفاع الأمير خالد بن سلمان، شقيق ولي العهد، إشارة إلى زيادة صلاحياته، وفي الوقت نفسه تخفيف العبء الكبير الذي تحمله محمد بن سلمان خلال السنوات الماضية.

كان يراد لنقل الملف أن يحدث تغييراً في مسار الحرب عموماً. فالخسائر التي تكبدها السعوديون في السنتين الأخيرتين (عملية نصر من الله، والبنيان المرصوص، إلى جانب المسيّرات ضد المنشآت الحيوية في العمق السعودي) واستعادة أنصار الله مناطق حيوية في الشمال (نهم والجوف وصولاً إلى مأرب)، وانكسار الزحوفات المتكررة، تشي باختلال فادح في موازين القوى لصالح الجيش واللجان الشعبية.

بدا محسوماً لدى السعودية أن إدارة ترامب ليست في وارد التدخل العسكري المباشر إلا في نطاق محدود وله علاقة بأجندة خاصة، كما بات في حكم المؤكد ألّا عمليات عسكرية فارقة يمكن لقوات التحالف وحلفائها اليمنيين (قوات عبدربه منصور هادي، حزب الإصلاح، المجلس الانتقالي ...إلخ) أن تنجح في تغيير الخارطة الميدانية، بعد أن استعاد الجيش واللجان الشعبية المبادرة، وأبرزها عملية الساحل في محاولة للسيطرة على الحديدة والتي فشلت في تحقيق أهدافها الرئيسية.

كما توقف الاتصال بين صنعاء والرياض على مستوى ضباط الارتباط من العسكريين، وبات تبادل الرسائل يتم عن طريق الموفدين الدوليين ولا سيما المبعوث الأممي غريفيثس

١- https://www.almasryalyoum.com/news/details/1347030
٢- https://www.almasryalyoum.com/news/details/1344681

الذي يتحول أحياناً إلى ساعي بريد بالنسبة للرياض، على الأقل هذا ما ظهر في مناسبتين: عملية نصر من الله وعملية البنيان المرصوص، حيث جاء إلى صنعاء بطلب سعودي بعدم نشر صور احتراق الدبابات والعربات وقتل الجنود.

بدا واضحاً الارتباك الذي يحكم الموقف السعودي في الملف اليمني، فمن جهة يريد ابن سلمان تثبيت معادلة تتسم بالاستمرارية ولا سيما فيما يرتبط بإمدادات النفط عبر محافظة المهرة باتجاه بحر العرب، ومن جهة أخرى إرساء معادلة حكم تحافظ فيها الرياض على حصة ثابتة في ترتيبات اليمن السياسي ما بعد الحرب.

في الوقت نفسه، تجد المملكة نفسها عاجزة عن الركون إلى قوى سياسية وعسكرية يمنية أثبتت المعارك أنها لا تملك القدرة الكافية لتغيير معادلة وتثبيت أخرى. بل حتى الآن لم تستطع السعودية إقناع حكومة عبد ربه منصور هادي والمجلس الانتقالي بتطبيق اتفاق الرياض الذي تم التوصل إليه في أكتوبر ٢٠١٩م والذي نص على «عودة الحكومة إلى العاصمة المؤقتة عدن، وتفعيل سلطات الدولة اليمنية، وإعادة تنظيم كافة القوات تحت قيادة وزارة الدفاع»، وحدد الاتفاق شهرين مهلة زمنية للتنفيذ، غير أن معظم بنود الاتفاق لم تُنفذ، وسط اتهامات متبادلة من طرفي الأزمة. وبحسب قيادات في اليمن الجنوبي فإن: «السعودية فشلت في تطبيق أي بند من بنود اتفاق الرياض»، وأنها: «عمدت إلى منع جميع الأطراف من الدخول إلى عدن، بما في ذلك قوات حكومة هادي». ويرجع مسؤولون في الأخيرة (حكومة هادي) إلى أن الرياض تقف «على خاطر» أبو ظبي في هذه المسألة.

التناقضات في جبهة التحالف وفرت فرصة مناسبة للجيش واللجان الشعبية لمراكمة النقاط، ومواصلة المعارك التي ترى فيها نصراً صافياً، وهو ما يرجح كفة صنعاء ميدانياً، وتالياً سياسياً. المبعوث الدولي غريفيثس يسعى لوقف معارك صنعاء ضد التحالف، والرياض تجد نفسها أمام استحقاقات كبيرة لابد من قرارات حاسمة بشأنها، ولا سيما قمة العشرين.

ينقل عن خالد أنه يتمتع بقدر من الذكاء أكثر من شقيقه محمد الذي تستبد به مشاعر العلو والغطرسة والرعونة والعناد. ولكن حتى الآن ليس في جعبة خالد ما يجعله في موقع الاستراتيجي القادر على التوصل الى خواتيم حاسمة لحرب عقيمة، والخروج منها بخسائر أقل.

إجمالاً، السعودية تجني ما حصدته في أعوام العدوان الستة، فلا هي غيَّرت في معطيات الجغرافيا ولا هي نجت من لعنة التاريخ بما ارتكبت في حق أرواح اليمنيين وبناهم التحتية ومنشآتهم الحيوية ومستشفياتهم ومدارسهم وحقولهم وبحارهم وأنهارهم وجسورهم ...إلخ. سوف يكون ذلك كله في عهدة أرشيف اليمن القادم.

الاحتلال السعودي الإماراتي للأراضي اليمنية

"حدود المسؤولية وأبعادها من منظور القانون الدولي"

د. عبدالرحمن المختار

أستاذ القانون العام المشارك جامعة الحديدة

مقدمة:

أولاً: من التدخل بالوكالة إلى العدوان العسكري والاحتلال المباشر

دأبت السعودية منذ عقود على إضعاف اليمن من خلال ما عُرف بـ"اللجنة الخاصة" التي عملت على التركيز على شيوخ القبائل وبعض مسؤولي الدولة مدنيين وعسكريين وأغرتهم بالمال، حيث خصصت هذه اللجنة أموالاً طائلة لاستمالة هؤلاء إلى صفها وتكليفهم بتنفيذ أجندتها في الداخل اليمني فكان لهؤلاء دور تخريبي اجتماعي وسياسي واقتصادي وثقافي وعسكري طيلة عقود من الزمن[1].

لقد تدخلت المملكة العربية السعودية في الشؤون الداخلية لليمن قبل التدخل والعدوان العسكري المباشر، فقد سبق للسعودية قبل تاريخ ٢٦ مارس ٢٠١٥م تمويل وتوجيه الجماعات الإرهابية في عدد من المحافظات اليمنية وكانت هذه القوى الإرهابية تمثل أذرعاً للمملكة العربية السعودية ارتكبت من خلالها مئات الجرائم الإرهابية راح ضحيتها الآلاف من الشهداء والجرحى، وكانت القوى الإرهابية وبتوجيهات سعودية[2] تختار تجمعات السكان المدنيين لتنفذ عملياتها الإرهابية، حيث كانت الساحات

١- من المعلوم أن المئات من الوجاهات الاجتماعية والقادة العسكريين الذين مولتهم السعودية سابقاً هم اليوم في الرياض يتبنون أجندتها ويقاتلون في صفوف قواتها.

٢- اصبحت القوى الإرهابية - بعد إعلان السعودية التدخل العسكري المباشر في اليمن - جزءاً مهماً من الجيش البري للمملكة العربية السعودية.

والميادين العامة والمدارس والمساجد والمعسكرات ووسائل المواصلات العامة أهدافاً رئيسية للقوى الإرهابية.

عقب ذلك تدخلت المملكة العربية السعودية عسكرياً وبشكل مباشر وحشدت لهذا التدخل المباشر سبعة عشر دولة[1] تحت مسمى "التحالف"، حيث هاجمت طائرات دول هذا التحالف العدواني أغلب المدن اليمنية في ٢٦ مارس ٢٠١٥م دون سابق إنذار، وتمكنت السعودية وتحالفها من شراء صمت أغلب حكومات الدول العربية والغربية. ولم يقف الأمر عند ذلك الحد بل إن دولاً كبرى[2] أعلنت تأييدها ودعمها لتحالف العدوان على اليمن وساندت هذا التحالف لوجستياً واستخباراتياً، فكانت أمريكا هي من يزود طائرات تحالف العدوان بالوقود في الجو وبمختلف أنواع الأسلحة التي استخدمها التحالف في قتل اليمنيين وارتكاب المجازر الوحشية بحق أطفال ونساء اليمن.

من الذرائع التي أعلنتها السعودية "التهديد المحتمل لأمنها من جانب اليمن" أو ممن أسمتهم "الحوثيين". وكانت السعودية قد روجت لتدخلها بحجة وجود مناورات عسكرية على الأراضي اليمنية جوار حدودها الجنوبية، في الوقت الذي لم يكن لدى اليمن أي نوايا عدوانية تجاه المملكة العربية السعودية أو أي دولة من دول الإقليم، وكان الجيش اليمني يلاحق الجماعات الإرهابية التي فتكت بالأبرياء في مختلف المدن اليمنية، واليمن بمواجهته للجماعات الإرهابية إنما كان يدافع عن أمنه وأمن مواطنيه وأمن دول الجوار والعالم.

لقد اتضح فعلاً أن السعودية لم تكن معنية بحياة اليمنيين فقد ارتكبت أكثر من ألفين وسبعمائة مجزرة بحق المدنيين ودمرت - تماماً - (هل مناسب كلمة تماماً أم تحذف) البنى التحتية لليمن والمقومات الأساسية لحياة شعبه، وهي النتيجة ذاتها التي سعت - ولا تزال تسعى - إليها ألا وهي

١- على رأس دول ذلك التحالف: (المملكة العربية السعودية، الإمارات العربية المتحدة، دولة الكويت، مملكة البحرين، دولة قطر، جمهورية مصر العربية، جمهورية السودان، السنغال، المملكة الأردنية، المملكة المغربية).

٢- الولايات المتحدة الأمريكية، المملكة المتحدة، فرنسا.

إضعاف اليمن، وحين لم ينتج عن استخدامها المفرط للقوة العسكرية إخضاع اليمنيين للقبول بالتقسيم عمدت إلى احتلال محافظات بعيدة لم تكن يوماً ساحة للصراع العسكري، فقد احتلت محافظة المهرة، وعملت بشكل دؤوب على إنشاء ميناء نفطي فيها يخرج نفطها إلى بحر العرب بعيداً عن التهديد الإيراني الذي تدعي أنه يواجه نفطها في مضيق هرمز[١].

لقد زعمت السعودية والإمارات أن تدخلهما العسكري جاء للحفاظ على وحدة اليمن في مواجهة ما أسمته "الانقلاب"، في حين أن ما حدث في اليمن كان ثورة شعبية على فساد السلطة القائمة والعميلة للسعودية والتي تنفذ أجندتها وأهدافها في اليمن، وعندما أدركت السعودية أن عملاءها على وشك السقوط بل إن الشعب قد أسقطهم فعلاً عملت على حشد تحالف دولي إلى جانبها وأعلنت تدخلها العسكري في اليمن دون سابق إنذار.

بعد فشل التحالف في بسط سيطرته العسكرية على الأراضي اليمنية خلال المدة التي كان قد أعلن عنها مع الأيام الأولى لشن العدوان[٢]، وبعد أن أعلن انتهاء عملياته العسكرية المسماة عاصفة الحزم وأنها قد حققت أهدافها؛ عاد ذلك التحالف ليطلق الحرب من جديد تحت مسمى آخر وهو "عملية إعادة الأمل"[٣]، حيث ارتكب تحالف العدوان السعودي الإماراتي خلال تلك العملية وتحت ذلك المسمى آلاف المجازر بحق أبناء الشعب اليمني وثقتها تقارير أغلب المنظمات الحقوقية المحلية والدولية[٤].

إن استخدام السعودية والإمارات لذريعة التدخل تحت عنوان الدوافع الإنسانية لم يكن في حقيقته سوى تهيئة الأرضية للاحتلال العسكري المباشر والمثال على ذلك محافظة المهرة التي عملت السعودية على

١- مثّل مضيق هرمز مصدر قلق دائم للسعودية في حالة نشوب صراع في الخليج بينها وبين إيران فإنه سيترتب على ذلك إغلاق المضيق حتماً وتوقف صادرات دول الخليج من النفط باستثناء عمان.

٢- أعلن التحالف أنه حقق أهدافه وسيطر على الأجواء اليمنية في الخمسة عشر دقيقة الأولى للعدوان، وأن قواته ستدخل العاصمة صنعاء خلال أسبوع أو أسبوعين.

3- كان إخفاق العدوان محرجاً له بعد أن انقضت المدة التي حددها دون أن يحقق ما سبق أن أعلنه، ولذلك وخروجاً من هذ الحرج تحول من عاصفة الحزم إلى عملية إعادة الأمل التي اتسمت - خلال أكثر من ست سنوات - بارتكاب مئات المجازر المذابح بحق المدنيين من أبناء الشعب اليمني الذين زعم العدوان السعودي الإماراتي أنه بمجازره هذه إنما يعيد لهم الأمل.

٣- توضح التقارير المنشورة بشاعة المجازر التي ارتكبها تحالف العدوان بحق المدنيين من أبناء الشعب اليمني.

ترسيخ وجودها فيها ومحافظة سقطرى التي عملت الإمارات على ترسيخ وجودها فيها رغم أن أياً من المحافظتين لا يوجد فيهما أي مبرر على الإطلاق للتدخل تحت عنوان الدوافع الإنسانية، فهاتان المحافظتان تحديداً لم يكونا يوماً ساحة لأي صراع دامٍ أو حتى ساحة لعمليات طائرات تحالف العدوان.

على الرغم من ذلك؛ استقرت قوات الاحتلال السعودي في محافظة المهرة وشرعت السعودية في بناء ميناء نفطي في هذه المحافظة بهدف إخراج نفطها إلى بحر العرب بعيداً عن المخاطر التي تهدد موانئها النفطية في الخليج، وهذه الأهداف الاستعمارية أصبحت واضحة ومكشوفة للجميع، كما شرعت في الحفر لأنبوب نفطي ينقل نفطها من المنطقة الشرقية بعيداً عن مضيق هرمز، كذلك الحال بالنسبة للإمارات التي بدأت بإقامة منشآت لها في محافظة سقطرى بل وبدأت بنقل التراث الإنساني في هذه المحافظة إلى إمارات دبي وأبوظبي، والأخطر من ذلك أنها فتحت الجزيرة للصهاينة لبناء قواعد عسكرية بعد إعلانها التطبيع وتوقيع اتفاقية سلام مع الكيان الصهيوني.

من ذلك كله؛ يتضح أن التدخل تحت العنوان الإنساني لا يعدو كونه غطاءً لمطامع استعمارية سعودية إماراتية وراءهما دول استعمارية كبرى، ويؤكد ذلك دخول الولايات المتحدة بشكل علني ومباشر على خط العدوان على اليمن بعد فشل السعودية والإمارات في كسر الإرادة اليمنية ولما يقرب من ست سنوات، فقد زار مسؤول عسكري أمريكي كبير في وقت سابق محافظة عدن بهدف معلن وهو دعم الجيش والقوات البحرية لحماية المياه الإقليمية اليمنية ومضيق باب المندب من التهديدات الإرهابية المحتملة وهو ما يعني أن أمريكا قررت الدخول بشكل مباشر بسبب إخفاق وكلائها في المنطقة.

ثانياً: المسؤولية القانونية لدولتي الاحتلال

١- مسؤولية دولتي الاحتلال عن انتهاك حق السكان في البقاء في موطنهم:

نصت المادة (٤٩) من اتفاقية جنيف الرابعة على أنه: "يحظر النقل الجبري الجماعي أو الفردي للأشخاص المحميين أو نفيهم من الأراضي المحتلة إلى أراضي دولة الاحتلال أو إلى أراضي أي دولة أخرى، محتلة أو غير محتلة، أياً كانت دواعيه".

هذا الحظر تنتهكه - في واقع الحال - دولتا الاحتلال السعودي الإماراتي بشكل فاضح، فبمجرد احتلالهما لجزيرة ميون - على سبيل المثال - قامتا بتهجير السكان (فردياً وجماعياً) بشكل قسري لتحويل الجزيرة إلى قاعدة عسكرية للاحتلال.

في الصدد ذاته، لم تراع دولتا الاحتلال تحديد مكان بديل للمهجرين - لا في أراضيها ولا في أراضٍ أخرى - بل تركتهم يواجهون مصيرهم دون مأوى يفترشون الأرض ويلتحفون السماء فأغلبهم يعتمدون في معيشتهم على الصيد وبشكل يومي، وهو ما يعني أنه لا يتوافر لهم أي احتياطي لمواجهات متطلبات الحياة، وما لم يعملوا فلن يأكلوا وبذلك تكون دولتا الاحتلال قد ارتكبت بحق المهجرين انتهاكات جسيمة، وهذه الانتهاكات تمثل انتهاكاً سافراً للحظر الوارد في المادة السابقة.

ومع أن المادة السابقة تلزم دولتي الاحتلال في حال اقتضت الضرورة إخلاء كلي أو جزئي للسكان المدنيين إلى منطقة محددة لأسباب تتعلق بأمن السكان أو لأسباب عسكرية قهرية[١] شريطة أن تلتزم دولة الاحتلال التي تقوم بعمليات النقل أو الإخلاء أن تتحقق إلى أقصى حد ممكن من توفير أماكن الإقامة المناسبة لاستقبال الأشخاص المحميين، ومن أن الانتقالات تجري في ظروف مُرضية من وجهة السلامة والشروط الصحية والأمن والتغذية، ومن عدم تفريق أفراد العائلة الواحدة[٢].

١- الفقرة الثالثة من المادة (٤٩) من اتفاقية جنيف الرابعة.

٢- الفقرة الرابعة من المادة (٤٩) من اتفاقية جنيف الرابعة.

إضافة إلى ذلك تلزم المادة السابقة دولة الاحتلال بعدم تجاوز حدود الأرض المحتلة بالنسبة لمن أخلتهم من السكان لأسباب قهرية، وتوجب المادة السابقة على الدولة المحتلة إعادة السكان إلى موطنهم الذي سبق أن أخلتهم منه بمجرد انتهاء الأسباب التي مثلت ذريعة للإخلاء[1].

كما لا يجوز - وفقاً لأحكام المادة السابقة - لدولة الاحتلال أن تحجز الأشخاص المحميين في منطقة معرضة بشكل خاص لأخطار الحرب، إلا إذا اقتضى ذلك أمن السكان أو لأسباب عسكرية قهرية[2]، ولا تجيز المادة السابقة لدولة الاحتلال نقل جزء من سكانها المدنيين إلى الأراضي التي تحتلها[3].

الملاحظ أن دولتي الاحتلال السعودي الإماراتي انتهكتا الحظر السابق ونقلتا جزءاً من سكانها المدنيين ووطنتهم في الأراضي اليمنية المحتلة بعد أن هجرت منها سكانها قسرياً وتحت مبررات وذرائع مختلقة، والواضح أن دولتي الاحتلال السعودي الإماراتي لم تعر الحظر الوارد في فقرات المادة السابقة أدنى اعتبار وقد ترتب على سلوكهما تهجير السكان المدنيين من موطنهم وتعريض حياتهم للخطر، فدولتا الاحتلال لم توفرا لأولئك المأوى المناسب ولا الغذاء ولا الدواء وتركتهم يواجهون مصيرهم المحتوم.

لم تقتصر سلوكيات دولتي الاحتلال السعودي الإماراتي على انتهاك حق السكان في البقاء في موطنهم في الأراضي المحتلة، بل إن إجراءاتهما المنتهكة لأحكام اتفاقيات جنيف والبروتكولات الملحقة بها قد شملت الأرض إلى جانب السكان، فعملت دولة الاحتلال الإماراتي على جرف التراث الحضاري الإنساني من جزيرة سقطرى ونقلته إلى أراضيها في عاصمتها السياسية أبو ظبي وإلى عاصمتها الاقتصادية دبي ودون أي اعتبار للحظر الوارد في الاتفاقية الذي يلزم دولة الاحتلال بتوفير الحماية للأرض المحتلة ولسكانها.

١- اتفاقية جنيف الرابعة بشأن حماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب المؤرخة في١٢ آب/أغسطس ١٩٤٩، متوفر على الرابط:

https://www.icrc.org/ar/resources/documents/treaty/geneva-convention-iv-on-civilians

٢- الفقرة الثانية، مرجع سابق.

٣- الفقرة السادسة، مرجع سابق.

لقد تجاوز سلوك دولتي الاحتلال السعودي الإماراتي الانتهاكات بحق الأرض والإنسان في المناطق المحتلة إلى تهيئة الأراضي المحتلة لإقامة قواعد عسكرية للأمريكان والكيان الصهيوني، حيث فتحت قوات الاحتلال الإماراتي جزيرة سقطرى لتعيث فيها المخابرات الأمريكية والصهيونية فساداً وتعبث فيها تحت عناوين السياحة وغيرها من العناوين البراقة كالاستثمار وما شابه ذلك.

٢- مسؤولية دولتي الاحتلال عن انتهاك حقوق الطفولة:

تنص الفقرة الأولى من المادة (٧٧) من البروتكول الإضافي الملحق باتفاقية جنيف الرابعة على أنه: "يجب أن يكون الأطفال موضع احترام خاص، وأن تكفل لهم الحماية ضد أية صورة من صور خدش الحياء، ويجب أن تهيئ لهم أطراف النزاع العناية والعون اللذين يحتاجون إليهما، سواء بسبب سنهم، أم لأي سبب آخر".[1]

وإذا كان النص سالف الذكر يقرر - في إطاره النظري - حماية خاصة معتبرة للأطفال تلتزم بتوفيرها دولة الاحتلال تكفل عدم تعريضهم لأي أفعال من شأنها المساس بشرفهم وكرامتهم فلا يتعرضون لأي صورة من صور السلوكيات المهينة التي تمس أعراضهم أو تخدش حياءهم؛ فإن ذلك الالتزام لم يجد له أي صدى على أرض الواقع في المناطق المحتلة، فدولتا الاحتلال السعودي والإماراتي ترتكب جرائم الإهانة في حق الطفولة بمختلف صورها، حيث تتكشف جرائم قوات دولتي الاحتلال وعملائهما ومرتزقتهما - بشكل شبه يومي - بحق الطفولة في عدد من المناطق الواقعة تحت الاحتلال.

إن ما يكشف من جرائم اغتصاب الأطفال في المناطق الخاضعة للاحتلال السعودي الإماراتي وعملائه ومرتزقته تهز كيان الشعب اليمني كون هذه الجرائم دخيلة على المجتمع اليمني، وما خفي من جرائم

١- البروتوكولات الإضافية إلى اتفاقيات جنيف المؤرخة في١٢ آب/ أغسطس ١٩٤٩، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، الطبعة العربية، المركز الإقليمي للإعلام، القاهرة، مارس/ آذار ٢٠١٠، ص ٥٢.

الاحتلال بحق الطفولة في المناطق المحتلة أشد بشاعة فالاحتلال وعملاؤه ومرتزقته يتكتمون على جرائم قواتهم وعملائهم ومرتزقتهم بحق الطفولة ويعاقبون كل من يسرب أي معلومات عن تلك الجرائم.

توجب المادة (٧٧) - سالفة الذكر - على دولة الاحتلال اتخاذ كافة التدابير اللازمة التي تكفل عدم اشتراك الأطفال الذين لم يبلغوا بعد سن الخامسة عشرة في الأعمال القتالية بصورة مباشرة، ووفقاً لتلك المادة يتوجب على دولة الاحتلال أن تمتنع عن تجنيد الأطفال للخدمة في قواتها المسلحة[١]، لكن دولتي الاحتلال السعودي الإماراتي لا تقيمان أي اعتبار لذلك الحظر إزاء تجنيد الأطفال دون السن القانونية وإشراكهم في الأعمال القتالية، بل إنها تضعهم في الخطوط الأمامية وتستخدمهم دروعاً بشرية لحماية قواتها العسكرية.

لا تكتفي قوات الاحتلال السعودي الإماراتي وعملاؤهما ومرتزقتهما بتجنيد الأطفال ووضعهم في الخطوط الأمامية لحماية جنودها، بل إنها تعمد إلى خطف الأطفال وتزعم أنها أسرتهم من الجبهات وتروج أن الطرف الآخر يجند الأطفال دون السن القانونية، وحتى وإن وجدت حالات محدودة فهي نادرة والأمر ليس ممنهجاً كما هو الحال بالنسبة لقوات الاحتلال السعودي الإماراتي، ومع ذلك ورغم أن المادة السابقة توجب على قوات الاحتلال معاملة الأطفال سواء كانوا أسرى حرب[٢] أو غير ذلك معاملة خاصة، وأن تخصص لهم أماكن احتجاز منفصلة عن تلك الأماكن المخصصة للبالغين[٣]، لكن قوات الاحتلال تتعمد ممارسة سلوكيات مهينة بحق الأطفال.

١- ينظر: الفقرة الثانية من المادة (٥١) من البروتكول الأول المحلق باتفاقية جنيف الرابعة. مرجع سابق.

٢- ينظر: الفقرة الثالثة من المادة السابقة. مرجع سابق.

٣- ينظر: الفقرة الرابعة من المادة السابقة. مرجع سابق.

٣- مسؤولية دولتي الاحتلال عن المساس بالحقوق العائلية:

وفقاً لأحكام اتفاقية جنيف الرابعة يقع على عاتق دولة الاحتلال السماح لأي شخص مقيم في أراضٍ محتلة بإبلاغ أفراد عائلته أينما كانوا بأخباره ذات الطابع العائلي المحض، وتلقي أخبارهم، ويجب أن تنقل المراسلات منه وإليه بسرعة ودون إبطاء لا مبرر له[١] وإذا تعذر أو استحال نتيجة لظروف قاهرة تبادل المراسلات العائلية بواسطة البريد العادي، وجب على دولة الاحتلال المعنية أن تلجأ إلى وسيط محايد لنقل الرسائل كما هو الحال بالنسبة للصليب الأحمر أو الهلال الأحمر[٢].

يتضح من خلال ما سبق حرص النصوص الواردة في الاتفاقية على إلزام دولة الاحتلال بأمور تفصيلية فيما يتعلق بالجوانب العائلية في المناطق الواقعة تحت الاحتلال نظراً لاعتبارات تتعلق بطمأنة العائلات على أفرادها وطمأنة الأفراد على عوائلهم، وبمراجعة سلوكيات دولتي الاحتلال السعودي الإماراتي بحق الأفراد وعوائلهم لا نجد حداً أدنى من الالتزام بما ورد في اتفاقية جنيف بشأن الجوانب العائلية بل إن ما تتبعه دولتا الاحتلال من سلوك ممنهج هو الإخفاء القسري وقطع صلات المخفيين مع عائلاتهم[٣] والمشاهد وبشكل شبه يومي مطالبات عائلات المخفيين في المحافظات المحتلة بالكشف عن مصير أبنائهم، ومع ذلك فقوات دولتي الاحتلال لا تعير وقفات العائلات الاحتجاجية والمطلبية أدنى اهتمام ولا تعير الالتزامات الواردة في الاتفاقية أي اعتبار.

١- ينظر: الفقرة الأولى من المادة (٢٥) من اتفاقية جنيف الرابعة. اتفاقيات جنيف المؤرخة في ١٢ آب/ أغسطس ١٩٤٩، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، القاهرة، ط ٨ ، ٢٠٠٥، ص ١٩٥.

٢- الفقرة الثانية من المادة السابقة، المرجع نفسه.

٣- تنص المادة (٧٤) من البروتوكول الإضافي الملحق باتفاقية جنيف الرابعة على أن: " تيسر الأطراف السامية المتعاقدة وأطراف النزاع قدر الإمكان جمع شمل الأسر التي شتتت نتيجة للمنازعات المسلحة، وتشجع بصفة خاصة عمل المنظمات الإنسانية التي تكرس ذاتها لهذه المهمة طبقاً لأحكام الاتفاقيات وهذا الملحق (البروتوكول) واتباعاً للوائح الأمن الخاصة بكل منها".

٤- مسؤولية دولتي الاحتلال عن الأعمال الماسة بالشرف والكرامة:

لا تقتصر سلوكيات دولتي الاحتلال السعودي الإماراتي على مجرد إخفاء الأشخاص وقطع صلاتهم بعائلاتهم بل إن قوات هاتين الدولتين وعملاءهما ومرتزقتهما يرتكبون ما هو أفظع من ذلك فيعمدون إلى تعريض الأشخاص المحميين بموجب أحكام اتفاقية جنيف الرابعة والبروتكولين الملحقين بها للمساس بكرامتهم وشرفهم وعقائدهم الدينية وعاداتهم وتقاليدهم[١] وهو ما أكدته التقارير الأممية[٢] وتعمد قوات الاحتلال وعملاؤها ومرتزقتها إلى حرمان المخفيين قسرياً في جميع الأوقات من المعاملة الإنسانية، دون اعتبار لسنهم وحالتهم الصحية[٣] وتعرضهم لأعمال العنف والتهديد[٤].

لا تستثني سلوكيات دولتي الاحتلال السعودي الإماراتي وعملائهما ومرتزقتهما النساء[٥]، فعدد منهن في المناطق المحتلة تعرضن - بشكل متكرر - للاعتداء على شرفهن وهتك أعراضهن واغتصابهن من جانب قوات دولتي الاحتلال وعملائهما ومرتزقتهما، وذلك بحسب ما أكدت عليه التقارير الدولية[٦]، وهو ما يعد انتهاكاً صارخاً لأحكام اتفاقية جنيف الرابعة[٧]. بل إن الأمر لا يقتصر على ما سبق؛ حيث إن قتل النساء ورميهن في مجاري السيول أو في أماكن معزولة أصبح أمراً معتاداً في معظم المناطق المحتلة.

١- ينظر: الفقرة الأولى من المادة (٢٧) من اتفاقية جنيف الرابعة، مرجع سابق.

٢- ينظر: تقرير لجنة الخبراء المقدم إلى مجلس الأمن الدولي ٢٧ يناير ٢٠٢٠ ص ٤٢ إلى٤٨؛ متوفر على الرابط:
https://undocs.org/ar/S/2021/79

٣- الاتفاقية الدولية لحماية جميع الأشخاص من الإخفاء القسري؛ موقع الأمم المتحدة؛ متوفر على الرابط:
https://www.ohchr.org/ar/hrbodies/ced/pages/conventionced.aspx

٤- ينظر: الفقرة الثانية من المادة السابقة.

٥- تنص المادة (٧٦) من البروتكول الإضافي الأول الملحق باتفاقية جنيف الرابعة على أنه:

١- يجب أن تكون النساء موضع احترام خاص، وأن يتمتعن بالحماية، ولاسيما ضد الاغتصاب والإكراه على الدعارة، وضد أية صورة أخرى من صور خدش الحياء.

٢- تعطى الأولوية القصوى لنظر قضايا أولات الأحمال وأمهات صغار الأطفال، اللواتي يعتمد عليهن أطفالهن، المقبوض عليهن أو المحتجزات أو المعتقلات لأسباب تتعلق بالنزاع المسلح.

٣- تحاول أطراف النزاع أن تتجنب قدر المستطاع، إصدار حكم بالإعدام على أولات الأحمال أو أمهات صغار الأطفال اللواتي يعتمد عليهن أطفالهن، بسبب جريمة تتعلق بالنزاع المسلح، ولا يجوز أن ينفذ حكم الإعدام على مثل هؤلاء النسوة".

٦- ينظر: تقرير لجنة الخبراء، مرجع سابق.

٧- ينظر: الفقرة الثالثة من المادة السابقة من الاتفاقية الرابعة. مرجع سابق.

٥- مسؤولية دولة الاحتلال عن أعمال التعذيب والأعمال الماسة بالحق في الحياة:

توجب الفقرة الأولى من المادة (٣) من اتفاقية جنيف الرابعة على دولة الاحتلال التزام المعاملة الإنسانية إزاء الأشخاص الذين لا يشتركون مباشرة في الأعمال العدائية، بمن فيهم أفراد القوات المسلحة الذين ألقوا عنهم أسلحتهم، والأشخاص العاجزون عن القتال بسبب المرض أو الجرح أو الاحتجاز أو لأي سبب آخر، دون أي تمييز ضار يقوم على العنصر أو اللون أو الدين أو المعتقد أو الجنس أو المولد أو الثروة أو أي معيار مماثل آخر.

لهذا الغرض، تحظر الأفعال التالية فيما يتعلق بالأشخاص المذكورين أعلاه، وتبقى محظورة في جميع الأوقات والأماكن:

أ. الاعتداء على الحياة والسلامة البدنية، وبخاصة القتل بجميع أشكاله، والتشويه، والمعاملة القاسية، والتعذيب.

ب. أخذ الرهائن.

ج. الاعتداء على الكرامة الشخصية، وعلى الأخص المعاملة المهينة والحاطة بالكرامة.

د. إصدار الأحكام وتنفيذ العقوبات دون إجراء محاكمة سابقة أمام محكمة مشكلة تشكيلاً قانونياً، وتكفل جميع الضمانات القضائية اللازمة في نظر الشعوب المتمدنة.

إجمالاً، ليس من المبالغة القول إن قوات الاحتلال السعودي الإماراتي وعملاءهما ومرتزقتهما ارتكبت وما تزال ترتكب كل المحظورات الواردة في الفقرة السابقة وبشكل جماعي فهي تعتدي على حياة الأفراد وسلامتهم البدنية وتقتل وتشوه وتعذب وتستخدم مختلف أساليب المعاملة القاسية، وتخفي الأشخاص

قسرياً، وتعتدي بالمعاملة المهينة والحاطة من كرامتهم الشخصية، وتنفذ العقوبات القاسية دونما محاكمة عادلة تتوفر فيها أدنى الضمانات القضائية[1].

ومن المعلوم أن كل من هم في المناطق الخاضعة للاحتلال من جانب القوات السعودية الإمارتية وعملائهما ومرتزقتهما لم يشتركوا في الأعمال العسكرية العدائية، بل إن أغلب وأهم المناطق المحتلة لم تكن في يوم ما ساحة لأي أعمال قتالية وإنما تم احتلالها تنفيذاً لأهداف ومطامع قوات الاحتلال السعودي الإماراتي ومن ورائهما قوى أجنبية كبرى، ومع ذلك فأبناء المناطق المحتلة كلها عرضة لكافة أشكال التعذيب والمعاملة اللاإنسانية.

أما ما يتعلق بمن كان يقاتل قوات الاحتلال وألقى السلاح لأي سبب من الأسباب[2] فهؤلاء لا يمكن وصف ما يتعرضون له من معاملات وحشية، ومنهم من يتعرض منهم للقتل في معتقلات قوات الاحتلال السعودي الإماراتي وعملائهما ومرتزقتهما فتلك غاية قد أدركها وفاز بها، ومن لا يزالون على قيد الحياة فإنهم يتعرضون لأشكال وأنواع من التعذيب لا وجود لها إلا في قواميس قوات الاحتلال السعودي الإماراتي فالحرق والدفن للأحياء منهم صورة وشكل من أشكال التعذيب والمعاملة اللاإنسانية وغيرها من الصور والأشكال التي تزخر بها قواميس التعذيب لقوات الاحتلال السعودي الإماراتي وعملائهما ومرتزقتهما.

٦- مسؤولية دولة الاحتلال عن تزويد المناطق المحتلة بالغذاء والدواء:

يقع على عاتق دولة الاحتلال - وفقاً للمادة (٥٥) من اتفاقية جنيف الرابعة - واجب العمل وبأقصى ما تسمح به وسائلها، على تزويد السكان بالمؤن الغذائية والإمدادات الطبية، ومن واجبها على الأخص أن

١- البيضاء وحضرموت ارتكب عملاء دولتي الاحتلال السعودي الإماراتي أعمال القتل والصلب بحق مدنيين أبرياء.
٢- جرحى أو مرضى أو محاصرين حتى نفذت مؤنهم.

تستورد ما يلزم من الأغذية والمهمات الطبية وغيرها إذا كانت موارد الأراضي المحتلة غير كافية[١] وتلتزم دولة الاحتلال بمراعاة احتياجات السكان المدنيين من المؤن الغذائية والامدادات الطبية[٢].

كما يتوجب على دولة الاحتلال - وفقاً للمادة (٥٦) من اتفاقية جنيف الرابعة - أن تعمل، بأقصى ما تسمح به وسائلها، على صيانة المنشآت والخدمات الطبية والمستشفيات وكذلك الصحة العامة والشروط الصحية في الأراضي المحتلة، وذلك بوجه خاص عن طريق اعتماد وتطبيق التدابير الوقائية اللازمة لمكافحة انتشار الأمراض المعدية والأوبئة. ويسمح لجميع أفراد الخدمات الطبية بكل فئاتهم بأداء مهامهم[٣].

لا نجد على أرض الواقع أي صدى لما ورد في المادتين السابقتين بشأن توفير المواد الغذائية والإمدادات الطبية من جانب قوات الاحتلال السعودي الإماراتي لسكان الأراضي المحتلة، حيث تنتشر فيها المجاعات وسوء التغذية وتتفشى فيها الأمراض الفتاكة وتكتفي دولتا الاحتلال بالترويج للأعمال الإغاثية للهلال الأحمر الإماراتي[٤] ولما يسمى مركز الملك سلمان للإغاثة[٥]، لكن ذلك لا يتعدى الجانب الإعلامي أما الواقع في الأراضي المحتلة والذي تؤكده التقارير الدولية فمختلف تماماً.

مع أن المنشآت الصحية في الأراضي المحتلة أعلنت عجزها عن استقبال حالات الإصابة بمختلف الأوبئة وعلى رأسها وباء كورونا وامتنع عدد كبير من كادرها الطبي عن العمل بسبب نقص الإمدادات الطبية فإن دولتي الاحتلال لم تحركا ساكناً وظل السكان يواجهون الأوبئة التي تفتك بهم وكأن دولتي الاحتلال تعتبر الأوبئة إحدى وسائلها للفتك بالسكان المدنيين، ولم تراع دولتا الاحتلال السعودي الإماراتي لا الجانب

١- ينظر: الفقرة الأولى من المادة (٥٥) من الاتفاقية. مرجع سابق.
٢- الفقرة الثانية من المادة السابقة، والتي تنص على أنه: "لا يجوز لدولة الاحتلال أن تستولي على أغذية أو إمدادات أو مهمات طبية مما هو موجود في الأراضي المحتلة إلا لحاجة قوات الاحتلال وأفراد الإدارة، وعليها أن تراعي احتياجات السكان المدنيين. ومع مراعاة أحكام الاتفاقيات الدولية الأخرى، تتخذ دولة الاحتلال الإجراءات التي تكفل سداد قيمة عادلة عن كل ما تستولي عليه".
٣- الفقرة الأولى من المادة (٥٦) من اتفاقية جنيف الرابعة.
٤- عمل استخباري تحت غطاء إنساني. مرجع سابق.
٥- كذلك الحال أيضاً: عمل استخباري تحت غطاء إنساني.

القانوني الملقى على عاتقها بموجب أحكام اتفاقية جنيف الرابعة والبروتكولات الملحقة بها، ولا الجانب الأخلاقي، كما لم تراع الاعتبارات المعنوية والأدبية للسكان المدنيين في المناطق المحتلة.

٧- مسؤولية دولة الاحتلال عن انتهاك حرية العقيدة وحقوق العمل والملكية الخاصة:

وفقا لأحكام اتفاقية جنيف الرابعة تلتزم دولة الاحتلال بالسماح لرجال الدين بتقديم المساعدة الروحية لطوائفهم الدينية في مجتمعهم وفي مناطقه المحتلة[١]، ويتوجب على دولة الاحتلال العمل على تلبية الاحتياجات الدينية وتسهيل توزيع مستلزماتها في المناطق المحتلة[٢].

مع أن دولتي الاحتلال السعودي الإماراتي - كل منهما - قد جندت لحسابها أغلب المكونات الاجتماعية في المناطق المحتلة، إلا أنها مع ذلك تعمل على استهداف خطباء الجوامع فلا يكاد يمر يوم إلا وتتم فيه عملية اغتيال إما لعناصر أمنية أو لخطباء وأئمة المساجد أمام منازلهم أثناء ذهابهم أو عودتهم من مساجدهم أو بجوارها، ودون أن يتم الكشف عن أي من مرتكبي جرائم الاغتيال التي طالت المئات من العناصر الأمنية أو خطباء وأئمة المساجد، وتقيَّد كل عمليات الاغتيال تلك ضد مجهول.

تُلزم المادة (٥١) من اتفاقية جنيف الرابعة دولة الاحتلال عدم إجبار الأشخاص المحميين على الخدمة في قواتها المسلحة أو المعاونة لها بأي صورة من الصور، ويُحظر على دولة الاحتلال ممارسة أي ضغط أو دعاية من شأنها تطويع السكان المدنيين للعمل ضمن قواتها أو معاونتها[٣]. ولا يجوز لدولة الاحتلال بأي حال أن يؤدي حشد القوة العاملة[٤] إلى تعبئة العمال في تنظيم ذي صبغة عسكرية أو شبه عسكرية[٥].

١- ينظر: الفقرة الأولى من المادة (٥٨) من اتفاقية جنيف الرابعة. مرجع سابق.

٢- ينظر: الفقرة الثانية من المادة السابقة.

٣- ينظر: الفقرة الأولى من المادة (٥١) من اتفاقية جنيف الرابعة. مرجع سابق.

٤- ينظر: الفقرة الثالثة من المادة السابقة.

٥- لا يجوز لها أن ترغم الأشخاص المحميين على العمل إلا إذا كانوا فوق الثامنة عشرة من العمر، وفي هذه الحالة تقتصر الخدمة على الأعمال اللازمة لتوفير احتياجات جيش الاحتلال أو في خدمة المصلحة العامة، أو لتوفير الغذاء أو المأوى أو الملبس أو النقل أو الصحة لسكان البلد المحتل. ولا يجوز إرغام الأشخاص المحميين على القيام بأي عمل يترتب عليه التزامهم بالاشتراك في عمليات حربية. ولا يجوز لدولة الاحتلال أن ترغم الأشخاص المحميين على استعمال القوة لتأمين أمن المنشآت التي يقومون فيها بتأدية عمل إجباري.

كما تلزم أحكام اتفاقية جنيف الرابعة دولة الاحتلال بعدم تغيير الأعمال إلا في داخل الأراضي المحتلة التي يوجد بها الأشخاص المعنيون. ويبقى كل شخص بقدر الاستطاعة في مكان عمله المعتاد. ويعطَى عن العمل أجر منصف، ويكون العمل متناسباً مع قدرات العمال البدنية والعقلية. ويطبَّق على الأشخاص المحميين المكلفين بالأعمال المشار إليها في هذه المادة التشريع الساري في البلد المحتل فيما يتعلق بشروط العمل والتدابير الوقائية، وبخاصة فيما يتصل بالراتب وساعات العمل وتجهيزات الوقاية والتدريب المسبق والتعويض عن حوادث العمل والأمراض المهنية[١].

من المعلوم أن قوات الاحتلال السعودي الإماراتي عملت ولازالت تعمل على تجنيد السكان المدنيين من أبناء المناطق المحتلة في صفوف قواتها وتدفع بهم إلى الخطوط الأمامية ليمثلوا دروعاً بشرية لقواتها العسكرية، ويتم الاحتيال على السكان المدنيين من جانب دولتي الاحتلال السعودي الإماراتي عن طريق إغرائهم بفرص عمل في أراضي الدولتين المحتلتين لكنهم يفاجؤوا بأنهم متواجدون في الخطوط الأمامية لجبهات القتال، وقد أدان المرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان، ومقره الرئيس جنيف، تجنيد السلطات السعودية القسري للمغتربين اليمنيين بشكل غير قانوني.[٢]

تَحظر المادة (٥٤) من اتفاقية جنيف الرابعة على دولة الاحتلال أن تغير وضع الموظفين أو القضاة في الأراضي المحتلة أو أن توقع عليهم عقوبات أو تتخذ ضدهم أي تدابير تعسفية أو تمييزية إذا امتنعوا عن تأدية وظائفهم بدافع من ضمائرهم[٣].

في الصدد ذاته، لم تقتصر إجراءات قوات الاحتلال السعودي الإماراتي على مجرد تغيير وضع الموظفين بل إن هذه القوات طردت الموظفين الوطنيين من وظائفهم بصورة تعسفية وأحلت محلهم غزاة

١- الفقرة الرابعة من المادة السابقة. مرجع سابق.

٢- السعودية: طرد وترحيل السلطات لآلاف اليمنيين ينتهك حقوق الإنسان، المركز الأورومتوسطي؛ متوفر على الرابط:
https://euromedmonitor.org/ar/article/2237

٣- الفقرة الأولى من المادة (٥٤) من اتفاقية جنيف الرابعة. مرجع سابق.

ومحتلين خصوصاً في المطارات والموانئ البحرية وبالمنافذ البرية، بحيث أصبحت قوات الاحتلال تتحكم بشكل كلي في هذه المنافذ بواسطة موظفين من مواطنيها جلبتهم لهذه الغاية.

٨- مسؤولية دولة الاحتلال عن انتهاك حق الشعب في مقاومة المحتلين:

يمثل الاحتلال قيداً على حرية الشعوب يمنعها من النهوض واللحاق بركب الدول المتقدمة، وتظل الشعوب المحتلة عبارة عن مادة خام تستفيد من مواردها دول الاحتلال، وتصبح - في الوقت ذاته - سوقاً لمنتجاتها، ولا يعني - أبداً - احتلال دولة من الدول لشعب دولة أخرى أن تستمر الدولة المحتلة في احتلالها إلى ما لانهاية ويظل الشعب المحتل خانعاً، حتى وإن وجد في هذا الشعب من يؤيد الاحتلال ويعمل على تنفيذ أجنداته خلافاً لما تفرضه رابطة المواطنة من واجب تجاه الوطن والدفاع عنه في مواجهة الغزاة المحتلين.

يقدم لنا التاريخ نماذج لشعوب تعرضت للاحتلال لفترات - طالت أم قصرت - لكن في نهاية المطاف ثارت تلك الشعوب ونفضت عن كاهلها غبار الذل والمهانة وقاومت الاحتلال حتى أجبرته على الرحيل عن أرضها بعد تضحيات جسام قدمها الأحرار الذين وقفوا في وجه الاحتلال وأعلنوا مقاومته بقوة السلاح، وأوقدت دماؤهم مشاعل الحرية والاستقلال وخلد التاريخ أسماءهم([1]).

رغم سطوة وهيمنة القوة الغاشمة لبعض الدول التي استخدمتها في قهر وإخضاع الشعوب المستضعفة ونهبت مواردها إلا أن مقاومة الاحتلال تنامت وأصبحت موضوعاً مهماً من موضوعات القانون الدولي، ولم يكن في وسع الدول والمنظمات الدولية سوى الاعتراف بحق الشعوب في مقاومة الاحتلال ونيل حقها في الحرية والاستقلال، وهذا الاعتراف لم يأت إلا بفضل تضحيات جسيمة قدمها الأحرار في مواجهة

١- منهم الشهيد المجاهد الإمام يحيى حميد الدين الذي قاد عملية التحرر والاستقلال عن الدولة العثمانية حتى تحقق الاستقلال بنهاية العقد الثاني من القرن الماضي، ومنهم أيضاً الشيخ المجاهد عمر المختار الذي واجه الاحتلال الإيطالي لبلاده بمجموعة بسيطة في بداية الأمر، وما لبثت تلك المجموعة أن كبرت وتعاظمت بعد استشهاده وهو في مرحلة متقدمة من العمر، وذلك إلى أن تم طرد الاحتلال ونالت ليبيا استقلالها.

الاستعمار على مستوى شعوب العالم. لقد أوجدت تلك التضحيات قناعات لدى الجماعة الدولية بضرورة تكريس الحماية القانونية في الوثائق الدولية لحق الشعوب المحتلة في مقاومة الاحتلال[١].

وفقاً لذلك؛ تم شرعنة المقاومة المسلحة التي تناضل بها الشعوب ضد التسلط الاستعماري والاحتلال الأجنبي وضد الأنظمة العنصرية والتي تسعى الشعوب من خلالها لتقرير مصيرها كما ورد في ميثاق الأمم المتحدة والإعلان المتعلق بمبادئ القانون الدولي الخاصة بالعلاقات الودية والتعاون بين الدول[٢].

تكفل المادة (٤٤) من البروتوكول الأول الملحق باتفاقيات جنيف كافة الحقوق القانونية للمقاومين للاحتلال إذا ما وقعوا في أيدي قوات الاحتلال؛ إذ يقع على عاتق هذه القوات معاملة المقاومين كأسرى حرب يستفيدون من كل ما يقرره القانون الدولي لأسرى الحرب من ضمانات في مقابل التزامهم بقواعد القانون الدولي التي تطبق في المنازعات المسلحة[٣].

١- نصت الفقرة الثالثة من المادة (٣) من البروتكول الأول الإضافي الملحق باتفاقية جنيف الرابعة على أن: "يظل المدنيون والمقاتلون في الحالات التي لا ينص عليها في هذا الملحق (البروتوكول) أو أي اتفاق دولي آخر، تحت حماية وسلطان مبادئ القانون الدولي كما استقر بها العرف ومبادئ الإنسانية وما يمليه الضمير العام".

٢- ينظر: الفقرة الثالثة من المادة (٢) من ميثاق الأمم المتحدة؛ متوفر على الرابط:

https://www.un.org/ar/about-us/un-charter/full-text

٣- نظمت فقرات المادة (٤٤) حقوق المقاومين للاحتلال على النحو الآتي:"

١- يعد كل مقاتل ممن وصفتهم المادة (٤٣) أسير حرب إذا ما وقع في قبضة الخصم.

٢- يلتزم جميع المقاتلين بقواعد القانون الدولي التي تطبق في المنازعات المسلحة بيد أن مخالفة هذه الأحكام لا تحرم المقاتل حقه في أن يعد مقاتلاً، أو أن يعد أسير حرب إذا ما وقع في قبضة الخصم، وذلك باستثناء ما تنص عليه الفقرتان الثالثة والرابعة من هذه المادة.

٣- يلتزم المقاتلون، إزكاء لحماية المدنيين ضد آثار الأعمال العدائية، أن يميزوا أنفسهم عن السكان المدنيين أثناء اشتباكهم في هجوم أو في عملية عسكرية تجهز للهجوم. أما وهناك من مواقف المنازعات المسلحة ما لا يملك فيها المقاتل المسلح أن يميز نفسه على النحو المرغوب، فإنه يبقى عندئذ محتفظاً بوضعه كمقاتل شريطة أن يحمل سلاحه علناً في مثل هذه المواقف:

أ) أثناء أي اشتباك عسكري.

ب) طوال ذلك الوقت الذي يبقى خلاله مرئياً للخصم على مدى البصر أثناء انشغاله بتوزيع القوات في مواقعها استعداداً للقتال قبيل شن هجوم عليه أن يشارك فيه.

ولا يجوز أن تعتبر الأفعال التي تطابق شروط هذه الفقرة من قبيل الغدر في معنى الفقرة الأولى (ج) من المادة (٣٧).

٤- يخل المقاتل الذي يقع في قبضة الخصم، دون أن يكون قد استوفى المتطلبات المنصوص عليها في الجملة الثانية من الفقرة الثانية؛ بحقه في أن يعد أسير حرب ولكنه يمنح – رغم ذلك – حماية تماثل من كافة النواحي تلك التي تضفيها الاتفاقية الثالثة وهذا الملحق (البروتوكول) على أسرى الحرب. وتشمل تلك الحماية ضمانات مماثلة لتلك التي تضفيها الاتفاقية الثالثة على أسير الحرب عند محاكمة هذا الأسير أو معاقبته على جريمة ارتكبها.

٥- لا يفقد أي مقاتل يقع في قبضة الخصم، دون أن يكون مشتبكاً في هجوم أو في عملية عسكرية تجهز للهجوم، حقه في أن يعد مقاتلاً أو أسير حرب، استناداً إلى ما سبق أن قام به من نشاط.

٦- لا تمس هذه المادة حق أي شخص في أن يعد أسير حرب طواعية للمادة الرابعة من الاتفاقية الثالثة.

٧- لا يقصد بهذه المادة أن تعدل ما جرى عليه عمل الدول المقبول في عمومه بشأن ارتداء الزي العسكري بمعرفة مقاتلي طرف النزاع المعينين في الوحدات النظامية ذات الزي الخاص.

٨- يكون لكافة أفراد القوات المسلحة التابعة لطرف في نزاع، كما عرفتهم المادة (٤٣) من هذا الملحق (البروتوكول)، وذلك بالإضافة إلى فئات الأشخاص المذكورين في المادة (١٣) من الاتفاقيتين الأولى والثانية، الحق في الحماية طبقاً لتلك الاتفاقيات إذا ما أصيبوا أو مرضوا أو – في حالة الاتفاقية الثانية – إذا ما نكبوا في البحار أو في أية مياه أخرى".

إذا ما طبقنا ما سبق من قواعد على سلوك قوات الاحتلال السعودي الإماراتي وعملائها ومرتزقتها في اليمن فإن النتيجة هي أن هذه القوات تنتهك بشكل صارخ قواعد القانون الدولي المتعلقة بتوفير الحماية لمن يقاومون الاحتلال ويعملون على طرده من أرضهم بقوة السلاح، وكذلك من يطالبون بصورة سلمية برحيل الاحتلال عن أراضيهم، فالجميع يتعرضون للتعذيب من جانب قوات الاحتلال التي تتعامل معهم كمجرمين وليس كمقاومين من حقهم مقاومة الاحتلال وطرده من بلادهم وفقاً لما يكفله لهم القانون الدولي من حقوق. غير أن دولتي الاحتلال السعودي الإماراتي لا تقيمان أي اعتبار للضمانات المقررة للمقاومين للغزاة المحتلين رغم أن الدولتين من الدول الموقعة على اتفاقيات جنيف الأربع والبروتكولات الملحقة بها.

ثالثاً: توظيف دول العدوان لما يسمى بالشرعية

يدرك العدوان السعودي الإماراتي أن احتلاله للأراضي اليمنية فعل مجرّم قانوناً وفقاً لقواعد القانون الدولي[1]، ويدرك العدوان السعودي الإماراتي - أيضاً - أن ما يرتكبه من أفعال نتيجة احتلاله لجزء من جغرافية الجمهورية اليمنية - سواءً كانت تلك الأفعال بحق الأرض أو الإنسان - أنها تمثل جرائم وفقاً لقواعد القانون الدولي، وأنه سيحاسب عليها عاجلاً أم آجلاً. ولكل ذلك فالعدوان السعودي الإماراتي يحتفظ بمسمى "الشرعية" قبل وبعد الاحتلال، فالشرعية وفقاً لحسابات دولتي العدوان والاحتلال بررت التدخل العسكري الذي

ينظر اتفاقيات جنيف المؤرخة في ١٢ آب / أغسطس ١٩٤٩، مرجع سابق.

١- تنص الفقرة الرابعة من المادة (٢) ميثاق الأمم المتحدة على أن: "يمتنع أعضاء الهيئة جميعاً في علاقاتهم الدولية عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضي أو الاستقلال السياسي لأية دولة أو على أي وجه آخر لا يتفق ومقاصد (الأمم المتحدة)"؛ مرجع سابق

يعد بحد ذاته جريمة وفقاً لقواعد القانون الدولي، وما نتج عنه من جرائم حرب وجرائم إبادة وجرائم ضد الإنسانية.

وفقاً لحسابات دولتي العدوان والاحتلال السعودي الإماراتي؛ فـ "الشرعية" تمثل بالنسبة لهما حصانة ضد الملاحقة الجنائية والمساءلة القانونية بسبب الجرائم التي ترتبت على جريمة الاحتلال سواءً تعلقت بالأرض التي فتحتها دولتا الاحتلال للكيان الصهيوني ليعبث فيها ويحولها إلى قواعد عسكرية وأو كار استخبارية، وما ترتكبه قوات الاحتلال السعودي الإماراتي من جرائم تهجير واعتقال وتعذيب للسكان بسبب مواقفهم الرافضة للوجود السعودي الإماراتي في مناطقهم خصوصاً أن تلك المناطق بعيدة كل البعد عن ساحات المواجهة العسكرية بين قوى العدوان والاحتلال السعودي الإماراتي وعملائهما ومرتزقتهما والجيش اليمني واللجان الشعبية.

لكي تفلت قوات الاحتلال السعودي الإماراتي من المسؤولية القانونية المترتبة على احتلالها للأراضي اليمنية فهي تصر على استمرار الوجود الشكلي لما يسمى الشرعية لتتحمل نيابة عن قوات الاحتلال تبعات الجرائم التي ترتكبه بحق الأرض والإنسان، ولتمثل بذلك حكومة ما يسمى "الشرعية" مجرد قفازات ترتديها قوات الاحتلال لتخفي بها آثار جرائمها بحق اليمن (أرضاً وانساناً).

رابعاً: إمكانية ملاحقة دولتي الاحتلال جنائياً

نعتقد أنه قبل الشروع في الحديث عن أي ملاحقة جنائية لدولتي العدوان والاحتلال السعودي الإماراتي لا بد أولاً من اللجوء إلى محكمة العدل الدولية لتقرر - بالاستناد إلى ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي - موقفها من ذرائع تحالف العدوان السعودي الإماراتي للتدخل عسكرياً في اليمن وما ترتب على ذلك التدخل من جرائم وتواجد دائم للقوات العسكرية السعودية الإماراتية على الأراضي اليمنية خصوصاً تلك الأراضي التي لم

تكن يوماً ساحة لصراع مسلح أو لعمليات عسكرية من أي نوع كان. ناهيك عن تقرير المحكمة موقفها من تصرفات القوات المحتلة السعودية الإماراتيةً بحق الأرض والإنسان في الأراضي التي تحتلها.

إن اللجوء إلى محكمة العدل الدولية مسألة متاحة وذات جدوى سواء في حال قبول الادعاء أمامها من جانب الحكومة اليمنية في العاصمة صنعاء أو رفضه. ففي الحالة الأولى يمثل قبول الدعوى فتح الباب لمحاسبة دول العدوان، كما ستقدم المحكمة بياناً لموقفها في شأن المبررات التي تذرعت بها قوات العدوان والاحتلال السعودي الإماراتي للتدخل عسكرياً في اليمن والتواجد من ثم بشكل دائم على الأراضي اليمنية، وما نتج عن ذلك من جرائم ارتكبتها قوات الاحتلال بحق الأرض والإنسان.

سيمثل اللجوء إلى محكمة العدل الدولية من جانب حكومة الجمهورية اليمنية في العاصمة صنعاء خطوة أولى أساسية باتجاه ملاحقة دول تحالف العدوان والاحتلال جنائياً بسبب الجرائم التي ارتكبها هذا التحالف منذ الساعة الأولى لإعلان التدخل عسكرياً.

بينما يُعد رفض محكمة العدل الدولية الادعاء أمامها "لعدم الصفة"؛ مهماً أيضاً بالنسبة لحكومة الجمهورية اليمنية في العاصمة صنعاء كونها قد سلكت كل الطرق القانونية المتاحة، ولا يؤخذ عليها مستقبلاً - محلياً ودولياً - عدم اللجوء إلى محكمة العدل الدولية وقد كان متاحاً لها ذلك، وحتى لا تُحرم اليمن من حق قانوني مكفول لكل الدول الأعضاء في منظمة الأمم المتحدة بموجب ميثاقها وقواعد القانون الدولي.

سيمكِّن موقف محكمة العدل الدولية حكومة الجمهورية اليمنية في العاصمة صنعاء من إدانة حكومة العمالة المسماة بـ"الشرعية" محلياً ودولياً، وكشف تواطؤها مع قوى العدوان بتقديم الذرائع والمبررات لإبادة أبناء الشعب اليمني وتدمير مقومات حياتهم واحتلال أرضهم ونهب ثرواتهم.

عقب الادعاء أمام محكمة العدل الدولية يمكن التحرك على كافة المستويات ووفقاً لمختلف الأُطر لملاحقة دول العدوان والاحتلال عن جرائمها بحق الشعب اليمني خصوصاً إذا ما كان موقف محكمة العدل الدولية إيجابياً فإن ذلك سيكون مشجعاً ودافعاً لغيرها من المحاكم الدولية المختصة بملاحقة مجرمي الحرب لتحريك الدعاوى الجنائية ضدهم.

من المؤكد أن دول تحالف العدوان لن تستفيد من شماعة الشرعية لتبرير جرائمها بحق اليمن (أرضاً وإنساناً) ابتداءً بجريمة العدوان وانتهاءً بجريمة الاحتلال وما بينهما من جرائم حرب وجرائم إبادة وجرائم ضد الإنسانية وحصار. ولن تفلت دول العدوان والاحتلال من تبعات المسؤولية القانونية المترتبة على احتلالها للأراضي اليمنية وما أعقب جريمة الاحتلال من جرائم بحق أبناء الشعب اليمني في المناطق المحتلة[1]. ولن يكون بمقدور دولتي العدوان والاحتلال التحلل من الالتزامات القانونية الدولية. ولن يكون كذلك بمقدور ما يسمى "الحكومة الشرعية" أن تحل دولتي العدوان والاحتلال من الالتزامات المترتبة عليهما بموجب معاهدة جنيف الرابعة[2].

١- نصت المادة (١٤٧) من اتفاقية جنيف الرابعة على أن: "المخالفات الجسيمة التي تشير إليها المادة السابقة «مادة: ١٤٦» هي التي تتضمن أحد الأفعال التالية إذا اقترفت ضد أشخاص محميين أو ممتلكات محمية بالاتفاقية: القتل العمد، والتعذيب أو المعاملة اللاإنسانية، بما في ذلك التجارب الخاصة بعلم الحياة، وتعمد إحداث آلام شديدة أو الإضرار الخطير بالسلامة البدنية أو بالصحة، والنفي أو النقل غير المشروع، والحجز غير المشروع، وإكراه الشخص المحمي على الخدمة في القوات المسلحة بالدولة المعادية، أو حرمانه من حقه في أن يحاكم بصورة قانونية وغير متحيزة وفقاً للتعليمات الواردة في هذه الاتفاقية، وأخذ الرهائن، وتدمير واغتصاب الممتلكات على نحو لا تبرره ضرورات حربية وعلى نطاق كبير بطريقة غير مشروعة وتعسفية"؛ مرجع سابق.

٢- نصت المادة (١٤٨) من اتفاقية جنيف الرابعة على أنه: "لا يجوز لأي طرف متعاقد أن يتحلل أو يحل طرفاً متعاقداً آخر من المسئوليات التي تقع عليه أو على طرف متعاقد آخر فيما يتعلق بالمخالفات المشار إليها في المادة السابقة «المادة: ٤٧»"؛ مرجع سابق.

أبعاد الحرب الاقتصادية الغربية الظالمة على سورية وتداعياتها

وضاح عيسى
كاتب ومحلل سوري

مقدمة:

قبل الدخول في أبعاد الحرب الاقتصادية القسرية أحادية الجانب التي فرضتها الولايات المتحدة وحلفاؤها على سورية، لاسيما ما يتم تداوله بخصوص ما يسمى "قانون قيصر" في ظل فشل الغرب في حربه بالوكالة عبر تنظيماته الإرهابية العابرة، أو حرب الأصالة بتدخله العسكري المباشر واحتلاله مناطق استراتيجية - اقتصادياً وجيوسياسياً - في انتهاك سافر للشرعية الدولية، وإخفاقه في تحقيق أهدافه العدوانية التي سعى جاهداً لأجلها؛ قبل ذلك كله، لابد من التوقف عند مصطلح "العقوبات الدولية" لمعرفة ماهيتها ودوافعها وأسبابها وأشكالها وآلية تطبيقها وأهدافها ومدى فعاليتها وتأثيرها وتداعياتها ومتى تفرض وكيف؟ بعيداً عن الحرب الاقتصادية الظالمة المفروضة على الدول وخاصة سورية لأبعاد سياسية انتقامية.

"العقوبات الدولية" تعريفاً هي: جملة إجراءات تتخذها الدول أو المنظمات الدولية كالأمم المتحدة عبر هيئات صنع القرار فيها ضد دول أخرى لا تحترم التزاماتها بالامتثال لأحكام الاتفاقيات ولقرارات مجلس الأمن الدولي، أو ضد هيئات غير دولية أو أفراد يشكلون تهديداً للسلم والأمن الدوليين، فالمعايير أو القرارات التعاقدية الدولية هي بطبيعتها فوق وطنية، وتلزم الدول التي تبنتها بتطبيقها وبضمان توافق تشريعاتها مع هذه المعايير[1].

من له الحق في فرض العقوبات؟

يشير ميثاق الأمم المتحدة لاسيما في الفصل السابع منه (المواد من ٣٩ حتى المادة ٥١) إلى أن مجلس الأمن هو صاحب الاختصاص في اتخاذ قرارات تسوية النزاعات وفرض العقوبات، إذ نصت المادة (٤١) على أن "لمجلس الأمن أن يقرر ما يجب اتخاذه من التدابير التي لا تتطلب استخدام القوات المسلحة لتنفيذ قراراته، وله أن يطلب إلى أعضاء الأمم المتحدة تطبيق هذه الإجراءات، ويجوز أن يكون بينها وقف الصلات

١- عادل خليفة (الأستاذ المحاضر في العلاقات الدولية والقانون الدولي، له مؤلفات عدّة بالسياسة والقانون)، "العقوبات تقتل الشعوب ولا تسقط أنظمة"، (موقع ٥ نجوم) ؛ متوفر على الرابط:
https://www.5njoum.com/news/alaqwbat-tqtl-alshawb-wla-tsqt-anzmh

الاقتصادية والمواصلات الحديدية والبحرية والجوية والبريدية والبرقية واللاسلكية وغيرها من وسائل المواصلات وقفاً جزئياً أو كلياً وقطع العلاقات الدبلوماسية".

أشكال العقوبات الدولية وفعاليتها:

العقوبات الدولية بطبيعتها هي أداة ضغط سياسية ودبلوماسية، وهناك أشكال متعددة لعقوبات مجلس الأمن الدولي تؤدي أغراضاً مختلفة، وتتراوح هذه العقوبات بين عقوبات اقتصادية وتجارية بعيدة المدى وتدابير أكثر استهدافاً مثل حظر كل من الأسلحة والسفر، وفرض القيود والعقوبات المالية، وقد طبق مجلس الأمن عقوبات لأجل دعم عمليات الانتقال السلمي للأنظمة السياسية، وللوقوف ضد التغيير غير الدستوري في بعض الدول، ومحاربة الإرهاب، وحماية حقوق الإنسان، وتعزيز عدم الانتشار النووي، وهناك ٣٢ نظاماً للعقوبات ساري المفعول حالياً، حسب بيانات وزارة الدفاع الأميركية.

وتعد العقوبات أداةً سياسيةً غير مكلفة مقارنةً بالحروب والنزاعات المسلحة، وقد باتت مألوفةً لدى الشعوب، بيد أن الإشكالية الكبرى تكمن في أنه عند سنّ العقوبات يستحيل معرفة أو تحديد المستوى الدقيق للتدابير التي يتعين اتخاذها، والقصد هنا هو مداها وتأثيرها وفعاليتها وأنواعها وأشكالها على نحو يكون لها تأثير في سياسة الدولة الخاضعة للعقوبات. ولكي يتسنى لنا معرفة فعالية العقوبات الدولية على الدول المُعاقَبَة يجب الأخذ في الحسبان عوامل عدّة منها: التكلفة الاقتصادية للدولة المُعاقَبَة وطبيعة نظامها السياسي "ديمقراطي أم ديكتاتوري"، ومدى استقراره السياسي والاقتصادي، وطبيعة العلاقة بين الدولة التي عاقبت والدولة المُعاقَبَة (حجم العلاقات الاقتصادية والتجارية)، وأيضاً التضامن والتماسك الدوليين مع العقوبات، والوقت الكافي للعقوبات، وحجم الدولة وقوتها، لكن في الحقيقة؛ يصعب قياس فعالية العقوبات، لأن الهدف النهائي ليس محدداً بوضوح دائماً، كذلك صعوبة التمييز في النجاح الدبلوماسي بين الجزء المتعلق بالعقوبات والجزء المتعلق بالأدوات الأخرى المستخدمة.

الشعوب وحدها تدفع الثمن:

ولابد من الإشارة هنا إلى أن أول وآخر من يدفع ثمن العقوبات باهظاً هي الشعوب الواقعة تحت نيرها؛ إذ تزداد معاناتها من القهر والحرمان، ويعاني كثير من شعوب الدول المُعاقَبة قسوة تبعات العقوبات أو الحرب الاقتصادية الجائرة لأن أغلب العقوبات في حقيقتها الواقعية هي قصاص جماعي من الشعوب مهما كانت دوافع وأسباب فرضها وذرائع مطلقيها!

في سورية (موضوع بحثنا) يعاني الناس الجوع والفقر بسبب الحربين الإرهابية والاقتصادية الغربية الجائرتين وتبعاتهما؛ حيث يعلم الجميع تداعيات الحرب الإرهابية كذلك الحرب الاقتصادية القسرية أحادية الجانب المفروضة على سورية التي تمنع الاستيراد والتصدير والتعامل مع المصارف وغيرها من الإجراءات بذرائع غير مبررة أثرت في أدق تفاصيل الشعب السوري وحرمته الغذاء والدواء.

هل يُعاد النظر في نظام العقوبات؟

ما سبق ذكره يطرح الكثير من الأسئلة منها؛ إلى متى سيبقى نظام العقوبات الدولية "الانتقائية"؟! وهل يعيد مجلس الأمن الدولي النظر في نظام العقوبات؛ ولاسيما أن هذه العقوبات باتت وسيلة لتصفية حسابات سياسية أو اقتصادية أو غير ذلك؟!

تجدر الإشارة هنا إلى مطالبة دول عدّة بإعادة النظر في العقوبات أو إلغائها في ظل تراجع أحادية السطوة الأميركية وبلطجتها على العالم وظهور قوى كبرى قد تتفوق عليها مثل الصين، أو ترسخ دورها مثل الهند وروسيا والبرازيل وألمانيا وغيرها، حيث يدفع بهذا الاتجاه الإنساني الاجتماعي الضروري لحماية الشعوب من عبثية العقوبات وانتقائيتها وتبعاتها القاسية على الكثير من الأماكن، من دون أن يلغي ذلك فائدة العقوبات بعيداً عن الانتقائية في حال فرضت على الأنظمة والكيانات الاستبدادية والاحتلالية وممارساتها القمعية اللاإنسانية وردعها.

تبعات الحرب الاقتصادية الجائرة على سورية:

يشير ميثاق الأمم المتحدة في الفصل السابع إلى أن مجلس الأمن الدولي هو المختص في اتخاذ قرارات تسوية النزاعات وفرض العقوبات، بيد أن جلّ العقوبات الاقتصادية التي يفرضها الغرب، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأمريكية، على الدول أتت من خارج إطار مجلس الأمن، وهي لا تملك أي صفة شرعية. والحرب الاقتصادية الغربية على سورية في الحقيقة ليست إلا إرهاباً اقتصادياً وجريمة ضد الإنسانية فرضت عنوة بشكل أحادي غير شرعي ولا أخلاقي لتصفية حسابات سياسية؛ ويجب رفعها.

هذا الكلام ليس إنشائياً، ولا نابعاً من ردود فعل معاكسة لفعل مسبق، وإنما هو حقيقة متجلية تؤكدها منظمة الأمم المتحدة من خلال مؤسساتها وتصريحات القائمين عليها، إذ أكدت أن العقوبات الاقتصادية الصادرة من خارج مجلس الأمن الدولي غير قانونية وتخرق قواعد حقوق الإنسان، وقد جاء هذا الإقرار على لسان المقررة الخاصة للمنظمة (اليونا دوخان)، وهو واحد من جملة التصريحات الأممية التي تصب في هذا الإطار، إذ نددت بسياسة العقوبات الاقتصادية التي تتجاوز مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة خلال جلسة

غير رسمية لمجلس الأمن عقدت في ٢٥ نوفمبر ٢٠٢٠ عبر الفيديو بمبادرة من روسيا والصين وجنوب أفريقيا والنيجر وسانت فنسنت وغرينادين، وقالت حينها: "إن الضرر الإنساني الذي تلحقه هذه العقوبات هائل جداً.. فهي تؤثر في الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والمدنية بما فيها الحق في التنمية.. ووباء (كوفيد ١٩) جعل التأثير السلبي للإجراءات الأحادية القسرية أكثر وضوحاً"[1]، وحثت الدول على التوقف عن استخدام تلك الإجراءات التي لم تتم الموافقة عليها من مجلس الأمن.

لو عدنا إلى العقوبات الاقتصادية أحادية الجانب المفروضة غربياً على نحو قسري على سورية نجد أنها ليست جديدة، ومعالمها بدت واضحة منذ عقود خلت، وقد أثرت سلباً وبشكل كبير في المستوى المعيشي للسوريين، وفاقمت تداعيات الحرب الإرهابية الغربية التي شنها الغرب عليها من حيث سوء الأوضاع الاقتصادية، الذي تفاقم أكثر أثناء الحرب الاقتصادية الغربية الظالمة التي تقودها واشنطن منذ سنوات بشكل غير قانوني ولا أخلاقي ضد سورية الدولة والشعب والقيادة، وبدوافع سياسية معروفة وغايات مبيتة، لـ"النيل" من سورية و"إركاع" شعبها و"إجباره" على "الخضوع" و"الانصياع" للأجندات الأمريكية وأهدافها الخبيثة!

لقد ظهر الإرهاب الاقتصادي الغربي مع اشتداد إجراءاته القسرية اللاإنسانية وازدياد مخاطر تداعياته القاسية بدءاً بالحرب الإرهابية الغربية وإخفاقاتها المتلاحقة في تحقيق أيّ من أجندات الغرب المشبوهة على الأرض السورية، واتخذ شكلاً جديداً سمّته الولايات المتحدة "قانون قيصر" وفق ما أصبح متعارفاً عليه كمصطلح جديد، وإن كان لا يمت إلى القانون بأي صلة، فهو على العكس، غير قانوني ولا شرعي، ويخالف كل القوانين والأعراف والمواثيق الدولية.

الحرب الاقتصادية قديمة- جديدة:

سورية التي واجهت هيمنة الدول المعادية وإرهاب تنظيماتها الإجرامية دفاعاً عن قيم الحضارة الإنسانية؛ تعاني أمراً آخر ذا أبعاد اقتصادية، فإلى جانب الإرهاب التكفيري والعدوان المباشر وقع العديد من الدول بما فيها سورية ضحية إرهاب اقتصادي تمارسه حفنة من الدول على نحو يخالف القانون الدولي ومبادئ ومقاصد الأمم المتحدة، إذ تفرض الإدارات الأمريكية المتعاقبة منذ عام ١٩٧٨ تدابير قسرية أحادية الجانب على الاقتصاد السوري وقطاعاته الحيوية بهدف ثنيها عن مواقفها الرافضة لسياسات الهيمنة والاحتلال، وقد استهدفت تلك التدابير اللاشرعية المواطن السوري في تفاصيل حياته اليومية كلها وحدّت من قدرة

١- متوفر على الرابط:
http://www.sana.sy/?p=1266226

مؤسسات الدولة السورية وشركائها الإنسانيين على توفير الخدمات الأساسية والدعم لمواطنيها والارتقاء بالوضع الإنساني والمعيشي، وهو ما بيّنه الدكتور بشار الجعفري (مندوب سورية الدائم لدى الأمم المتحدة) في بيان أمام الاجتماع الوزاري لمكتب تنسيق حركة دول عدم الانحياز المنعقد تحت شعار "باندونغ ٦٥.. حركة دول عدم الانحياز أكثر اتحاداً وفعالية وارتباطاً في مواجهة التحديات العالمية الناشئة بما في ذلك كوفيد ١٩" بتاريخ ٩ أكتوبر ٢٠٢٠، وتوضيحه بأن: "الإدارة الأمريكية أبت هي وحلفاؤها إلا أن يصعدوا من إرهابهم الاقتصادي وصولاً لما يسمى (قانون قيصر) وذلك بهدف إسقاط الدولة السورية والنيل من خياراتها الوطنية وتحقيق ما عجزوا عن تحقيقه سياسياً وعسكرياً وعبر الاستثمار في الإرهاب وأعمال العدوان"[1].

بين الإرهابين التكفيري والاقتصادي "قانون قيصر":

إذاً؛ "شيزر" أو " قيصر" كما يحلو للولايات المتحدة أن تسمّيه؛ هو إجراء قديم حديث نوعاً ما؛ يعود في التوقيت إلى بداية الحرب الإرهابية على سورية، إذ لوّحت به إدارة باراك أوباما في إطار ما سمته الخطة "ب" في حال إخفاق خطتها العدوانية "أ" في حربها الإرهابية على سورية التي شنتها التنظيمات الإرهابية بالوكالة عن واشنطن وحلفائها، ولاسيما في ظلّ تواصل الانتصارات المتلاحقة للجيش العربي السوري وحلفائه في محور مكافحة الإرهاب على القائمين بحرب الإرهاب وكالةً وأصالةً، وتمّ بالفعل إحباط خطط الغرب ومشروعاته القذرة التي تستهدف سورية، وهو ما أثار الجنون الغربي ودفعه لتصعيد إجراءاته العدوانية!

وبناء على الإخفاق العدواني للغرب في مرحلته الأولى؛ تم الانتقال إلى الخطة "ب" أي تطبيق ما يسمى "قانون قيصر" الأمريكي على سورية، حيث أعادت إدارة دونالد ترامب إحياء "قيصر" بعد إجراء تعديلات عليه واستخدمته ورقة ضغط عدوانية جديدة على سورية، واتخذت حزمة إجراءات قسرية أحادية الجانب على نحو يخالف قواعد حقوق الإنسان والقانون الدولي الإنساني، لعلّها تتمكن من "عزل" سورية اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً عن محيطها الإقليمي وعن العالم بعدما قلّصت مساحات التحرك للشعب السوري وضيقت الخناق عليه، من أجل الدفع باتجاه "حرفه" عن مساره المقاوم للصهيونية عبر تجويعه ومفاقمة الأوضاع الاقتصادية سوءاً بتطبيق واشنطن للإرهاب الاقتصادي للحيلولة دون النهوض بواقعه المعيشي إلى الأفضل بعدما دمّرت بحربها الإرهابية معظم مقومات بنيته الحياتية.

١- متوفر على الرابط:
https://www.sana.sy/?p=1234160

تمديد الإجراءات الاقتصادية القسرية:

ورُغم تفاقم المعاناة، انتقلت دول أطراف الحرب على سورية إلى مرحلة الإرهاب الاقتصادي الأكثر حدّة عبر تمديد الإجراءات الاقتصادية القسرية الأحادية التي تفرضها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي في ظل التدابير المتخذة لمواجهة تفشي جائحة فيروس كورونا، وقد انتقدت سورية، وحذرت مراراً من عواقب توسيع وتمديد تلك الإجراءات القسرية لأنها تشكل مرحلة جديدة من الإرهاب الاقتصادي غير مسبوقة من حيث ازدياد عدد المستهدفين بها وهو ما أدلى به الجعفري مندوب سورية الدائم لدى الأمم المتحدة في جنيف أمام مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة في ٢٢ سبتمبر ٢٠٢٠ بقوله: "إن قرار الاتحاد الأوروبي تمديد أجل التدابير القسرية الأحادية على سورية لعام إضافي خلال أزمة كورونا ولجوء الولايات المتحدة في الفترة ذاتها إلى إصدار ما يسمى (قانون قيصر) انتقل بمواقف هذه الدول الأطراف في الحرب على سورية إلى مرحلة جديدة من الإرهاب الاقتصادي الذي يهدف إلى عرقلة جهود الحكومة السورية في إعادة الإعمار واستعادة الاستقرار وتهيئة الظروف لعودة المهجرين السوريين قسراً داخل سورية وخارجها"[1].

وفي مبادرة من سورية، قامت مجموعة من الدول الأعضاء في الأمم المتحدة التي تضم إلى جانب سورية كلاً من روسيا الاتحادية والصين وفنزويلا وإيران وكوبا وكمبوديا وكوريا الديمقراطية وميانمار ونيكاراغوا وزيمبابوى بمطالبة مجلس حقوق الإنسان التابع للمنظمة الدولية بالضغط على الدول التي تلجأ إلى فرض الإجراءات القسرية الأحادية وإلزامها بالاستجابة للدعوات الدولية التي أطلقها الأمين العام للأمم المتحدة والمفوض السامي لحقوق الإنسان لرفع تلك التدابير غير القانونية بغية تمكين الدول المستهدفة من مواجهة جائحة فيروس كورونا وتبعاتها الاقتصادية والاجتماعية، وحذر البيان من انتهاك الإجراءات القسرية الأحادية والقيود المالية والاقتصادية الحقوق الأساسية لمواطني البلدان المستهدفة بما فيها حقهم في التنمية ومن آثارها السلبية المضاعفة في ظل انتشار جائحة كوفيد ١٩ ومساهمتها في تقويض فعالية القطاعات الخدمية والاقتصادية في البلدان المستهدفة وعرقلة استيراد احتياجاتها الأساسية المنقذة للحياة، وأكد أن القيود على توفير الاحتياجات الإنسانية والسلع الأساسية مثل المعدات الطبية والغذاء "تخالف القانون الدولي والمواثيق ذات الصلة بحقوق الإنسان التي تحظر إخضاعها لأي نوع من الإجراءات القسرية الأحادية أو العقوبات".

١- متوفر على الرابط:
https://www.sana.sy/?p=1223565

امتنعت الدول المعنية عن الاستجابة للنداءات الدولية لتعزيز التضامن لمواجهة الجائحة وشجبت سورية استمرار تلك الدول في إجراءاتها القسرية التي تضر بجهود التنمية الاقتصادية والاجتماعية في البلدان النامية المستهدفة وبقدرتها على مواجهة الجائحة وحماية مواطنيها، وتحد من قدرة المنظمات الدولية على توفير المساعدة الإنسانية لتلك الدول، ووصفت المزاعم الأمريكية والأوروبية بشأن وجود "استثناءات إنسانية" من العقوبات بأنها "لا تتعدى كونها ذريعة للتغطية على الإجراءات غير الأخلاقية التي تستهدف الأوضاع المعيشية للسوريين وتطول بآثارها السلبية عمل المنظمات والوكالات الإنسانية العاملة داخل سورية"، وطالبت مجلس حقوق الإنسان بتحميل البلدان المعنية بفرض الإجراءات القسرية الأحادية المسؤوليةَ الأخلاقية والقانونية الناجمة عن نتائجها.

استنكار الصمت الدولي:

استنكرت سورية مجدداً الصمت الدولي على الإجراءات القسرية أحادية الجانب والإرهاب الاقتصادي المفروض على الشعب السوري، مؤكدة رفضها تقرير مجلس حقوق الإنسان الذي تبنى معايير مزدوجة، وتعمد تجاهل القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة في مقاربة الأوضاع في سورية، وقال مندوبها الدائم لدى مكتب الأمم المتحدة والمنظمات الدولية الأخرى في جنيف (حسام الدين آلا) في بيان أمام الدورة الخامسة والأربعين لمجلس حقوق الإنسان (حالة حقوق الإنسان في الجمهورية العربية السورية) في ٢٣ سبتمبر ٢٠٢٠: "خلافاً لمزاعم الحرص على حقوق الإنسان والاهتمام بتحسين الأوضاع الإنسانية للسوريين التي ترددها بيانات الدول الراعية لمناقشات هذا البند، فإن السوريين الذين يعيشون وطأة الحصار والإرهاب الاقتصادي المفروض عليهم والذي ينتهك كل حقوقهم الأساسية بما فيها حقهم بالصحة والغذاء والعيش الكريم والتنمية إضافة إلى حقهم بالحياة الذي يهدده الإرهاب المدعوم من الدول نفسها منذ تسعة أعوام يتساءلون عن أي حقوق إنسان تتحدث هذه الدول.. منذ بداية العام الحالي تعرض مليون سوري للحرمان من المياه نتيجة قيام الاحتلال التركي ومرتزقته الذين يتحكمون بالمصادر التي تزود محافظة الحسكة باحتياجاتها المائية بقطع المياه أكثر من ٢٣ مرة عن السكان لمدد متفاوتة ناهز آخرها مدة الأسبوعين ولم نسمع إدانة لهذه الجريمة التي ارتكبها النظام التركي ومرتزقته والتي تشكل جريمة حرب وجريمة ضد الإنسانية"[1].

١- متوفر على الرابط:
https://www.sana.sy/?p=1224245

على الرغم من إشارة التقرير المعروض على المجلس في أكثر من موضع إلى الظروف المعيشية والمصاعب الاقتصادية في سورية لكنه تجاهل الإشارة إلى قيام الاحتلال الأمريكي بنهب وإحراق الموارد الطبيعية والاقتصادية لحرمان الشعب السوري من مقدراته، وتجاهل أن السبب الرئيس لهذا الواقع المعيشي الصعب يعود بشكل أساس للإجراءات القسرية الأحادية والحصار الاقتصادي على سورية وشعبها وآخرها ما يسمى "قانون قيصر" وتأثيراتها السلبية على القطاعات الحيوية، وبيّنت سورية أن الأمر لا يحتاج لجان تحقيق لتكتشف أن المزاعم الأوروبية والأمريكية حول وجود "استثناءات إنسانية" لا تعدو كونها ذرائع لتبرير الاستمرار في تلك الإجراءات غير الأخلاقية، وأن الوقت المخصص للدولة المعنية لا يتيح لها الرد على الاتهامات الملفقة والتلاعب القانوني في تقرير اللجنة.. وأنها "أي سورية" ترفض هذا التقرير الانتقائي المسيّس الذي يتبنى معايير مزدوجة ولا يتسق على غرار التقارير السابقة مع قواعد التحقيق المهني والموضوعي، وهي تأسف لإصرار معدي هذه التقارير على نهجهم النمطي الذي يتعمد تجاهل القانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة في مقاربة الأوضاع في سورية، ويقوم على الأحكام المسبقة تجاه الدولة السورية، ويستند إلى مصادر معلومات غير نزيهة وغير محايدة، ويتجاهل ردودها على المزاعم والاتهامات في هذه التقارير.

الإرهاب الاقتصادي ومظاهره:

الإرهاب الاقتصادي الذي تمارسه الإدارة الأمريكية بحق الشعب السوري تجسد في زيادة سلاسل التضييق والحصار رُغم مرارة الحرب الإرهابية وتداعياتها اليومية، ومن بين تلك السلاسل ما يسمى "قانون قيصر" الذي يهدف إلى الضغط على الشعب السوري في لقمة عيشه وحياته اليومية ومحاولة خنقه، بدليل أن أجندات السياسة الأمريكية ومن يلف لفها تتقدم على الأجندات الإنسانية من دون الاكتراث بالروادع القانونية والأخلاقية، وقد بيّن السيد وليد المعلم نائب رئيس مجلس الوزراء- وزير الخارجية والمغتربين في كلمة سورية أمام الدورة الـ ٧٥ للجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٧ سبتمبر ٢٠٢٠ مظاهر الإرهاب الاقتصادي الغربي الممارس ضد الشعب السوري بقوله: "فبدلاً من رفع الإجراءات القسرية أحادية الجانب المفروضة على الشعب السوري وعلى شعوب عدد من الدول الأخرى مع انتشار جائحة (كوفيد ١٩) في كل دول العالم شهدنا تجديداً لهذه الإجراءات، لا بل تم فرض المزيد منها تحت ذرائع واهية بما في ذلك ما يسمى "قانون قيصر لحماية المدنيين في سورية"، لكن الأصح أن تتم تسميته "قانون قيصر" لخنق المدنيين في سورية، وتساءل المعلم: هل منع وصول الأدوية والأجهزة الطبية المنقذة للحياة بما في ذلك في ظل جائحة (كوفيد ١٩) يحمي المدنيين أم يحرمهم من العلاج والتعافي؟.. وهل عرقلة إعادة إعمار ما دمره الإرهاب في سورية تخدم السوريين؟ أم تقطع عنهم فرص العمل وتزيد وضعهم المعيشي سوءاً وتعوق

عودة اللاجئين والنازحين؟.. وهل حرق محاصيل القمح وسرقة النفط ومحاربة قطاع الطاقة في سورية تحمي المدنيين أيضاً؟.. أم تمنع عنهم الغذاء ومواد التدفئة والغاز المنزلي والكهرباء؟.. القائمة تطول هنا.. ولكن الواضح أن الهدف من هذا القانون هو في جوهره الضغط على الشعب السوري في لقمة عيشه وحياته اليومية ومحاولة خنقه في مشهد غير إنساني يذكرنا بالوحشية ذاتها التي خنق بها جورج فلويد وآخرون في الولايات المتحدة.. وتلك التي تخنق بها إسرائيل أبناء الشعب الفلسطيني يومياً، فالجوهر واحد وإن اختلفت الطريقة.. كما تدين سورية الحصار الاقتصادي الجائر المفروض على كوبا وفنزويلا.. وتؤكد ضرورة احترام حقوقهما السيادية وعدم التدخل في شؤونهما الداخلية بأي شكل من الأشكال"[1].

جددت سورية التأكيد، على لسان الدكتور الجعفري، خلال جلسة غير رسمية لمجلس الأمن عقدت في ٢٥ نوفمبر ٢٠٢٠ عبر الفيديو بمبادرة من روسيا والصين وجنوب أفريقيا والنيجر وسانت فنسنت وغرينادين بشأن "إنهاء الإجراءات القسرية أحادية الجانب المفروضة على سورية"[2] على أن: "الإجراءات الاقتصادية الغربية القسرية المفروضة على سورية طالت كل مواطنيها في أبسط تفاصيل حياتهم اليومية وحالت دون حصولهم على احتياجاتهم المعيشية الأساسية وفي مقدمتها الغذاء والدواء والتجهيزات الطبية ووقود التدفئة كما حدّت بشكل كبير من قدرة مؤسسات الدولة السورية وشركائها الإنسانيين على الاستجابة للوضع الإنساني والمعيشي وإعادة إعمار ما دمره الإرهاب وضمان العودة الآمنة والكريمة والطوعية للمهجرين واللاجئين ولاسيما في ظل الأعباء الجسيمة التي فرضتها الحرب الإرهابية والعدوان والاحتلال وسرقة موارد الدولة السورية وكذلك الظروف الناجمة عن انتشار وباء كورونا.. وتزداد يوماً بعد يوم المعاناة التي يعيشها السوريون من جراء الإرهاب الاقتصادي المتمثل بالإجراءات القسرية التي تفرضها الولايات المتحدة ودول غربية على الشعب السوري".

نفاق الغرب وتضليله الرأي العام:

يدّعي بعض ممثلي الدول الأعضاء - زوراً وبهتاناً - أن فرض الإجراءات القسرية هو لـ "حماية المدنيين"، لا بل ويروجون لمزاعم لا أساس لها من الصحة حول وجود استثناءات "إنسانية وطبية" من هذه الإجراءات،

١- متوفر على الرابط:
https://www.sana.sy/?p=1226232

٢- متوفر على الرابط:
https://www.sana.sy/?p=1265423

ويرسمون صورة خيالية زائفة تتعارض - جملة وتفصيلاً - مع الواقع المر الناجم عن إجراءاتهم القسرية وما رافقها من أعمال نهب للغاز والنفط والآثار والممتلكات العامة والخاصة والآليات والمحاصيل الزراعية وحرق ما لا يستطيعون نهبه منها.. و"الحرص الإنساني" الذي يزعمه فارضو تلك الإجراءات لا ينسجم مع تجويع المدنيين وحرمان الأطفال من الحليب وحرمان المرضى من التجهيزات الطبية المنقذة .. والقائمة تطول، ورأت سورية أن الاستمرار في فرض الإجراءات العقابية يعد تجاهلاً تاماً ولا مبالاة من فارضيها لدعوات الأمين العام وكبار ممثلي الأمم المتحدة والمقررة الخاصة بضرورة رفع هذه الإجراءات وإنكاراً لجميع الحقائق والوقائع التي تقدمها سورية، وفي إطار هذه الأجواء دعت دمشق إلى رفع الإجراءات القسرية الأحادية لتتمكن من النهوض بالأعباء الملقاة على عاتقها.

الواقع الصحي والإنساني:

الإجراءات التي فرضتها دول غربية تؤثر مباشرة في الأطفال والنساء وجميع شرائح الشعب السوري، الأمر الذي يتطلب رفعها لتجنيبه المعاناة الناجمة عنها وتسهيل وصول المساعدات الإنسانية إلى محتاجيها وضرورة عدم تسييس هذا الموضوع، وقد بيّن أمين عام الهلال الأحمر العربي السوري (خالد العرقسوسي) في مداخلة عبر الفيديو من دمشق بعض الأمثلة العملية على تأثير الحرب الاقتصادية في الشعب السوري، إذ إن نظام الرعاية الصحية أصبح غير قادر على التعامل مع الاحتياجات المتزايدة بين المدنيين للرعاية الصحية الوقائية والعلاجية لأن الإجراءات الاقتصادية القسرية تعوق جهود استيراد المعدات الطبية وقطع الغيار والأدوية، وهذا يترك الهلال الأحمر العربي السوري لكونه منظمة إنسانية في أزمة حقيقية، لكنه مستمر برغم ذلك بتقديم المساعدة الإنسانية اليومية المنقذة للحياة ودعم الناس أثناء محاولتهم إعادة بناء حياتهم بعد عقد من الأزمة.

فسورية، بسبب الإجراءات القسرية، تواجه دائماً وصولاً غير مستقر للوقود، وتعاني ارتفاعاً في تكلفته، وهذا يؤثر في أعمال جميع المستجيبين الإنسانيين، بما في ذلك الهلال الأحمر السوري ووكالات الأمم المتحدة والمنظمات غير الحكومية الدولية العاملة في سورية، لأن تقديم الإسعافات الأولية والإغاثة تحتاج للمركبات مثل سيارات الإسعاف والشاحنات، وهي ضرورية لنقل المرضى أو توصيل مواد الإغاثة وتلك المركبات بحاجة إلى وقود، وتشكل الإجراءات الاقتصادية عاملاً رئيساً يدفع أعداداً أكبر من السوريين إلى صفوف أولئك الذين يعتمدون على المساعدات بعد أن تأثرت سبل عيش الملايين منهم بشكل خطر هذا العام بسبب استمرار فقدان الفرص الاقتصادية وزيادة معدلات الفقر، وهذا بالطبع يزيد الضغط على العمليات الإنسانية لاستيعاب تلك الأعداد المتزايدة من الأشخاص المحتاجين، كما تسببت الإجراءات القسرية بآثار كبيرة على الأنشطة

الإنسانية، ولاسيما خطوط الدعم اللوجستي والقنوات المالية تماشياً مع السياسات الإنسانية الأوسع نطاقاً للأمم المتحدة والممارسات السابقة لمجلس الأمن الدولي، فكان لابد من وجوب الحفاظ على المساعدات الإنسانية القائمة على المبادئ من الآثار السلبية للإجراءات الاقتصادية، وهذه تدفع للحاجة من دون عوائق إلى الأموال والإمدادات والخدمات اللوجستية، وهذا لن يتحقق مع بقاء الإجراءات الاقتصادية القسرية.

الإجراءات الأحادية من أبرز التحديات:

الإجراءات القسرية أحادية الجانب من أبرز التحديات التي تواجهها سورية، وقد دعا الأمين العام للأمم المتحدة إلى ضرورة إنهائها لأنها تقوض قدرة البلاد على الاستجابة لوباء "كوفيد ١٩" إضافة إلى التصريحات والمطالبات الصادرة عن كبار ممثلي الأمم المتحدة بضرورة تخفيف أو تعليق هذه التدابير القسرية في ضوء تأثيرها الخطر على قطاع الصحة وحقوق الإنسان، وهذا ما أشارت إليه سورية في بيان ألقاه الجعفري خلال افتتاح اللجنة الاقتصادية والمالية "الثانية" أعمالها للدورة الخامسة والسبعين للجمعية العامة في الأمم المتحدة بتاريخ ٨ أكتوبر ٢٠٢٠[1] ودعت فيه إلى الابتعاد عن محاولات تسييس الجانب الإنساني وإلى تقديم الدعم اللازم لحكومتها في سعيها للنهوض بالعمل التنموي وإزالة التحديات التي فرضتها سنوات الحرب عليها، كذلك إقامة شراكات عالمية عادلة مبنية على احترام مبادئ القانون الدولي وأحكام ميثاق الأمم المتحدة، وفي مقدمتها مبدأ السيادة الوطنية وذلك لدعم جهود مؤسسات الدولة السورية لتجاوز كل التحديات التي فرضتها سنوات الحرب الإرهابية والاقتصادية المفروضة عليها والعوائق الجديدة التي خلفتها جائحة كوفيد ١٩، وتحقيق أهداف التنمية المستدامة.

أثر الحصار الغربي على اللاجئين والمهجرين وعودتهم:

كما أثرت الإجراءات القسرية أحادية الجانب على نحو واضح في اللاجئين والمهجرين وفي عودتهم إلى البلاد ومدنهم وقراهم ومنازلهم وفي ممارسة أعمالهم اليومية المعتادة، وهذا ما بيّنه السيد الرئيس بشار الأسد خلال مباحثات مع الرئيس الروسي فلاديمير بوتين عبر تقنية الفيديو كونفرانس بشأن المؤتمر الدولي لعودة اللاجئين الذي عقد في قصر الأمويين للمؤتمرات بدمشق بتاريخ ١٢ نوفمبر ٢٠٢٠ بقوله: "المشكلة الأكبر هي الحصار الغربي المفروض على سورية.. على الدولة وعلى الشعب وبالتالي إعادة هؤلاء اللاجئين بحاجة لتأمين الحاجات الأساسية الضرورية لمعيشتهم.. الماء والكهرباء والمدارس.. لديهم أطفال.. وغيرها

١- متوفر على الرابط:
https://www.sana.sy/?p=1233196

من الخدمات الأساسية إضافة إلى موضوع تحريك الاقتصاد من أجل أن يعودوا وأن يكون أمامهم أفق من أجل أن يعيشوا حياة طبيعية.. المشكلة أن الحصار الغربي الذي تفرضه الولايات المتحدة يشكل عقبة كبيرة في وجه هذه العودة.. ولدينا أمل كبير بجهودكم وبجهود الدول الأخرى المشاركة أن يكون هناك إمكانية لتخفيف أو رفع أو إزالة هذا الحصار اللا شرعي الظالم من أجل أن تتمكن الدولة السورية من القيام بواجباتها تجاه أولئك العائدين.. البعض منهم عاد.. أو الآخرين الذين يرغبون في العودة"[١].

وفي كلمة له خلال افتتاح أعمال المؤتمر الدولي بشأن عودة اللاجئين أشار الرئيس الأسد إلى: "أن العقوبات الاقتصادية اللاشرعية والحصار المفروض من قبل النظام الأمريكي وحلفائه تعوق جهود مؤسسات الدولة السورية التي تهدف لإعادة تأهيل البنية التحتية للمناطق التي دمرها الإرهاب، حيث يمكن للاجئين العودة والعيش حياة كريمة بظروف طبيعية.. وهذا يشكل سبباً رئيساً لتردد الكثيرين منهم في العودة إلى مناطقهم وقراهم في غياب الحد الأدنى من متطلبات الحياة الأساسية.. وبرغم الحصار غير القانوني، فقد استطاعت الدولة إعادة الحد الأدنى من البنية التحتية في العديد من المناطق كالماء والكهرباء والمدارس والطرق وغيرها من الخدمات العامة لتمكين أبنائها العائدين من العيش ولو بالحد الأدنى من مقومات الحياة"، مؤكداً أن هذه الخطوات ستكون أسرع كلما ازدادت الإمكانات.. وازديادها مرتبط بتراجع العقبات المتمثلة بالحصار الاقتصادي والعقوبات التي تحرم الدولة من أبسط الوسائل الضرورية لإعادة الإعمار وتؤدي إلى تراجع الوضع الاقتصادي والمعيشي، ما يحرم أبناء الوطن فرص العيش الكريم ويحرم اللاجئين من فرصة العودة في ظل تراجع فرص العمل"[٢].

مخاطر الإرهاب "التكفيري والاقتصادي":

لاشك في أن الإرهاب التكفيري الموظف أداةً لمحاربة الدولة السورية والمدعوم من الخارج ولاسيما من النظامين التركي والأمريكي وكيان الاحتلال الإسرائيلي، وكذلك الإرهاب الاقتصادي المتمثل بالحصار والإجراءات القسرية الأحادية التي تفرضها دول غربية ولاسيما الولايات المتحدة ودول أوروبية على الشعب السوري هما من أخطر وأهم العوامل الرئيسة المسببة للمعاناة الإنسانية للسوريين وتهجيرهم داخل البلاد

١- متوفر على الرابط:
https://www.tishreen.news.sy/?p=581776

٢- متوفر على الرابط:
https://www.sana.sy/?p=1255568

وخارجها، وهذا ما أشار إليه نائب وزير الخارجية والمغتربين الدكتور فيصل المقداد في الجلسة العامة الثالثة للمؤتمر الدولي بشأن عودة اللاجئين، مضيفاً أن: "ما فاقم هذه المعاناة وأعاق جهود الحكومة لتسهيل عودة المهجرين هو انتشار وباء كورونا والتوسع والتشدد بفرض الإجراءات القسرية الغربية التي تطول الاقتصاد السوري وقطاعاته الحيوية، وتسهم بشدة في حرمان المواطن السوري من احتياجاته الأساسية"[1].

وجددت سورية، على لسان المقداد، دعوتها الأمم المتحدة للقيام بدور إيجابي في دعم جهود عودة المهجرين والمساهمة في تذليل العقبات التي تعترض تحقيق هذا الهدف عبر حشد مزيد من الموارد المالية والعمل مع جميع الأطراف الدولية المعنية لرفع الإجراءات القسرية الأحادية التي تؤثر أيضاً بشدة في عمل الوكالات الإنسانية في سورية مبيناً أن معظم اللاجئين يرغبون في العودة إلى بلدهم، لكن بعض الدول تسيّس هذا الملف عبر تشديد إجراءاتها على سورية وشعبها لكي يجبروه على مغادرتها.. فهم يريدون مزيداً من اللاجئين، لا عودة اللاجئين إلى وطنهم.

وهنا لابد من لفت الانتباه إلى أن الاتحاد الأوروبي يسير وعلى نحو أعمى خلف السياسة الأمريكية ويعمل على إرضائها بتنفيذ ما تمليه عليه من إجراءات، ومن بينها تمديد العقوبات المفروضة على بعض المؤسسات والأفراد السوريين عاماً إضافياً بذرائع واهية، إضافة إلى مواصلته فرض المزيد من العقوبات على مسؤولين سوريين، إذ وسع نطاق عقوباته المفروضة على سورية بإضافة وزراء سوريين إلى ما يسمى "القائمة السوداء" بتاريخ ٦ نوفمبر ٢٠٢٠، وذلك في بيان لمجلس الاتحاد أقر فيه "إضافة ثمانية أعضاء من الحكومة السورية إلى قائمة الأشخاص الخاضعين لإجراءات الاتحاد الأوروبي التقييدية ضد سورية، في ضوء التعيينات الوزارية الأخيرة"[2]، وجاء هذا الإقرار بعد أن أعلن هذا التكتل في سبتمبر من العام نفسه إدراج ٧ وزراء في الحكومة السورية على قائمة العقوبات الخاصة به.

كما أدانت سورية بشدة بيان المجلس الأوروبي بشأن تمديد العقوبات المفروضة عاماً إضافياً على بعض المؤسسات والأفراد السوريين بذريعة تطوير واستخدام الأسلحة الكيميائية مؤكدة أن البيان بني على النفاق والتضليل ويأتي استمراراً للحملة المعادية لسورية، وقال مصدر مسؤول في وزارة الخارجية والمغتربين

١- متوفر على الرابط:
https://www.sana.sy/?p=1256077

٢- متوفر على الرابط؛
https://www.alalamtv.net/news/5261766/%D8%A7%

بتاريخ ١٤ نوفمبر ٢٠٢٠: "تدين الجمهورية العربية السورية بأشد العبارات البيان الذي أصدره المجلس الأوروبي يوم الاثنين الـ ١٢ من أكتوبر الجاري بشأن تمديد العقوبات المفروضة عاماً إضافياً على بعض المؤسسات والأفراد السوريين بذريعة تطوير واستخدام الأسلحة الكيميائية.. وهذا البيان بني على النفاق والتضليل وهو استمرار للحملة المعادية لسورية والتي لجأ إليها المجلس الأوروبي منذ بداية الحرب الإرهابية عليها وحتى الآن، وهو يدلل مرة أخرى على عدم صدقية المجلس الأوروبي، ويندرج في إطار تماهي سياساته مع الإجراءات القسرية أحادية الجانب التي فرضتها الولايات المتحدة الأمريكية بهدف تجويع الشعب السوري والنيل من صموده وثباته وفي الوقت ذاته دعم المجموعات الإرهابية المسلحة بما في ذلك استخدامها المتكرر للأسلحة الكيميائية ضد المدنيين الأبرياء"[١].

كما أشارت سورية إلى أن الإدارة الأمريكية والاتحاد الأوروبي يواصلان الإرهاب الاقتصادي بحقها عبر فرضها إجراءات قسرية أحادية الجانب عليها، ففي بيان لها خلال جلسة لمجلس الأمن بتاريخ ٢٧ أكتوبر ٢٠٢٠ عبر الفيديو بشأن الوضع فيها، أوضح مندوبها الدائم لدى الأمم المتحدة الدكتور بشار الجعفري[٢] أن الإدارة الأمريكية وشركاءها في الاتحاد الأوروبي يواصلون سياسات الإرهاب الاقتصادي والعقاب الجماعي للشعوب من خلال إجراءات قسرية أحادية يفرضونها عليها، وخاصة سورية، بهدف خنق المدنيين وحرمانهم من الغذاء والدواء والمعدات الطبية الأساسية والوقود ومنع إعادة الإعمار وعودة المهجرين في استهتار بالغ بالقانون الدولي وميثاق الأمم المتحدة والدعوات التي أطلقها الأمين العام وكبار موظفي المنظمة الدولية ومجلس حقوق الإنسان بشأن ضرورة رفع هذه الإجراءات، ولاسيما في ظل التحديات التي يفرضها وباء كورونا وضرورة التصدي له، مبيناً أن سورية طالبت مجلس الأمن مراراً بمساءلة نظام أردوغان عن انتهاكاته للقانون الدولي وأحكام ميثاق الأمم المتحدة وقرارات مجلس الأمن وعن جرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية التي ارتكبها في سورية وفقاً لتقارير الأمم المتحدة ولجان مجلس الأمن المختصة وسرقة ونهب مقدرات الشعب السوري وثرواته وموارده الطبيعية، بما فيها الآثار والنفط والغاز والمصانع والآليات والمحاصيل الزراعية وممارسة التهجير والتغيير الديمغرافي و"التتريك" واستخدام مياه الشرب سلاحاً ضد المدنيين وقيامه والتنظيمات الإرهابية العميلة له متعمدين بحرق مساحات واسعة من الأراضي المزروعة

١- متوفر على الرابط:
http://www.sana.sy/?p=1237910

٢- متوفر على الرابط:
http://www.sana.sy/?p=1245984

بالقمح والشعير والزيتون والحمضيات واستهداف أصحابها في مصدر رزقهم الوحيد، معرباً عن أسف سورية لأن مجلس الأمن لم يتحرك لإبداء تضامنه- كحد أدنى- مع السوريين الذين تضرروا من جراء الحرائق المفتعلة التي شهدتها مناطق واسعة في عدد من المحافظات.

التضامن مع سورية وإدانة العقوبات عليها ورفضها:

تعالت الأصوات المتضامنة مع سورية والمنددة بالعقوبات الغربية الظالمة عليها، فعلى الصعيد العربي، وعلى سبيل المثال لا الحصر؛ أدانت أحزاب مصرية "الناصري" و"مصر العربي الاشتراكي" و"حقوق الإنسان والمواطنة" وغيرها من الأحزاب الأخرى[1] تمديد المجلس الأوروبي للعقوبات على سورية عاماً إضافياً واستمرار الاتحاد الأوروبي والدول الغربية في استخدام سياسة الإجراءات القسرية أحادية الجانب ضدها، بينما رأت اللجنة الشعبية المصرية للتضامن مع الشعب السوري في بيان ١٦ نوفمبر ٢٠٢٠"أن الاتحاد الأوروبي شريك في الجريمة التي ترتكبها الولايات المتحدة الأمريكية بفرض عقوبات قسرية أحادية الجانب ضد الدولة السورية ومؤسساتها، وأن القرار الأخير الخاص بتمديد العقوبات يؤكد أن سياسات الاتحاد الأوروبي لم تتغير، وأنه ضلع أساسي في المؤامرة التي تتعرض لها سورية منذ سنوات مستهدفة تقسيمها لمصلحة كيان الاحتلال الصهيوني، كما أن هذه الإجراءات القسرية لا تستند إلى معايير دولية عادلة، وإنما إلى أكاذيب وادعاءات مضللة"[2].

جدد حزب البعث العربي التقدمي في الأردن في ١٤ نوفمبر ٢٠٢٠ [3] تأكيده على التضامن مع سورية ووقوفه إلى جانبها في مواجهة الإجراءات القسرية المفروضة على الشعب السوري، وآخرها ما يسمى "قانون قيصر"، كما استنكر وفد شعبي أردني ترأسه مصطفى الزبون رئيس (رابطة صقور الأردن)[4] خلال زيارته السفارة

١- متوفر على الروابط الآتية:

- https://www.sana.sy/?p=1239894
- https://www.sana.sy/?p=1247768
- https://www.sana.sy/?p=1241977

٢- متوفر على الرابط:

https://www.sana.sy/?p=1238905

٣- متوفر على الرابط:

https://www.sana.sy/?p=1237980

٤- متوفر على الرابط:

https://www.sana.sy/?p=1235894

السورية في عمان في ١١ أكتوبر ٢٠٢٠ الحرب الظالمة التي تتعرض لها سورية والإجراءات القسرية الجائرة المفروضة عليها، مشيراً إلى أن أعداء سورية حاربوها في لقمة عيش شعبها بعد فشل حربهم العسكرية التي استخدموا فيها الإرهابيين أداة، وأعرب الوفد عن ثقته بأن سورية ستنتصر على ما تتعرض له من حرب ظالمة وإجراءات قسرية أحادية الجانب.

على الصعيد الدولي، طالبت ٢٦ دولة بينها سورية وروسيا و الصين وإيران وكوريا الديمقراطية في إعلان مشترك[١] خلال اجتماع للجنة الثالثة للجمعية العامة للأمم المتحدة المتخصصة في حقوق الإنسان ٦ أكتوبر ٢٠٢٠ بإنهاء الحصار الاقتصادي والإجراءات القسرية أحادية الجانب التي تفرضها الإدارة الأمريكية وحكومات غربية على عدد من الدول، مؤكدة أنها تنتهك حقوق الإنسان، وتعرقل جهود مواجهة وباء كورونا، وجاء في الإعلان "مازلنا نشهد تطبيق تدابير قمعية أحادية خلافاً لأهداف ومبادئ ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي والتعددية والمعايير الأساسية للعلاقات الدولية".

كما دعا الرئيس الروسي فلاديمير بوتين مجدداً في تصريح خلال مشاركته عبر الفيديو في فعاليات (نادي فالداي للحوار) في ٢٢ نوفمبر ٢٠٢٠[٢] إلى رفع الإجراءات الاقتصادية القسرية المفروضة على سورية، مشدداً على مساعدة الشعب السوري وتلبية احتياجاته الطبية وخاصة في وقت يشهد انتشار جائحة كورونا، كما جددت موسكو على لسان وزير خارجيتها سيرغي لافروف في حوار مع وكالة سبوتنيك[٣] في ١٨ سبتمبر ٢٠٢٠ رفضها وإدانتها الإجراءات الأمريكية القسرية المفروضة على سورية، موضحةً أن ما يسمى "قانون قيصر" والإجراءات الغربية الأخرى ضد سورية أضرت بالدرجة الأولى بالمواطنين السوريين على عكس ما يزعم به الغرب، وأن "روسيا لن تكف عن إدانة الإجراءات الأمريكية والغربية بحق سورية، وأن الأمم المتحدة تبنت قرارات خاصة تعلن أن العقوبات أحادية الجانب غير شرعية وغير قانونية".

١- متوفر على الرابط:
https://www.sana.sy/?p=1231353

٢- متوفر على الرابط:
https://www.sana.sy/?p=1242968

٣- متوفر على الرابط:
https://www.arabic.sputniknews.com/interview/202009181046578281

كذلك جدد رئيس المجموعة البرلمانية التشيكية للصداقة مع سورية ستانيسلاف غروسبيتش في ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٠[١] إدانته الإجراءات القسرية أحادية الجانب التي يفرضها الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة على سورية، ووصفها بالعمل الإجرامي.

تأثير الحرب الإرهابية على سورية[٢]:

- الاقتصاد السوري خلال الحرب والسنوات العجاف:

تعرضت سورية وشعبها لأضرار وخسائر كبيرة نتيجة الحرب الإرهابية عليها وهذه الحرب المترافقة مع عقوبات وحصار جائرين، واستهداف العصابات الإرهابية مرتكزات الاقتصاد الوطني، ولتقدير الخسائر تقريبياً لابد من اتباع التسلسل الآتي:

أولاً- قيمة الخسائر التقريبية على مستوى الاقتصاد الكلي:

قدّرت خسائر الاقتصاد السوري حتى عام ٢٠١٧ بمبلغ ٢٢٦ مليار دولار، وما يعادل تقريباً ٤ أضعاف قيمة الناتج المحلي الإجمالي لعام ٢٠١٠، ووفق دراسة لمنظمة (الإسكوا) فإن الخسائر كبيرة جداً، وتوقعت أن تتجاوز الخسائر تريليون دولار حتى عام ٢٠٢٠ مع استمرار الحرب.

لقد تراجعت قيمة الناتج المحلي الإجمالي وقدر هذا التراجع خلال السنوات الخمس الأولى من الحرب بنحو ٤٠ مليار دولار عام ٢٠١٤ أي بنسبة تراجع عن ٢٠١٠ بنحو ٦٩٪، ولابدّ من أن هذه الخسائر تضاعفت أضعافاً مضاعفة حتى نهاية العام ٢٠٢٠ بسبب الجمع التراكمي لخسائر المؤسسات الاقتصادية على ساحة الأرض السورية كاملة ولأهم القطاعات الاقتصادية ولاسيما بعد تطبيق ما يسمى "قانون قيصر" الجائر بحق الاقتصاد والشعب السوري.

١- متوفر على الرابط:

https://www.sana.sy/?p=1241084

٢- سورية في مواجهة الحرب الكونية.. حقائق ووثائق، مجموعة من الباحثين العرب، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠١٨؛ متوفر على الرابط:

https://drive.google.com/file/d/1g2MkzTBFfL6ilxTzE-rH10TQYuyK1ohW/view

ثانياً- قيمة الخسائر التقريبية على مستوى الاقتصاد الجزئي:

تضررت كل القطاعات الاقتصادية في سورية بتباين، وأهمها:

١- المنظومة المصرفية:

كشفت البيانات المصرفية لعام ٢٠١٦ أن إجمالي الخسائر المباشرة غير المباشرة، تجاوزت ١٤٣ مليار ل.س، وبعض خبراء الاقتصاد قدروا أن نحو ٨٠٠ مليار ليرة سورية خرجت إلى خارج سورية، إضافة إلى ارتفاع القروض المتعثرة لدى المصارف السورية إذ بلغت لدى المصرف الصناعي عام ٢٠١٥ نحو ما يزيد على ١٠ آلاف قرض، تقدّر قيمتها بمبلغ ٢٦.٧ مليار ليرة، وفي المصرف التجاري نحو ١٢ مليار ليرة إضافة إلى قروض أخرى في المصارف العامة والخاصة والبنك المركزي السوري.

٢- النفط والثروة المعدنية:

تعرض هذا القطاع لأضرار وخسائر كبيرة، إذ تجاوزت خسائره في شهر مارس من عام ٢٠١٦ ما يزيد على ٦٨ مليار دولار.

٣- الكهرباء:

كان هذا القطاع الأكثر تضرراً، إذ تجاوزت خسائره المباشرة ٢٠٠٠ مليار ل.س، وغير المباشرة ٣٠٠٠ مليار ل.س.

٤- الصحة:

قُدّرت خسائر هذا القطاع بأكثر من ١٢ مليار دولار.

٥- السياحة:

تجاوزت خسائر قطاع السياحة قيمة ٣٥٠ مليار ليرة.

٦- النقل:

بلغت خسائر هذا القطاع أكثر من ٤٥٦٧ مليون دولار، إذ تراجعت إيرادات وزارة النقل من ١٣٨٩ مليون دولار سنوياً وسطياً إلى حدود ١٠٢ مليون دولار خلال سنوات الحرب حتى ٢٠١٦، أي بنسبة ٩٣٪ سنوياً، وهذا القطاع تأثر سلباً بكل مكوناته، براً وبحراً وجواً.

٧- التربية والتعليم:

تم استهداف هذا القطاع على نحو كبير، ودمرت مؤسسات البنية التعليمية من الحضانة وحتى التعليم العالي، وقدّرت الخسائر التعليمية بأكثر من ١٦ مليار دولار، حتى نهاية ٢٠١٥.

٩- الزراعة والبيئة:

دمر أكثر من ٢٥٪ من البنية التحتية الزراعية وتقلصت المساحة المزروعة إلى أكثر من ٤٠٪ وتراجع الإنتاج الزراعي خلال السنوات الخمس الأولى من الحرب إلى أكثر من ٥٠٪ من الزراعة المروية و٨٠٪ من الزراعة البعلية (المطرية)، وزادت الخسائر في هذا القطاع على ٤٠٠ مليار ليرة سورية، وتعرضت البيئة السورية لخسائر كبيرة وصلت لحدود ١٧ مليار دولار.

١٠- الصناعة والمناطق الصناعية:

تعرض هذا القطاع لخسائر كبيرة تجاوزت ١٠٠٠ مليار ليرة سورية، وقد احتلت حلب المركز الأول في حجم الأضرار والخسائر التي تعرضت لها، إذ تضررت ١٩٦٢ منشأة بلغت قيمتها نحو ٢٣٩ مليار ليرة. أما في دمشق فقد بلغ عدد المنشآت المتضررة تقريباً ٣٢١ منشأة، كان أكثرها تضرراً قطاع النسيج وشركاته.

١١- قطاع الاستثمار:

تراجعت الاستثمارات على نحو كبير، إذ إن تطوير البيئة الاستثمارية يتطلب بالدرجة الأولى توافر الأمن والأمان. والجدول الآتي يوضح مدى تراجع الاستثمار في سورية بين ٢٠١٠ و٢٠١٥، كما يوضح مدى تراجع اليد العاملة وارتفاع معدل البطالة.

المؤشر/ السنة	٢٠١٠	٢٠١٥
عدد المشاريع المنفذة/ مشروع	١٣٩	٢١
التكاليف الاستثمارية/ مليون ل.س	٢٠١٩٧	٢٠١٥
عدد العمال/ عامل	٦٨٩٤	١١٩٠

تأثير العقوبات والحصار الاقتصادي[١]:

تؤكد الدراسات أن العقوبات والحصار الاقتصادي المفروضين على الشعب السوري من طرف واحد على نحو يخالف الشرعية الدولية والمواثيق الدولية أثر سلباً في مستوى معيشة الشعب السوري، ونظراً لأهمية هذا الموضوع وتداعياته السلبية على المواطن السوري لابدّ من دراسته وفق التسلسل الآتي:

١- أسباب وجوهر ونوع العقوبات والحصار الاقتصادي على سورية

تدّعي الدول المتآمرة على سورية أنها تريد تعميم الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان... إلخ، لكن منذ اللحظة الأولى تبين أن تصرفاتها مخالفة لادعاءاتها، من خلال دعمها أكثر الدول رجعية ودكتاتورية في العالم، ودعمها الكبير للعصابات الإجرامية في بلدان كثيرة، ولاسيما في سورية بسبب تمسكها بقرارها الوطني والسياسي والسيادي، وبوصفها محور ومركز المقاومة، والغريب أن هذه الدول تدّعي أنها لا تريد معاقبة الشعب العربي السوري، بل معاقبة (النظام السوري) متناسية أن هذا النظام -كما تسميه- منتخب من هذا الشعب، لكن من خلال تحليل واقع ومضمون أو جوهر ونوع العقوبات والحصار الاقتصادي المفروض على سورية يتبين لنا أنها استهدفت مباشرة المواطن السوري، ولاسيما ذوي الدخل المحدود، أي المواطنين الأفقر، ما يثبت كذب وزيف ادعاءات هؤلاء المتآمرين، وأن هذه العقوبات والحصار هما شكل من أشكال الحرب المباشرة ضد كل مكونات المجتمع السوري، وقد أدّيا إلى إفقار وتهميش أغلب فئات المجتمع السوري، إذ إن سورية وشعبها خضعا لعقوبات وحصار لم يشهدهما التاريخ لرفضهما كل المشاريع الاستعمارية الخارجية، ومن هنا كانت العلاقة الترابطية بين تآمر هذه الدول وتشديد العقوبات والحصار الاقتصادي، وأعمال العصابات الإجرامية في تقطيع أوصال سورية وتدمير بنيتها الاقتصادية، لتحقيق هدف أعداء سورية المنشود وهو تدمير سورية بكل مكوناتها بشراً وشجراً وحجراً، وتتصف هذه العقوبات بالشمولية والتنوع ويمكن تصنيفها كما يأتي:

أ- من حيث مصدرها:

يمكن تصنيفها في ٤ مصادر أساسية هي: (العقوبات الأمريكية تحت مسمّى قانون محاسبة سورية- عقوبات الاتحاد الأوروبي- عقوبات جامعة الدول العربية- عقوبات تركيا ودول أخرى).

ب- من ناحية شمولها:

١- سورية في مواجهة الحرب الكونية.. حقائق ووثائق، مرجع سابق.

إذ شملت كلّ مجالات الحياة، ومنها مثلاً: (التجارة الخارجية- قطاع الاستثمار- قطاع النفط والغاز- قطاع الطيران والنقل البحري والبري والسكك الحديدية- القطاع البنكي والمصرفي- توقيف عمل بنك الاستثمار الأوروبي- منع تقديم القروض لقطاعات النفط والكهرباء والقروض الحكومية... إلخ- عقوبات على مراكز البحوث العلمية والمخابر- قطاع الدفاع والأسلحة- قطاع الإعلام والهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون ومؤسسات إعلامية أخرى- عقوبات على مؤسسات وشركات خاصة وعامة- منع التحويلات المالية من وإلى سورية..... إلخ). ومن الواضح أن هذه العقوبات تستهدف المواطن السوري ومعيشته.

٢- التداعيات السلبية للعقوبات والحصار الاقتصادي:

يتركز أهمها في الآتي:

*** التداعيات الاقتصادية:**

١. تراجع مؤشر التجارة الخارجية (الصادرات والمستوردات) وعلى نحو خاص الصادرات والمستوردات الزراعية والصناعية، الذي تأثر به مباشرة الفلاحون والعمال في قطاع الإنتاج والتسويق الداخلي والتصدير، ولاسيما ذوي الدخل المحدود والفئات المتوسطة.

٢. ارتفاع تكلفة تأمين السلع والخدمات بسبب ارتفاع تكاليف الشحن والنقل والتأمين وبوالص التأمين ورسومها، وامتناع الكثير من الناقلين عن قيامهم بالنقل لارتفاع هامش المخاطرة، ما أدى إلى رفع وزيادة أسعار المستوردات وانعكس سلباً على المنتج والمستهلك السوري، ويظهر ذلك جلياً من خلال ارتفاع أسعار المحروقات والأغذية والأدوية وغيرها، وتالياً تراجع قدرة المواطن السوري على تأمين احتياجاته الأساسية وازدياد نسبة المواطنين تحت خط الفقر في المجتمع السوري.

٣. تراجع معدل النمو الاقتصادي ونسبة الاكتفاء الذاتي وخاصة الغذائي والدوائي.

٤. ارتفاع معدلات البطالة وخاصة في أوساط العائلات الفقيرة.

٥. تراجع قيمة الناتج المحلي الإجمالي، إذ أدت التداعيات السابقة إلى تراجع وتيرة العمل الاقتصادي وتالياً تراجع قيمة الناتج المحلي الإجمالي، وتراجع متوسط دخل المواطن السوري.

٦. زيادة معدل التضخم والركود الاقتصادي (الركود التضخمي) الذي نتج عنه ارتفاع الأسعار على نحو غير معهود وخاصة السلع الأساسية اليومية الحياتية، وأهمها المشتقات النفطية والخبز والأدوية والسكن والألبسة وغيرها، ما أدى إلى زيادة مستوى الفقر ومعدل البطالة وزيادة معدل العناء الاقتصادي.

٧. زيادة عدد الفقراء بسبب تراجع مصادر الدخل وزيادة معدل البطالة وارتفاع الأسعار وزيادة الأضرار المادية وفقدان الممتلكات وتراجع تحويلات العاملين في الخارج وسرقة المحاصيل والمواسم.... إلخ.

٨. تراجع مساهمة المشاريع الاقتصادية في قيمة الناتج واستيعاب اليد العاملة وخاصة المشاريع متناهية الصغر والصغيرة والمتوسطة، ما أثر مباشرة في العمال والفلاحين الذين يشكلون أكثر من ٨٠٪ من المجتمع السوري.

٩. تراجع الميزة النسبية للمنتجات التصديرية السورية ما أدى إلى تراجع مؤشر شروط التبادل والتوافق التجاري، الذي انعكس على الفلاحين والعمال مباشرة، واضطر قسماً كبيراً منهم لمغادرة أرضهم وعملهم، أو الهجرة خارج سورية.

١٠. زيادة العجز في الموازين الاقتصادية، خاصة مع زيادة الفارق بين الصادرات والمستوردات من السلع والخدمات، وأيضاً زيادة الإنفاق الجاري في الموازنات السنوية على حساب الإنفاق الاستثماري ما ترك آثاراً سلبية على المواطن السوري.

١١. تراجع الاحتياطيات النقدية وتراجع سعر صرف الليرة السورية، ما أدى إلى انتشار السوق السوداء وزيادة صعوبة القدرة على تمويل المستوردات.

١٢. خسائر كبيرة في رأس المال البشري ترافقت مع هروب المستثمرين بسبب توقف منشآتهم الاقتصادية نتيجة الإرهاب وعدم قدرتهم على تأمين مستلزمات الإنتاج بسبب العقوبات والحصار الاقتصادي.

١٣. تراجع مؤشر السياحة والسفر، فقد كانت السياحة تعطي مردوداً كبيراً وتشغّل عدداً كبيراً من اليد العاملة.

*** التداعيات الاجتماعية:**

١. تراجع التعليم والمنظومة التعليمية، إذ توقف الكثير من المؤسسات التعليمية في القطاعين العام والخاص عن العمل بسبب هذه العقوبات والحصار الاقتصادي، إضافة إلى تدمير المدارس والمؤسسات التعليمية من العصابات الإرهابية.

٢. تراجع قطاع الصحة والمنظومة الصحية.

٣. تراجع مؤشر التنمية البشرية الذي يتضمن ٣ مؤشرات فرعية، هي مؤشر الدخل والتعليم والصحة وقد تراجعت جميعها كثيراً.

٤. تراجع مستوى الأمن الاجتماعي.

٥. تراجع مؤشر الجندر، الذي يعبر عن مقدار التمايز بين مساهمة المرأة والرجل في الحياة الاقتصادية.

٦. تراجع الأداء البيئي بسبب الإساءة إلى كل مقومات البيئة.

٣- آلية الرد على العقوبات والحصار الاقتصادي:

لابدّ من الإشارة إلى أن هناك صعوبة في تحديد أضرار العقوبات والحصار الاقتصادي على سورية لأسباب ثلاثة هي:

أ. أن الحرب والعقوبات والحصار الاقتصادي لم تنته بعد على سورية وتداعياتها متغلغلة في كل الجوانب المجتمعية.

ب. هذه التداعيات لم تظهر واضحة، ومستقبلاً سيظهر الكثير من الجوانب السلبية الأخرى.

ج. من الصعوبة الفصل بين تداعيات الحصار والعقوبات وأعمال العصابات الإجرامية لأن كلاً منها يدعم الآخر ويكمله.

لكن الشعب السوري استطاع الانتصار على أغلب هذه التداعيات، لعدة عوامل، أهمها:

١. اعتماد الشعب السوري على موارده واقتصاده وتأمين أغلب متطلبات حياته من موارده الذاتية.

٢. دعم الأصدقاء والحلفاء لسورية، ولاسيما روسيا وإيران وبعض الدول الأخرى.

٣. توجّه الدولة والحكومة السورية وبرغم تراجع الموارد وقلة الإمكانات المتاحة إلى زيادة مخصصات الموازنات السنوية من عام لآخر.

٤. توجّه الدولة والحكومة السورية والقطاع الخاص لإيجاد أسواق بديلة والتوجه مثلاً نحو أسواق العراق وروسيا وإيران والصين وغيرها من الدول التي لم تتآمر على سورية.

٥. تعزيز التوجّه شرقاً بالمعنى السياسي، وليس الجغرافي.

٦. تعزيز الخطط الإسعافية بدلاً من الخطط السنوية والخمسية، وخاصة للقطاعات الرائدة والقائدة في الاقتصاد السوري.

٧. عقد اتفاقيات مع الدول الصديقة وتأمين قروض ائتمانية لتغطية النفقات للسلع الأساسية من محروقات ومواد طبية وأغذية وغيرها.

٨. التوجه لتأمين عمل المؤسسات الاقتصادية السورية بعد تخليصها من العصابات الإجرامية وعودتها إلى حضن الوطن.

٩. موقف الجاليات السورية في الخارج وتأمين الدعم الكبير للدولة السورية لتجاوز الكثير من العقوبات والصعوبات.

١٠. ضعف العلاقات الاقتصادية بين الاقتصاد السوري والأمريكي.

٤- فشل العقوبات والحصار الاقتصادي:

لقد استطاع الشعب السوري استيعاب تداعيات العقوبات والحصار الاقتصادي، وتضررت بعض الدول من حصار سورية مثل الأردن ولبنان وحتى تركيا وغيرها، وراح الكثير من الفعاليات والباحثين الاقتصاديين في الشرق والغرب يطالبون برفع الحصار والعقوبات الاقتصادية عن سورية، ما يؤكد صحة رأي الخبير الاقتصادي في جامعة (جونز هوبكنز) الدكتور (ستيف هانكه) الذي يقول: "العقوبات تاريخياً تأتي بنتائج عكسية تماماً، بمعنى أنه إذا فرضت عقوبات على عدوك فإنها تميل إلى تعزيز قدراته الذاتية".

برغم كل الصعوبات التي نواجهها سننتصر عليها، كما انتصرنا في الحرب، ولاسيما أن اقتصادنا متنوع وهناك دول بدأت تحلّ تدريجياً محل دول الاتحاد الأوروبي مثل (دول مجموعة بريكس ودول الاتحاد الأوراسي ومنظمة شنغهاي ودول أمريكا اللاتينية والكثير من الدول العربية) وغيرها.. وتقوم الحكومة السورية بزيادة مخصصات الدعم الاجتماعي للسلع والخدمات الضرورية، ويتم يومياً دعم المواقع الإنتاجية أيضاً، وساهم في هذا اعتماد مبدأ الاعتماد على الذات أولاً وتعزيز العلاقة مع الدول الصديقة ثانياً والدول التي لم تتآمر على سورية ثالثاً، وكل هذا ساعد على تقليل آثار وتداعيات العقوبات والحصار الاقتصادي على سورية، وسيتم الانتصار على تداعياتها وسينقلب السحر على الساحر وذلك اعتماداً على التلاحم العضوي بين الشعب والجيش والقيادة وعلى رأسها السيد الرئيس بشار الأسد.

فإذا كانت الإدارة الأمريكية تظنّ أنها بإرهابها الاقتصادي والتكفيري واستخدامها لغة العسكرة -أو الحرب النفسية عبر بثّ الشائعات والأكاذيب- واحتلالها مناطق استراتيجية من الأراضي السورية، تستطيع "تطويع" سورية وشعبها على نحوٍ يحقق مراميها العدوانية، فهي واهمة لأنها لم تقرأ الوقائع كما هي، فقد أعماها صلفها ونرجسيتها وتوحشها وبقيت في أوهامها السابقة، التي تعتقد أنها "تستطيع فعل كل ما يحلو لها"!

لكن من صمد نحو عقد من الزمن في وجه أعتى الحروب وأقذرها على مرّ التاريخ لن يهزمه جوع أو أيّ تصرف أرعن من أمريكا أو سواها، فإرهاب الولايات المتحدة الاقتصادي هو في الحقيقة مؤشرٌ واضحٌ على فشل مخططاتها العدوانية، والأيام أثبتت أيضاً فشل العقوبات الأحادية الجانب التي فرضتها الولايات المتحدة وحلفاؤها بما فيها " قانون قيصر" في تحقيق ما سعت إليه أطراف العدوان، وإن بقيت تراوغ في هذا الحيّز اليائس لكسب أيّ شيء حتى لو كان "حفظاً لماء الوجه" برغم تأثيراتها الواضحة على الاقتصاد والواقع السوري بمختلف جوانبه.. لكن هيهات، فما تصبو إليه واشنطن وحلفاؤها لن يتحقق مادام للصمود والمواجهة والانتصار أثمان كبيرة من الدماء الغالية بذلت من أجلها.

عصر الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم

"تعزيز السيادة والتنمية والاستقرار في اليمن"

عبد الملك حمران

كاتب وباحث يمني

أولاً: نسب الإمام إسماعيل ومولده ونشأته وعلمه

نسبه: هو إسماعيل بن القاسم بن محمد بن علي بن محمد بن الرشيد بن أحمد بن حسين بن علي بن يحيى بن محمد بن يوسف الأشل بن القاسم بن يوسف الأكبر بن يحيى بن أحمد بن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي (عليه وعلى جميع الآل السلام)[١].

مولده ونشأته: ولد في منتصف شعبان عام (١٠١٩هـ) في (شهارة) فسماه أبوه الإمام القاسم إسماعيل تبركاً بقول الله تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ) (إبراهيم: ٣٩). وكان من عاداتهم أن يفتحوا المصحف عند أي ولادة جديدة تفاؤلا بما قد يفتح من آيات الكتاب، ففتح أبوه المصحف فوقعت عينه على الآية. وقد نشأ إسماعيل في حجر والده محبوباً، فقد كان كثير الحمل له في القيام والقعود وكان يدعو الله إذا جهز السرايا وهو في حجره والناس يؤمنون على دعائه[٢].

صفاته الخلقية: يذكر الجرموزي (رحمه الله) أنه كان معتدل القامة أسمر اللون مقرون الحاجب عظيم اللحية أشعر الذراعين مسيح البطن قوي الحركة[٣].

صفاته الخلقية: يقول الجرموزي في تحفة الأسماع: "كان كثير التبسم رفيقا بالصاحب رحيما بالضعفاء حسن الخلق والسمت"[٤]. وهذه من الصفات الحميدة التي ينبغي على ذوي الفضل أن يتحلوا بها لا سيما وأن فيها اقتداء بالنبي الكريم، وحري بأهل الرياسة والتقدمة أن يكونوا كذلك.

علمه: كان غزير العلم متقنا لفنونه، ذائع الصيت، مقدّما على غيره من إخوانه وأقرانه، قرأ في علوم الشرع ما جعله من أهل السبق، وصنف الكتب، فمن مصنفاته المشهورة كتاب العقيدة الصحيحة وشرحها، استدل على مسائلها من الكتاب العزيز. ومن مؤلفاته (المسائل المرتضاة إلى جميع القضاة) وجملة من الآداب، وما يجب أن يعتمد من الأحكام، وحاشية لم يكملها على منهاج الإمام المهدي أحمد بن يحيى[٥]، والكثير من الرسائل المختصرة في

١- تحفة الأسماع والأبصار، ١/ ١١٤،١١٥.

٢- المرجع السابق، ١/ ١١٩.

٣- المرجع نفسه، ١/ ١١٩.

٤- المرجع نفسه، ١/ ١١٧.

٥- المرجع نفسه، ١ /١١٨، ١١٩.

الأصول، ومسائل فقهية وغيرها. وكلها تدل على نبوغه العلمي وبلوغه رتبة الاجتهاد. قال القاضي محمد بن علي الشوكاني: "وله جوابات مسائل سأله عنها علماء عصره وهي كثيرة جداً متفرقة بأيدي الناس لو جمعت لجاءت مجلداً وللناس عليها اعتماد كبير لا سيما الحكام"[1].

ثانياً: بيعة المتوكل إسماعيل والظروف المحيطة بها

- وفاة الإمام المؤيد ودعوة أخيه أحمد بن القاسم:

كانت وفاة الإمام المؤيد محمد بن القاسم في ..... وكان أول الناس علما بذلك أخاه أحمد بن القاسم المقيم عنده في شهارة وبعض الخواص من السادة العلماء والفقهاء والقضاة. وخشية أن تقع الفرقة والاختلاف فزع الأعيان من الناس إلى بيعة أحمد بن القاسم شقيق إسماعيل بن القاسم، وكان ذلك يوم الخميس ٢٧ رجب عام (١٠٥٤هـ). وأثناء تجهيز الإمام المؤيد بعث أحمد بن القاسم المراسيل والكتب إلى من يهمه الأمر من السادة والقضاة والرؤساء والفقهاء بوقوع دعوته وبيعته. وأشار الجرموزي في كلامه إلى أن البيعة لم تكن على الرغبة التامة من الناس وكأن الناس كانوا في ذهول عن الوضع ومآله، ولكن الأمر وقع تفادياً لما قد يكون من الفرقة والاختلاف[2]. ومن جملة ما ذكر الجرموزي عن بيعة أحمد بن القاسم أن الناس لما سمعوا بدعوة المتوكل إسماعيل لبوا دعوته بحيث لم يبق في شهارة إلا من أقعده الحياء من أحمد بن القاسم[3].

كان خروج السيد أحمد بن القاسم من شهارة يوم ٢٦ رمضان عام (١٠٥٤هـ) لغرض وصول صنعاء وفك حصارها، وكان أمر الناس في تناقص عن المسير معه، وبعض البلاد مع محمد بن الحسن مثل خدار، وأما كوكبان وما بين صنعاء وعمران فكانت مع الإمام المتوكل إسماعيل. ولما حط الرحال في ريدة تشاور مع القاضي شمس الدين أحمد بن سعد الدين فأشار عليه بالمسير إلى عمران؛ قال الجرموزي: "وهذا من ألطاف الله وحسن تدبيره فإنه لو بقي في خمر أو مال إلى ذيفان أو بلاد الصيَد لأجابته جموع بلاد المشرق وأهل القبلة وطال الاختلاف وعظمت الفتنة".

١- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ١ / ١٣٩

٢- تحفة الأسماع، ج١، ص١٠٣،١٠٢

٣- المرجع السابق، ص ٢٣٩

وصل السيد أحمد بن القاسم عمران واستخبر عن حصن ثلا فكانت قليلة الرتب (العسكر)، فعزم المسير إليها لأخذ الحصن، وفي الطريق فارقه بعض عسكره فلم يبق معه إلا نحو أربعمائة، ووصل ثلا وتواجه مع السيد محمد بن الحسين (ابن أخيه) وكانت حرب هائلة استمرت من طلوع الشمس إلى غروبها ومن بيت إلى آخر - كما ذكر الجرموزي - فدخل السيد أحمد بن القاسم الحصن خشية أن يغلب عليه وبقي محتمياً به يوم الخميس والجمعة من أواخر رمضان، ثم وقع الاتفاق أن يتقابل الأخوان أحمد والمتوكل إسماعيل للنظر والمناظرة للخروج من هذه المحنة، فخرج من الحصن يوم الأحد بمرافقة ابن أخيه محمد بن الحسين[1].

مروراً بمحل حاز (من همدان) وصل أحمد بن القاسم ضلع خامس عيد الفطر، ثم تلقاه السيد أحمد بن الحسن إلى (حدة بني شهاب)، ثم ساروا إلى و(علان) ثم وصلوا (معبر) وكانت ضيافتهم بأمر الإمام المتوكل إسماعيل يوم الخميس؛ قال الجرموزي: "لعله سابع أو ثامن شوال"، ثم تم الوصول إلى ضوران. وفي ليلة الجمعة كان الجرموزي منفرداً بالسيد أحمد (رحمهما الله) ودار بينهما حديث يقصه علينا الجرموزي نفسه قائلا: "ولما كان ليلة الجمعة بعد مضي وهن من الليل قال لي مولانا أحمد: أترى هذه الحال فقلت نعم سيدي وهذا الذي كنت فيه لا يخلو أن يكون لدينا «يعني أن المعاناة كانت مشتركة بين الجميع» وحاشاكم من ذلك وهذا سلطانكم لم يخرج من بيتكم وإن الله قد عذركم لقلة الناصر وعدم المعين وكثرة الأهوال، فقال: نعم وقد عزمت على التسليم والمبايعة"[2]. كان السيد محمد بن المطهر الجرموزي (كاتب سيرة القاسم والمؤيد والمتوكل) مبايعاً للإمام المتوكل في ذلك الحين ومن مؤيديه. ثم كانت المبايعة من السيد أحمد بن القاسم صبح يوم الجمعة ففرح الناس وألقيت الخطب وعمت البشرى بسكون الفتنة وحقن الدماء.

مما سبق يتضح لنا هذا التصرف الحكيم من السيد أحمد بن القاسم (رحمه الله) في درء الفتنة وإطفاء جذوتها وتجنباً للأهوال التي لا يعلم آخرها إلا الله سبحانه وتعالى، حيث سلم لأخيه ولم يتصلب على موقفه لأن الغاية من كل هذا تحقيق الأمن والعدل للناس ولا معنى لذلك إذا ماجت البلاد وهاجت في خضم الحروب.

١- المرجع السابق، ص٢٤٢

٢- تحفة الأسماع، ج١/٢٤٤

- دعوة المتوكل إسماعيل إلى إمامته:

كان المتوكل إسماعيل حين توفي الإمام المؤيد في ضوران (من بلاد آنس)، فوصله خبر الوفاة سلخ رجب أو غرة شعبان، وكان رأي المتوكل إسماعيل أن بيعة أخيه أحمد لم تكن على الوجه المعروف في الفقه؛ لكونها لم تكن راجعة إلى شروط الإمامة المعروفة التي من شروطها بلوغ الغاية في العلم التي يتحدد بها منصب الاجتهاد, وأنها وقعت في عجل من غير تدبير، وأوضح العلامة الكبسي أن المتوكل بعث برسالة إلى أخيه أحمد يعاتبه على العجلة في هذا الأمر[1]. ثم إنه اجتمع لديه أعيان من السادة العلماء والفقهاء والقضاة وحثوه على النهوض نظرا منهم إلى كونه الأحق والأصلح، فمنهم: القاضي العلامة صارم الدين إبراهيم العيزرى, والعلامة عز الدين محمد بن صلاح السلامي, والقاضي العلامة صلاح الدين بن علي الوشاح وغيرهم. ونصوا على كونه الإمام فدعا الناس إلى بيعته في مسجد الحصين من بلاد ضوران[2].

- دعوة السيد محمد بن الحسن بن القاسم:

قامت دعوة السيد محمد بن الحسن بن القاسم بن محمد (ابن أخ المتوكل إسماعيل) يوم الاثنين ثاني يوم من شهر شعبان من نفس العام المذكور، وكانت دعوته مشروطة بعدم تقدم أي دعوة عليه، وهذا الشرط الذي اشترطه كان من الحكمة بمكان؛ وذلك تفادياً لوقوع أي نوع من النزاع والاختلاف، وكانت دعوته من (العشة) وهي قرية من قرى سحار من نواحي صعدة[3].

كان أحمد بن الحسن شقيق محمد بن الحسن متردداً في إجابة عمه أحمد بن القاسم إلى دعوته لكون أخيه محمد قد دعا لنفسه كذلك، وكان حينها في صنعاء من أيام المؤيد محمد بن القاسم فخرج من صنعاء خفية، وكاتب المتوكل إسماعيل بالبيعة، وفي الرسالة المتضمنة للبيعة أخبر الإمام أنه سيكون المسير منه إلى ذمار ليكون التمكن إلى الصلح أقرب، فوصل ذمار فكتب إلى أخيه محمد بن الحسن الذي كان له دعوة للإمامة – كما سبق – مستشيراً له في الوضع فأمره محمد بن الحسن بحفظ ذمار وأمده بجيش.

كانت الكتب والمراسيل في تلك الحال من الإمام المتوكل إسماعيل إلى محمد بن الحسن بضرورة اللقاء للنظر في الدخول في بيعة المتوكل إسماعيل، وحصل السعي من الجميع بذلك وضُرِب الموعد للقاء, فكان لقاء الإمام المتوكل مع ابن أخيه محمد بن الحسن في (بلاد عتمة) في قفر حاشد وتحديدا في موضع (الأزعل) في حشد مهيب من الأعيان والسادة والفقهاء

١- تحفة الأسماع, ج١, ٢٦٢/.

٢- اللطائف السنية, ص ٣٥٤.

٣- تحفة الأسماع, ج١, ص ١٠٦.

والعلماء وأهل الصلاح والإصلاح على أتم خير، وبايع السيد محمد بن الحسن عمه الإمام المتوكل إسماعيل وفرح الناس بذلك فرحاً كثيراً لأجل ما انزاح من الغمة عن الصدور، فأشرقت أنوار الوفاق وولت بوادر الخلاف والشقاق[١].

- دعوة السيد إبراهيم بن محمد بن أحمد بن عز الدين المؤيدي (ت 1083هـ):

كان السيد إبراهيم المؤيدي من أهل العلم والفضل والمعرفة بعلوم الشريعة وعلوم الاجتهاد وله مؤلفات وكتب، منها كتاب الروض الحافل شرح الكافل في أصول الفقه، وشرح الهداية في الفروع في ثلاث مجلدات، وقصص الحق المبين في فضائل أمير المؤمنين، والروض الباسم في أنساب آل الإمام القاسم الرسي وغير ذلك[٢]. وقد دعا إلى نفسه بالإمامة بعد دعوة السيد أحمد بن القاسم وقبل دعوة المتوكل إسماعيل بساعة أو ساعتين – حسب كلام الجرموزي سلخ رجب أو غرة شعبان[٣]، وكانت دعوته من صعدة؛ فالتف حوله جماعة من أهلها وكان من جملة من كان معه السادة المؤيديون وجملة من قبائل صعدة.

ثم جرت المراسلات بينه وبين المتوكل إسماعيل ولم يكن فيها أمر السيد إبراهيم واضحا فتارة يظهر التسليم ثم يكون منه التلكؤ والإبطاء، ووقعت بسبب ذلك حروب بين أهل صعدة. ثم إنه سار إلى بلاد رازح وتغلب عليها وكاد أن يتغلب على عامة بلاد صعدة إلا خولان فإنهم امتنعوا عن إجابته[٤]. وتوالت الأحداث والمراسلات إلى أن كان الاتفاق أن يحصل الاجتماع بين السيد إبراهيم والإمام المتوكل في صنعاء لينظروا أصلح الأمرين[٥]، فأبطأ السيد إبراهيم فأرسل المتوكل إسماعيل ابن أخيه السيد محمد بن الحسين في ألف من العساكر وخطاباً من الإمام المتوكل إسماعيل لاستعجال السيد إبراهيم أو يكون خروج العسكر إليه لحمله على الحق. فكان الإبطاء والمماطلة من السيد إبراهيم مرة أخرى، فاضطر السيد أحمد بن القاسم وكان عاملاً على صعدة من قبل الإمام المتوكل إلى أسره وحمله إلى صنعاء بعد مشادة بين الطرفين وكلام وتلاسن أفضى إلى إشهار السلاح في الوجوه، فبسبب هذه المماطلة جرى على الناس حرب وفتنة ذهبت فيها أرواح وتعطلت فيها مصالح[٦].

تحقق دخول السيد إبراهيم صنعاء، وفي شهر رمضان اجتمع الأعيان في ديوان صنعاء الكبير ليكون الإشهاد على البيعة، وكانوا أكثر من مائة من العلماء والفضلاء، ثم كانت صلاة جمعة من رمضان وكان الخطيب فيها القاضي العلامة إبراهيم بن يحيى السحولي.

١- تحفة الأسماع، ج١، ص ٢٢٦ - ٢٢٩.
٢- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ٢ / ٣٧١.
٣- تحفة الأسماع، ج١، ٢٦٢.
٤- تحفة الأسماع، ج١، ٢٦٢.
٥- المرجع السابق، ج١، ٢٦٧.
٦- المرجع نفسه، ج١، ٢٦٨.

وكان مضمون الخطبة الثانية إعلام الناس والجمهور بدخول السيد إبراهيم فيما دخل فيه الناس.

- رجوع السيد إبراهيم عن البيعة:

لما خرج السيد من صنعاء توجه لزيارة قبر القاسم العياني ثم مال إلى برط، فكأنه اغتر بهم لما ضيفوه وأكرموه، ثم كاتب الناس أنه باق على الدعوة لنفسه، وأنه إنما كان مثل المكره في بيعته للإمام المتوكل إسماعيل[1].

- السيد إبراهيم يعود إلى البيعة:

أرسل المتوكل إسماعيل السيد محمد بن الحسن على رأس جيش وصل إلى أربعة آلاف لإصلاح ما فسد من أمر صعدة وتأديب بعض المفسدين[2]. ولما علم السيد إبراهيم بأمر الجيش استدعى العلامة الحبر أحمد بن يحيى الدواري والسيد العلامة أحمد بن عبد الهادي بن هارون والقاضي العلامة أحمد بن صالح بن أبي الرجال وحرر بحضورهم شهادة على نفسه بالرجوع إلى عهد الإمام المتوكل على الله إسماعيل، وكان تاريخ هذا المحرر في شهر جمادى الأولى عام (١٠٥٦هـ) وتحرر حكم شرعي بذلك[3].

- السيد إبراهيم يرجع عن البيعة مرة أخرى:

وجد السيد إبراهيم لرجوعه عن البيعة أحد المشايخ الذين اشتهر عنهم الإفساد وهو يحيى بن روكان الحيي ثم البحري وكان من رؤساء خولان بن عمرو[4]، في أحداث تلاحقت ووقعت حروب بسبب ذلك. وكان السيد إبراهيم يخرج من بلاد ويدخل بلاداً أخرى، وكان آخر الأمر أن طلب السيد إبراهيم الأمان فوصله من الإمام ما سكن روعه، ووقع كتاب الإشهاد على رجوع السيد إبراهيم بخط يده وبحضور السيد الحسين بن القاسم شقيق المتوكل على الله إسماعيل وذلك في بقية رمضان عام (١٠٦١هـ)، وكان هذا آخر الأمر من السيد إبراهيم بن محمد[5].

ثالثاً: من سياسة المتوكل إسماعيل في حفظ استقرار البلاد

مما سبق عرضه من ظروف وأحوال بيعة القاسم بن إسماعيل، ومن بعض ملامح سيرة المتوكل تظهر سياسته في حفظ استقرار وأمن البلاد حيث حرص المتوكل إسماعيل على عدم نشوء فتنة بعد أن كانت البلاد قد وصلت إلى مرحلة مهمة في تاريخ اليمن في عهد الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم، فعند وفاة المؤيد رحمه الله تعارضت الدعوات

١- المرجع نفسه، ج١، ٢٧٢.
٢- المرجع نفسه، ج١، ٢٨٨.
٣- المرجع نفسه، ج١، ٢٨٩.
٤- خولان بن عمرو بن الحاف من قضاعة.
٥- تحفة الأسماع ، ج١، ٤٠٦.

للإمامة، فربما فكانت الفرصة مهيأة لوقوع الحروب الطويلة والخراب المستمر والانشغال بها عن تحقيق مصالح العباد والبلاد. فقد أدرك خطورة الوضع الذي يمكن أن يتفجر بالمحنة والصراع في أي وقت، فكان القليل من الصبر والتريث ومعالجة الأمور بالحكمة المرتكزة على الصدق وإرادة المصلحة العامة ومراعاتها كان كفيلاً بإذن الله أن يوصل الناس إلى بر مأمون. مع إدراكه كذلك خطورة منصب الإمامة والقيادة، وأن الأمر غير متروك للتسرع الذي لا يدرك عواقبه ولا للهوى الذي يقود إلى العمى والتخبط فهناك موازنة بين الأمرين العظيمين، فكانت تصرفاته صادرة عن هذا النظر.

لقد ظهر ذلك جليا من خلال عدم المبادرة إلى فرض الأمر الواقع - مع كثرة من دخل في بيعته - قبل استنفاد الوسائل و المعالجات والإعذار من الخصم، فكان يدعو المعارضين له بالإمامة إلى الاجتماع والاتفاق والخروج من هذه المعضلة بحسب ما حدده الشرع في تقديم الأصلح وعبر المسالك الفقهية المعروفة التي هي محل تراض من لجميع وذلك بالمناظرة والتقابل ثم الترجيح ثم التسليم. ولو افترضنا سير الأمور بأن حرك المتوكل الجيوش الجرارة وخاض بها المعارك المريرة لربما لم يستقر له الأمر مثل الذي كان عن طريق الحكمة والتقيد بلوازم الشرع الذي عواقبه التوفيق والسداد (ومن يتق الله يجعل له مخرجا).

كان الإمام المتوكل إسماعيل يبذل لخصومه الشرع ومقرراته، وفي الحين نفسه لا يتساهل في اتخاذ موقف حازم لسد الثغرات أمام المتلاعبين، وهذا الأسلوب من أنجع الطرق في التفوق على الخصوم، فليس فيه حيلة من الحيل وليس هناك دافع من دوافع الدنيا المهلكة، بل الصدق وتساوي الباطن مع الظاهر . ومما يظهر هذا ما أشار إليه الجرموزي في سياق حديثه عن السيد إبراهيم بن محمد المؤيدي حيث أوضح أن المراسلات كانت دائرة بينه والمتوكل إسماعيل بأن يبقى السيد إبراهيم على ما هو عليه من الدعوة إلى نفسه وأن يقف عند حدود من قد أجابه من الناس لا يخرج من ذلك حتى تتوصل الأطراف إلى الحق المرضي عند الله.

ذلك الموقف يعطي دلالات واضحة على أن الإمام المتوكل إسماعيل جعل في حسبانه إمكانية أن يكون السيد إبراهيم المؤيدي مستحقا للإمامة إذا فاقه علماً, ويؤكد هذا النص الذي نقله الجرموزي عمن سمع من المتوكل إسماعيل "وإذا كان المراد هو إرضاء الله عند الخصومات الكبيرة التي يتعلق بها أمور عظيمة أو حقيرة من أمور المسلمين فإن التوفيق يكون ملازما لمن هذا نهجه ونيته".

ومن سياسات الإمام المتوكل على الله إسماعيل في الصدد ذاته ما يأتي:

- العفو عند المقدرة عندما تكون المصلحة الراجحة في العفو:

لقد كان السيد إبراهيم المؤيدي يتردد في الوفاء بعهد البيعة للإمام المتوكل ويحصل منه الرجوع, وكان العسكر المتوكلي يظفر به عندما يخرج إليه لمعالجة هذه المواقف، فما إن يطلب السيد إبراهيم الأمان بعد مناورات وحرب (يسيرة) يسارع المتوكل إسماعيل بتأمينه وقبول رجوعه ويكتفي من ذلك بالظاهر منه نزولا على أمر الله (وإن جنحوا للسلم فاجنح لها), وكان تقدير الإمام المتوكل في محله فإن السيد العلم صارم الدين إبراهيم مال إلى السكون والتدريس والتأليف.

- المؤاخذة بالذنب بعد تكرار العفو واستنفاد العذر:

كان الإمام المتوكل إسماعيل لا يتساهل إذا شاع الفساد في قرية أو بلد خصوصاً إذا منعت حقوق الله الواجبة أو أزهقت النفس المحرمة ظلماً أو قطع السبيل أو وقع نوع من الفساد. فمن الحوادث التي تشهد بهذا المعنى ما حصل من الشيخ علي بن روكان الحيي من إظهار الفساد على الناس وحصول العفو له مراراً، فلم ينفعه ذلك وكان من أمره ما لخصناه وقربنا عبارته من كلام الجرموزي: "وأما الشيخ يحيى بن روكان فإنه وصل إلى الإمام عليه السلام صحبة مولانا الحسن، أيده الله، وكان في صنعاء المحروسة بالله، وكان له به أنس لتعلقه به أيام ولايته لصعدة المحروسة بالله وبلادها، فأذن له بعد أن أعطاه كثيراً وأحسن إليه إحساناً غفيراً واغتفر ما كان منه صغيراً وكبيراً، وكذلك مولانا محمد بن الحسن أيده الله أحسن إليه، وألحقه بخاصته، فأقام أياماً على ذلك ثم انسل من صنعاء يرافقه قوم، وصار إلى بلاده، ولم يظهر خلافاً غير أنه لم يصطبر على المقام في صنعاء ولما استقر في بلاده، اجتمع إليه من يريد الفساد فأخذوا في تغيير الحقوق والعصيان شيئاً فشيئاً (.....)فأمر الإمام المتوكلُ عليه السلام

مولانا محمد بن الحسين أيده الله أن يسير بعسكره، وكانوا زهاء من ألف (.....) فسار سيراً مستمراً إلى مدينة ساقين من أعلى بلاد خولان وقد أمره الإمام عليه السلام أن يتبع المفسدين، ويستوفي الحقوق المهملة وأن يغرم كل جان بما جنى، ففعل ذلك واستوفاه، واستمرت الحقوق، وضيق المسالك على الشيخ المذكور، حتى استأمن إليه، فأمنه على شريطة واحدة، وهو وصوله إلى الإمام (عليه السلام) وله الأمان على نفسه (.....) فاستتم الأعمال ووصل بالشيخ المذكور، وجميع من اتهم بالفساد (....(ولما سار مولانا محمد بن الحسين أيده الله، من السودة إلى صنعاء تعلق هذا الشيخ المذكور به، وأن يكون في جملة ديوانه فعول على الإمام عليه السلام بذلك فأنزله أحسن ما يعامل به وأن يكون بقاه في صنعاء، فكان فيها في جملة أصحاب مولانا محمد بن الحسين أياماً ويتصل بمولانا محمد بن الحسن أيده الله، والإحسان إليه جار من الجميع مجرين عليه الكفاية وزيادة عليها (.....) ثم انسل «يعني بن روكان» مرة أخرى عن طريق تهامة والجهة التي لا يعرف فيها، ثم صعد إلى بلاد حيدان، وبقى يتردد في بيته ما إليه «يعني لا يتدخل في شيء» وينقبض عن الناس بعض الانقباض (.....) وغفل عنه الإمام عليه السلام مترجياً لصلاحه فعاد لما كان عليه، وأطاعه بعض أهل الفساد، ولما كان شهر جمادى الأولى عام سبع وستين وألف أمر الإمام عليه السلام الفقيه المجاهد جمال الدين علي بن صلاح بن إبراهيم الجملولي في عسكر ليسوا بالكثير، إنما هم نحو المائة بالمسير إلى الشام «صعدة» (.....) حتى أحاط ببيت المذكور، فهرب واستجار بالقبائل فاستعفوه من المعاودة إلى بلادهم وقالوا له: قد أهلكت نفسك وبلادك، فلا تهلكنا وكان مولانا الحسين بن أمير المؤمنين المؤيد بالله، حفظه الله، في الهجر من بلاد الأهنوم، فلم يشعر في بعضها إلا والشيخ المذكور في مقامه الشريف في الهجر من غير عهد ولا عقد فطلب جواره، فقال (أيده الله): لا أقبلك إلا بالنزول على حكم الإمام. ثم أرسله إلى الإمام عليه السلام فأمر بإشخاصه فوراً إلى محبس أهل الجرايم في محروس الدامغ، فكان هنالك وطمع في الخلاص من الحبس بأن يكون عليه ضميناً ويكون حبسه في غير ذلك الحبس فلم ير الإمام المتوكل في ذلك صواباً، فاحتال بأن عقد على امرأة من أهل الحصن وطلب الإمام عليه السلام الإذن بالدخول عليها في بيت أهلها، فقال عليه السلام: لا يحل لي ذلك وأخاف الله على نفسي، ولا يراني الله كذلك". ثم مات الشيخ بن روكان في محبسه، قال الجرموزي: "وصلحت

بعده موته بلاد خولان وساير بلاد صعدة والحمد لله رب العالمين". (انتهى النص ملخصا)

- العناية بالجند الذين هم عمود الأمن والاستقرار:

مما يدل على ذلك من سيرة المتوكل إسماعيل وتحديداً من مضمون جوابه الذي أجاب فيه على بعض الإشكالات التي أوردها السيد ابراهيم بن محمد المؤيدي على المتوكل أيام تعارض الدعوة بينهما؛ حيث قال في سياق جواب من جواباته: "وبيان ذلك وتحقيقه أن تكليف الجهاد غير ساقط في كل وقت من الأوقات، سواء كان جهاد الكفار أم جهاد البغاة، أم جهاد رفع التظالم، أم جهاد الأعداء وبالعَدد والعُدد والقوة، كما بين ذلك فلا تقوم إلا بالجند، قال الله تعالى: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ)". وهذه الآيات والأخبار هي معنى ما قاله في سراج الملوك، حيث قال: "اتفق حكماء العرب والعجم على هذه الكلمات فقالوا: (الملك بناء، والجند أساسه، فإذا قوي الأساس دام البناء، وإن ضعف الأساس انهار البناء، فلا سلطان إلا بجند، ولا جند إلا بمال، ولا مال إلا بجباية، ولا جباية إلا بعمارة، ولا عمارة إلا بعدل)"[1].

- إصلاح المجتمع بالنصح والإرشاد والإلزام:

صلاح الحاكم من أعظم أسباب صلاح الرعية، ونصح ولي الأمر لرعيته من أعظم أسباب قيام المحبة بينهما، والحرص على صلاح الرعية من أعظم واجبات الراعي التي يسأل عنها بين يدي الله سبحانه وتعالى، والمعنى الجامع لواجبات الراعي تجاه الرعية يكمن في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيدخل فيه من الجزئيات أمور كثيرة كالرقابة المالية والإدارية، وملاحظة التحلي بتعاليم الدين ونزاهة المجتمع من شيوع الفساد الخلقي والمجاهرة به والبراءة من المعاملات المحرمة والتظالم المؤدي إلى اختلال أحوال الناس.

مما ندركه من سيرة المتوكل إسماعيل حرصه على المفاهيم السابقة. ويدلل عليها جملةٌ من الأمور مما جاء في سيرته من أنه أرسل جملة من الرسائل يخاطب بها من كان معنيا بها من خصوص الناس أو عمومهم وكل رسالة تعد من ظاهرها أو فحواها أمراً وقراراً إدارياً من أعلى جهة في الدولة - بحسب المصطلحات القانونية العصرية - بما يجب فعله

١- تحفة الأسماع، ج١، بداية هذه الرسالة ص ٤٠٥.

وما يجب تركه؛ فمن هذه الرسائل:

- رسالة إلى الحكام والولاة في تحريم الأجرة:

"بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد: حمداً لله على نعمائه، وشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ودعائه بأسمائه، وأن محمداً عبده ورسوله وخاتم أنبيائه، وسيد أصفيائه، والصلاة والسلام عليه وعلى أهل بيته وأمنائه، فإن أحق من توقى مواقع التهم في الإسلام، من ترد إليه الأحكام، وترجع إليه من القضاة والحكام، لأنهم يبلغون عن الله عز وجل ورسوله، فشأنهم أن يتنزهوا عما نزّه الله عنه رسوله ورسله (صلوات الله عليهم) من أن يظن بهم طلب الأجر المعجل، وإيثار هذا التافه من الدنيا الذي ليس عليه معوَّل، وفي ذلك ما حكى الله عن نبيه محمد فيما علمه من قوله: (قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ). وقال عز وجل: (قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ)"[1].

- رسالة في الحث على الصلاة وحجاب النساء:

وهذه رسالة يرسلها إلى النساء يحثهن على الالتزام بالحجاب الشرعي وأداء الصلاة:

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى، وكتابنا هذا معذرة إلى الله وبلاغ إلى جميع المسلمين المكلفين من الرجال والنساء؛ سلام الله عليكم فإنا نحمد الله إليكم، ونصلي ونسلم على محمد وعلى آل محمد، ونأمركم بإقامة هذه الصلوات الخمس، وتعلم ما تجب به الطهارة، والأوقات والقبلة والأذكار والقراءة والركوع والسجود، وألّا تتهاونوا بها ولا تضيعوها، فإن الله عز وجل لم يحقن الدماء إلا بها، ولا أوجب الإسلام إلا لأهلها فقال عز وجل: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وحكى تبارك وتعالى جواب أهل النار لما سئلوا: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ، وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ، وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ، وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ، حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ، فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾. وجاء عن رسول الله: ﴿إن الصلاة هي الفارقة بين الكفر والإسلام﴾".

١- تحفة الأسماع، ج١، ص ١٤٧.

ثم يتابع المتوكل إسماعيل قائلا: "وأي واجب أعظم من هذا الواجب الذي أخبر أهل النار، نعوذ بالله منها, أنهم سلكوا في سقر من أجله، ومن الذي يرضى بمثل ذلك لنفسه أو لأهله أو لولده وهو يسمع قول الله عز وجل:﴿يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْليكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحجَارَةُ عَلَيْهَا مَلاَئكَةٌ غلاَظٌ شدَادٌ لاَ يَعْصُونَ الله مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذينَ كَفَرُوا لاَ تَعْتَذرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى الله تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتكُمْ وَيُدْخلَكُمْ جَنَّات تَجْري منْ تَحْتهَا الأَنْهَارُ يَوْمَ لاَ يُخْزي الله النَّبيَّ وَالَّذينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْديهمْ وَبأَيْمَانهمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَديرٌ، يَاأَيُّهَا النَّبيُّ جَاهد الْكُفَّارَ وَالْمُنَافقينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبئْسَ الْمَصيرُ﴾. هذا وبلغنا أن النساء مع قطعهن للصلاة وتهاونهن بها لا يحتجبن عن الأجانب، ولا سيما ابن العم والخال وأقارب الزوج، ولا ينهاهن الرجال القوامون عليهن وأزواجهن عن ذلك، فكانوا شركاء لهن في الإثم، والله يقول: ﴿قُلْ للْمُؤْمنينَ يَغُضُّوا منْ أَبْصَارهمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ الله خَبيرٌ بمَا يَصْنَعُونَ، وَقُلْ للْمُؤْمنَات يَغْضُضْنَ منْ أَبْصَارهنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾إلى آخر الآية الكريمة. وفيها:﴿وَلْيَضْرِبْنَ بخُمُرهنَّ عَلَى جُيُوبهنّ﴾, وقال عز وجل مؤدباً لأصحاب نبيه: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعاً فَاسْأَلُوهُنَّ منْ وَرَاء حجَاب ذَلكُمْ أَطْهَرُ لقُلُوبكُمْ وَقُلُوبهنّ﴾, مع جلالة قدر أصحابه، وجلالة قدر أزواجه. فاتقوا الله وتقربوا إليه تنالوا إن شاء الله خير الدارين، والله حسبنا ونعم الوكيل، وصلى الله على سيدنا محمد وآله"[1].

- رسالة في تحريم التعامل بالربا:

يذكر الجرموزي أن من جملة رسائل المتوكل إسماعيل رسالة موجهة لكافة الناس في التحذير من الربا فمن مطلع هذه الرسالة: "بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى. كتابنا هذا إلى من بلغه من المسلمين كثرهم الله وأعزهم، وعلى من بلغه أن يُبلِّغه إلى من لم يبلغه إن شاء الله. سلام الله عليكم وإنا نحمد الله إليكم

١- تحفة الأسماع, ج١, ص ١٥٢.

ونصلي ونسلم على محمد وعلى آل محمد، وإني آمركم بتقوى الله في جميع أمركم، وفي سركم وعلانيتكم، فاتقوا الله وأطيعون (إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ). وأُرغبكم فيما رغب الله من طاعته التي ثوابها الجنة ونعيمها، وأحذركم ما حذر الله من معصيته التي جزاؤها النار وجحيمها، ثم اعلموا أن من أعظم ما أوعد الله عليه النار، وأوجب على من لم ينته عنه غضب الجبار، الربا الذي حرمه الله وشدَّد في تحريمه أعظم تشديد، وأنزل في التخويف منه أعظم الوعيد والتهديد، فقال عز وجل: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)"[1].

رابعاً: التنمية في عهد المتوكل إسماعيل

من أعظم أسباب رضى الله اتباع منهجه المنزل على النبي الأكرم والرسول الأعظم الذي تضمن الخير كله والبركة والنماء في الدنيا والجزاء الحسن في الآخرة. والنماء كما يعلم القارئ الكريم هو الزيادة في الشيء وتكاثره والتنمية بذل السبب في التكثير بتوفير عوامله والاستفادة منها بحسب الإمكان. والنماء أو التنمية في المجتمعات لا يكون

في مجال واحد بل في كافة المجالات، وكلها مرهونة بتحقق أسبابها المباشرة وغير المباشرة وأعني بغير المباشرة الأمور العامة التي بحصوله يحصل النماء أو التنمية.

من هذه الأمور العامة أو الأسباب التي بها يتحقق النماء في المجتمع:

- أمن واستقرار المجتمع، فبوجوده يوجد النماء بإذن الله سبحان وتعالى. وبغيابه يتأثر الجهد العام للناس فينصرف جزء كبير من العزم والعمل والإنتاج إلى غير محله.

- العدل فهو يولد الثقة بالدولة ويمحو الخوف من ضياع الجهود والممتلكات ورؤوس الأموال ويوظف الطاقات توظيف صحيحاً ومُركزاً ومثمراً، ويكون من أنفع الأسباب المفتقة للمواهب، ويحفظ للناس الأوقات والجهود التي إن ضاع العدل ضاعت وأهدرت واستعملت في غير مواضعها.

١- المرجع السابق. ص ١٣٨.

أجمع المؤرخون على أن عهد المتوكل إسماعيل كان من أحسن العهود التي مرت بأهل اليمن، فقد كثرت في عهده الأموال وانتشرت الزراعة وزادت إيرادات الدولة ووظفت توظيف صحيحاً. وإن لم يذكروا أمثلة كثيرة لذلك لكن القول بذلك على جهة العموم كافٍ، لأن النقل على جهة العموم حصيلةٌ لاجتماع الجزئيات والتفاصيل وثمرتها لاسيما في نقل التاريخ والحوادث، فالمؤرخون - على سبيل المثال - ينقلون أن فلاناً كان من أعدل الناس ويكون هذا النقل متواتراً، فهذا النقل العام على صفة التواتر يغني عن ذكر التفاصيل، إذ إن عدله سيكون متصوراً في الذهن.

فمن هذا النقل العام كلام الشوكاني في البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع: "ولم ير الناس أحسن من دولته في الأمن والدعة والخصب والبركة، وما زالت الرعايا معه في نعمة والبلاد جميعها مجبورة كثيرة الخيرات وكثرت أموال الرعايا، وكل أحد أمن على ما في يده لعلمه بأن الإمام سيمنعه عدله من أن يتعرض لشيء من ماله، وغيرُ الإمام تمنعه هيبة الإمام عن الإقدام إلى شيء من الحرام"[1].

أضف إلى ذلك حسن تدبير المتوكل إسماعيل ورقابته الصارمة على المسئولين والعمال والولاة، وسخاء طبعه وكرم نفسه، فقد كان يعطي المال بكرم لمستحقيه وللضيف؛ قال الجرموزي ناقلاً عن المتوكل في واحدة من الشواهد: "ومن كرمه ما أخبرني سيدي إبراهيم بن محمد المؤيدي بصنعاء، قال: وصلت إليه، وقلت له: قد وفد معي من الضعفاء والأشراف من رأيت، وأنا أستحي من إتعابكم في السؤال لهم مع عزمي لا أذكر شيئاً مما يحصل، فقال له الإمام (حفظه الله): يا صنو إبراهيم هذا مال ليس لي ولا لك إنما هو للمسلمين، فإذا عرفت استحقاق أحد فيدك مثل يدي، قد فوضتك، قال: فأعطيته الرقاع فكان جملة ما علّم فيه ثمانية آلاف حرف"[2]. والحرف نوع من العملة في ذلك الوقت.

لا ريب أن التنمية في عهد المتوكل إسماعيل سوف تتنوع ما بين زراعة وعمارة وتعليم، وتزداد المداخيل، وبالتالي إيرادات الدولة. وبزيادة إيرادات الدولة مع كرم نفسه وسخاء يده سيذهب الفقر وتطيب النفوس، ومع الحرص على الدين سوف يقل البطر والترف المزيل للنعم.

١- البدر الطالع، ج١، ص ١٤٨ - ١٤٩.
الناشر دار الكتاب الإسلامي القاهرة
٢- تحفة الأسماع، ج١، ص ١٢٣.

- نماذج من التعمير في عهده:

- تعمير المساجد وإصلاحها:

يقول الجرموزي: "من ذلك ما عمله السيد محمد بن الحسين بن القاسم في ذمار فإنه وسع الجامع الكبير فيها وعمر مرافقه، وتفقد أوقافه، وكانت الزيادة أكثر من القديم بكثير ووسع المنارة والمطاهر، وعمر ما بقي في الجامع المقدس من معمور الحصين في ضوران الذي كان أسسه والده رحمه الله، وأدخل فيه زيادات كثيرة، تأتي مثل نصف الأول تقريباً، ووقف على الجامع المذكور أوقافاً كثيرة، وعمر الصروح، والمنازل، التي بقرب القبة الشريفة، وأقام الدرس والتدريس فيها، وقد كثر الله الماء في الحصين ببركة مولانا عليه السلام فإنه استخرج عيوناً بإعانة الله له وتيسيره وكانت لا تعرف فيما قبل، وكثر الماء في الحصين، وفاض على كفاية الجامع والمدينة وأهلها، والماء إلى زيادة والحمد لله كثيراً، وكان قد عمر أطال الله بقاه أيضاً مسجداً في بير العيان، وأجرى في متوضاه الماء الكثير، والمطاهر فكان من أحسن المساجد"[1]. ومن ذلك إتمام أحمد بن القاسم عمارة مسجده الشهير بالروضة المسمى بالجامع الكبير.

- ومن الحصون وغيرها:

يقول الجرموزي: "منها حصن كحلان بنواحي خبان، ومنها عمائر في دمت، ومنها الدار المشهور في محروس ذمار، فإنه قل مثلها في حسن العمارة والمرافق". ويتابع الجرموزي قائلا: "وأخبرني بعض من يتردد إليها أنه بعد تمامها طلع بعض الخدم بحصانه ولامته كاملة إلى أعلاه، وإنه حركه في صرحه الأعلى. ومنها في صنعاء السمسرة المنسوبة إليه أيده الله تعالى لم يعمر في صنعاء مثلها ولا في اليمن ما شاكلها في العلو والارتفاع والسعة فإنها تشتمل على طبقات تحتوي تقريباً على مائة واثنين وعشرين منزلاً، ولكل طبقة كيفية غير الأخرى، وصارت من أعلى قصور المدينة فتبادر إليها التجار، وأخذوا في مرافقها خطوطاً شريفة. ومنها الدار الكبرى في أعلى المدينة بالقرب من المدرسة الشرقية عمرها الله بالعلم وأهله، بحق محمد وآله، فإنها من أعظم ما عمر في صنعاء المحروسة وعمر غيرها أيضاً مما يقرب عمارته"[2].

١- تحفة الأسماع، ج٢، ص ٦٠٤ وما بعدها.
٢- المرجع السابق.

الاقتباس السابق والذي قبله من كلام الجرموزي يعزز عند القارئ فهم الحركة العمرانية في عهد المتوكل والحقيقة أن الجرموزي لم يدخل في كتابه في هذا الشأن نماذج كثيرة, لكن يمكن للقارئ أن يستنبط من استصحاب الحال أنه كان لابد من حركة عمرانية في أنحاء البلاد إذا ربط المسألة بالاستقرار المعيشي الذي حدث أيام المتوكل إسماعيل، فالنهوض العمراني سيكون مضطرداً مع تحسن أحوال الناس.

- غيول صنعاء:

خرجت في صنعاء وتحديد في منطقة شعوب ثلاثة غيول كأنها أنهار جارية في تدفقها, فسارع محمد بن الحسن في إصلاحها وإعدادها إعداداً مثالياً لينتفع بها الناس, فحكى الجرموزي أنها كانت تسقي إلى الروضة والجراف وجدر وعلمان. وقد أخبرنا بعض أهل المعرفة من أهل هذا الزمن أنهم عرفوا خروج ماء الغيل الذي في شعوب إلى الجراف

وقد كانت بعض معالم السواقي موجودة إلى عهد قريب[1]. وكانت هذه الغيول من أعظم الغيول التي عرفها الناس في وقت المتوكل إسماعيل. وكانت بركتها غير خافية. وقد كانت المنطقة من خارج حدود صنعاء زراعية وخصبة جداً, وكانت تثمر من أفضل أنواع الحبوب والفواكه, وكانت بني الحارث من جنان الأرض بساتينا ومزارعا، وكان عنب الجراف والروضة من أجود أنواع العنب الذي عرفه أهل صنعاء وما حولها.

- على الصعيد العلمي:

الأسرة القاسمية من أعرق الأسر علميا ابتداء من الإمام القاسم نفسه حيث كان من أهل العلم الذين وصلوا رتبة الاجتهاد. ومن أبنائه: الحسين بن القاسم؛ يقول الشوكاني: "قرأ على الشيخ لطف الله بن محمد الغياث, وكان يتعجب من فهمه وحسن إدراكه، وقرأ على جماعة من علماء عصره وبرع في كل الفنون وفاق في الدقائق الأصولية والبيانية والمنطقية والنحوية, وله مع ذلك شغلةٌ بالحديث والتفسير والفقه، وألف الغاية وشرحها[2]", الكتاب المشهور الذي صار الآن مدرس الطلبة وعليه المعول في صنعاء وجهاتها، وهو كتاب نفيس يدل على طول باع مصنِّفه «مؤلفه»، وقوة ساعده وتبحره في الفن، اعتصره من مختصر المنتهى وشروحه وحواشيه ومن مؤلفات آبائه من الأئمة

١- المرجع السابق.
٢- المرجع السابق, ص ٦٠٦.

في الأصول، وساق الأدلة سوقاً حسناً، وجوّد المباحث واستوفى ما تدعو إليه الحاجة، ولم يكن الآن في كتب الأصول من مؤلفات أهل اليمن مثله، ومع هذا فهو ألفه وهو يقود الجيوش ويحاصر الأتراك في كل مواطن ويضايقهم ويوردهم المهالك، ويشن عليه الغارات وله معهم ملاحم تذهل المشاهد لبعضها عن النظر في كتاب من كتب العلم فكيف به رحمه الله وهو قائد الجيوش وأمير العساكر"[1].

وبالجملة فإن عهد المتوكل لم يخل من ازدهار العلم والعلماء امتداداً لازدهاره في عهد المؤيد الذي اشتهر بحبه للعلماء والطلاب وقد كان لا يفارق الدرس والتدريس مع منصبه كإمام. واليمن عموما كانت مليئة بالعلماء الفطاحل الذين ملأوا الهجر والمدارس العلمية فأينما ذهبت تجد العديد منهم ما يكفي وزيادة في تحصيل المعارف والعلوم في كل علم حتى بلوغ رتبة الاجتهاد.

خامساً: المتوكل إسماعيل وتعزيز السيادة الداخلية بتوحيد البلاد

لليمن حدوده الجغرافية المعروفة من القدم وكانت بلاد اليمن محط سكنى القبائل اليمانية الكهلانية والحميرية أبناء سبأ سوى التي هاجرت وملأت أرجاء الجزيرة العربية، وهذا غير خاف على من عنده أدنى معرفة بعلم الأنساب والبلدان. ورجوع ما تفرق من المجموع أمر لا عيبً فيه ولا محظور وهذا واجب شرعي ووطني ومما لتخلفه الفطرة السليمة.

- دخول عدن ضمن الحدود الجغرافية الأصلية لليمن (١٠٥٥هـ):

كان الأمير حسين بن عبد القادر بن محمد بن علي أميرا على عدن وما حولها خلفا لوالده عبد القادر الذي كان بينه وبين المؤيد موالاة وصداقة وقبل وفاة عبد القادر لجأ إليه الأمير المنبسي أحد أمراء المسلمين في الحبشة فرارا من حرب المسيحيين عليه. وبعد رجوع المنبسي من حجة حجها توفي في القنفذة وكانت أمواله وبعض رعاياه في عهدة الأمير عبد القادر ولما مات خلفه ولده الحسين وأساء التصرف في أموال المنبسي وأصحابه فأرسل الإمام المتوكل إسماعيل إلى الحسين بن عبد القادر في شأن المنبسي ولكن الحسين بن عبد القادر لم يجب بجواب مرضي فحرك المتوكل ضده ابن أخيه أحمد بن الحسن فنزل إلى إب حيث أمده أخوه محمد بن الحسن بألفي رجل ونحو أربعمائة من الخيل

١- البدر الطالع، ١/ ٢٢٦.

وأردف المتوكل بعده بألف من المقاتلين وكانت الوقعة بين أحمد بن الحسن وحسين بن عبد القادر في موضع الرعارع انتهت بهزيمة الأخير وانهزم نحو خنفر فتبعه أحمد بن الحسن بن القاسم وجعل أصحابه على مقربة منه مجموعين ولما تكاثر أصحاب حسين بن عبد القادر أرسل أحمد بن الحسن إلى عسكره فهجموا وكان النصر لهم بعد معركة شديدة.

انتهت هذه المعركة بتأمين الحسين بن عبد القادر الذي خرج قبل المعركة وأرسل إليه أهله ومحارمه ثم وقع الصلح على أن تبقى له عوائد عدن وتدخل في حكم الإمام المتوكل وأقطعه أبين وأقر المتوكل هذا الصلح قال الجرموزي: (وصلح بعد ذلك الحال) وكان أحمدُ بن الحسن عين مولاه الحاج إسماعيل الملقب بياقوت واليا على عدن[1] وبهذا تعود عدن ولحج وأبين في حدود الدولة اليمنية بعد تفرق وتمزق طويل. وفي عام (١٠٦١هـ) دخلت بلاد الشعيب ضمن الدولة اليمنية.

- ضم بلاد حضرموت إلى الدولة اليمنية الموحدة:

كان السلطان بدر بن عبد الله الكثيري قد حبس عمه بدر بن عمر واستأثر بالبلاد فعلم المتوكل إسماعيل وتراسل الطرفان وأمر الإمام بسرعة الإفراج عن بدر بن عبد الله فتم الإفراج عنه (١٠٦٥هـ) وتوليته بلاد ظفار بشرط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[2]. ووقع الامتثال من بدر بن عبد الله وأرسل بذلك رسالة يؤكد ما طلب منه[3]، ثم وقع خلاف و تزاحم بين الشيخ العمودي ووجه الإمام المتوكل للكثيري بالصلح ووقع ما وجه به المتوكل فكان الصلح عام وتراسل الطرفان بهذا الشأن[4]، وشكر المتوكل إسماعيل بدر بن عبد الله الكثيري على ما تم من الصلح وإيثاره على الفتنة[5].

ثم يرسل المتوكل إسماعيل القاضي الحسن بن أحمد الحيمي لينظر سير الأمور ويكون مع بدر بن عبد الله الكثيري مؤازرا ومعاونا[6] ومع هذه الرسالة نص العهد إلى الحيمي لأخذ البيعة وقبض الواجبات المالية وتعيين من يقوم للجمع والجماعات وإقامة الحدود ..وغيرها من الأمور التي وردت في هذه الرسالة[7]، ووقع الصلح بين بدر بن عبد الله والشيخ العمودي لخمس سنوات. يعود الفقيه أحمد بن الحسن الحيمي بعد تحقق مهمته عام (١٠٦٧هـ) ومعه رسالة تفيد بأن كل شيء على ما طلب الإمام المتوكل إسماعيل[8].

١- تحفة الأسماع، ٢٧٦/١.
٢- تحفة الأسماع، ٧٧٨/٢.
٣- المرجع السابق، ٧٧٩/٢.
٤- المرجع نفسه، ٧٨٥/٢.
٥- المرجع نفسه، ٧٨٧/٢.
٦- المرجع نفسه، ٧٨٩/٢.
٧- المرجع نفسه، ٧٩١/٢.
٨- تحفة الأسماع، ٨٠٥/٢.

ثم وقع من جعفر بن عبد الله شقيق بدر بن عبد الله حرب على عمه بدر بن عمر وهو في ظفار فأخرجه منها فذهب بدر بن عمر ملتجئا بعامل المتوكل في عدن، وبعد المراسلات يأمر المتوكل إسماعيل بوصوله إليه فخرج على إثرها إلى عدن ثم إلى ذمار إلى الحصين[1]، ويستقبله المتوكل أحسن استقبال ويكرمه غاية الإكرام ثم بأمر الإمام المتوكل كان المسير إلى حضرموت للم شعث الفتنة وإطفاء نار الخلاف والفرقة، بعد مراسلات من بدر بن عبد الله لم تغن شيئا فكان أول المسير يوم ١٨ شوال عام (١٠٦٩هـ) بقيادة أحمد بن الحسن بجيش طوى المراحل وكابد السفر، وتعددت فيه حوادث من القدر ، فكان بعد الوصول النصر المؤزر، وآلت أعمال حضرموت إلى السلطان بدر بن عمر، وأقسم مع من كان معه من آل الكثيري ألّا ينزع يدا من طاعة وأن يرعى حرمة الجماعة. وحقا فإن يد الله مع الجماعة، وأي نوال وفوز يكون في الفرقة والاختلاف، فلا قوة إلا بجماعة ولا جماعة إلا بطاعة ولا طاعة.

هكذا نرى كيف أن الطمع أعمى بصيرة جعفر فأغراه طمعه لأخذ ما كان بيد عمه بدر عمر وقد أمضى المتوكل لكل واحد ما يناسبه من أمر بلادهم صلحا بينهم وقرر كل واحد بعمله تأليفا للقلوب ودفعا لما يكون من المنغصات التي تتأثر بها حياة المجتمع واستقراره. عاد أحمد بن الحسن إلى مقره الذي جاء من عام (١٠٧٠هـ).

كانت قصة آل الكثيري سبباً لدخول بلاد يافع في حدود دولة المتوكل إسماعيل، وذلك أن الحسين الرصاص منع مرور جيش المتوكل إسماعيل بقيادة أحمد بن الحسن من المرور من بلاده فوقع بينهم التفاوض ومحاولات الخروج من المأزق بحل سلمي ومكث الجيش وأحمد بن الحسن مدة عام وهم بين أخذ ورد مع الحسين الرصاص فتشاور أحمد بن الحسن مع كباء الجيش الذي بصحبته فكانت المشورة بخوض الحرب التي لم يكن من خوضها بد ونتيجة لذلك دخلت بلاد يافع في حدود دولة المتوكل إسماعيل بسبب عارض لم يكن معداً له مسبقا، فهزم الحسين الرصاص ووقع الصلح مع أخيه صالح الرصاص وبقى في بلاده لا تثريب عليه.

١- لمرجع السابق، ٨٢٨/٢.

سادساً: علاقات المتوكل إسماعيل بالممالك والدول المحيطة القريبة والبعيدة

لا تزال بين الدول والممالك قديماً وحديثاً علاقات متنوعة ما بين السلم والحرب والجوار وتبادل المنافع والمجاملات والتجارات والتحالفات, وهذه طبيعة المجتمع الإنساني بوجه عام وهذا متصور على أقل صورة مصغرة من أي نوع من التجمعات الإنسانية. وغالبا ما كانت الدوافع لقيام هذه العلاقات إما تحصيلا للمنافع أو دفعا للمضار وكلما توسع المجتمع الإنساني زادت فرص العلاقات بين أفراده وزادت مع ذلك فرص النزاعات أو التوافق والسلم بتوافر الأسباب.

العلاقات بين القاسم ومحيطه الخارجي القريب والبعيد في حالة السلم لم تكن تتعدى المراسلات وتبادل المعونات والمجاملات والهدايا والمنافع الاقتصادية والتجارية, وفي بوادر الحرب كانت تشمل إما التصدي أو الإنذار الخطي[1].

- علاقات البلاد في عهد المتوكل بالمحيط القريب:

- نجد والحجاز

كان الشريف زيد بن محسن أميراً على مكة في عصر المتوكل إسماعيل, وكانت العلاقة بيد البلدين تتسم بالهدوء وروابط الود والجوار، وثبت هذا عن طريق المراسلات التي كانت بين الطرفين[2], والتي كانت تظهر في طياتها بيان أحوال مكة من جانب الشريف زيد وإطلاع المتوكل على ما بعض ما يستجد من الأمور ومن جهة المتوكل كانت متضمنة المناصحة والتواصي بالخير والشفاعات لمن التجأ للإمام المتوكل لدى الشريف زيد بن محسن، بل وتطورت العلاقات إلى إرسال المتوكل إسماعيل من يقوم بمهمة التعليم والإرشاد فقد ذكر الجرموزي أن المتوكل أرسل الفقيه الحسين بن يحيى بن علي النحوي للتعليم والإرشاد إلى بلاد ينبع، ولكن كاد الأمر أن يتطور إلى فساد الأمر فاستدعى المتوكل الفقيه النحوي لمصلحة بقاء المودة بين الجارين[3].

كادت العلاقات أن تدخل المجال العسكري, فبعد وفاة الشريف زيد بن محسن قامت بين ولده سعد وبين الدولة العثمانية, تقدم الشريف سعد للإمام بطلب النجدة والمساعدة فاستشار المتوكل القائدين العسكريين محمد بن الحسن وأحمد بن الحسن فأشاروا عليه

١- المرجع السابق, ٢/٨٢٨. ,

٢- سلوى الغالبي, المتوكل على الله إسماعيل ودوره في توحيد اليمن, بحث لدرجة الماجستير، كلية العلوم الإنسانية والتاريخ, جامعة الملك عبد العزيز, ١٩٨٩م, ص ٩٨.

٣- المرجع السابق, ١/٣٢٨.

بحسب الخبرة العسكرية وما تتطلبه الحروب من أمور قد تجر إلى ضياع ما قد استقر من أمر البلاد بعد خروج الترك، فاستقر الرأي على أنه لا حاجة إلى خوض هذه الحرب مع الشريف سعد كي لا تكون للأتراك ذريعة العودة لليمن[١].

- العلاقات بدولة اليعربيين (عمان):

من علاقات بلاد اليمن في وقت المتوكل إسماعيل بالمحيط القريب العلاقات مع الدولة اليعربية (عُمان) التي كانت علاقة متوترة نظراً لاستعانة جعفر بن عبد الله الكثيري بالسلطان اليعربي سلطان بن سيف لمهاجمة ظفار في محاولة لرد ما فقده نتيجة طمعه وتهوره، فقد وقع هجوم على السواحل اليمنية وظفار بالسفن التابعة للسلطان اليعربي وعينوا عليها والياً من قبلهم إلا أن عسكر الإمام إسماعيل أجبرته على الخروج مخلفاً وراءه مدفعين (١٠٧٤هـ)، ووقعت بين المتوكل إسماعيل وسلطان بن سيف مراسلات يطلب فيها الأخير المدفعين الذين خلفهما وإليه المنهزم وراءه أظهر فيها المتوكل الحزم وشدة اللهجة والتهديد لهم بالغزو إذا لم يكفوا عن مهاجمة السواحل اليمنية[٢].

من العلاقات البعيدة التي لم تتعد المراسلة ما أورده الجرموزي من نص رسالة للإمام المتوكل إسماعيل إلى الشاه عباس الحسيني في شفاعة شفع بها الإمام لأحد رعايا الشاه يدعى (صفي الدين قلى) في أمور لم يفصح عنها الجرموزي، وكان تاريخ هذه الرسالة عام (١٠٦١هـ) [٣].

- العلاقات مع المحيط البعيد:

- سلطان الهند:

لم تتعد علاقات اليمن في عهد المتوكل إسماعيل مع سلاطين الهند على المستوى السياسي مستوًى فوق مستوى المراسلات وتبادل الهدايا فقد وصل من الهند مبعوث يسمى محمد بن إبراهيم وفي زيارة للإمام بهدايا من سلطان الهند (أورنزكيب بن شاهجهان) المغولي، حاملاً الهدايا. ومن طريف هذه الزيارة عندما تجاذبوا أطراف الحديث علم الإمام المتوكل أن سلطان الهند على مذهب أبي الحسن الأشعري في العقيدة فأهدى للسلطان كتاباً حاوياً على أجوبة على مسائل العقيدة الأشعرية ليستفيد منها سلطان الهند، فأرسل سلطان الهند – في وقت لاحق – هدية بلغت الإمام، فلما فُتحت الهدية وجد في أثنائها كتاباً أهداه صاحب الهند للإمام المتوكل إسماعيل يعد من

١- سلوى الغالبي، مرجع سابق، ص ١٠٣ - ١٠٤.
٢- المرجع السابق، ص ١٠٧ - ١٠٨.
٣- تحفة الأسماع، ١٦٥/١.

كتب الأشعرية وهو تفسير الرازي المسمى (مفاتح الغيب)، فتيقن المتوكل أن ما جال في خاطره قد أتى على خاطر سلطان الهند من رغبة كل واحد في إطلاع الآخر على عقيدته أو دعوته إليها[1]. وقد وفد محمد بن إبراهيم الهندي - المذكور - ثانيةً إلى الإمام المتوكل مهدياً إليه هدية عظيمة من البراذين نحواً من عشرين بِرذوناً[2].

- ملك الحبشة:

علاقة المتوكل إسماعيل بملك الحبشة لها سياق خاص لا يشبه ما قد يجول في الذهن من التبادل للهدايا فقط بل أبعد من ذلك فقد أوفد ملك الحبشة وفدا عام (١٠٥٧هـ) محملا بالهدايا ورسائل سرية تبلغ الإمام فقط شفويا خوفا من تسربها للغير. مفاد هذه الرسالة أن ملك الحبشة يطلب من المتوكل إسماعيل وفدا من قبله يصل إلى الملك نفسه ليحملهم برسائل شفوية لا يمكن كتابتها خطا. كان هذا هو المغزى من الوفد. حاول المتوكل إسماعيل معرفة ذلك عن طريق الوفد لكن الوفد في جلسة مغلقة ألمح للمتوكل أن الملك ربما يريد أن يدخل في الإسلام.

أسَّر المتوكل إسماعيل بذلك مع أنه لم يجعل ذلك أكيداً، فرتب الوفد من جهته برئاسة الفقيه الذكي الألمعي الحسن بن أحمد الحيمي وأعطاه رسالتين: الأولى تتضمن جوابا عاما والثانية كلاما خاصا بموضوع إسلام الملك، وأمر المتوكل إسماعيل رسوله ألا يبرز هذه الرسالة الثانية إلا إذا تأكد لديه أن الملك يريد دخول الإسلام.

توكل الوفد على الله حاملا رسائل المتوكل على الله إسماعيل ووصل الوفد مكرما مبجلا ونال حقوق الضيافة اللائقة، ومكث مدة في ضيافة الملك يتجول في بلاد الحبشة ويطاع معالمها، وقبل المغادرة اجتمع الملك بالوفد وأعلمهم بالأمر السري الذي لم يذكر لنا الجرموزي فحواه ولكن لم يكن له علاقة برغبة الملك في دخول الإسلام. ورجع الوفد ولم يكن محملا بالهدايا كعادة الملوك والسلاطين.

في وقت لاحق بعث ملك الحبشة بوفد آخر ومعه اعتذار عن مخالفة العادة بإرسال الهدايا.

١- تاريخ الوزير المسمى (طبق الحلوى)، (تحقيق: محمد عبد الرحيم جازم)، بيروت، دار المسيرة، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م، ص ١٦٤.

٢- المرجع السابق.

والبراذين من جنس الخيول لكنها غير عربية ولها خلقة عظيمة تخصص لحمل الأثقال الكبيرة.

ويستغل المتوكل هذه الفرصة ويكتب للملك رسالة يوضح فيها أن الأمر لا علاقة له بالهدايا وأنه كان يظن أن المسألة أكبر شأنا من ذلك وأخذ المتوكل إسماعيل يسطر الخطاب بآيات القرآن التي توضح عقيدة المسلمين في عيسى عليه السلام وأمه و يذكره بما أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للنجاشي أصحمة داعيا له إلى دخول الإسلام مبينا أنه أخذ بما ينفعه عند الله ودخل دين التوحيد وشهد شهادة الحق. ينهي الجرموزي هنا ما كان من شأن ملك الحبشة ومراسلاته مع المتوكل إسماعيل.

من هذا العرض الموجز يتضح لنا نوع ومستوى العلاقات التي كانت بين المتوكل إسماعيل والدول والممالك المحيطة ببلاد اليمن ويعكس مدى استقرار البلاد والقوة التي وصلت إليها اليمن في عهده.

- خاتمة:

كانت فترة حكم المتوكل إسماعيل (١٠٥٤هـ – ١٠٨٧هـ) حافلةً على كل الأصعدة؛ فقد برزت فيها معالم الحاكم الفذ الذي لم يألُ جهداً في تحقيق المكاسب الداخلية من استقرار وتنمية ووحدة بحسن تدبير وجودة سياسة فقد سار في الناس السيرة حسنة. ويمكن إبراز ملامح حسن تدبيره وسيرته في النقاط الآتية:

- القدرة على تفادي الخلافات والانقسامات في الصف الداخلي والتعامل مع الأمور بروية وحكمة.
- تولية أهل الكفاءة والحنكة العسكرية والسياسية والقضائية سعيا لتحقيق النجاحات في تأمين الاستقرار الداخلي.
- عدم التساهل في الأخذ على يد المفسدين الذين إن تركوا خلفوا وراءهم تراكمات يصعب التعامل معهم في المستقبل.
- بذل الجهد في تحقيق الوحدة الداخلية للبلاد.
- انسجام السياسة المالية ووضوحها وفقا لمبدأ نقاء المصدر وحسن المصرف وإعطاء كل ذي حق حقه.
- كانت له علاقات لا بأس بها مع المحيط الخارجي لحدود بلاده اليمن بحسب معطيات ذلك العصر وضروراته.

عثمانية العصر..
أطماع تتمدد وأحلام تتبخر

د. حسناء نصر الحسين
باحثة في العلاقات الدولية - دمشق

يتابع النظام التركي سياسته الاستعمارية بهدف تحقيق أطماع بلاده ومشروعها التوسعي خارج حدود الدولة التركية التي أقرتها اتفاقية لوزان لعام ١٩٢٣م، ضارباً عرض الحائط كل الأعراف والقوانين الدولية التي تحرم التدخل في الشؤون الداخلية للدول.

منذ وصول حزب العدالة والتنمية لسدة الحكم في تركيا بقيادة الرئيس رجب طيب أردوغان تحولت سياسة تركيا الخارجية من "صفر مشاكل" إلى "كل مشاكل"، وذلك باستهدافها أمن واستقرار دول الجوار من خلال تدخلها في المشاكل الداخلية لهذه الدول ودعمها لتيارات وأحزاب تجمعها بها أيديولوجية فكرية وعقائدية واحدة، حيث تهدف تركيا إلى تحقيق أطماعها في تلك الدول عبر تلك الأدوات (التيارات والأحزاب) التي تحمل فكراً متطرفاً إلغائياً لكل مكونات الشعب الأخرى. وأردوغان - بصفة عامة - لم يُخْفِ أحلامه وطموحاته بالعودة لزمن الخلافة العثمانية وإحياء الإمبراطورية العثمانية؛ إذ عبَّر عن ذلك في عدة مناسبات، وهو ما سأتطرق إليه في نقطة لاحقة من مقالي التحليلي هذا.

وجدت تركيا "الأردوغانية" فرصة ذهبية فيما سمي "الربيع العربي" لتبدأ مشاريعها الاحتلالية والتوسعية إلى ما بعد حدودها الجغرافية، حيث قامت بتحريك أذرعها من جماعة الإخوان المسلمين بداخل الدول التي عصفت بها رياح "الربيع العربي"، محدِثة الفوضى داخل تلك الدول بهدف وصول هذه الأذرع الإخوانية إلى الحكم في تلك الدول، وذلك كما حصل في الحالة المصرية حيث كان للإخوان المسلمين باع طويل في خلخلة الأمن والاستقرار في مصر والعمل على وصول جماعتهم إلى الحكم ممثلة بالرئيس محمد مرسي الذي سرعان ما رفضه الشارع المصري وأسقط نظام حكمه.

في واقع الحال لا تزال مصر تعاني - حتى هذه اللحظة - من تبعات ذلك التدخل التركي، وذلك من خلال استهداف أمن مصر وأمانها من جماعات إرهابية تدعمها تركيا داخل مصر وخارجها - عبر الحدود المشتركة بينها وبين ليبيا - حيث عملت تركيا على تقويض السلم والأمن الدوليين من خلال دعمها للقوى الظلامية التي شكلت الجيش المرتزق البديل للجيش التركي تضرب به الدول المستهدفة لاستكمال حدود تمدد إمبراطوريتها العثمانية البائدة.

في الصدد ذاته؛ سأشير في النقاط التالية إلى دور تركيا بالعدوان على عدة دول منها سورية والعراق وليبيا واليمن ومصر، فضلاً عن توسُّع نفوذها في دول أفريقيا على عدة مسارات.

- تدخل نظام أردوغان ودور بلاده في العدوان على سورية:

منذ اندلاع الأحداث في سورية في العام ٢٠١١م كان لتركيا تأثيرها الفعال في مجريات الأحداث الدائرة في هذا البلد العربي الذي يمتلك مشروعه المقاوم ويعاني الكثير من الضغوطات عليه لإجباره وإخضاعه للعودة عن مواقفه ومكانته في إطار التحالف مع قوى مناهضة للكيان الصهيوني.

منذ الأسابيع الأولى للاحتجاجات التي حصلت في سورية سارع نظام أردوغان ببث خطاباته المسمومة مقدِّماً نفسه كمحامي دفاع عن حقوق الشعب السوري، ومِلءُ خطاباته تلك التهديد والوعيد. فقد سارعت تركيا لنصب المخيمات على حدودها مع الدولة السورية في الوقت الذي لم يكن يُسمَع في هذا البلد صوت طلقة رصاص واحدة، حيث بدأت تركيا بتنفيذ مشروعها مستغلة الحقوق المشروعة للمواطن السوري وحاجاته التي لم تنكرها عليه الدولة، وسرعان ما بدأ مشروع الهجرة مدفوعة الأجر من التركي الذي قدم المال لكل عائلة تقبل بالخروج من سورية باتجاه المخيمات التركية ليكون بذلك حصل على ورقة مهمة تخدم مشروعه التآمري الكبير على سورية في المحافل الدولية.

لقد تابع النظام التركي مشروعه التآمري التقسيمي عبر أدواته الإرهابية جاعلاً من تركيا مقراً ومستقراً للإرهاب العالمي حيث قدم للجماعات الإرهابية وسائل النقل الجوي وجوازات السفر التركية، كما قدم لها المال والسلاح بالإضافة لمساعدتها من خلال استخباراته من أجل مهاجمة الدولة السورية واستهدافها بكل مقوماتها الاجتماعية والعسكرية والاقتصادية والأمنية. فكان لتركيا الباع الأطول في تدمير الدولة السورية حيث خرجت عدة مناطق عن سيطرة الدولة وتفشَّى وباء الإرهاب العالمي فيها، كما طال التآمر التركي القطاع الاقتصادي حيث عمل أردوغان على سرقة المعامل الصناعية

الموجودة في حلب (العاصمة الاقتصادية لسورية) ونقلها عبر أدواته الإرهابية إلى الداخل التركي، ناهيك بمساهمته في سرقة النفط السوري عبر شرائه من الإرهابيين بأبخس الأثمان، كما عمل - أيضاً - على إحراق المحاصيل الزراعية وإخضاع المواطنين السوريين لسيطرة الإرهاب ليعيثوا بمناطقهم قتلاً ورعباً وتنكيلاً، وأسس - كذلك - منصة لمن يسمون أنفسهم معارضة سورية في إسطنبول ووفر لهؤلاء منصات إعلامية ومادية وعمل على تجنيد سوريين يخدمون تحت الراية التركية وحولهم إلى خنجر يطعن به بلدهم، ولا بد هنا أن أشير إلى مسميات هذه الألوية لأنها تقدم لنا مشروع تركيا في المنطقة مثل ما سمي لواء السلطان عبد الحميد ولواء نور الدين الزنكي في إشارة لإعادة أمجاد بلاده العثمانية التي حولت المجتمعات إلى عبيد يخدمون مصالحها ويموتون لأجلها.

في المقابل، ساهم عامل الصمود الذي أبدته الدولة السورية وجيشها الباسل في فضح مشاريع الرئيس التركي ونظامه. ومع استمرار حالة الحرب الدائرة في سورية بدأ السيد أردوغان بالإعلان عن مشروعه التوسعي خلال مناسبات عدة منها قوله خلال اجتماعه مع مناصريه في مدينة بورصة التركية: "أن الموصل كانت لنا وكركوك كانت لنا وحلب السورية كانت لنا"،[1] وفي مناسبة أخرى نقلت وكالة رويترز عام ٢٠١٧م عنه قوله إن الحدود بين بلاده ودول الجوار "ثقيلة على قلوبنا"[2]. فهذه التصريحات - وغيرها - تؤكد أحلام أردوغان بعودة بلاده لإحياء أمجاد العثمانية بحلة جديدة تحجز من خلالها مكاناً لها في النظام العالمي الجديد.

تركيا دأبت - أيضاً - على محاولة إفشال أي مشروع لحل سياسي قد يُخرِج الشعب السوري من ويلات هذه الحرب العدوانية بل وفي كل مسار وانتصار عسكري أو سياسي، وذلك عبر رفدها جبهات القتال بالإرهابيين. وبعد مراحل متقدمة من هذا العدوان وفي ظل الانكسارات الكبيرة لإرهابييها؛ دخلت تركيا بجسدها العسكري النظامي لإيقاف عجلة التقدم العسكري الذي ينجزه الجيش العربي السوري وحلفاؤه في دحر الإرهاب، وذلك بهدف استكمال مشروعها التفتيتي للدولة السورية وتعطيل إمكانية الحل السياسي

١- متوفر على الرابط:
846411/https://arabic.rt.com/news

٢- متوفر على الرابط:
https://www.alquds.co.uk

عبر احتلال أجزاء كبيرة من الأراضي السورية تحت ذريعة "المنطقة الآمنة" مما يجعل الجغرافية السورية تحت سلطة "السلطان العثماني" أردوغان، وهذا ما عبر عنه صراحة وزير الخارجية التركي بتاريخ ١٨ يونيو ٢٠٢٠م حين قال: "نسعى لتحويل إدلب إلى منطقة آمنة بعد أن كانت تركيا قدمت نفس المشروع بالاتفاق مع الأمريكي على إنشاء ما يسمى المنطقة الآمنة في مناطق شمال شرقي الفرات".

- دخول تركيا على خط التدمير للدولة الليبية:

الانتصارات التي حققتها الدولة السورية والحلفاء ساهمت في التعجيل بفضح النظام التركي ومشاريعه مما دفع به للانتقال السريع لتنفيذ مشاريعه في مناطق أخرى، فكان هدفه الدولة الليبية ليدخل شريكاً في سفك دم الشعب الليبي الشقيق وإطالة مدة معاناته عبر دعمه لحكومة فايز السراج "الإخوانية"، فسارع إلى توقيع مذكرتي تفاهم مع حكومة فايز السراج بتاريخ ٢٧ نوفمبر ٢٠١٩م تتعلقان بالتنقيب عن النفط والغاز في المتوسط والتعاون الأمني والعسكري بين أنقرة وطرابلس في محاولة لشرعنة تدخل بلاده في الصراع الدائر في هذا البلد. كما تم نقل مئات الإرهابيين من سورية إلى ليبيا لدعم حليفه السراج بالرغم من كل الأصوات الدولية ومنها العربية الخجولة التي عارضت هذا التدخل ووصفته بالتدخل الخطير. فعلى الرغم من كل التحذيرات لتركيا أردوغان من التدخل في الشأن الليبي ودعمه بالسلاح والعتاد لقوى على حساب قوى أخرى؛ إلا أنه مستمر في مشروعه الهادف إلى السيطرة على ثروات هذه الدولة الموجودة في البحر المتوسط. وهنا أشير إلى أن تركيز أردوغان في أي مفاوضات سياسية مع حكومة اللواء خليفة حفتر على الانسحاب من ميناء سرت يؤكد على تعلق الرجل بهذه المدينة لما لها من مكانة تاريخية أثناء حقبة الاحتلال العثماني.

إن حرص تركيا على وجودها في القضية الليبية لنهب ثروات الغاز والنفط في شرق البحر الأبيض المتوسط باعتبار ذلك بمثابة الهاجس الأهم لدى العثمانيين الجدد وخليفتهم الواهم رجب أردوغان. أردوغان الذي وجد في حكومة فايز السراج - التي يديرها عبدالحكيم بلحاج (عضو تنظيم القاعدة) - البوابة الآمنة التي من خلالها يتمكن من نهب أموال الشعب الليبي وحقوق شعوب الدول الواقعة في منطقة البحر المتوسط، وهذا ما أثار حفيظة عدة دول أذكر منها مصر القديمة الجديدة في المشاريع الاستعمارية العثمانية ورأت في هذا الاتفاق عدواناً على أمنها القومي.

غير خافٍ على أحد أطماع تركيا في مصر والأعمال العدائية التي مارستها تركيا تجاه هذه الدولة ومحاولة تركيا لزعزعة أمن واستقرارها من خلال التنظيمات الإرهابية المتواجدة على الحدود المصرية الليبية بهدف تطويق مصر للوصول إلى مياه البحر الأحمر ولعل ما نشهده اليوم من تصريحات للرئيس المصري عبد الفتاح السيسي بأنه أعطى الموافقة للجيش المصري بالقتال خارج بلاده يعبر عن فهم مصر لمشاريع أردوغان في المنطقة ومحاولة إيقافه(١). والآن نشاهد مطالبات بعقد اجتماع للجامعة العربية على مستوى وزراء الخارجية لدراسة التدخل التركي في ليبيا وهذا الأمر الذي لا نستطيع أن نبني عليه رؤية مستقبلية تفاؤلية لأن تاريخ الجامعة العربية لا يشجع على ذلك.

- تمدد النفوذ التركي في عدد من الدول الأفريقية:

جاء في كتاب (العمق الاستراتيجي) لوزير الخارجية التركية (أحمد داود أوغلو) توصيات عديدة لإعادة أمجاد الإمبراطورية العثمانية وعدم الوقوع في الأخطاء التي أدت إلى انهيار الإمبراطورية العثمانية، ودعوة - كذلك - إلى الاستفادة من موقع تركيا الجغرافي، حيث دعا الكاتب إلى الاستفادة من هذا الموقع الذي يربط عدة بحار بتركيا (العثمانية الجديدة)، وأكد على أهمية البحار التي تشكل عمقاً استراتيجياً لتركيا الحديثة مذكِّراً بالمناطق البحرية الاستراتيجية في حقبة العهد العثماني ليرسم من خلال كتابه هذا الاستراتيجية المُثلَى التي على تركيا أن تتبناها في مراحل بناء إمبراطوريتها الجديدة المعهودة. وما كان على رئيس الدولة السيد رجب طيب أردوغان - وهو الحالم الطامح لزمن الخلافة العثمانية - سوى تبني الاستراتيجية تلك، وهذا ما يفسِّر سياسته تجاه الدول البحرية من سورية إلى ليبيا إلى دول أفريقيا ومصر وصولاً إلى اليمن الذي يمتلك موقعاً جغرافياً استراتيجياً بالغ الأهمية. بالتالي، يبدو أن تلك الاستراتيجية ترسم ملامح حقبة جديدة من الصراع العربي التركي ساحته هي منطقة شرق المتوسط وهدفه هو السيطرة على المواقع البحرية للدول العربية وثرواتها المتنوعة.

لأجل هذا الغرض اتجهت تركيا "الأردوغانية" إلى إقامة علاقات حميمة مع عدة دول أفريقية منذ وقت مبكر، حيث بدأ الرئيس التركي بزيارات عدة لعدد من الدول الأفريقية معتمداً فيها على النفوذ الموجود داخل هذه الدول، إذ عملت تركيا على استغلال الإرث العثماني الإسلامي القديم في القارة لخلق جماعات ذات فكر متطرف يكون ولاؤها لأنقرة، وكانت استراتيجيتها في تحقيق أطماعها هي "القوة الناعمة" متمثلة بتقديم المساعدات الإنسانية ومنظمات الإغاثة وإنشاء المدارس وشق الطرقات وتقديم المنح الدراسية.

١- متوفر على الرابط:
https://www.bbc.com/arabic/interactivity-53526973

كما استخدمت استراتيجية "القوة الخشنة" من خلال دعم التنظيمات الإرهابية وحمايتها وتقديم المال والسلاح لها لتشكل ورقة قوية في يد تركيا تستطيع من خلالها تحقيق أهدافها وأطماعها على عدة جبهات إقليمية ودولية، وهذا ما أكده (المركز المصري للفكر والدراسات الاستراتيجية) من خلال الإشارة إلى أن تركيا استخدمت القوة الناعمة في كل من الصومال والسودان والنيجر والكاميرون ومدغشقر، حيث نجد نشاطاً مكثفاً لعدد من الوكالات والمؤسسات التركية التي تقدم المساعدات والإغاثة منها وكالة التعاون والتنسيق (تيكا) ومؤسسة (ديانيت) التي تعمل تحت إشراف مديرية الشؤون الدينية التي توفر المنح العلمية للدراسات الإسلامية للطلاب في أفريقيا.[1]

هكذا دخلت تركيا إلى أفريقيا تحت عنوان الدعم الإنساني والإغاثة واستطاعت أن ترسم صورة جميلة لنفسها في الشارع الإفريقي مما مهد لها تمرير مشاريعها الاستعمارية من خلال استغلال حالة الصراع والفوضى في تلك البلدان من خلال شبكة تضم (٤١) سفارة و (٢٠) مكتب لوكالة التعاون التركية (تيكا)، حيث تتستر وراء أدواتها تلك لدعم التيارات والجماعات الإرهابية واستغلالها لتحقيق مآربها في عدة جبهات منها سورية وليبيا ومصر واليمن، ولتكون بذلك قد مهدت للسيطرة وأوجدت موطئ قدم لها في البحر والصحراء ما يمكنها من حجز موقع متقدم في إدارة الأزمات الدولية الراهنة ويضمن لها تثبيت قدمها في هذه الدول التي كانت خاضعة للإمبراطورية العثمانية.

لقد حرصت تركيا - في إطار سياساتها سالفة الذكر - على إقامة قواعد عسكرية لها في عدة دول، وذلك على النحو الآتي:

- قبرص التركية:

يعد الجزء التركي من جزيرة قبرص أول بقعة جغرافية أنشأت عليها تركيا قواعدها ونشرت فيها قواتها العسكرية، ففي ٢٠ يوليو ١٩٧٤م دخلت تركيا جزيرة قبرص بصفتها "دولة ضامنة لوضعها السياسي"، بهدف حماية المواطنين القبارصة الأتراك من التجاوزات القبرصية اليونانية المدعومة من اليونان بعد وقوع انقلاب عسكري عام ١٩٧٣م ضد الدستور، والاتفاقيات التي تم التوصل إليها بين تركيا وبريطانيا واليونان عام ١٩٦٠م[2]. يبلغ عدد الجنود الأتراك في قبرص التركية ٣٠ ألف جندي[3]، وتملك تركيا هناك عدداً من القواعد العسكرية التي تحتضن دبابات وطائرات تعذر معرفتها من خلال متابعة الصحف التركية.

١- متوفر على الرابط:
https://marsad.ecsstudies.com/21928/

٢- متوفر على الرابط:
https://www.aljazeera.com.tr/ulke-profili/ulke-profili-kuzey-kibris-turk-cumhuriyeti

٣- المرجع السابق.

- أفغانستان:

في ديسمبر ٢٠١٤م، شارفت فترة وجود قوات (الناتو) والولايات المتحدة في إطار مهمة السلام الدولية (إيساف) على الانتهاء؛ الأمر الذي أدى إلى انخفاض مستوى القوات الدولية في أفغانستان بنسبة ٨٠٪، وفي عام ٢٠١٥م انتهت المهام الاستشارية للقوات الدولية أيضاً، الأمر الذي أدى إلى انخفاض عدد المستشارين العسكريين الدوليين إلى (١٥٠٠٠) مستشار.[١]

اتجهت بعض الدول لسحب قواتها من أفغانستان، في حين اتجهت أخرى - على رأسها تركيا والولايات المتحدة وبريطانيا - إلى تأكيد بقاء دعمها لأفغانستان بما في ذلك عدم سحب قواتها نهائيا[٢] مع قيامها بسحب بعضاً منها أو تخفيف عدد جنودها. لكن تركيا - بالذات - لم تكتف بتأكيد إبقائها لقواتها بل إنها رفعت عدد جنودها هناك، وهي الدولة الوحيدة في ذلك النهج ضمن قوات (إيساف).

- الصومال:

بحضور رئيس الأركان التركي (خلوصي أكار) ورئيس وزراء الصومال (حسن علي خيري) افتتحت تركيا أكبر قاعدة عسكرية لها في الخارج في ٣٠ سبتمبر ٢٠١٧م، وأُعلن حينها أن الهدف الأساسي للقاعدة هو تدريب (١٠٠٠٠) جندي صومالي على يد (٢٠٠) ضابط تركي[٣]؛ حيث أكّد أكار - خلال حفل الافتتاح - أن الهدف الأساسي لتركيا من إنشاء القاعدة هو دعم الجيش الصومالي ضد منظمة "الشباب" التي تقوض السلام والأمن في الصومال، مشدداً على أن التدريب فقط هو مهمة القاعدة[٤]. وقد كلف إنشاء القاعدة تركيا (٥٠) مليون دولار[٥]. وتطل القاعدة المذكورة على المحيط الهندي ولا تبعد كثيراً عن خليج عدن ومضيق باب المندب، مما يجعلها ذات موقع استراتيجي يرفع من رصيد النفوذ الإقليمي (الأمني والتجاري) لتركيا في المنطقة.

١- للمزيد انظر "تقرير الأمين العام عن الحالة في أفغانستان وآثارها على السالم والأمن الدوليين)S/ ٢٠١٥/١٥١؛ متوفر على الرابط:
https://undocs.org/pdf?symbol=ar/S/PV.7403

٢- متوفر على الرابط:
https://www.al-monitor.com/pulse/tr/originals/11/2014/turkey-afghanistan-military-presence.html

٣- متوفر على الرابط:
https://www.bbc.com/turkce/haberler-turkiye41453052-

٤- المرجع السابق.

٥- المرجع نفسه.

- قطر:

اشتد الجدل بخصوص شرعية وسبب وجود القاعدة العسكرية التركية على إثر اندلاع "الأزمة الخليجية" التي نشبت بين الإمارات والسعودية والبحرين ومصر "دول الحصار" من جهة، وقطر من جهة أخرى، على خلفية اتهام "دول الحصار لقطر بدعم وتمويل الإرهاب والتدخل في الشؤون الداخلية لتلك الدول؛ الأمر الذي رفضته قطر جملةً وتفصيلاً. ففي ظل التخوف بخصوص إمكانية اعتداء تلك الدول على قطر، وافق البرلمان التركي في ٧ يونيو ٢٠١٧م على نشر قوات عسكرية تركية في القاعدة العسكرية التركية التي أُنشئت في قطر بناءً على اتفاقية الدفاع المشترك المبرمة بين تركيا وقطر عام ٢٠١٤م، والتي تنص على تشكيل آلية من أجل تعزيز التعاون بين الجانبين في مجالات التدريب العسكري والصناعة الدفاعية والمناورات العسكرية المشتركة وتمركز القوات المتبادل بين الجانبين.
وفيما بدأت تركيا عملية إنشاء قاعدتها العسكرية في نوفمبر ٢٠١٥م، جاءت مصادقة البرلمان على الاتفاقية بناءً على دعوة عاجلة من الحكومة التركية تحسباً لأي تطورات سلبية ضد قطر في ضوء الأزمة الخليجية.

بيد أن نائب رئيس الوزراء التركي السابق (ويسي قيناق) شدد على أن القاعدة العسكرية في قطر هدفها الأساسي "تقديم التدريب" للجنود القطريين[1] تنفي نوعية الاتفاقية المُبرمة "اتفاقية الدفاع المشترك" مضمون هذا التصريح، وتؤكّد أن القاعدة العسكرية في قطر، يجب أن تقوم بمهمة الدفاع عن قطر وحماية أمنها، في حال تم الاعتداء عليها من الخارج، لا سيما أن الاتفاقية تنص على أن البلد المضيف يسمح للبلد الآخر باستخدام موانيه البحرية وطائراته ومجاله الجوي، والمنشآت والوحدات العسكرية.

١- متوفر على الرابط:
https://www.noonpost.com/content/22061

أما الاتفاقية الثانية التي صادق عليها البرلمان إلى جانب اتفاقية "الدفاع المشترك"، فهي اتفاقية "التعاون العسكري بشأن تدريب قوات الدرك والأمن"، وتختص بعمليات التدريب فقط.

في الوقت الراهن، تحوي القاعدة التركية في قطر (٢٠٠) مستشار عسكري و (٥٠٠٠) جندي، إلى جانب (٥) عربات عسكرية مصفحة، ويُخطَّط لإرسال طائرات وسفن حربية تركية لم يتم الإفصاح عن موعد تسليمها.

- الموصل:

على بعد (٢٥) كيلومتراً من مدينة الموصل العراقية تتمركز قوات تركية في مخيم بعشيقة. وفي ديسمبر ٢٠١٥م، وبينما كانت القوات التركية تُجري تغييراً اعتيادياً لجنودها، مع إرسال تعزيزات عسكرية بسيطة، اعترضت الحكومة العراقية على ذلك بشدة، مطالبةً أنقرة بسحب جنودها من الموقع على الفور، وهو ما تسبب بأزمة أُطلق عليها حينها "أزمة بعشيقة".

رفضت أنقرة آنذاك التصريحات العراقية، معبرةً عن إصرارها على التمركز في موقعها بذريعة إتمام الفعاليات التدريبية لقوات (البشمركة) وبعض القوات العشائرية السنية على هامش "عملية الموصل" التي انطلقت بتعاون ما بين التحالف الدولي والقوات العراقية[1].

لكن على الرغم من انتهاء عملية "تحرير الموصل"، فإنه ـ حسب ما تورده التقارير المُطلعة ـ لا تزال القوات التركية متمركزة في شمال الموصل بتعداد قوامه (٤٥٠) جندياً و (١٦) دبابة، والأرجح؛ أن تركيا لا تزال تتمسك بوجود قواتها هناك من أجل الحفاظ على توازن القوى الخاص بالمعادلة السياسية المستقبلية للعراق لصالحها قدر الإمكان.

- سورية:

تحتفظ تركيا بعدد من القواعد العسكرية في مناطق: (الباب)، (جرابلس)، (اعزاز)، (عفرين)، بالإضافة لعدة نقاط مراقبة عسكرية تركية وعددها (١٢) أنشئت في إطار اتفاقية (سوتشي) في مناطق خفض التصعيد، حيث

١- متوفر على الرابط:
https://www.haberler.com/basika-kampi-nedir-turk-askeri-musul-da-ne-8870026-/haberi

استخدمتها أنقرة لدعم وإسناد المجموعات الإرهابية المسلحة في مواجهة الجيش العربي السوري مما دفع بالجيش السوري لمحاصرة عدة نقاط ومنعها من إسناد هذه الجماعات. وفي الوقت الراهن، تطالب تركيا - عبر وزير خارجيتها - بالتملص من هذه الاتفاقية وسحب نقاطها المحاصرة إلى مناطق جديدة في محافظة (إدلب) السورية لتشكل قاعدة عسكرية تخدم مصالح تركيا "العثمانية الجديدة" واستكمال مشروعها في تقسيم سورية.

- ليبيا:

أمام مصالحها المتنوعة في ليبيا عملت تركيا على عقد اتفاقية عسكرية وأمنية واقتصادية مع ما يسمى "حكومة فايز السراج"، وبذلك استطاعت تركيا أن تبني قاعدة عسكرية لها في ليبيا لتكمل بهذه القاعدة الطوق على عدة دول عربية وتجعل الأمن القومي لتلك الدول في خطر دائم.

- السودان:

تقع جزيرة سواكن في شمال شرق الأراضي السودانية، وتبلغ مساحة الجزيرة (٧٠) كم٢، ويعد ميناؤها واحداً من أقدم الموانئ في أفريقيا، كما يمتاز الميناء بموقعه الاستراتيجي في إطار الطريق البحري في البحر الأحمر. وقد عملت تركيا على إبرام اتفاقية مع السودان بخصوص جزيرة سواكن خلال زيارة الرئيس التركي رجب طيب أردوغان لها، والتي زار خلالها تلك الجزيرة لما تمتلكه من خصوصية في الذاكرة العثمانية، حيث وقعت تركيا اتفاقية مع حكومة عمر البشير في عام ٢٠١٧م. وبموجب تلك الاتفاقية منح السودان تركيا عقد إيجار لجزيرة سواكن لمدة (٩٩) عاماً. وتقوم تركيا بموجب الاتفاقية بإعادة ترميم الجزيرة وتحويلها إلى قاعدة عسكرية ومدنية - مع أن أنقرة تزعم أنها تريد تحويل جزيرة سواكن إلى موقع تجمع للحجيج! - وقد بدأت تركيا - بالفعل - في إنجاز أعمال الترميم في عام ٢٠١٨م.

في الوقت الراهن، يؤكد رئيس المجلس العسكري السوداني (عبدالفتاح برهان) على أن الاتفاق مع تركيا بخصوص جزيرة سواكن لم يعد سارياً. في المقابل، تركيا لا تفعل شيئاً، وتعلن أنها لا ترى أي سبب لمغادرة الجزيرة، وقد صرّح المتحدث باسم وزارة الخارجية التركية (هامي أكسي) أن الاتفاقيات الثنائية بين السودان وتركيا ما تزال سارية على الرغم من الانقلاب، وأن الوكالة التركية للتعاون والتنسيق تواصل أعمال ترميم التحف التي يعود تاريخها إلى العصر العثماني.

في وقت من الأوقات، كانت جزيرة سواكن نقطة عبور للحجاج المسلمين الذين يتوجّهون إلى الحج من البلدان الأفريقية، وكانت الجزيرة تتمتع ببنية تحتية تم تطويرها بمساكن أو مراكز جمركية، أو حتى مواقع عسكرية، إلا أنّ العديد من الآثار أصبحت قديمة جداً أو تم تدميرها.

- أنظار تركيا مجدداً على اليمن:

لن يتوقف مشروع تركيا في إحياء العثمانية الجديدة عند حدود التدخل عند الدول التي كنت قد ذكرتها سابقاً، وإنما تحاول نقل السيناريو الليبي إلى اليمن عبر أذرعها الإخوانية؛ ففي الآونة الأخيرة كثر الحديث عن الأطماع التركية في اليمن وعن نقل مقاتلين من سورية إلى اليمن للقتال تحت لواء "حزب الإصلاح الإخواني" مع العلم إن تركيا لم تكف يوماً عن التدخل في اليمن، فمنذ بدء ما يسمى "الربيع العربي" عملت تركيا على دعم جماعة الإخوان المسلمين وإرسال ضباط أتراك إلى محافظات يمنية في الجنوب ضمن بعثة تعنى بالشأن الإنساني بهدف تدريب أزلامها من الجماعات المتطرفة هناك بما يؤمن مصالحها بالسيطرة على الموانئ اليمنية المطلة على باب المندب.

لقد رأت تركيا - بعد خسارتها جزيرة سواكن السودانية - أن عليها الذهاب باتجاه اليمن، إذ تقول التقارير إن تركيا زادت من وتيرة تهريب الأسلحة والأموال إلى جماعة الإصلاح في الفترة الأخيرة، كما كثفت من إرسال عناصر الاستخبارات التركية إلى المناطق الواقعة تحت سيطرة الإصلاح، وتقوم بتدريب المئات من عناصر الجماعة داخل الأراضي التركية، وذلك في ظل تزايد حجم الخطاب الإعلامي الداعم للجماعة من خلال القنوات الإخوانية التي تبث من إسطنبول.

بموازاة هذا الدعم العسكري والمالي والإعلامي، تواصل تركيا انتشارها في المناطق اليمنية الواقعة تحت سيطرة جماعة الإصلاح من خلال هيئة الإغاثة التركية، إذ إن الدعم الإنساني أصبح ستاراً للتدخل التركي عبر عناوين إقامة مستشفيات ومدارس وتقديم المعونات الغذائية، ولكن في حقيقة الأمر، تحول هذا النشاط إلى جهد استخباراتي بامتياز. ولعل النشاط الاستخباراتي التركي السابق في العراق وسورية وليبيا والصومال - وغيرها من المناطق - يؤكد هذه الحقيقة، وكذا طبيعة المتاجرة بالشعارات الإنسانية والأخلاقية لصالح أجندة تركية توسعية لها علاقة بالسيطرة والهيمنة من خلال إنشاء جماعات عسكرية تابعة لها، وتمكين هذه الجماعات من السيطرة وامتلاك عناصر القوة، تطلعاً للوصول إلى السلطة.

لعل التوجهات التركية - سالفة الذكر - تؤكد لنا صحة قراءتنا للاستراتيجية التركية وخطتها في التوسع خارج حدودها بما يعيد لها هيبتها إقليمياً وعالمياً من خلال استعادة أمجاد الإمبراطورية العثمانية بحلة جديدة. وهنا أذكر ما جاء على لسان الرئيس التركي (رجب طيب أردوغان) ونقلته صحيفة (سبق)، وذلك خلال اجتماعه مع مرشحي حزب العدالة والتنمية للانتخابات المحلية: "تتشبث «تركيا» بميراث الأجداد في كل مكان بدءاً من آسيا الوسطى وأعماق أوروبا إلى جزيرة سواكن في السودان"[١]. كمثال آخر؛ في العام ٢٠١٧م نقلت تقارير إعلامية عن صحيفة (يني عقد) المعروفة بقربها من أردوغان، زعم الصحيفة أن كركوك والموصل من أملاك السلطان العثماني عبد الحميد الثاني.[٢] فهذه التصريحات تفسر - بشكل لا يقبل التأويل - التحركات التركية على الحدود التركية - العراقية لإعادة السيطرة عليها بحجة "ملاحقة عناصر كردية انفصالية". وفي مثال ثالث؛ نجد أن مجلة (جرتشاك حيات) التابعة لمجموعة (يني شفق) التركية قد ذهبت إلى حد أبعد من ذلك، حيث قالت إن تركيا لديها صك ملكية الشرق الأوسط[٣]

خلاصة كل ما تقدم؛ تحاول تركيا الخروج من عباءة الدولة العلمانية والتخلص من أعباء هذه الدولة التي أرستها معاهدة لوزان، والعودة لما قبل مئة عام تقريباً وذلك بالعودة إلى عهد الإمبراطورية العثمانية، وما التحركات التي يشهدها عالمنا العربي والإسلامي اليوم من تدخلات تركية في شؤونه الداخلية ودعمها لجماعات الإرهاب الدولي إلا وسيلة لتحقيق هذا الهدف. وأمام هذا التعطش الأردوغاني الإخواني العثماني، وإزاء تعطش السيد أردوغان لتاريخ هذه الإمبراطورية المهزومة ومحاولات التمدد عبر أدواته الإرهابية؛ يمكن التأكيد على أن هذه الإمبراطورية لن تولد إلا ميتة كما مات آلاف الجنود العثمانيين في تلك الحقبة على عتبات تلك الدول، وأخُص بالذكر - هنا - اليمن الشقيق الذي فشلت الإمبراطورية العثمانية في إخضاعه لسطوتها، حتى قيل إن: "اليمن مقبرة الغزاة"، وهنا أريد أن أستشهد بما قاله دفتردار مصر (أحمد الحلبي) وهو أحد رجالات الإمبراطورية العثمانية البائدة: "ما رأينا مسبكاً مثل اليمن لعسكرنا، كلما جهزنا إليها عسكرا ذاب ذوبان الملح ولا يعود منه إلا الفرد النادر".

١- متوفر على الرابط:
https://www.aa.com.tr/ar

٢- متوفر على الرابط:
https://arabic.rt.com/middle_east/903622

٣- متوفر على الرابط:
https://www.noonpost.com/content/28274

إعلام ما بعد الحقيقة: الأبعاد والدلالات

ميثاق الصعدي

مقدمة:

نركز في هذه الدراسة على ظاهرة "إعلام ما بعد الحقيقة"، وما تبعها من تغيرات متلاحقة أعاد تشكيل العلاقات الدولية وأوجد أنظمة سياسية ذات أشكال وأيديولوجيات وقيم ومبادئ أخلاقية مشوهة لا تؤمن بالعدالة في علاقاتها الاقتصادية والسياسية والفكرية وحتى الاجتماعية. كل ذلك انعكس على وسائل الإعلام التي أصبح أغلبها يمثل "محور الشر" لإذكاء الصراعات وإشعال نار الفتنة والحرب ونشر الأفكار المضللة وتدمير القيم الأخلاقية لبث الفرقة بين أبناء المجتمع الواحد، كل ذلك من أجل إحكام السيطرة السياسية والاقتصادية وحتى الفكرية من قبل دول الهيمنة (أمريكا واسرائيل) وذيولها في المنطقة، متجاهلة أو متناسية الانتماءات الفكرية والقومية والعقائدية للمجتمعات والشعوب.

لقد سهلت ثورة تكنولوجيا الاتصال والمعلومات من تداول ونشر الأخبار بسرعة وعلى نحو مجاني تقريباً، ووسعت أيضاً من نطاق انتشار هذه الأخبار، غير أن هذه المزايا لم تقتصر على الأخبار السليمة والدقيقة ولكنها امتدت إلى سهولة نشر المعلومات والأخبار الكاذبة. إن "ما بعد الحقيقة" لا يعد مجرد مصطلح يصف مأزقاً إعلامياً وقعت فيه المؤسسات الإعلامية وكافة هيئات النشر الإعلامي، ولكنه يتجاوز ذلك ليعبر عن واقع موقف متأزم ذي أبعاد إعلامية واجتماعية وسياسية واقتصادية مما يزيد من تعقيده وصعوبة مواجهته ويتطلب تحليلاً عميقاً لكافة هذه الأبعاد وتفاعلاتها.

إن وسائل الإعلام اليوم في عصر ما بعد الحقيقة أصبحت تدافع عن أيدولوجيات الأنظمة الاستبدادية دون مراعاة لأخلاقيات وأعراف الخطاب الإعلامي، مستخدِمةً سياسة تزييف وحجب وتقزيم الأبعاد الحقيقية للحقائق، وغزو فكري يسحق انتماء الفرد للقيم والمعتقدات التي يؤمن بها المجتمع بغرض التلاعب بالعقول.

ولكن نجد على الجانب الآخر وسائل إعلام تتسم بالصدق والجرأة والشجاعة والاستقلالية والقيم الأخلاقية والأيديولوجيات غير المستوردة في خطابها الإعلامي.

إن المضي بخطاب إعلامي أساسه الحقيقة والأخلاق أمر شاق ولكنه ممكن في ظل التطور التكنولوجي الهائل، والتي من خلالها يستطيع الخطاب الإعلامي الحر إيصال صوته للجميع، في عصر تراجع فيه دور الحقيقة في تشكيل الرأي العام وتحول إلى عالم سيطر عليه خطابات تأجيج المخاوف والعواطف، حيث أضحت العواطف والمعتقدات الشخصية لها قدرة كبيرة على تشكيل الرأي العام من الحقائق الموضوعية.

هكذا فإن عصر أو إعلام ما بعد الحقيقة أصبح يحل فيه الكذب محل الصدق والعاطفة محل الحقيقة والتحليل الشخصي محل المعلومة والرأي الواحد محل الآراء المتعددة. بمعنى آخر، إن إعلام ما بعد الحقيقة يقصد به السياقات التي تكون خلالها الحقائق أقل تأثيراً في توجهات الجمهور من الادعاءات غير الدقيقة التي تركز على المعتقدات والانحيازات الشخصية، لتصبح العاطفة ومشاعر الأفراد الفيصل الحكم على المعلومات وليس مجريات الواقع فعلياً.

إنه عصر يجد فيه المتعصب قنوات ووسائل اتصال تروج لتعصبه، ويجد فيه دعاة الانغلاق عن العالم بكل مشاكله وهمومه ومخاطره ما يقوي قلاعهم ويعزز قناعاتهم، فهم يشكلون هذه الآراء والقناعات بناء على المشاعر أكثر منها على الحقائق، فتكون النتيجة الحتمية رفضهم لتقبل الحقائق وقبولهم للكذب المفضوح لأنه يتماشى مع قناعاتهم.

- مفهوم مصطلح إعلام ما بعد الحقيقة:

إن مصطلح (ما بعد) صيغ كمصطلح يعبر عمّا ليس له قوام أو شكل، وأول مصطلح في التاريخ الحديث بدأ بـ(ما بعد) كان مصطلح (ما بعد الاستعمار) وكان القصد منه الاعتراف بإنهاء مرحلة وعجزها عن تحقيق أهدافها ومحاولة احتواء مشكلات وتداعيات سقوطها. وهو الأمر نفسه في مصطلحات عصر (ما بعد الصناعة) وما (بعد الحداثة) .. إلخ. وهذه كانت محاولات للبحث عن أطر سياسية وثقافية وفكرية جديدة، ومحاولة

للبحث عن فهم جديد لمنطلقات ثبت فشلها، وبدلاً من الإقرار بالفشل وحسم الأمر والبحث عن بدائل ظهر مصطلح (ما بعد) بهدف الالتباس والتسويف[1].

لو تتبعنا مصطلح ما بعد الحقيقة سنجد أنه مصطلح غير جديد فقد تحدث عنه (أورويل) منذ العام ١٩٤٩م في مقالة له بعنوان: (Politics And The English Language)، حيث تحدثت هذه المقالة عن الأسلوب الفضفاض واللغة الركيكة المشحونة بالمصطلحات التخصصية والتعابير المجازية المستخدمة في اللغة السياسية. فمثلاً كلمة "الفاشية" لا معنى لها اليوم أكثر من إشارتها إلى شيء مرفوض أو غير مستحب، وكذلك كلمات الديمقراطية والعدالة والاشتراكية والحرية والمساواة وغيرها، هي مفاهيم يحمل كل واحدة منها معانٍ عدة لا يمكن أن تتماشى مع بعضها البعض، أي أنه لا يوجد تعريف متفق عليه، حتى أن محاولة الاتفاق تقابل بمقاومة كبيرة من قبل جميع الجهات، لتظل هناك إمكانية لتوظيف المصطلحات ذات المعاني المتعددة (المتنازع عليها) في سياقات مختلفة هدفها خداع المتلقي والتحايل على المعنى. فمفهوم الديمقراطية يفترض مشاركة غالبية الشعب في الحكم (حكم الشعب) لكن الحقيقة أن ٧٠ ٪ من السكان ليس لهم أي تأثير في السياسة[2].

كما أن جورج أورويل قد تحدث عن مصطلح ما بعد الحقيقة مرة أخرى في روايته التي نشرت في عام ١٩٨٤م والتي تكلم فيها عن "الشعارات الجديدة" وإساءة استعمال اللغة لتحقيق أهداف سياسية وتشوية الحقيقة بطرق تجعل من الوقائع غير ذي قيمة[3].

ترجع المصادر هذا المصطلح إلى ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر المعروف بصراعات انتشار الصحف والصحافة الصفراء[4].

١- إكرام لمعي، عصر ما بعد الحقيقة، (موقع الشروق الأخباري)، ١٠فبراير ٢٠١٧م؛ متوفر على الرابط:
https://www.shoroukNews.com/mobile/columns/view.aspx?cdate=10022017&id=eeafc2bd-b48-134ea-bb9e=c68dbd4d1e49

٢- نيرمين علي، الخطاب السياسي والغوغائية؛ متوفر على الرابط:
https://www.independentarabia.com/node/131076

٣- كنزة فني، جميس دورسي.. إعادة النظر في رواية جورج أورويل ١٩٨٤م، (المعهد المصري للدراسات)؛ متوفر على الرابط:
https://eipss-eg.org/1984-84/

٤- جينفر كافاناغ ومايكل دي رتش، تصدع الحقيقة، كاليفورنيا، مؤسسة سانتا مونيكا، ٢٠١٨، ص ٤٢.

إن مصطلح ما بعد الحقيقة لا يزال من المفاهيم والمصطلحات التي أثارت جدلاً واسعاً والتباسات كثيرة في الأوساط الثقافية والفلسفية العالمية، وذلك بسبب اختلاف النقاد حول المفهوم والدارسين، نظراً لتعدد مفاهيمه ومدلولاته من ناقد إلى آخر.رجع تداول المصطلح من جديد منذ العام ٢٠١٦م - بعد أيام قليلة من فوز دونالد ترامب في الانتخابات الرئاسية - حيث اختار القائمون على معجم أكسفورد البريطاني صفة (بعد الحقيقة) على أنها كلمة العام. ولفت القائمون على المعجم النظر إلى أن هذه الكلمة معروفة منذ حوالي عقد، ولكن استخدامها عرف تزايداً بحوالي ٢٠٠٠٪ سنة ٢٠١٦م عما كان عليه الأمر قبل سنة واحدة. وقد عرَّف معجم اكسفورد مصطلح ما بعد الحقيقة بأنه: (اللحظة التي تكون فيها الحقائق الموضوعية أقل تأثيراً في تكوين الرأي العام من إثارة الانفعال واستحضار المعتقدات الخاصة)[١].

يندرج مصطلح إعلام ما بعد الحقيقة في باب ما يعرف بـ: (بيبلوغرافيا النهايات) أو حمى الـ (ما بعديات) التي انطلقت في الأوساط الغربية منذ تسعينيات القرن الماضي[٢].

لقد جاء إعلام ما بعد الحقيقة في زمن تطور التكنولوجيا ووسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، والتي يفترض أن تكون عناصر مساعدة لتبليغ الحقيقة كما هي وليس النقيض من ذلك. فسعى إعلام ما بعد الحداثة كما يطلق عليه البعض إلى التعبير عن المشاعر والرغبات والانفعالات وتجاهل الحقائق بدلاً من التعبير عن الوقائع، كما سعى إلى ترسيخ التحليل الشخصي وأحادية الرأي محل تعدد الآراء.

إن إعلام ما بعد الحقيقة يقوم على قاعدة: "لا وجود للحقائق بل هي مجرد تأويلات"، كما أنه ينذر باضطراب المصطلحات وارتباك في الفهم.

إذا ما وقفنا وحللنا اللغة التي يعتمد عليها إعلام ما بعد الحقيقة سنجد لغة يكتنفها الغموض والتلاعب بالألفاظ، وحرف الانتباه عن القضايا الأساسية وتجنب الواقع. ولو قمنا بتحليل مصطلح ما بعد الحقيقة أو إعلام ما بعد الحقيقة لوجدنا أن من أهم أبعاد هذا المصطلح هو ممارسة التضليل المعلوماتي، حيث يتم

١- أبوبكر العيادي، البحث عن الحقيقة في زمن الـ: فيك نيوز، (موقع الجديد)، ٢٠١٨/٢/١م؛ متوفر على الرابط: https://aljadeedmagazine.com

٢- محمد طيفوري، عصر ما بعد الحقيقة.. تكنولوجيا تتجاهل المعلومة وتغلب الرأي، (موقع جريدة الاقتصادية)،٢٣ فبراير ٢٠١٧م؛ متوفر على الرابط: .https://www.aleqt.com/2017/02/13/artile-1141731.html

نشر معلومات مضللة لحشد التأييد الجماهيري وتشكيل توجهات الرأي العام، وتشكيل إدراك الجمهور للأزمات والتحولات السياسية والإعلامية عبر وكالات الأنباء والمسؤولين الحكوميين والمواقع الإخبارية.

- أسباب ظهور إعلام ما بعد الحقيقة:

هناك العديد من الأسباب التي أدت إلى ظهور مصطلح إعلام ما بعد الحقيقة في الآونة الأخيرة نذكر منها ما يأتي:

- تطور تكنولوجيا المعلومات الذي سهل اختلاق الأكاذيب ونشرها بسرعة بين الأفراد. أو نستطيع القول الطفرة الهائلة في تقنيات وأساليب صياغة ونشر الأخبار المضللة وتصاعد تأثير المنصات الإخبارية الافتراضية ضمن شبكات التواصل الاجتماعي.
- تراجع الثقة السياسية في مقابل تطور الإعلام الافتراضي وتعدد وظائف الدعاية والتغير في طبيعة الفاعلين المؤثرين في عملية نشر الأخبار.
- عدم كفاية وعدم كفاءة عمليات تدقيق الأخبار في صالات التحرير الإخباري.
- شراسة وانتهازية الدعاية الشعبوية أحياناً وانجرافها نحو نشر المعلومات الكاذبة والمحرفة في سبيل تحقيق غايات وأجندات معينة.
- شيوع نزعات التعصب والعدائية والنعرات الطائفية في كثير من المجتمعات مما شكل مناخاً خصباً لإنتاج الأخبار الكاذبة وانتشارها بسرعة كالنار في الهشيم.
- ظهور إعلام الأفراد كأحد أشكال الإعلام البديل للمؤسسات الإعلامية دون توافر أي خلفية إعلامية مهنية مما جعل سياق نشر الأخبار عبر هذه المنصات التفاعلية سياقاً مرناً لا يتقيد بأي قواعد غير اهتمامات مستخدميها وأذواقهم وتوجهاتهم.
- عدم اهتمام المؤسسات الإعلامية بتقديم محتوى إعلامي جيد بما يكفي لجذب اهتمام الجمهور، لأن المحتوى الجيد هو الرهان المضمون لكسب الجمهور والاحتفاظ به، إلا أن بعض المؤسسات الإعلامية لا زالت مستمرة في نشر وإنتاج القوالب الصحفية التقليدية نفسها التي لم يعد الجمهور يلتفت إليها، وما زالت هذه المؤسسات الإعلامية متكيفة من إنتاجها الهزيل في ساحة النشر الإعلامي الذي يسعى اليوم إلى جودة وتميز المحتوى الإعلامي المقدم للجمهور.
- عدم توفير برامج وفرص تدريب للصحفيين من المؤسسات الإعلامية لترفع من مهاراتهم في تدقيق الأخبار والحصول على البيانات من مصادرها المختلفة وتحليلها والتحقق منها.

- خضوع بعض المؤسسات الإعلامية للتبعية والاحتكار لأسباب سياسية واقتصادية خاصة بها، فكرست مهنتها لتحقيق أجندات ومصالح سياسية ولا يعنيها في المقام الأول تطوير المادة الصحفية
- إخفاق أغلب المؤسسات الإعلامية من ملامسة الواقع الفعلي الذي يعيشه الناس وعدم طرحه بمصداقية يدركونها، هذا أدى إلى غياب أو نستطيع القول ضعف ثقة الجمهور في أغلب المؤسسات الإعلامية والتحول إلى وسائل الإعلام البديل ومن بينها منصات التواصل الاجتماعي
- عدم اهتمام المؤسسات الإعلامية بالمجالات الصحفية الجديدة مثل الصحافة الاستقصائية والصحافة التفاعلية والصحافة المدعومة بالبيانات وغيرها من المجالات الصحفية الحديثة القادرة على جذب انتباه واهتمام الجمهور
- عززت مواقع التواصل الاجتماعي من قدرات الفرد على نشر أنواع مختلفة من المحتوى الإعلامي والذي بدوره سهل اختلاق معلومات غير دقيقة ومضللة، وبالتالي ساهمت هذه الوسائل في انتشار أنماط المعلومات الزائفة لتضليل الجمهور.
- تصاعد استخدام السياسيين لوسائل التواصل الاجتماعي، حيث استغل السياسيون وسائل التواصل الاجتماعي في خداع الجمهور
- تبني وكالات الأنباء الدعاية السياسية بدون حياد
- انخفاض الثقة في مصادر المعلومات الواقعية والتي كانت تحظى بالاحترام في السابق
- كسرت وسائل التواصل الاجتماعي احتكار المؤسسات الصحفية لتحديد أجندة الجدل الاجتماعي والسياسي في الرأي العام، لتتيح للفرد صنع المعلومة وتبادلها
- هروب السياسيين من الأسئلة المحرجة وإعطاء إجابات تضلل الرأي العام
- افتراض أهل السلطة والإعلام أن الجمهور غير قادر أو غير راغب في تحليل المعلومات

سمات إعلام ما بعد الحقيقة -:

يحمل مصطلح إعلام ما بعد الحقيقة في طياته العديد من الخصائص أو السمات أو نستطيع تسميتها بـ (مهام إعلام ما بعد الحقيقة)، ونذكر منها ما يأتي:

- تشكيل محتوى إعلامي وفق ميول المتلقين واهتماماتهم، وهذا ما تقوم به وسائل التواصل الاجتماعي باحترافية شديدة مستفيدة من التقنيات والخوارزميات التي تحلل سلوك الفرد في استخدام المحتوى لاستهدافه فيما بعد من المعلنين.

- تحويل أصحاب الميول المشتركة والاهتمامات المتشابكة إلى مجموعات منعزلة عن بعضها البعض محرومة من النقاش وتبادل الآراء ومن حوار قد يؤدي إلى تغيير الانطباع الخاطئ أو تصحيح المعلومة غير الدقيقة.
- عدم الشفافية في نشر الأخبار.
- التفاعلية في نشر الأخبار عبر مواقع التواصل الاجتماعي، ونقصد به ما يقترن بالخبر نفسه من نقاش وتفاعل، هذا النقاش والتفاعل يضيف للبعد المعلوماتي المتضمن في الخبر أبعاد أخرى اجتماعية تظهر في توجهات وميول من يقرؤونه وخلفياتهم الثقافية وفي حالات كثيرة يتشكل فهمنا وإدراكنا للأخبار والأحداث ليس فقط بما ورد في الخبر نفسه ولكن من خلال ما يرد بشأنه من تفاعلات ونقاش بين الجمهور.
- السرعة في نقل أي رأي أو معلومة ولكن في اتجاه واحد من دون تحقق في صحة المعلومة على عكس وسائل الإعلام التقليدية حيث تسمح مساحة الوقت والنص بعرض وجهة النظر المقابلة أو المعلومة الكاملة من دون انتقاء في الأغلب.
- التكرار ويُقصد به تكرار المادة الإعلامية حتى يتم تصديقها من المشاهد مهما كانت درجة مخالفتها للعقل والمنطق.
- تحفيز ذاكرة المشاهد على نسيان التاريخ من أجل إخفاء الوعي بالتاريخ في الثقافة وتوغل اللاعمق. وخير مثال على ذلك ما قامت به دولة الإمارات العربية المتحدة بطباعة علم كيان العدو الاسرائيلي وعلم دولة الإمارات جنباً إلى جنب على ألعاب الأطفال والبالونات لتحفيز وإعداد ذاكرة هؤلاء الأطفال على نسيان القضية المركزية للأمة وهي القضية الفلسطينية.
- زعزعة المفاهيم التي تتسم بصفة المسلمات أو الحقائق في عصرنا مثل مفهوم الهوية والقومية.
- التشكيك في المعارف اليقينية وبالتالي الدين وتحويله إلى جزء من التاريخ الذهني للإنسان.
- نشر ثقافة مجتمعية ضحلة ورتيبة من خلال برامج التلفزيون.
- تشكيل إنسان عبثي وفوضوي لا قيمة له.
- بناء فلسفات تمثل معاول هدم وتفكيك للمجتمع الإنساني من خلال الترويج للانحلال الأخلاقي تحت مظلة الحرية.
- تقويض معاني النظام والسيطرة المركزية لصالح التجربة، حيث نجد الخطاب الإعلامي في عصر ما بعد الحقيقة خطاب فوضوي يقوم على تغييب المعنى وتقويض العقل.

- فقدان المصداقية لوسائل الإعلام الجماهيري بسبب القدرة الهائلة على فبركة الصور، فنحن أصبحنا نعيش في مجتمع الصورة الرقمية التي يسهل من خلالها نشر الكثير من الحقائق المزورة.
- الدعم العلني لتيار على حساب تيار آخر بهدف خلق بيئة من الاتهامات المتبادلة.
- تقديم دورات وورش تدريبية من المنظمات الدولية للشباب وذلك من أجل إعداد الكوادر الناشطة من أبناء البلد حتى تتمكن من تنفيذ مشاريعها الهدامة.
- ترويج إشاعات عن حالات فساد بين مسؤولي الدولة.
- خلق بيئة سياسية وشعبية وإعلامية متوترة من خلال الجدل والمناقشة في قضايا وموضوعات فكرية وسياسية حساسة تؤدي إلى إحداث تناقضات وحساسيات بين الأطراف المختلفة.
- ضرب وتشويه صورة علماء الدين والمؤسسات الدينية بهدف تقليص دورهم ومن أجل العمل على إدخال إصلاحات وتعديلات على المناهج الدينية.
- تعديل وظيفة المساجد وتحويلها من قواعد دعم للتشدد إلى قواعد لبث التسامح والاعتدال من وجهة نظر أمريكا والغرب.
- إنشاء ودعم تيارات إسلامية مرتبطة بالغرب وتعمل وفق الضوابط الأمريكية والغربية.
- تركيز الضوء الإعلامي على الشخصيات ذات الأفكار المتطرفة بهدف بث الفرقة بين المذاهب الإسلامية.

- إعلام ما بعد الحقيقة وعالم السياسة:

إن التاريخ السياسي يزخر - كما يعلم الجميع - بالكذب، حيث تعتبر السياسة هي المجال الخصب لنمو وتطور الكذب، وهذا أوجد علاقة ارتباط وثيقة بين عالم السياسة وإعلام ما بعد الحقيقة. فلو تتبعنا وسائل التواصل الاجتماعي عقب فوز ترامب بالرئاسة، سنلحظ تغيراً جذرياً لمستوى الخطاب السياسي حيث أصبحت الموضوعية أقل تأثيراً على الجماهير من الشحن العاطفي، وخير دليل على ذلك ما تمارسه أغلب وسائل الإعلام اليوم في حربها الكونية على اليمن من خلال قلب الحقائق الموضوعية واللعب على وتر المقدسات الدينية بتوجيه الاتهامات لأنصار الله بضرب مكة المكرمة، وذلك من أجل خلق حالة انفصال كامل بين الفرد والحقيقة لتأجيج العواطف والمشاعر لدى العالم الإسلامي ضد أنصار الله وسد الطريق أمام الحجج المعرفية والبراهين المعلوماتية والمنطق لمعرفة مدى وحشية الحرب الكونية على اليمن.

إن إعلام ما بعد الحقيقة يتجسد بصورة مطلقة في المجال السياسي بالتحديد في خطاب: "نعمة الأمن والأمان"، لجعل الشعوب العربية في حالة سكون وصمت، محذرة شعوبها من التحرك وأن عليها الصبر وأننا محميون طالما سكتنا ودعونا للتغيير سراً لا جهراً تطبيقاً لقاعدة "فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان".

إن خطاب نعمة الأمن والأمان أغلق الأبواب أمام محاولات التغيير والإصلاح السياسي في البلاد العربية، وما نعانيه اليوم من حالة انجرار أغلب الدول العربية للتطبيع مع الكيان الصهيوني وفرح شعوبها بهذا التطبيع إلا نتيجة لترسيخ خطاب نعمة الأمن والأمان التي عملت الأنظمة السياسية العميلة على ترسيخه في أذهان شعوبها.

أن إعلام ما بعد الحقيقة أو عصر ما بعد الحقيقة هو عصر الكذب بامتياز فلم يبلغ الكذب كماله إلا في هذا العصر فهو عصر انتصار الكذب في عالم السياسة. فلو رجعنا بالذاكرة إلى الوراء قليلاً إلى ثورة ١١فبراير ٢٠١١م لوجدنا أن وسائل الإعلام اليمنية الرسمية والخاصة المؤيدة للنظام في ذلك الوقت غضت الطرف بشكل شبه كامل عن جرائم النظام وإخفاقاته على الصعد السياسية والاقتصادية والحقوقية، وعملت بسياسة ممنهجة لتخويف الرأي العام من التغيير وإقناعه بالقبول بالأمر الواقع. وفعلاً بدأ الإعلام المؤيد للنظام في حالة إنكار رافضاً الاعتراف باستهداف المتظاهرين، متناسياً المسؤولية التي يتحملها تجاه الشعب. ونتيجة لهذه التغطيات الإعلامية دفعت الكثير للانحياز إلى المعارضة وليس العكس، ولكنها أجبرت آخرين على اتخاذ موقف متشكك حيال ما ينشر من أخبار حتى لو احتوت على حقائق قاطعة.

لم يكن الإعلام المؤيد للمعارضة بأفضل حال حيث انصب تركيزه على مخاطبة عواطف المشاهدين وتجاهل الحقائق المتعارضة مع موقفها.

تحولت وسائل الإعلام تلك إلى طرف في استقطاب سياسي حاد لا يتورع كل فريق فيه عن توظيف الأخبار المفبركة وأنصاف الحقائق لتشكيل رأي عام مؤيد لوجهة نظره؛ فكان لهذا النمط من التغطية التي يعوزها التوازن والدقة دوره في عزوف كثيرين عن متابعة تلك المؤسسات، فيما بدا آخرون أكثر استعداداً لتقبل رواية الإعلام المؤيد للنظام عن الأحداث وباتوا ينظرون لتلك التغطيات كجزء من مؤامرة سياسية دولية.

بين تطرف الحالتين سيلجأ جمهور واسع لما ينشر على مواقع التواصل الاجتماعي هرباً من الاستقطاب الإعلامي الواضح، ومع افتقارهم المعرفة اللازمة للتحقق من صحة المادة الإعلامية التي تنشر على مواقع التواصل الاجتماعي سيسقط جزء ليس بقليل من هؤلاء الأفراد فريسةً لما تعج به مواقع التواصل من أخبار مفبركة وغير دقيقة.

بالعودة إلى واقعنا الحالي سنجد أن العدوان الذي تقوده أمريكا وإسرائيل وأذيالها في المنطقة على الشعب اليمني لم يكتفوا بالحرب العسكرية، بل عمدوا إلى شن حرب إعلامية بالتوازي مع الحرب العسكرية على اليمن، لتوجيه العقول وخلق وعي ينسجم مع أهداف

العدوان. مع هذه الحرب الإعلامية سقطت الكثير من المبادئ التي تشدق بها الإعلام الحر وخاصة ما يتعلق بموضوع الحيادية والموضوعية، فالمتتبع للمادة

الإعلامية الخاصة بموضوع الحرب على اليمن والتي تغطيها قنوات إعلامية عربية وأجنبية يلاحظ أن هذه المواد متطابقة إلى حد كبير وكأنها تصدر من مطبخ إعلامي واحد، وذلك كله من أجل التضليل الممنهج للرأي العام العربي والعالمي.

من الأساليب التي استخدمتها دول العدوان في حرب التضليل العدوانية على اليمن في عصر ما بعد الحقيقة الآتي:

- قصف المؤسسات الإعلامية بالغارات الجوية، حيث تشير الإحصائيات إلى أنه تم تدمير (٢١) منشأة إعلامية و (٣٠) مركز إرسال إذاعي وتلفزيوني(١). كما قدم الإعلام الحربي (٩٠) شهيداً بعد أن وثقوا الكثير من العمليات النوعية لأبطال الجيش واللجان الشعبية وعلى رأسها عمليات: (البنيان المرصوص، فأمكن منهم، نصر من الله)، و (٢٩٠) جريحاً، بينما قدم الإعلام الوطني (٤٥) شهيداً و (٢٥) جريحاً(٢).
- عمد العدوان على إنشاء قنوات فضائية تقلد تلك الأصلية بهدف استنساخ إعلام يهدف إلى تحويل المشاهدين عن تلك القنوات الأصلية والتي تبث الحقيقة بكل موضوعية وتجرد.
- قيام إعلام العدو بالترويج لانتصارات وهمية.
- ضرب المدنيين والادعاء أنها أهداف عسكرية مباحة يتواجد فيها "قيادات حوثية كبيرة".
- إيقاف بث القنوات الوطنية الخاصة المناهضة للعدوان مثل: (المسيرة، الساحات) والقنوات الرسمية مثل قنوات: (الإيمان، اليمن الفضائية، سبأ، عدن).
- فبركة الصور ونقل جزء من الحقيقة لتوجيه الرأي العام نحو مدركات محددة سلفاً.
- ترويج أن هذه الحرب جاءت من أجل "إعادة الشرعية والقضاء على الانقلابيين الحوثين"، فيتم تقدم المحتل على أنه منقذ ومحرر، وأبناء الأرض "مليشيات" و "انقلابيين"، وكل ذلك من أجل تبرير التدخل العسكري في اليمن.
- لضغط السعودي على الأمم المتحدة لسحب اسم التحالف من "القائمة السوداء".

١- عبدالقادر عثمان, الإعلام في زمن العدوان، (موقع صحيفة الثورة)، ٢٠٢٠/٣/٢٨م؛ متوفر على الرابط: https://althawrah.ye/archives/618331

٢- يمكن الرجوع لـ (التقرير الخامس لاتحاد الإعلاميين اليمنيين حول جرائم وانتهاكات العدوان) مطلوب بيانات ثبت التقرير؟؟؟

- استهداف عدد من الوسائل الإعلامية المحسوبة على محور المقاومة والمساندة لمظلومية الشعب اليمني، من خلال حجب المواقع الإلكترونية التابعة لها من التصفح داخل المملكة مثل صحيفة (رأي اليوم) والتي يرأسها عبدالباري عطوان، إذ تم حجب تصفحها داخل المملكة بسبب الموضوعية والمهنية التي التزمت بها الصحيفة في تغطيتها للحرب على اليمن.
- قلب الحقائق والادعاء أن من يضرب المدنيين في العاصمة صنعاء وغيرها من المحافظات هي "المليشيات الحوثية" على حد تعبيرهم.
- التضليل الإعلامي لتغطية فشل عاصفة الحزم، وأنه قد تم تحقيق جميع الأهداف التي جاءت من أجلها عاصفة الحزم، لتأتي المرحلة الثانية وهي "إعادة الأمل" والتي كانت أشد فتكاً وبشاعة من عاصفة الحزم.
- شراء صمت الإعلام الدولي من قبل المملكة العربية السعودية في تغطيته للحرب على اليمن، وهذا يفسر عدم الاهتمام بالملف اليمني إذا ما تمت مقارنته بالأحداث العالمية الأخرى.
- عجز الإعلاميين اليمنيين من السفر إلى الخارج بسبب إغلاق مطار صنعاء الدولي للمشاركة في المؤتمرات والمنتديات الدولية لتعريف المجتمع الدولي بمظلومية الشعب اليمني.
- تحريف الحقائق باتهام القوة الصاروخية باستهداف مكة المكرمة ونشر صور مفبركة حتى يظهر العدو كضحية.
- منع تحالف العدوان إصلاح أي خلل في قطاع الاتصالات والإنترنت بشكل سريع، مما يولد صعوبة أمام الإعلاميين ووسائل الإعلام الوطنية في نقل الحقائق بشكل سريع والتعاطي مع الأحداث والمستجدات.

- الحرب الناعمة وعلاقتها بإعلام ما بعد الحقيقة:

قبل الخوض في علاقة الحرب الناعمة بإعلام ما بعد الحقيقة لابد في البداية أن نعرف المقصود بالحرب الناعمة لأنها مصطلح جديد غير سائد في بلادنا، بل وحتى على المستوى العالمي.

فقد عرفها البعض بأنها: "القدرة على الحصول على ما تريد عن طريق الجاذبية بدلاً من الإرغام والتلاعب وكسب النقاط على حساب جدول أعمال الآخرين، من دون أن تظهر بصمات هذا التلاعب، وفي الوقت نفسه منع الآخرين من التعبير عن جدول أعمالهم وتفضيلاتهم

وتصوراتهم الخاصة، وهي علاقات جذب وطرد وكراهية وحسد وإعجاب"[١].

وعرفها (جوزيف ناي) من جامعة هارفارد بأنها: "القوة الناعمة القادرة على الجذب والضم دون الإكراه أو استخدام القوة كوسيلة للإقناع"[٢].

إن الحرب الناعمة قد عرفنا الله عليها منذ بدء الخليقة، فأول من مارس هذه الحرب هو إبليس الذي رفض السجود لآدم عليه السلام فطرده الله من الجنة، عندها طلب إبليس طلباً واحداً من الله سبحانه وتعالى: ﴿قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون﴾ [٣] فاستجاب الله له، حيث قال تعالى: ﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ [٤]، فاتجه إبليس للإفساد والإغواء فأصبح رمزاً للانحراف والتضليل والفساد، قال تعالى: ﴿لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين﴾[٥]، فإبليس لا يستخدم القوة العسكرية المباشرة - كما أخبرنا الله سبحانه وتعالى - وإنما يستخدم الإغواء والتدليس والوسوسة، قال تعالى: ﴿الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس﴾[٦].

هذه القوة الغير مباشرة والتي نستطيع أن نسميها القوة الناعمة أو الحرب الناعمة - كما هو دارج - يتأثر بها من لديه استعداد وقابلية للإغواء، قال تعالى: ﴿ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق بعيد﴾[٧].

فهي حرب شرسة تشمل جميع نواحي الحياة، وظهرت في الآونة الأخيرة بشكل متزايد بسبب فشل العدوان الصهيوني الأمريكي من كسب الحرب العسكرية فلجأ إلى حرب من نوع آخر هي الحرب الناعمة. فهي حرب من نوع خاص لا تولد إلا في الحروب والأحداث العسكرية فتتخذها الدول عند انسداد الخيارات العسكرية أمامها بمواجهة دولة أو كيان أو حزب معاد لمصالحها.

فمن خلال ما سبق تتجلى لنا مظاهر الحرب الناعمة والتي استخدمها العدوان في حربه على اليمن في الآتي:

- بث خلايا نائمة مهمتها تحريض الأفراد على الخروج في مظاهرات احتجاجاً على الأوضاع

١- نعيم قاسم, مواجهة الحرب الناعمة, مركز المعارف للدراسات الثقافية، متوفر على الرابط:
https://www.almaarefcs.org/4358/267

٢- حسين علي حسين علي بحيري، القوة الناعمة، متوفر على الرابط:
-https://www.cia.gov/library/abbottabad

٣- سورة الحجر، (الآية ٣٦)، سورة ص، (الآية: ٧٩).

٤- سورة الحجر، (الآيتان ٣٧، ٣٨)، سورة ص، (الآيتان: ٨٠، ٨١).

٥- سورة الحجر (من الآية ٣٩، الآية ٤٠)، سورة ص، (من الآية ٨٢، الآية ٨٣).

٦- سورة الناس، (الآيتان: ٥، ٦).

٧- سورة الحج، (الآية: ٥٣).

الاقتصادية السيئة في البلاد، متناسين أن العدوان والحصار المطبق هو السبب الوحيد فيما آلت إليه البلاد.

- توجيه اهتمام الشباب نحو القضايا المفرغة مثل: (الموضة، حرية المرأة، إقامة صداقات بين الجنسين ...إلخ)، وذلك كله من أجل حرف مسار وعي الأفراد من التفكير والاهتمام بالقضايا المصيرية.
- إفقاد الشباب القدرة على التفكير بحرية، حيث يجعله أسيراً لتوجيه القوى الخارجية المعادية والتي تسيطر على ذهنه (مسلوب الإرادة) .
- توجيه اهتمام الشباب بمواقع التواصل الاجتماعي وتكوين صداقات في عالم افتراضي يقضي الفرد جل وقته في الدردشات غير المفيدة أو المجدية.
- تخدير العقل وشل الحس النقدي لدى أفراد المجتمع اليمني وخصوصاً الشباب.
- استعباد الطاقات الفكرية لدى الشباب وجعل هذه الطاقات تصب في مصلحة القوى الخارجية وليس في مصلحة الوطن.
- دفع أفراد المجتمع إلى الانحياز وتبني مواقف وسياسات وأيديولوجيات غريبة وبعيدة كل البعد عن ثقافتنا الدينية.
- استهداف البنى الفكرية والسيكولوجية والمسلكية لأفراد المجتمع اليمني من خلال منظومة ضخمة من الفبركات التي يتم بثها عن طريق وسائل الإعلام الجماهيري وخصوصاً وسائل التواصل الاجتماعي، فتتغلغل هذه الأكاذيب أو الفبركات في أعماق وعي الجمهور وتترسخ فيه، وبذلك يتم تحقيق عملية الاغتصاب الفكري والسيكولوجي والمعنوي للأفراد، فيسلكون سلوكاً متناقضاً مع قناعاتهم الدينية والثقافية كمجتمع يمني.
- تعزيز القيم الغربية.
- تلميع الرموز الثقافية والعلمية والإعلامية الغربية وخصوصاً الأمريكية لتقليص نفوذ منافسيها.
- إثارة الفتنة المذهبية بين الحين والآخر.
- إبراز الأضرار المادية التي نتجت عن العدوان على اليمن من خسائر الناس في بيوتهم وأرزاقهم، وأن السبب الرئيس ليس العدوان وإنما السبب هو تمرد "الحوثيين" – كما يزعمون – على الدولة.
- اتهام حركة أنصار الله بأنها دولة داخل الدولة، ولا بد من عودة "الشرعية" كما يدعون.

- ارتداء بعض الشباب للملابس المنافية للعادات والتقاليد اليمنية فهي ملابس محاكية للطابع الغربي.
- تقديم المنح الدراسية لاجتذاب الشباب نحو المال والأعمال والتخصصات العلمية لصرفهم عن الالتحاق بالجهاد.
- استغلال منظمات المجتمع المدني من قبل دول الاستكبار لتوجيه بعض أنشطتها في دعم الحرب الناعمة.

إن الحرب الناعمة تعتبر الوليد الأبرز لإعلام ما بعد الحقيقة والتي طرحت كبديل للحرب الحقيقية، فهي تعتمد على الإغواء والجذب والاستمالة من دون أن تترك أي بصمات أو تظهر للعيان. فهدف الحرب الناعمة الرئيسي هو تحويل نقاط القوة والفرص إلى نقاط ضعف وتهديدات وقلب حقائق البلاد.

إننا عندما نتحدث عن قوة ناعمة تريد أن تقتحم مجتمعنا اليمني، إنما نتحدث عن مشروع (صهيوني أمريكي) عجز عن استخدام القوة العسكرية لتحقيق أهدافه فاختار القوة الناعمة بديلاً عن الحرب العسكرية لعدة أسباب منها:

- تخفيض تكلفة الدخول في حرب عسكرية مباشرة.
- إسقاط المجتمع من داخله بأيدي أبنائه.
- تعديل قيم المجتمع اليمني بالقيم التي يريدونها هم دون أن نشعر - كون أن من
- أتى بها هم من أبناء جلدتنا - فيتم الاندفاع بشكل طبيعي لتنفيذها وتصديقها، فيتعدل السلوك تبعاً لها ونتحول بالتالي إلى أتباع بدلاً من أن نكون أصحاب قرار ومستقلين.

- إحياء الهوية الإيمانية اليمنية لمواجهة الحرب الناعمة:

تعتبر الهوية الإيمانية السبيل الأقوى والأكثر تأثيراً في مواجهة الحرب الناعمة، وذلك من خلال نشر الثقافة القرآنية والتي صنعت بين أفراد المجتمع بكل أطيافه حصانة تعبوية مستمدة من كتاب الله عز وجل، فلا يستطيع العدو مع هذه الحصانة القرآنية اختراق صفوف المؤمنين الصادقين الذين يحملون الوعي الإيماني الصادق.

إن الهوية الإيمانية المستمدة من القرآن الكريم مكنت المجتمع اليمني من الحفاظ على الأرض والعرض والذي يحاول تحالف العدوان هذه الأيام استخدامه كورقة قذرة تنبئ عن عجز وحقد وتعد سافر. فمن خلال العودة لهويتنا الإيمانية نستطيع كشف زيف هذه الحرب والهجمة الشرسة التي استطاعت أن تجتاح العقول والنفوس.

فكلما زاد إيماننا بالله كلما زاد خوفنا منه واستشعرنا عظمته فتكون النتيجة هي حياؤنا من الله، فكل هذه الثمرات الإيمانية (المحبة، الخوف، الحياء) تعد عوامل تساعد على الاستقامة على نهج الله. وكما قال السيد

قائد الثورة: "الإيمان باليوم الآخر مسألة في غاية الأهمية، إيمانك بالجنة والنار والحساب والجزاء، فكل معصية عليها جزاء وستدفع ثمنها في الدنيا والآخرة "[1] . فدفع الثمن يساعد الفرد على الالتزام بمنهج الله.

إننا عندما نحيي الهوية الإيمانية فنحن نلجأ إلى الله ليحمينا ويدفع عنا هذا الخطر وهذا السوء، فالعودة للهوية الإيمانية أنعشت القيم والمبادئ الاجتماعية لشعبنا، على عكس المناطق الجنوبية المحتلة والتي يعمل العدوان على سلخها عن هويتها الإيمانية بدليل انتشار تعاطي الكحول والمخدرات والاغتيالات.

فما ملاحم البطولة التي يسطرها أبطال الجيش واللجان الشعبية في مختلف الجبهات إلا أحد نتائج إحياء هويتنا الإيمانية، وما إنسانيتهم في تعاملاتهم مع الأسرى إلا أحد نتائج العودة لهويتنا الإيمانية.

- طرق المواجهة والتحصين في عصر إعلام ما بعد الحقيقة:

- لا بد من وجود معرفة وموقف في آن واحد، لأن المعرفة والموقف متلازمان، فلا يمكن اتخاذ الموقف مع الجهل بالواقع، ولا تكفي المعرفة إن لم يصحبها موقف وأداء، لأن المعرفة والموقف تمكننا من إعداد العدة اللازمة في عملية المواجهة لتكون المحصلة النهائية هي النصر في مواقع عدة وتقويم للأخطاء والانحرافات التي أصابت الأمة.
- العلم بأن هناك "حرب ناعمة" من أجل إعداد العدة الكافية للمواجهة؛ لأن الحرب الناعمة أكثر ما تستهدف سواد الناس من الشباب والطلاب والنساء والفئات قليلة التجربة، بهدف حرف أذهانهم وبلبلة نفوسهم، ولكن كلما ارتفع مقدار الوعي والثقافة والإيمان والمناعة الأخلاقية لدى هؤلاء الناس؛ فشلت مخططات الأعداء. وهذا لا يعني أن الحرب الناعمة لا تستهدف المثقفين ولكنها تصبح أصعب ومعقدة أكثر كلما كان الجمهور واعياً ومثقفاً ومحصناً.
- العمل على عكس ما يريد العدو، فإذا كان العدو يهدف إلى تمزيق الوحدة الوطنية فيجب أخذ الإجراءات الكفيلة بتعزيز الوحدة الوطنية.
- الرصد المبكر لمواقف وإشارات العدو وتحركاته كي لا تقع أي خطوة وأي تصريح وأي عمل نقوم به في خدمة أهداف العدو من حيث لا نحتسب، لأن العدو يحدد خطواته وتحركاته على ضوء تحركاتنا ومواقفنا وعلى ضوء رصدة لنقاط الضعف والثغرات في جبهتنا، وهذا ما يستدعي الانتباه. فالرصد المتبصر لتصرفات وتصريحات العدو يعطي بعض المؤشرات، كما أن رصد الخطاب السياسي لأجهزة الإعلام والصحافة الخاصة بالعدو يعطي مؤشرات تكشف مبكراً عن النوايا والمخططات التي يريد أن يقوم بها العدو.

١- محاضرة اليوم الثامن من رمضان ١٤٣٨ هـ

- الاستفادة من كل الطاقات الموجودة في المجتمع، فلا يصح أن تكون المواجهة مقتصرة على فريق دون آخر ولا على جماعة دون أخرى، فنحن بحاجة إلى بعضنا البعض حتى نتمكن من مواجهة هذه الحرب الشرسة.
- تطوير كفاءة المؤسسات الإعلامية الوطنية حتى تتمكن من مجابهة ما يقوم به العدو في هذا المضمار، فلا يكون عملها مجرد الدفاع ورفع الظلم فحسب وإنما الحفاظ على الكيان الفكري والهوية الإيمانية للمجتمع اليمني.
- العلم بأننا في حرب دائمة مع الحرب الناعمة، مما يتطلب العمل الدؤوب لمواجهتها لحظة بلحظة لا أن نتوقف في مرحلة ونواجه في مرحلة أخرى.
- الارتقاء بأداء وسائل الإعلام الوطنية في مواجهة الحرب الإعلامية العدوانية على اليمن، والتحذير من متابعة وسائل التضليل والكذب الإعلامي وخاصة في هذه الظروف الاستثنائية التي تعيشها البلاد.
- تجنب الانخراط في المناكفات على مواقع التواصل الاجتماعي والتي من شأنها الإضرار بالجبهة الداخلية، لأن الأولوية الآن هي مواجهة العدوان وأساليبه، ومن أساليبه الحرب الناعمة التي تستهدف بث الفرقة والتشاؤم بين أبناء الشعب اليمني. ومن أهم سبل مواجهة هذا الهجوم هو حفظ وتقوية البصيرة والروح التعبوية والمعنوية، وهذا لا يعني إنكار الأزمات والمشاكل، ولا يلغي ضرورة القيام بواجب الإصلاح والمعالجة.
- عدم الاعتماد على وسائل الإعلام الغربية في فهم مجريات الأحداث، بل الصحيح هو مخالفة ما تأتي به هذه الإذاعات وفقاً لمقولة الإمام الخميني: "قمة الرشد والنضوج الفكري هي في مخالفة الإذاعات الأجنبية المعادية".
- تزويد المواطن بالمعلومات والأخبار أولاً بأول ونقل الحقيقة كما هي.
- وضع سياسة إعلامية واضحة تهتم بمخاطبة المشاهد خارج اليمن وتعريفه بالجرائم التي يتم ارتكابها من قبل تحالف العدوان.
- نشر الحقائق بمو=وعية بدون تحريف أو تزوير وذلك من أجل بناء مجتمع يسوده الوعي والإدراك.
- إيجاد إعلام متوازن لا يركن للتبسيط والاختزال والعاطفة ويذهب بعيداً في التحليل وتفنيد المعطيات.
- استجلاء الحقائق التي تساعد الرأي العام على تكوين وجهة نظر مدروسة ومؤسسة على أقصى ما يمكن الوصول إليه من حقائق قابلة للقياس والتثبت.
-

- عمل موقع إلكتروني خاص بوزارة الإعلام مهمته كشف وتفكيك الأخبار الزائفة، ومساعدة الجمهور على تمييز الأخبار الصحيحة من الكاذبة.
- تقوية المناعة الثقافية للفرد وذلك من خلال تقوية وإحياء الهوية الإيمانية المعتدلة.
- يجب على وسائل الإعلام التقليدية أن تحافظ على سياقات جوهرها ومضمونها الأصيل الذي انبثقت منه خبرتها وتراكمت وقامت عليه ثقة الناس والجمهور وتزايدت كذلك وأصبحت بمثابة الرصيد الأهم لتلك الوسائل، فيجب عليها من هذا المنطلق أن تصوغ رؤية واضحة تستند إلى خبرتها وتجربتها بعيداً عن التجريب والهواية والتقليد.
- تأسيس فضائيات ومواقع إنترنت وصحف ومؤسسات تعمل على ابتكار استراتيجيات وتكتيكات إعلامية وثقافية مضادة على ضوء المعارف والخبرات والمعادلات العلمية، وفي إطار خطة مدروسة ومضادة لا تهدر الطاقات ولا تضيع الأوقات في بث برامج ومواد خارجة عن السياق والأصالة.
- إدراج برنامج محو الأمية الإعلامية في التعليم الثانوي والجامعي لإخراج جيل يعي ويدرك ما حوله.
- الوحدة والانسجام بين أفراد الشعب اليمني.
-

في الختام؛

أصبحت صناعة (ما بعد الحقيقة) - خلال العدوان الغاشم على اليمن المستمر منذ ٢٦مارس ٢٠١٥م - بضاعة إعلامية مربحة لغالبية وسائل الإعلام الكبرى ووسائل التواصل الاجتماعي، وسلاحاً فاعلاً في يد الأطراف المعتدية على اليمن وأزلامها المحليين، ففيض الأكاذيب الذي جرى سوقه عبر هذه القنوات وفضل الناس تصديقه بدلاً من رؤية الحقائق قد رسّخ دوامة من الأوهام وزاد من الآثار الهدامة للصراع الدولي في اليمن.

جذور التدخلات العدوانية السعودية في اليمن وامتداداتها

أ. أنس القاضي

في هذا البحث التاريخي، سنتطرق إلى قضايا محددة تُظهر التدخلات السعودية والسياسية العدوانية تجاه اليمن، فمن الصعب على بحث أو دراسة أن تلم بكل الملفات والقضايا التي تُظهر العدوانية السعودية تجاه اليمن فالأمر يتطلب مؤلفات، وهناك كُتب عديدة كتبت منذ السبعينات إلى مطلع الألفية الجديدة تتحدث عن هذه القضايا، والبعض منها استخدمتها كمراجع لهذه المقاربة البحثية. فيما يتم الإشارة إلى الحاضر من قبيل الاستشهاد على وحدة السياسة العدوانية السعودية واستمراريتها، أما ملفات الحاضر فتحتاج إلى مؤلفات خاصة لذكرها بشكل مفصل.

- أشكال الاعتداءات السعودية على اليمن:

تعود السياسات والممارسات العدوانية السعودية تجاه اليمن إلى مطلع القرن التاسع عشر. (مع قيام الدولة السعودية) في بداية الأمر تبلورت هذه السياسات والممارسات العدوانية كنزعات وعمليات غزو واستقطاع للأراضي اليمنية أثناء توسع هذه الدولة، ثم تطورت إلى غزو وتدخلات سياسية في أنظمة الحكم اليمنية وتدخلات مُباشرة في سير حياة المجتمع اليمني سياسياً وثقافياً واقتصادياً، رافق ذلك عمليات عسكرية عدوانية انتهكت سيادة البلد ودعم وتمويل انقلابات والوقوف ضد الثورات، وتنفيذ عمليات اغتيالات لرؤساء اليمن ممَّن لا يروقون للمملكة، واستقطاب شخصيات سياسية ووجاهات كعملاء ووكلاء لها في الوطن اليمني بما يعرف "باللجنة الخاصة" الذي كان أعضاؤها يستلمون مرتبات عالية ومتفاوتة من المملكة السعودية[1]، والوقوف ضد إعادة تحقيق وحدة اليمن، ومنع استخراج الثروات اليمنية كثروات الجوف النفطية، والوقوف ضد الوحدة اليمنية ودعم أطراف انفصالية، والضغط على الحكومات اليمنية للأخذ بعين الاعتبار الرضا السعودي عن شخوص المُعينين في رئاسة الحكومة والوزارات السيادية، وعلى سبيل المثال مارست السعودية الضغط عدة مرات لإقالة محسن العيني من رئاسة الوزراء أثناء الحكم الجمهوري، كما مارست ضغطاً مماثلاً من أجل تعيين حسن العمري الموالي لها، كرئيس للوزراء أربع مرات. وبل بلغت التدخلات

١- نشر موقع ويكيليكس وثيقة رقم (٠٨SANAA١٠٥٣) تحدثت عن الشيخ عبد الله يستلم مبالغ مالية من السعودية تقدر بـ ٧ مليارات ريال يمني (٣٢) مليون دولار شهرياً - بأسعار الدولار آنذاك - وتم تخفيض المبلغ بعد وفاة الشيخ الأحمر ليستلم ابنه حسين الأحمر (٣ إلى ٤ مليارات ريال يمني) أي ما يساوي (١٤إلى ١٨ مليون دولار) شهرياً؛ متوفر على الرابط:
https://www.humanf.org:8686/vb/showthread.php?t=65345

السعودية من الوقاحة أن يُصبح السفير السعودي قادراً على تحريك طائرات عسكرية يمنية من خلال علاقاته الشخصية كما في واقعة قيام السفير السعودي بتهريب علي محسن الأحمر من صنعاء ٢٠١٤م[١].

يلخص المؤرخ اليمني د. محمد علي الشهاري هذه الحقيقة في كتابه "معالم سياسة العدوان السعودية تجاه اليمن" (يُعد الشهاري أبرز من أرخ بشكل دقيق للأطماع التوسعية السعودية في اليمن وله مؤلف بهذا العنوان).

"اتضح أن الرجعية السعودية لا تحارب فقط حق شعب اليمن في تقرير مصيره واختيار نوع الحكم الذي يريده، وإنما تحارب أيضاً حقه في أن يرفع رأسه. وأن تكون له كلمة مسموعة، وإنما تصر على إبقائه في ربقة العبودية والتخلف والجهل، وحرمانه من الحق في الحياة والوجود السياسي المستقل. واتضح أن السعودية لا تعتبر ما يحصل في اليمن شؤوناً داخلية تخص شعبها، إنما عمل خارج عن حقوق الوصاية التي منحتها لنفسها، وتريد فرضها على اليمن، وإرغامها على تقبلها، ولو بقوة الحديد والنار"[٢].

- الاحتقار السعودي لليمن والنزعة العدائية:

على الرغم من شحة المصادر النظرية السعودية التي تؤكد سياستها العدوانية تجاه اليمن، إلا إن هذه السياسة التي تجسدت واقعاً في الملموس التاريخي -ومازالت-، باتت معروفة لدى الدول الكبرى، وخاصة سفرائها في اليمن الذين لمسوا هذه السياسة العدوانية السعودية في فترة خدمتهم الدبلوماسية، نذكر نموذجين لسفيرين سابقين لدى اليمن عبّرا عن هذه السياسة والنزعة السعودية، وعادةً يُحظر على السُفراء الذين مازالوا في الخدمة من كشف مثل هذه القضايا، فيما هناك مساحة من التعبير لمن أنهوا الخدمة الدبلوماسية في البلد المُعين.

السفير الفرنسي السابق في اليمن (جيل غوتييه) تحدث بشفافية عن هذه المسألة في مقابلة مع قناة (فرنسا ٢٤) بتاريخ ١٩ يوليو ٢٠١٨م قائلاً: "منذ إنشاء المملكة العربية السعودية كانت هناك دائماً نية لإضعاف اليمن"، وأضاف السفير الفرنسي السابق لدى اليمن: "وأعتقد أن هذا العداء هو السبب الحقيقي للحرب." أي الحرب العدوانية الراهنة التي تتزعمها السعودية، وفي ذات المقابلة أشار السفير الفرنسي السابق إلى أنه

١- أفصح عن هذه الحقيقة المعروفة السفير السعودي لدى اليمن (محمد آل جابر) في لقاء تلفزيوني أجرته معه قناة الإخبارية السعودية، وذلك أثناء حديثه عن استخدامه لعلاقاته الشخصية لتحريك طائرة هيلوكبتر يمنية تولت عملية تهريب الجنرال العميل (علي محسن الأحمر) والذي كن مطلوباً - حينها - للجان الشعبية الثورية.

- السفير السعودي يروي قصة خروج علي محسن من صنعاء، ٢٠١٨/٠٥/٢١م؛ (موقع يوتيوب)؛ متوفر على الرابط: https://www.youtube.com/

٢- د. محمد علي الشهاري، معالم سياسة العدوان السعودية تجاه اليمن، بيروت، دار الفارابي، ١٩٨٧، ص ٥٦.

"يوجد إرادة واضحة من السعوديين والإماراتيين لإضعاف اليمن من زمان . هم يخافون من اليمن وهم في ذلك خاطئين"[١].

السفيرة الأمريكية السابقة لدى اليمن «باربارا بودين»، التي تُعد واحدة من أكثر الممارسين الفاعلين للسياسة الأمريكية في اليمن، وهي الآن مديرة معهد الدراسات الدبلوماسية في جامعة جورج تاون، كانت قد عبرت عن هذه الحقيقة الذي ذكرها السفير الفرنسي، حيث قالت في ندوة أقامتها مؤسسة كارنيغي للسلام الدولي بعنوان: "الحرب في اليمن: هل من نهاية تلوح في الأفق":

"لطالما شعرتُ بالحيرة من جنون الشك لدى السعوديين من كل شيء يمني؛ لتراه تهديداً وجودياً" وأوضحت بودين إلى أن السياسة السعودية تجاه اليمن هي "يجب أن ترى اليمن قوياً بما يكفي ألّا يكون تهديداً، وضعيفاً بما يكفي لئلا يكون تهديداً"[٢].

وتتجلى النظرة الدونية والعدوانية لليمن في أحد التصريحات الذي قالها ابن سلمان بعد مجزرة في الحديدة، ففي اجتماع سري لولي العهد السعودي محمد بن سلمان مع قادة عسكريين من تحالف العدوان في اليمن بتاريخ ٢٨-٨-٢٠١٨م، بعد مجزرة ارتكبها تحالف العدوان في الحديدة حثَ ابن سلمان قادة التحالف العسكريين، على عدم الالتفات إلى الانتقادات الدولية المستمرة، التي تتهم الرياض باستهداف مدنيين". وأضاف ابن سلمان: "لا تكترثوا للانتقادات الدولية نريد أن نترك أثراً كبيراً في وعي الأجيال اليمنية، ونريد لأطفالهم ونسائهم، بل لرجالهم، أن يرتعدوا كلما ذكر اسم السعودية".

أورد هذه التصريحات موقع الخليج أونلاين عن مصدر خاص واصفاً إياها بالصادمة، وقد قامت وكالات عريقة بنقل هذه الخبر عن (الخليج أونلاين)، مثل موقع سبوتنيك عربية، وموقع مؤسسة بحثية إماراتية (إيماسك)، الذين بدورهم أشاروا إلى أنه لم يصدر أي نفي سعودي لهذه التصريحات، الذي يؤكد الملموس التاريخي منطوقها[٣].

١- "سفير فرنسا السابق لدى اليمن يفضح التحالف والسعودية ويكشف عن أهدافها في اليمن"، (موقع يوتيوب) نقلاً عن قناة فرانس ٢٤، ٢٠١٨/١٢/٤م؛ متوفر على الرابط:

/https://www.youtube.com

٢- "الحرب في اليمن: هل من نهاية تلوح في الأفق"؛ متوفر على الرابط:

/https://carnegie-mec.org

٣- للمزيد:

- اجتماع عسكري لولي العهد السعودي مع قادة التحالف... هذا ما طلبه بشأن اليمن، (موقع ايماسك)؛ متوفر على الرابط:

https://www.addiyarcomcarloscharlesnet.com

- اجتماع سعودي سري... وهذا ما طلبه ابن سلمان من قادة التحالف العسكري في اليمن، (موقع سبوتنيك عربية)؛ متوفر على الرابط:

https://arabic.sputniknews.com

وكان الأمير السعودي عبدالله بن فيصل بن تركي بن عبدالله آل سعود، سفير المملكة في واشنطن، قد عكس النظرة السعودية الدونية لليمن -في نوفمبر من العام ٢٠١٦م- وذلك رداً على سؤال لمراسل صحيفة "انتر سبيت الأمريكية" حول: "هل ستتخلون عن قصف اليمن بالقنابل العنقودية؟" فكانت إجابة الأمير السعودي وسفيرها في واشنطن بقوله: "هذا السؤال شبيه بسؤال: هل ستتخلى عن ضرب زوجتك؟"[1].

تعامل السعودية بعدوانية مع اليمن واحتقار لليمنيين، بما فيهم الذين وقفوا معها ضد وطنهم، هذه الحقيقة ذات الشواهد الكثيرة أكدتها عدد من التصريحات التي صدرت عن وزراء فيما تسمى "حكومة الشرعية"، ممن عملوا مباشرة مع الحكومة السعودية واحتكوا بها، وعرفوا حقيقتها، وكشفوا عن هذه الحقيقة، بغض النظر عن حافزهم الشخصي لإظهار هذه الحقائق.

ففي أواخر أكتوبر الماضي من هذا العام، تحدث نائب رئيس الوزراء وزير الداخلية في حكومة هادي العميلة أحمد الميسري عن هذه الحقائق التي ذكرناها، حيث أكد الميسري -خلال لقاء مع شيوخ ووجهاء محافظة شبوة- ضرورة استقلال القرار اليمني (للحكومة العميلة) وقال إنه لا يريد حكومة شقها يتحكم فيه محمد آل جابر سفير السعودية في اليمن، والشق الآخر يتحكم فيه ضابط إمارات. ووجه الميسري سؤالاً للوزير السعودي عادل الجبير: من قصف الجيش الوطني على مشارف عدن؟ وذلك بعد حديث الجبير عن انسحاب الإمارات من اليمن، وإعلان أبو ظبي أنها هي من شنت الغارات الجوية في أغسطس/آب الماضي[2].

ورداً على تصريحات الميسري، أبدى وزير الدولة السابق في حكومة هادي العميلة للسعودية صلاح الصيادي تأييده لموقف وزير الداخلية في الحكومة العميلة أحمد الميسري، ووجه الوزير السابق كلمته إلى الميسري قائلاً: "إذا كنت تعتقد أن الأشقاء سيختلفون من أجلنا فأنت غلطان فهم متفقون والبقية ليسوا إلا أدوات لا حول لهم ولا قوة".

ووفق ما ذكره الصيادي، فإن الميسري ووزير النقل صالح الجبواني سيكونان "أضحية قادمة"، مذكراً بما حدث معه "كصاحب تجربة، حيث تم إقالته سابقاً على إثر تصريحات ناقدة لتحالف العدوان، ومنعه من قبل تحالف العدوان من النزول في عدن وحضور مراسيم عزاء والدته. وأتت تصريحات الوزير السابق في الحكومة العميلة بالتزامن مع الكشف عن محاولة اغتيال لوزير الداخلية والنقل اليمنيين في حكومة هادي العميلة في شبوة.

١- سفير سعودي لصحفي: سؤالك عن اليمن يشبه "الزوجة التي يضربها زوجها"، (موقع قناة روسيا اليوم)، ٤م١١م٢٠١٦م؛ متوفر على الرابط:
https://arabic.rt.com

٢- وزير الداخلية اليمني: لا نريد حكومة تتحكم بها السعودية والإمارات، (موقع قناة الجزيرة)، ٢٠١٩/١٠/٢٦م؛ متوفر على الرابط:
https://www.aljazeera.net

وفي نهاية منشوره أقر الوزير السابق، بأن السعودية معادية وبلفظ مهذب اعتبرها "انحرفت عن مهامها"، على اعتبار أنه كان لها مهام إنسانية، مؤكداً بأنهم جميعاً مرتزقة وليسوا وطنيين، أي حكومة هادي والانتقالي، ومن قبيل تبرير هذه الجريمة وهذا الواقع، ألحق القوى الوطنية في صنعاء وأنصار الله بالعمالة قائلاً "يجب أن نعترف أننا كلنا "شُقاة" (أي عمال) مع غيرنا سواء الشرعية أو الانتقالي أو حتى الحوثيين لا حول لنا ولا قوة وجميع الأطراف تنفذ الأجندة الخاصة بالطرف اللي هم شقاة عندهم لا عاد تكون آمالك كبيرة . فاقد الشيء لا يعطيه". إلا أن القاعدة القانونية تقول بأن الإقرار والاعتراف هو على النفس ولا ينصرف إلى الآخرين[1].

- العدوانية الوهابية التوسعية وزرع بذور الطائفية في اليمن:

منذ تبنت أسرة ابن سعود مذهب محمد بن عبد الوهاب في نهاية القرن الثامن عشر، وهي تتطلع نحو بسط نفوذها على الجزيرة العربية كلها باسم "الفتوحات الإسلامية" ونشر المذهب الوهابي. وقد مثلت الوهابية لابن سعود ما مثلته المسيحية للإمبراطورية الرومانية، حيث أخفى ابن سعود خلف ستار الوهابية مطامعه التوسعية في اليمن ومناطق الجزيرة العربية.

باسم تجديد الإسلام ونشر "لواء التوحيد" مضت الأسرة السعودية تُعيد "فتح" الجزيرة العربية من جديد، حتى طرقت جيوشها أبواب الكوفة وحدود سوريا، وكانت اليمن أهم منطقة في الجزيرة العربية استهدفها التوسع السعودي الوهابي. فقد كان يرى الوهابيون أن "اليمنيين مارقون يجب إعادتهم بالقوة إلى حظيرة الإسلام" ولا سيما معتنقي المذهب الزيدي، ولم يسلم منها الشوافع والصوفيين والإسماعيليون.

في بداية توسعها لم تجد الوهابية آذان صاغية في اليمن -كما لاقته من بعد الطفرة النفطية- وقد كان أمراء وأئمة اليمن وحكامها المحليون أشد الرافضين لمنطق التوسع السعودي الوهابي، كما كان موقف السكان اليمنيين شديد الرفض للوهابية، فقد كان يرى اليمنيون في الغزوات الوهابية استمراراً للغارات الهمجية التي تقوم بها قبائل نجد المتخلفة على المراكز الحضارية في اليمن. ولم يعتبر اليمنيون يوماً أنفسهم "كُفاراً" أو جاهلين بالدين الإسلامي وهم الذين أدركوا مضامينه الحضارية العميقة ودخلوا فيه أفواجاً ونصروا حامل رسالته محمد عليه وآله الصلاة والسلام.

١- منشور لـ (صلاح الصيادي) على صفحته في الفيسبوك؛ موقع فيسبوك؛ متوفر على الرابط:
https://www.facebook.com/permalink.php?story_fbid=3409754142375963&id=100000242332133

- مجزرة تنومة:

شهد العام ١٣٤٠ هجرية الموافق١٩٢٢ ميلادية، مجزرة وهابية وحشية بحق الحجاج اليمنيين على أيدي الجيش الوهابي لابن سعود، عرفت بمجزرة تنومة نسبة إلى المنطقة التي وقعت فيها، في عسير بين بلاد بن لسْمر وبن لحْمر.

استشهد في مجزرة تنومة ما يقارب (٣٠٠٠) من الحجاج اليمنيين، فبينما الحجاج اليمنيون يجتازون وادي تنومة كانت ترصّدهم مجموعات وهابية من جيش عبد العزيز آل سعود في رؤوس الجبال المطلة على الوادي، بقيادة الوهابي سلطان بن بجاد العتيبي، الذي قام ومجموعته بإبادة الحجيج اليمنيين بتهمة الكفر لأنهم ليسوا على المعتقد الوهابي. وتذرع ابن سعود آنذاك بأن جيشه اعتقد أن "الحجاج الذين يلبسون ثياب الإحرام" مدداً عسكرياً لشريف مكة!

- الوهابية السعودية في مواجهة اليسار والقوميين اليمنيين:

لاحقاً استخدمت الوهابية في مواجهة الحركة الوطنية اليمنية، وكان لليسار اليمني جولات من الصراع مع السعودية، وهو ما يوضحه يحيى الشامي عضو المكتب السياسي للحزب الاشتراكي اليمني، وقائد جيش التحرير الشعبي سابقاً بقوله:

"الحزب الاشتراكي كان وراء استنهاض النزعة المذهبية الزيدية في وجه الوهابية كتيار متخلف. ففي عام ١٩٧٩م أرسل الحزب إلى صعدة الدكتور عبد السلام الدميني، ويحيى منصور أبو أصبع، عندما علم عن استقطاب الاستخبارات السعودية للعناصر الشابة من الجبهة الوطنية في شمال الشمال، من بينها «صالح جلخف» من محافظة الجوف، والذي رفض العمل مع السعودية فاغتالته أدواتها في الداخل. واليمنيون لهم تاريخ من الصراع مع النظام السعودي الذي وقف ضد ثورتي ٢٦ سبتمبر و١٤ أكتوبر والوحدة والديمقراطية والأحزاب اليسارية والقومية، وكذا تاريخ مع الوهابية كتيار ديني متزمت زرع بذور الفتنة المذهبية في اليمن باستعدائه للزيدية والصوفية والشافعية، وبسبب دعم النظام السعودي للوهابية انتشر تنظيم القاعدة وداعش[1].

١- يحيى الشامي: لليسار اليمني تاريخ من الصراع مع السعودية والوهابية، (لقاء أجراه موقع العربي)، ٢٧م٢م٢٠١٧م، (موقع العربي)؛ متوفر على الرابط:
https://www.al-arabi.com/

- بداية التوسع السعودي في الأراضي اليمنية:

"في منتصف ١٢١٥هـ، نهاية الـ ١٨٠٠ جرد عبد العزيز بن محمد بن سعود حملة لإخضاع عسير السراة بقيادة ربيع بن زيد، مؤيدة بدعم شيخي عسير البارزين محمد وعبد الوهاب ابني عامر العسيري الذين كانا قد اعتنقا العقيدة الوهابية السلفية، وغدت عسير السراة منذئذ نقطة انطلاق للتوسع السعودي صوب عسير تهامة، وصوب تهامة اليمن كلها، (١٨٠٢ - ١٨٠٣م) وطمح عبد العزيز إلى إلحاق اليمن كلها بمملكته"[1].

- احتلال نجران وجيزان وعسير:

ألحق ابن سعود كامل الإمارة الإدريسية (تهامة اليمنية) في مملكته الوهابية في عشرينيات القرن الماضي وقد أخذها من الإدريسي بالخديعة السياسية، وسيطر عليها عسكرياً بعد صراع مرير مع قبائل عسير السراة التي رفضت الاعتراف بسلطة ابن سعود، ولم يتمكن ابن سعود من إخضاعها لسلطته إلا بعد حملات عسكرية متتالية استمرت إلى عام ١٩٢٣، كان على رأسها الأمير فيصل.

دخلت السعودية في مفاوضات طويلة مع ملك اليمن الإمام يحيى بغية صرفه عن التقدم صوب عسير، وعندما اندفع الجيش اليمني واستولى على نجران وجبال عسير، أعلن ابن سعود الحرب الوهابية التوسعية على اليمن وهكذا اندلعت الحرب في ٢٢ - ٣ - ١٩٣٤، والتي انتهت بعقد (معاهدة الطائف) في ١٩ - ٥ - ١٩٣٤م.

وكانت الحرب الشاملة التي أعلنها ابن سعود -ومن ورائه الانجليز- مؤامرة دولية جوهرها تمزيق ما تبقى من جسد الدولة اليمنية وسحق شخصيتها الوطنية، وتحويلها إلى مجرد ملحق من مُلحقات نجد، وإسقاطها ضمن دائرة النفوذ الخارجي السعودي والبريطاني معاً.

عقدت معاهدة الطائف لمدة عشرين عاماً قابلة للتعديل والتجديد، وبمقتضاها تركت اليمن الملكية أمر عسير ونجران (معلقاً) حتى جاء رئيس المجلس الجمهوري القاضي عبد الرحمن الإرياني، الذي تجاهل حق اليمن في تعديل وتجديد هذه المعاهدة، وخول ممثليه القاضي عبد الله الحجري رئيس الوزراء ومحمد أحمد نعمان نائب رئيس الوزراء بإصدار البيان اليمني - السعودي الذي أُعلن في ١٧ - ٣ - ١٩٧٣، واعتبرت بمقتضاه الحدود اليمنية السعودية نهائية مرسمة بشكل نهائي، وهو ما يتناقض مع فحوى وروح المعاهدة.

وفي العام ٢٠٠٥م في عهد الرئيس الراحل علي عبد الله صالح، تم تجديد الخيانة وترسيم الحدود اليمنية السعودية، والتأكيد الضمني على أن المخلاف السُليماني (نجران جيزان عسير) أصبح ملكية سعودية.

١- د. محمد عل الشهاري، الأطماع التوسعية السعودية في اليمن، بيروت، دار ابن خلدون، ١٩٧٩م، ص ٢.

- ضد ثورة ٢٦ سبتمبر والجمهورية في الشمال:

كانت المملكة العربية السعودية أول الدول التي رفضت تغيير النظام الملكي في اليمن إلى نظام جمهوري، حيث وقفت بكل صلابة إلى جانب الرموز الملكية في مواجهة الجمهوريين، ولم يقتصر الصراع الذي أعقب ثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م في اليمن على الموالين للجمهورية والموالين للملكية، (وهي حروب طبيعية مرافقة لمختلف الثورات في التاريخ الإنساني) فقد كان الجوهري في هذه الحرب اليمنية هو الدور الاستعماري المشارك علناً، حيث قاتلت قوى الاستعمار الأمريكية والبريطانية جنباً إلى جنب مع المملكة السعودية بالسلاح والمال والخبراء العسكريين والمرتزقة الأجانب.

"أدت الأفكار التحررية للثورة اليمنية إلى مقاومة عنيفة من قبل أنظمة الحكم الملكية في المنطقة العربية، وبالدرجة الأولى من المملكة الهاشمية الأردنية والمملكة العربية السعودية، وأخذت الغالبية العظمى للأسرة السعودية تدعم الأسرة الملكية اليمنية، مبررين ذلك أنه إذا ما صمدت الجمهورية العربية اليمنية فالخطر لا محالة مخيم على المملكة العربية السعودية"[1].

الولايات المتحدة الأمريكية كانت في صدارة الواقفين ضد الجمهورية في اليمن ولم تعترف بها إلا بعد الصلح بين الجمهوريين والمملكة السعودية، "وقد قامت اللجنة الخاصة التي أنشئت في الولايات المتحدة الأمريكية برئاسة «ربرت كونير» ضابط المخابرات الأمريكية السابق، بإرسال المرتزقة الأجانب إلى معسكر الملكيين بأعداد هائلة الأمر الذي أدى إلى أن يطلق على عمل هذه اللجنة في اليمن بـ "حرب كونير"[2].

فتحت اتفاقية المصالحة في جدة ١٩٧٠ الطريق لتغلغل النفوذ السعودي في اليمن، في كل مجالات الحياة الاقتصادية والسياسية والثقافية، والأخطر من ذلك تنازل حكومة الرئيس الإرياني عن الحقوق التاريخية اليمنية في جيزان ونجران وعسير.

- ضد ثورة ١٤ أكتوبر والنظام الوطني في الجنوب:

لم يختلف موقف المملكة السعودية من ثورة ١٤ أكتوبر ١٩٦٣م عن موقفها المعادي لثورة ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م، ففي الجنوب اليمني وقفت السعودية أيضاً مع السلاطين والمشيخات ضد قوى الثورة الوطنية التحررية، بل واستخدمت نظام صنعاء العميل-آنذاك- للحرب على النظام الوطني في الجنوب اليمني. وكانت السعودية قد وقفت ضد فكرة انسحاب بريطانيا من الجنوب اليمني وتسليمها لعملائها "اتحاد

١- ايلينا جولوبو فسكايا، التطور السياسي لجمهورية العربية اليمنية (١٩٦٢ - ١٩٨٥)، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ١٩٩٤ ص ٢٩.

٢- مجموعة من المؤلفين السوفيات، تاريخ اليمن المعاصر، (ترجمة: محمد علي البحر) ، القاهرة، مكتبة مدبولي، ١٩٩٠، ص ١٣٣.

الجنوب العربي"، حيث تقدم الملك فيصل بن عبد العزيز ملك المملكة العربية السعودية حين ذاك بطلب إلى (هارولد ولسون) في مارس من عام ١٩٦٧م محاولاً إقناعه بالعدول عن قراره بالانسحاب من جنوب اليمن، محذراً بأنه إذا تم الانسحاب البريطاني من عدن سيكون النظام الجديد من الحركات المتطرفة، وسيتمكن الشيوعيون من السيطرة على شبة الجزيرة العربية[١].

لم تكن مطامع السعودية في الجنوب اليمني جديدة فهي استمرار لهجماتها الأولى على حضرموت، هدأت هذه الرغبة في التوسع نحو جنوب اليمن مع سيطرة الاحتلال البريطاني على الجنوب اليمني، وعادت مجدداً بعد ثورة ١٤ أكتوبر١٩٦٣م. ففي ١٩٧٢/١٢/٥م أعلن الرئيس على ناصر محمد اكتشاف مؤامرة تهدف إلى احتلال محافظة حضرموت، والمهرة، بتدبير من المملكة العربية السعودية والمخابرات الأمريكية[٢].

في الوقت الذي كانت فيه الجبهة القومية لتحرير الجنوب اليمني المحتل تواجه الاستعمار البريطاني والسلطنات العميلة، كانت السعودية تقوم بتحقيق مكاسب على الأرض وذلك عبر توطيد تواجدها العسكري في مناطق شرورة والوديعة اليمنيتين التي تقع في حدودها الشمالية لحضرموت.

في عام ١٩٧٢م دفعت السعودية النظام الموالي لها في صنعاء إلى الحرب مع النظام الوطني في عدن، وذلك بعد أن عجزت السعودية عن ضرب النظام الوطني في عدن في الحرب التي خاضتها ومرتزقتها ضده عام١٩٦٨م- ١٩٦٩م.

لم تتوقف الأطماع والنزعات العدوانية من قبل السعودية تجاه الجنوب اليمني حتى بعد انتصار الثورة وقيام الوحدة اليمنية، حيث استمرت السعودية في ضم أراض يمنية جديدة كانت تابعة لحضرموت ومحافظة المهرة المهمتين، وذلك عبر التوسع في القرى اليمنية الحدودية واستقطاب الأهالي ومنحهم جنسيات سعودية وامتيازات مالية، ونظراً لذلك كادت أن تندلع حرب سعودية - يمنية في ديسمبر عام ١٩٩٤، أثناء قيام قوات سعودية باستحداث نقاط ومواقع في منطقة الخراخير.

ومع بداية العدوان دفعت السعودية بالمشايخ الموالين لها للمطالبة بضم حضرموت إلى المملكة، وقد وقعت ورقة بذلك من قبل ٩٥ شيخاً من شيوخ قبائل حضرموت، يطالبون بضم المحافظة إلى السعودية، ويظهر في الوثيقة أن شيخ قبيلة بني تميم رفعها إلى الملك سلمان بن عبدالعزيز. وخاطبت الوثيقة، التي

١- فؤاد ناصر صالح البداي، تطور العلاقات اليمنية السعودية في مرحلة ما بعد الوحدة اليمنية (١٩٩٠ – ٢٠٠٢)، جامعة أسيوط، مصر، ٢٠٠٥، ص ١٩٨.

٢- خالد بن محمد القاسمي، الوحدة اليمنية حاضراً ومستقبلاً، بيروت، مكتبة الهلال بيروت، ١٩٨٧، ص ١٢٦.

رفعها نيابة عن الموقعين إلى العاهل السعودي «سلمان بن عبد العزيز» معرف قبيلة «بني تميم» في الربع الخالي، بالقول: "نرجو أن تنعم بلادنا بالانضواء تحت راية آية التوحيد حتى تنقطع أطماع الشيعة ويفقدوا الأمل في السيطرة عليها"[1]، وهي ذات الدعايات الوهابية التي استخدمتها السعودية في غزوتها التوسعية في اليمن والجزيرة العربية.

في العام ٢٠١٧م احتلت السعودية ٤٢ ألف كيلو متر مربع من الأراضي اليمنية وألحقتها بالمملكة، حيث قامت السعودية بإزالة أعمدة الأسمنت التي وضعت كعلامات حدودية بينها واليمن في الصحراء من جوار معسكر الخراخير بمحافظة حضرموت، ونقلها لمسافة ٦٤ كيلو مربع، وكان المجلس السياسي الأعلى وخلال اجتماعه بتاريخ ٢٤ أكتوبر ٢٠١٧م برئاسة نائب رئيس المجلس قاسم لبوزة -آنذاك- اعتبر ما تقوم به السعودية مخالفاً للقوانين والمعاهدات الدولية وحذر من محاولة التوغل السعودي في الأراضي اليمنية وحمل المرتزقة الذين يعملون لصالح العدوان من مغبة التواطؤ مع العدوان والتفريط بالسيادة.

وتعمل السعودية من طرف واحد وبشكل عدواني على مشروع مد أنبوب نفطي من منطقة الخراخير نجران -المحتلتين- إلى سواحل البحر العربي في المهرة، وقد شرعت في ديسمبر ٢٠١٧، بعمليات الحفر ووضع بعض القواعد الأسمنتية في منطقة "طوف شحر" الحدودية، تهيئة لتنفيذ المشروع ولكنها لاقت مقاومة شرسة من قبائل المهرة، التي رفعت شِعار الدفاع عن السيادة الوطنية[2].

- الوقوف ضد الوحدة اليمنية:

كغيرها من الملفات الوطنية تعاملت السعودية مع ملف الوحدة اليمنية بروح العداء، ومارست أشد الضغوط لمنع إعادة تحقيق الوحدة اليمنية، حيث رأت في هذا الملف تناقضاً مع ركيزتها في الوجود وهو تقسيم الجزيرة العربية إلى دويلات والتوسع فيها، فكان ملف تحقيق الوحدة اليمنية يعني الصدام مع التوجه الاستراتيجي للسعودية والإمارة النجدية منذ مطلع القرن التاسع عشر. وحتى الوضع الراهن تقف السعودية ضد الوحدة اليمنية وتعمل على إثارة النزعات الانفصالية ودعمها وخاصة في الأطراف اليمنية المجاورة لها حيث تمهد لضم وإلحاق هذه المناطق بالمملكة عن طريق شراء الولاءات والتجنيس وغيرها من الألاعيب الاحتلالية الاستعمارية.

١- عارف بامؤمن، وثيقة ضمّ حضرموت إلى السعودية تفجّر جدلاً يمنياً، (موقع العربي الجديد)، ١٢ سبتمبر ٢٠١٥م؛ متوفر على الرابط:
/https://www.alaraby.co.uk

٢- أنبوب النفط بالمهرة.. أطماع سعودية ومقاومة محلية، (موقع الجزيرة نت)، ٢٠١٨/١٠/٨م؛ متوفر على الرابط:
/https://www.aljazeera.net

كان النظام الموالي للسعودية في الشمال هو الركيزة الأولى في محاربة السعودية لإعادة تحقيق الوحدة اليمنية، مع مساعيها في دعم النظام الموالي لها في صنعاء إلى اجتياح عدن وإلحاقها إلى الشمال والهيمنة السعودية. ففي (١٩٧٢ – ١٩٧٣)، (١٩٧٩ – ١٩٨٠م) مارست السعودية ضغوطات على السلطة الموالية لها في صنعاء، بعدم تنفيذ اتفاقيات الوحدة التي وقعتها مع عدن.

"عندما حصل اتفاق سعودي يمني على إنهاء الحرب الأهلية في عام ١٩٧٠م ازداد الدعم السعودي لمعارضي الحكم في عدن، وحصلت توترات في الحدود نتيجة تحشد القوات المعارضة للحكم في الجنوب والمدعومة من السعودية، وفي ١٩٧٢ زار «روجرز» وزير خارجية الولايات المتحدة اليمن (الشمالي)، ولم يمضِ سوى شهر على هذه الزيارة حتى اندلع القتال بين البلدين (اليمن العربية، واليمن الديمقراطية) في سبتمبر ١٩٧٢م.

لاحقاً التقى رئيس وزراء البلدين في القاهرة، ثم التقى في طرابلس رئيسا البلدين، عبد الرحمن الإرياني وسالم ربيّع علي، واتفقا على إقامة دولة واحدة خلال سنة، لكن التوتر عاد مرة أُخرى حيث قامت السعودية بتوزيع الأموال على الشيوخ وضباط الجيش الذين عارضوا محسن العيني (رئيس الوراء الشمالي آنذاك) وقامت السعودية بضغوط اقتصادية على اليمن حتى تم تغيير رئيس الوزراء بشخص موالٍ للسعودية وهوَ عبد الله الحجري"[1].

عملت السعودية على الدفع بصنعاء ومرتزقتها الهاربين من الجنوب اليمني وما سمي بـ "الجبهة الاسلامية" نحو إشعال الحروب في الحدود بين الشطرين، والعمل على عدم تلاقي الأطراف اليمنية، وليس من المصادفة أنه تم اغتيال الرئيس الحمدي، في ١١ أكتوبر ١٩٧٧م، قبل يوم من زيارته المرتقبة لمدينة عدن للبحث مع الرئيس سالم ربيع علي قضية إعادة تحقيق الوحدة اليمنية، وكان مخططاً بأن يتم الإعلان يوم ١٤ أكتوبر ١٩٧٧م، بالتزامن مع ذكرى ثورة ١٤ أكتوبر ١٩٦٣م.

وقبيل إعلان الوحدة اليمنية في العام ٩٠م، مارست السعودية ضغوطاً مختلفة على كل من حكومتي الجنوب والشمال، من أجل إعاقة نجاح هذه المساعي، من بينها التلويح لعدن بدعمها مالياً، وتوجيه الإخوان في اليمن لرفض الوحدة مع من وصفوهم "بالاشتراكيين الملحدين"، على الرغم من أنه تم طمأنة السعودية بأن الوحدة اليمنية لا تهدف للإضرار للمملكة بل ستعزز أمن واستقرار المنطقة، ومع ظهور أزمة صيف ١٩٩٤م دعمت السعودية عودة اليمن إلى التشطير وذلك عبر الدعم العسكري والمالي للتوجه الذي اتخذه رئيس اليمن الديمقراطي سابقاً علي سالم البيض. وكانت السعودية قبل توقيع اتفاقية الوحدة

١- يوسف الهاجري، السعودية تبتلع اليمن.. قصة التدخلات السعودية في الشطر الشمالي من اليمن، لبنان، الصفاء للنشر والتوزيع، ١٩٩١، ط٢، ص ١١٢.

اليمنية عام ٩٠ قد قامت بإرسال وفد إلى عدن للتأثير عليها والعمل دون الوصول إلى توقيع اتفاقية الوحدة، حيث عرض الجانب السعودي من خلال زيارة وزير خارجيتها سعود الفيصل ووزير المالية محمد أبو الخليل إلى العاصمة عدن خيار العدول عن مشروع الوحدة مقابل الحصول على مساعدة ضخمة تقدمها المملكة[١].

وكانت المملكة السعودية قد مارست ضغوطاً على اليمن من خلال علاقاتها الدبلوماسية أثناء الصراع السياسي الداخلي في اليمن في الفترة الانتقالية لاتفاقية الوحدة، حيث تحركت ومارست ضغوطاً على الشركات النفطية لمنعها من التنقيب عن النفط في الأراضي اليمنية، بدعوى أنها أراض مختلف عليها، وتهدف السعودية من هذه التحركات للحيلولة دون حصول اليمن على مصادر دخل تتمكن من خلالها التخلص من الضغوطات الاقتصادية التي يمارسها الجانب السعودي، والإبقاء على الوضع الاقتصادي في حالة ضعف بهدف إضعافه سياسياً وتفاوضياً في أهم القضايا وهي قضية الحدود[٢].

أما بعد فشل تلك المحاولة الانفصالية فقد دعمت مختلف الممارسات الذي قام بها النظام المنتصر في الحرب التي شنها صيف ذلك العام وهدفت إلى الانقلاب على الوحدة واجتثاثها من المجتمع اليمني في الجنوب ودعمت الاجتياح الوهابي للجنوب اليمني. ووصولاً إلى اليوم تظهر المملكة دعمها للوحدة اليمنية فيما تمارس على الأرض النقيض لذلك، وها هي مؤخراً قد غدت محتلاً جديداً للجنوب اليمني بعد الانسحاب الشكلي الإماراتي.

- جريمة اغتيال الرئيس الحمدي:

لم يكن الحمدي ضابطاً مجاهراً بالعداء للسعودية مقارنة بـ "السلّال" والضباط من حوله، ولا يُذكر للحمدي دور في حصار السبعين، لكنه أراد التعامل مع السعودية وفق روح "اتفاقية المصالحة" بأن تتعامل السعودية مباشرة مع الحكومة اليمنية وتحترم سيادتها، ورفع شعارات التنمية وبناء دولة القانون، إلا أن السعودية كان لها رغبة أخرى وهي استمرار علاقتها بالقوى المشيخية الموالية لها، رفضُ الحمدي لهذا الأمر أدى إلى مقتله في عام ١٩٧٧ بتخطيط وتنفيذ وإشراف سعودي. وكانت السعودية قد ضغطت على الرئيس الحمدي لطرد الخبراء السوفييت واستبدالهم بأمريكيين، وحاولت الانقلاب عليه بمساعدة الشيوخ المدعومين من قبلها في ١٣ يوليو ١٩٧٥م، ثم في ١٦ أغسطس ١٩٧٥، ثم في ٢٠ فبراير ١٩٧٦م، ثم في بداية يوليو ١٩٧٧م في صعدة حتى قتله في١١ أكتوبر ١٩٧٧م ثم نصبت شخصاً موالياً لها وهو الرئيس الغشمي، تلاه عميل آخر وهو علي عبد الله صالح.

١- فؤاد البداي، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

٢- بتصرف من: محمد حسنين هيكل، المقالات اليابانية، القاهرة، دار الشرق، ط٦ ،٢٠٠٢م، ص ١٢٤.

بعد استشهاد الرئيس الحمدي، دعم النظام السعودي صعود العقيد صالح إلى سدة الحكم، في ١٧ يونيو ١٩٧٨م، وكان من أهم الأهداف التي حملها هو تصفية "الجبهة الوطنية الديمقراطية" في شمال الوطن، ومن ثم الانقضاض على النظام الوطني في جنوب الوطن. وقد رعت المملكة السعودية اتفاقاً بين الإخوان المسلمين وصالح شكلوا على إثرها ما سُمي "الجبهة الاسلامية" التي أصبحت فيما بعد أداة أمريكية للحرب على الاتحاد السوفياتي ومنها نشأ تنظيم القاعدة في اليمن.

- استغلال وقهر المغتربين اليمنيين:

يمثل المغتربون اليمنيون، العدد الأكبر من مجموع الطبقة العاملة في السعودية، فهم الأكثر عدداً والأدنى أجراً، وعلى سواعدهم قامت المملكة السعودية الحديثة، وهم مجردون من أي حقوق عمالية، فظروف العمل في السعودية خارجة عن المواثيق الدولية التي ضمنت حقوقاً للعمال، ولا ينتاب الغرب "المتمدن" أي قلق من وضع العُمَّال وانعدام الديمقراطية في هذا البلد!

وما تعتبره السعودية تهريباً ودخولاً لا شرعياً هو حق مثبت ومقر في "اتفاقية الطائف" ١٩٣٤ واتفاقية "جدة" ٢٠٠٠م بأن يحظى اليمني بحقوق تضمن له حرية الدخول والحركة والعمل والملكية في السعودية، وهي الحقوق التي انقلبت عليها السلطة السعودية، التي تعجز عن فصل التداخل الاجتماعي في المناطق الشمالية اليمنية مع الأقاليم اليمنية تاريخياً.

"بُني الاقتصاد السعودي على أكتاف مئات الآلاف من العاملين اليمنيين. فإلى عام ١٩٧٥م، كانت الرياض تضم ٥ شوارع فقط (البطحاء وأم الحمام والملز والنسيم وطريق الخرج)، وكان الرأسمالي اليمني، خالد بن محفوظ، صاحب أول بنك تجاري في المملكة (البنك الأهلي)، يقرض الحكومة السعودية. ومثله كان ابن لادن، ومحمود سعيد، وعبد الله بقشان، ومحمد العمودي، الذين منحتهم المملكة جنسيتها للبقاء فيها، وضيّقت الحصار على من أراد منهم مجرد استثمار جزء يسير من أمواله لخدمة بلده الأصلي (اليمن)، بل صادرت بعضها بطرق ملتوية، كما حدث مع عائلة ابن محفوظ الذي استولت على غالبية أسهم بنكه قبل سنوات، وكذلك الأمر مع مجموعة ابن لادن"[1].

يتعرض المغتربون اليمنيون للقتل والتعذيب في السجون السعودية، وقتل شبه يومي من حرس الحدود السعودي، وحوادث قتل أُخرى يطويها الإعلام السعودي بإعلان وفاة يمنيين في غرق وحوادث سير، كما لا

١- تغريبة عمّال اليمن.. آل سعود لا يحفظون أيّ جميل!، (تقرير: فايز الأشول)، (موقع الأخبار اللبنانية)؛ متوفر على الرابط:
https://al-akhbar.com/

يقوم النظام السعودي بأي حراك تجاه من يقوم بقتل اليمنيين في السعودية ونهب ممتلكاتهم ومصادرة حقوقهم وأموالهم، وهناك مئات اليمنيين الذي يتحدث الإعلام السعودي عن مقتلهم في ظروف غامضة.

تسبب ترحيل العُمَّال اليمنيين من المملكة عقب حرب الخليج ١٩٩٠ بأكبر الهزات التي عصفت بالاقتصاد اليمني خلال العقدين الماضيين، ومن ضمن الجرائم الحديثة ضد المغتربين والعمال اليمنيين، تَحضر "محرقة خميس مشيط"، ففي مايو من عام ٢٠٠٨م، طاردت دوريات الشرطة السعودية ٢٥ يمنياً تسللوا عبر الحدود الجنوبية إلى خميس مشيط للعمل، وحين لجأ هؤلاء العمال للاختباء في مكب النفايات، قام الضباط السعوديون بإضرام النار في مكب النفايات، فأصيب على إثر ذلك ١٨ يمنياً بحروق شديدة.

في فبراير ٢٠١٣م قامت السلطات السعودية بترحيل الآلاف من اليمنيين العاملين في المملكة، تنفيذاً لنظام عمل جديد يطلب من الأجانب العمل لدى كفلائهم فقط، مما ألحق أضراراً جسمية في الاقتصاد اليمني، وفي يوليو من عام ٢٠١٧م، أقدم الأمير سعود بن عبد العزيز بن مساعد آل سعود على الاعتداء ضرباً على المغترب اليمني، جمال سنان، الذي ركن سيارته أمام قصر الأمير السعودي في الرياض! [1].

في أواخر العام ٢٠١٧م بدأت السعودية حملة تشديد جديدة موجهة ضد العمالة الأجنبية ومنها العمالة اليمنية تحت شَعار "وطن بلا مخالف"، في حملة لا إنسانية بطريقة انتهكت حقوق الإنسان والعُمَّال التي ضمنتها المواثيق الدولية. وأظهرت الشهادات الشخصية والصور والفيديوهات القادمة من السعودية، مشاهد مداهمة قوات الداخلية السعودية ومكافحة الشغب، منازل المغتربين اليمنيين وإخراجهم مع عوائلهم، بطريقة مهينة، كذلك قيام بعض الجنود السعوديين بسرقة الذهب والأموال النقدية من البيوت التي يداهمونها.

في صور أُخرى يظهر العُمَّال اليمنيون في سجون السعودية وهم ينامون على البلاط دون فراش أو لحاف.

المرصد الأورومتوسطي لحقوق الإنسان عبّر عن قلقه من الإجراءات الأخيرة التي تقوم بها السعودية تجاه المغتربين اليمنيين، فقد اعتبر أن على السعودية "أن تأخذ بعين الاعتبار تدهور الأوضاع الإنسانية التي خلفتها الحرب المندلعة على اليمن منذ مطلع العام ٢٠١٥ والتي تعد السعودية طرفاً رئيساً فيها".

١- الفيديو متوفر على الرابط:
https://www.youtube.com/watch?v=ErnpsdVhkto

وقال المرصد إن اليمنيين في الوضع الراهن مع ما تشهده البلاد من حرب، ينطبق عليهم وصف اللاجئين ما يجعلهم يندرجون تحت قاعدة «اللجوء وعدم الطرد» التي نصت عليها الاتفاقية الخاصة باللاجئين لعام ١٩٥١ وهو ما يجعل طردهم وترحيلهم انتهاكًا لهذه القاعدة وقد يعرض حياتهم للخطر.

وأشار المرصد الحقوقي الدولي إلى أنه تلقى إفادات من يمنيين قالوا إن الحملة التي أطلقتها السلطات السعودية باسم "وطن بلا مخالف" أدت كذلك إلى اعتقال عشرات منهم حيث جرى نقلهم قسرًا إلى معسكرات التجنيد للقتال في جبهات الحدود نيابة عن الجيش السعودي[1].

- المؤامرة الخليجية، ووأد الثورة الشعبية:

تمثل المبادرة الخليجية أهم رد فعل خارجي استعماري ومحلي رجعي ضد الحراك الاجتماعي في ٢٠١١، ومن اسمها تبدو "المبادرة الخليجية" مبادرة من طرف خارجي، من خارج الظروف التاريخية للأزمة، طرف محايد وجار لليمن تربطه به مصالح مشتركة، ولا يهمه ما ستؤول إليه الأمر، بهذا المضمون تم تسويق المبادرة الخليجية لكنها من حيث طبيعتها السياسية ليست مبادرة طرف محايد بل رؤية طرف له هدفه في صياغة التغيير بما يراعي مصالحه مصالح الأمريكيين والأوربيين والخليجيين.

ما قامت به المبادرة الخليجية هو إعاقة تطوير الفعل الثوري لحراك ١١ فبراير ٢٠١١م، وحيّدت جزءاً كبيراً من الجماهير، وتعاملت مع الحدث كأزمة سياسية بين الحزب الحاكم وأحزاب المعارضة، لأن حل المسألة حلاً علمياً يتعارض مع مصالح الخليجيين ومن ورائهم من الأمريكان والأوربيين، كما أن الملحقات السرية العسكرية والأمنية التي تم توقيعها وإخفاؤها، لعبت دوراً كبيراً في إعاقة التغيير والعمل الديمقراطي والتوجه نحو الاستقلال الوطني.

تبرز الأهمية للمبادرة الخليجية بالنسبة للقوى المعادية لحرية الشعوب، من إصرارهم على تبنيها في كل محطة سياسية من بعد ٢٠١١ كمرجعية ومُرتكز تنطلق منه أي عملية سياسية قادمة، لما تم تقديمه من تنازلات في هذه المبادرة للغرب والخليج وتوقيع القوى السياسية على هذه التنازلات التي تتصادم مع تطلعات الشعب اليمني إلى التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي الديمقراطي.

١- السعودية: طرد وترحيل السلطات لآلاف اليمنيين ينتهك حقوق الإنسان، (موقع المرصد الأورومتوسطي)، ٢٠١٨/١/١٦م؛ متوفر على الرابط:
/https://euromedmonitor.org

وقد قامت السعودية مؤخراً بتجديد "المبادرة الخليجية"، فيما عُرف باتفاق الرياض بين المرتزقة حكومة هادي العميلة والمجلس الانتقالي الجنوبي العميل، الذي يُعطي السعودية مطلق الحرية في القرار في الشأن العام اليمني في المناطق المحتلة ويجعلها في موقع الانتداب والاحتلال المباشر.

- أشكال الاستهداف السعودي منذ ٢٠١١ حتى شن العدوان ٢٠١٥:

- حروب كتاف ودماج:

عملت السعودية على دعم الجماعات الإرهابية وبيت الأحمر في معارك كتاف ودماج وعمران، وذلك من أجل نسف عملية الحوار الوطني ومخرجاته. فاتسعت المعارك التي مولتها السعودية من عمران إلى "كتاف" و"دماج" وصولاً إلى "حرض" والجوف وأرحب في محاولة لتطويق صعدة، فحدثت وساطات الصُلح والاتفاقيات إلا أن هذه القوى المعادية للشعب تعمدت أن تنسفها، لتخسر المعركة في النهاية.

جدير بالذكر أن معركة "دماج ١" كانت بعد توقيع "المبادرة الخليجية" العدوانية ٢٣ نوفمبر ٢٠١١م، الذي عارضها أنصار الله، ومعركة "دماج ٢" قبيل ختام مؤتمر الحوار الوطني أواخر العام ٢٠١٣ مطلع العام ٢٠١٤م وكانت هذه المعارك تلقى رعاية إعلامية من القنوات السعودية، تؤكد ارتباطها بهذا الطرف الخارجي.

- الاغتيالات أثناء مؤتمر الحوار الوطني وما بعده:

أثناء مؤتمر الحوار الوطني وبعده قامت الجماعات الموالية للسعودية باغتيال كل من عضو مؤتمر الحوار الوطني والنائب البرلماني «د. عبد الكريم جدبان» في ٢٢ نوفمبر ٢٠١٣م، وفي الأيام الأخيرة لمؤتمر الحوار حين انقلب هادي على التوافق في الجلسة العامة، تم اغتيال عضو مؤتمر الحوار الوطني البرفسور «أحمد شرف الدين» في ٢١ يناير ٢٠١٤م. والدكتور محمد المتوكل في ٢ نوفمبر ٢٠١٤م، والسياسي الصحفي عبد الكريم الخيواني بالقرب من منزله في العاصمة صنعاء في ١٨ مارس ٢٠١٥م، والدكتور المرتضى بن زيد المحطوري، في جامع بدر ٢٠ مارس ٢٠١٥م.

- الأعمال الإرهابية السعودية في زمن هادي:

نشطت الجماعات الإرهابية الاستخباراتية الموالية للسعودية لنشر الفوضى في اليمن وتمكين القاعدة، من قبل الثورة الشعبية ٢١ سبتمبر ٢٠١٤، حيث وقعت عدة أحداث أمنية وإرهابية غير معهودة وهي كالتالي:

- سيطرة القاعدة على المنطقة العسكرية الثانية في المكلا (حضرموت) ٣٠ سبتمبر ٢٠١٣م.

- اقتحام مستشفى العرضي التابع لوزارة الدفاع في ٥ديسمبر ٢٠١٣م وكان معظم المنفذين سعوديين، وكانت قناة وصال السعودية قد توعدت باقتحامه قبل الحادث بأيام.
- تفجير أودى بحياة مائة مجند من الأمن المركزي المستعدين للاحتفال بعيد الوحدة في ميدان السبعين في ٢١ مايو ٢٠١٢م.
- تفجير طال المتقدمين للانتساب لكلية الشرطة في ٧ يناير ٢٠١٥م. وقبله تفجير في العام ٢٠١٢.

وغيرها من الأعمال الإجرامية التي رعتها السعودية.

- التفجيرات بعد انتصار الثورة:

بعد انتصار الثورة الشعبية في ٢١ سبتمبر ٢٠١٤م، خرجت مظاهرة رافضة تعيين ابن مبارك الموالي للسعودية رئيساً للحكومة، فدبرت الأيادي السعودية تفجيراً إرهابياً استهدف متظاهرين في ميدان التحرير في ٩ أكتوبر ٢٠١٤م، ثم جريمة التفجير في مسجدي بدر والحشحوش ٢٠ مارس ٢٠١٥م، ومحاولة تفجير ثالثة فاشلة استهدفت جامع الإمام الهادي في صعدة في نفس اليوم.

- مجازر غارات الطيران منذ بداية العدوان ٢٦ مارس ٢٠١٥م:

بعد إعاقة توصل اليمنيين إلى اتفاق تاريخي كان يجري في موفمبيك برعاية أممية؛ شن السعودية العدوان على اليمن، وارتكب النظام السعودي مئات المجازر البشعة بغارات الطيران، وهي مجازر مماثلة لما كانت ترتكبها جماعاتها عبر التفجيرات والعبوات الناسفة، وأبرز هذه الجرائم، مجزرة استهداف مدينة عمال محطة كهرباء المخا ١٩ نوفمبر ٢٠١٥م، مجزرة عرس آل سنبان ٨ أكتوبر ٢٠١٥م، مجزرة حي فج عطان ٢٠ أبريل ٢٠١٥م، مجزرة سوق مستبأ ١٥ مارس ٢٠١٦، مجزرة الصالة الكبرى ٨ أكتوبر ٢٠١٦، مجزرة عزاء نساء أرحب ١٥ فبراير ٢٠١٧م، مجزرة طلاب ضحيان في٩ أغسطس ٢٠١٨م، ، وغيرها من المجازر التي وثقتها منظمات حقوقية وطنية ودولية، وأدانتها المنظمات الدولية، تلك المجازر -التي لم تتوقف حتى اليوم - استمراراً لذات النهج العدواني السعودي منذ مجزرة حجاج تنومة ١٩٢٣م.

- الانقلاب على اتفاق السلم والشراكة وحوار موفمبيك:

وقفت المملكة العربية السعودية خلف انقلاب هادي على اتفاق السلم والشراكة الوطنية، وكذا على الحوار الذي كان يجري في موفمبيك، وذلك للتهيئة لعدوانها، وجدير بالذكر أن المبعوث الأسبق إلى اليمن جمال

بن عمر صرح لصحيفة "وول ستريت جورنال" أن الوصول إلى اتفاق سياسي كان وشيكاً قبل بدء الغارات السعودية مما ساهم في تصلب مواقف الأطراف المتنازعة[1].

حوار موفمبيك كان مهماً، وخرج باتفاق يتعلق بالسلطة الانتقالية الجديدة، وكذلك مهام المرحلة الانتقالية وتصحيح الاختلالات وتزمينها. إلا أن السعودية كانت ترى في العملية السياسية أداةً لتمزيق البلد وتفتيته وفرض أجندة خارجية، فقدّم هادي وبحاح استقالتيهما لإرباك المشهد وخلق فراغ دستوري، وصدر قراران من مجلس الأمن، أيّدا وأكدا ورحّبا باتفاق موفنبيك وشددا عليه بالقرار ٢٢٠١، والقرار ٢٢٠٤، حينها فَرَّ هادي إلى عدن وأعلن انقلابه على اتفاق السلم والشراكة وأعلن رفض حوار موفمبيك، وطالب أن يكون الحوار في الرياض، وتحت رعاية مجلس التعاون الخليجي ورفض أن يكون تحت رعاية الأمَم المتحدة.

وهكذا تستمر التدخلات السعودية في الشأن اليمني والتي يصاحبها دائماً انتهاكات جسيمة بحق السيادة الوطنية وسلامة المواطنين ونهب للثروات ومصادرة للقرار اليمني، ويعتبر اليمنيون اليوم أنهم يخوضون معركة استعادة القرار والتخلص من الوصاية السعودية لتنعم اليمن بالحرية والأمن والاستقرار وتتوجه نحو التنمية الحقيقية بعيداً عن تدخلات النظام السعودي الذي طالما وقف ضد أي مشروع وطني.

١- جمال بن عمر: الوصول إلى اتفاق سياسي في اليمن كان وشيكاً قبل التدخل العسكري السعودي، (موقع وكالة تسنيم للأنباء)، ٢٠١٥/٤/٢٧م؛ متوفر على الرابط:
https://www.tasnimnews.com

Рецепты арабской весны: Русская версия
Египет, Ливия, Сирия, Россия?

ملخص كتاب:
"وصفات الربيع العربي"
مصر، ليبيا، سوريا، روسيا؟

تلخيص وعرض: د. أحمد سنان الجابري
إصدار: الجوريتم، موسكو، ٢٠١٢م
لغة الكتاب: الروسية.
عدد الصفحات: ٣٠٤ صفحة.
المحرر المسؤول: أ. م. فاسيلييف، ن. إ. بيتروف

الملخص:

"أحد الدروس المستقاة من استخدام تقنيات الإنترنت يتلخص في أنها توفر فرص مثالية لصناعة نماذج اجتماعية سيئة- على شاكلة شعار (يرحل الرئيس)، كما أنه ربما للمرة الأولى في التاريخ العالمي أثبتت تقنيات الإنترنت بشكل مقنع وواضح قدراتها كوسيلة فعالة لتعبئة الجماهير، والنضال الاجتماعي والسياسي والثقافي والإعلامي".

بهذه الكلمات يقيم الكتاب الدور المحوري للإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي في أحداث الربيع العربي. ومن هنا نعلم أن الكتاب يعالج الأحداث التي شملت الدول العربية أثناء الربيع العربي وجملة الأسباب التي قادت إليه والدور الذي لعبته تلك الوسائط في حشد الناس. هذا بالإضافة إلى دور المصالح الدولية المتقاطعة في تلك المنطقة.

من خلال قراءة هذا الكتاب تتبدى مخاوف ألكسي ميخائيلوفيتش فاسيلييف من العدوى التي قد تصيب روسيا بسبب أحداث الربيع العربي بعد فشل المحاولات الغربية أحداث ثورة ملونة شبيهة بما حدث في أوكرانيا.

وألكسي فاسيلييف هو مستشرق روسي قضى فترة طويلة في مهام صحفية في الشرق الأوسط ثم مراسل لقناة روسيا اليوم في القاهرة، وهو إلى ذلك عضو عامل في أكاديمية العلوم الروسية وعلى دراية كبيرة بشئون وقضايا الشرق الأوسط وله العديد من الكتب حولها بما فيها كتب مميزة عن المملكة العربية السعودية.

يتكون الكتاب من عشرين فصلاً، تتناول الكثير من الجوانب المتعلقة بأحداث الربيع العربي من الأسباب والقوى المحركة والداعمة والتناقضات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي لعبت دور المسرع لعجلة الأحداث.

الفصل الأول: تسونامي الثورات لا ينحسر

جاء هذا الفصل تحت بند "المقدمة" حيث يتم تحليل الوضع العام في تونس ومصر باعتبارهما منطلق الربيع العربي، ويبحث عما إذا كان هناك أسباب أخرى محفزة للثورة غير الوضع المعيشي مثلاً، وهل هذا الوضع هو الأسوأ من بين كل الدول العربية؟

ثم يأتي على قصة الشاب التونسي العاطل عن العمل (محمد البوعزيزي) التي أشعلت الأحداث في المنطقة؛ إذ يأتي الاستنتاج بعد تحليل الوضع التونسي ليقول: "أن الوضع المعيشي في كل من مصر وتونس لم يكن السبب الكامن وراء شعلة الاحتجاج التي استمرت إلى هروب بن علي ولكن البلاد سقطت في الفوضى. لقد تمتعت البلاد بمستوى تعليمي عالٍ ومكانة مهمة للنوع الاجتماعي حيث تشغل النساء ٢٠٪ من مقاعد البرلمان، وعلاقات متطورة مع الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي. (ص ٧).

يحلل الكتاب الوضع المصري منذ ثورة يوليو ١٩٥٣، والنظام الذي نشأ عقبها والصراع الذي احتدم بينه وبين جماعة الإخوان والشيوعيين حتى سقوط مبارك، ويكشف عن ميزة للجيش للمصري في الأحداث "حيث إنه على الرغم من تحوله إلى طبقة قائمة بذاتها تتمتع بالكثير من المزايا إلا أنه في خضم الانتفاضة وقف على الحياد ما منحه الاحترام الاجتماعي" (ص ١٤).

أما القوة الثانية في مصر بعد الجيش فهي (الإخوان)، ولكنها لم تشارك بالثورة كما يشير الكتاب، إلا أنها سمحت لأفرادها بالمشاركة بصورة فردية، ذلك لأنها لم تكن تستبعد الاتفاق مع النظام.

- الفصل الثاني: القوى المحركة والعواقب التي نجمت

يؤكد الكتاب على أن: "الثورات اجتاحت هذه الدول ليس بسبب أنها كانت أسوأ دول العالم من حيث الفقر، فالمؤلف يعيد المسألة بصورة ما للتغييرات الديموغرافية التي حدثت في هذه الدول. حيث إن نسبة السكان الشباب في الدول العربية هي الأعلى عالمياً (ص٤٠- ٥٠).

في كل دولة عربية اشتعلت فيها الثورة نجد خصائص معينة؛ في تونس حدث الأمر بهدوء، أما في ليبيا فقد اتجهت الأمور اتجاهاً دراماتيكياً، وظهر العامل الخارجي بصورة أكثر سفوراً من أي مكان آخر، دفعت الأطراف الخارجية الوضع نحو الانفجار العسكري وقد "وافقت كل من الإمارات وقطر على المشاركة في الحرب ضد قوات القذافي بإرسال العديد من طائراتهما إلى هناك. ووافقت السعودية ومصر على دعم المجلس الانتقالي في بنغازي. وتم تدريب جزء كبير من ممثلي المعارضة المسلحة (وفقاً لبعض البيانات، ١٥-٢٥ ٪) في معسكرات تدريب الإسلاميين في أفغانستان وباكستان، وشارك في الأعمال العدائية في العراق.

في سوريا "فقدت شعارات البعث (حرية -وحدة -اشتراكية) دورها التعبوي وبريقها عند الشعوب العربية. وفقد البعث قاعدته الاجتماعية. على العكس من سوريا تمتلك الجزائر احتياطيات مالية ضخمة، يبقى الجيش في الجزائر متجانساً أكثر مما هو عليه في سوريا أو في اليمن ويظل ضامناً للاستقرار" (ص ٥١).

اليمن له ميزته الخاصة فحيث ساد النظام الاستبدادي للرئيس علي عبد الله صالح منذ ما يقرب من ٤٠عاماً، إلا أن تحديد النتيجة النهائية للأحداث سيكون من قبل اتحادات كبيرة من القبائل اليمنية. أما الأردن والمغرب فتختلفان بوجود المؤسسات المنتخبة عن ملكيات الخليج حيث الملكية التقليدية في السعودية وبقية الممالك بصورة أخف.

الفصل الثالث: الجذور الاجتماعية للربيع العربي

في هذا الفصل يحاول الكتاب تحديد الجذور الحقيقية لهذه الموجة من الثورات، فبالرغم أن جميع الثورات في القرن الماضي مرتبطة بفئة الشباب من غير المرجح أن تكون الثورة المصرية قد اكتسبت النطاق الضروري إذا تم تخفيض قاعدة احتجاجها فقط إلى الشباب المتعلمين تعليماً عالياً، إذا لم يكن هؤلاء الأخيرين على استعداد لدعم ملايين المصريين (من مختلف الأعمار والمهن والمستويات التعليمية) الذين سقطوا تحت خط الفقر نتيجة للنمو العالمي لأسعار المواد الغذائية. كان بين الجموع العديد من الشباب غير المستقرين والمتعلمين تعليماً عالياً والملايين من المصريين الذين سقطوا في غضون بضعة أشهر تحت مستوى الفقر، وخلقوا المواد المتفجرة الاجتماعية اللازمة للثورة. (ص ١٠٥).

إلى جانب الظروف الاقتصادية والاجتماعية يعزو الكتاب ما حدث إلى انتشار النت والقنوات والفضائية ووجود الصحفيين الموهوبين الذين نقلوا صوراً عاطفية جداً للأحداث ويعتقد "أن الأحداث المصرية بالكاد كانت ستكون ممكنة لو لم تكن الثورة في تونس سريعة وغير دموية، إذا لم تخلق الشعور بأن تغيير السلطة في بلد عربي يمكن أن يتم بسرعة كبيرة". (ص ١٠٥).

الفصل الرابع: الثقافة السياسية العربية

تفرض الثقافة السياسية السائدة شروطها على طبيعة الفعل السياسي، وقد ترسخ في الثقافة العربية الإسلامية مفهوم الفتنة الذي يدين حسب الكاتب "محاولات استخدام السخط العفوي لأغراض سياسية"، يرى "إن خصوصية الفتنة الحديثة بالمقارنة مع الفترات السابقة، هي أنه مع ظهور الديمقراطية الانتخابية، احتلت الفتنة تقريباً مكانة رسمية في ترسانة أساليب الحملات السياسية".

لقد أسقطت الاضطرابات السياسية "الرؤساء غير القابلين للعزل": ابن علي في تونس، حسني مبارك في مصر، علي عبد الله صالح في اليمن. وهددت أشكال مماثلة من الاحتجاج العام بوجود أنظمة السلطة الوحيدة في الأردن والجزائر وسوريا والبحرين. لكن في ليبيا، سارت الأحداث وفق سيناريو مختلف. دفعت المواجهة المسلحة لوحدات الجيش النظامي الموالية للعقيد معمر القذافي والمعارضة المدعومة من قوات الناتو ليبيا إلى هاوية الحرب الأهلية.

مع ذلك، يقول الكتاب: يمكن للمرء أن يكتشف معنى خفياً: فكل الأحداث تقريباً منذ اليوم الأول لأفعال "العصيان المدني" وحتى لحظة الإطاحة بـ "الزعيم السياسي المكروه" حدثت وفقاً لسيناريو تم كتابته وتوجيهه بوضوح من شخص لديه خبرة.

"إن خصوصية الفتنة الحديثة بالمقارنة مع الفترات السابقة، هي أنه مع ظهور الديمقراطية الانتخابية، احتلت الفتنة تقريباً مكانة رسمية في ترسانة أساليب الحملات السياسية". (ص ١١٣).

الفصل الخامس: يقاتلون في سبيل السلطة ويبشرون بالسلام

هذا الفصل مكرس بالكامل لمقابلة مع الرئيس المصري "المعزول" محمد مرسي، حيث يدور الحوار حول التحولات والتغييرات التي تدخلها جماعة الإخوان المسلمين على أساليب وطبيعة عملها وفق الظروف المستجدة.

ويفسر محمد مرسي استراتيجية جماعة الإخوان في المرحلة الحالية والغاية من تأسيس حزب العدالة والتنمية، من الواضح للمتابع أن الهدف ليس دمج الجماعة في العملية السياسية، بل جعل الحزب الواجهة السياسية التي تلعب السياسة على المكشوف، وتبقى الجماعة هي أداة تحقيق ما لم يحقق بالسياسة. يقول مرسي: "ولكن كل هذا يجب أن يكون في إطار الشريعة. يتفق الشعب المصري – المسلمون والمسيحيون على حد سواء – على أن المبادئ الأساسية للشريعة يجب أسئن تكون الأساس في سن القانون. لا توجد تناقضات في هذا الشأن داخل المجتمع المصري. ولكن في كثير من الأحيان، عندما يتحدثون عن مبادئ الشريعة، يخطئ الناس ويفهمونها بشكل خاطئ".

ويتساءل الكتاب في ختام الفصل: "هل فعلاً الكل متفق في ذلك؟ ومن الذي يفسر الشريعة الإخوان أم الشعب المسلم والمسيحي؟".

الفصل السادس: العولمة زائد الثقافة الإسلامية

يرى الكاتب أن الثورات العربية عكست العمليات الاجتماعية الثقافية العالمية والنماذج التقليدية للحضارة الإسلامية، وإن تفاعلها الغريب، الذي يتجلى في المواجهة والتكافل والتنافس والتكيف المتبادل، هو الأكثر قدرة على تفسير أسباب وجوهر الصدمات التي تعاني منها الدول العربية.

كانت إفريقيا العربية والشرق الأوسط، التي تحولت إلى منطقة للاحتجاجات العنيفة المناهضة للحكومات، جزءاً من العولمة العالمية، والذي تم تحديد واقعه، أولاً وقبل كل شيء، من خلال عمل وسائل الإعلام الحديثة ـ الإنترنت والتلفزيون والصحف والإذاعة. (ص ١٢٩).

إن الميل إلى "تحرير شخص من ضغوط تقاليد الثقافة المحلية يثير مسألة الحالة الأخلاقية والتطلعات القيمية لهؤلاء الشباب الذين خرجوا لأول مرة إلى شوارع تونس والقاهرة. من هم؟ جامح، متعطش للعدالة والحرية والمساواة للجميع؟ المتشائمون والعاطفيون الذين شعروا بضعف السلطة ويأملون بدعم الغرب ليصبحوا حكاماً بأنفسهم؟ (ص ١٣١).

يختتم هذا الفصل بالقول: "إن تدخل الغرب إلى جانب المتمردين الليبيين، والذي أعلن حلف شمال الأطلسي بوضوح نواياه لتطهير العالم "المتحضر" من "العناصر غير المتحضرة" في مواجهة نظامي القذافي والأسد، غيّر بشكل جذري مسار وجوهر الاحتجاجات المناهضة للسلطوية. (ص ١٣٤). بمعنى أن الأحداث اتجهت نحو تدمير تلك الدول بدلاً من تغيير أو إصلاح النظم السياسية فيها.

الفصل السابع: تقنيات الشبكة والعملية الثورية

في عام ٢٠١١، لعبت شبكة الإنترنت وخاصة شبكات التواصل الاجتماعي دوراً مهماً في الأحداث التي وقعت في مصر. ومع ذلك، يجب على المرء أن يفهم أن الإنترنت ليس سبباً، ولكنه مجرد وسيلة لقناة الاحتجاجات الشعبية". (ص١٣٥). وتكتسب هذه الوسيلة أهمية قصوى عندما تظهر في المجتمع مؤشرات عدم الرضى. ذلك لأنه "في ظل الحكم الاستبدادي، لا توجد إمكانيات أخرى أو قنوات للتعبير عن الاحتجاجات السياسية".

ومن أشكال مساهمة الإنترنت في تطوير العملية الثورية في مصر، جاء في هذا الفصل:

"إن الثورة الإلكترونية في وسائل وأساليب النضال السياسي ليست سوى تعبير خارجي عن تفاقم الصراع الاجتماعي السياسي، والذي يعتبره بعض المراقبين تضخماً مصطنعاً...." كما "تمتلئ شبكة الإنترنت، التي أصبحت قناة اتصال فنية مهمة ومصدر معلومات ومرسلاً للمكالمات الثورية، بمحتوى مهم؛ فقد أصبحت مساحة للحرية ونقطة مرجعية أيديولوجية للجزء الليبرالي الغربي من الجمهور المصري.

يتمثل أحد دروس استخدام الإنترنت - حسب ما يرى الكتاب - هو: "أنه يوفر فرصاً مثالية تقريباً لإنشاء صور اجتماعية سلبية مثل شعارات "يسقط الرئيس". في الوقت نفسه، بالكاد يمكن أن يصبح الإنترنت أداة لإنشاء محتوى إيجابي من شأنه أن يساهم في تحسن حقيقي في وضع البلاد. في هذه الحالة، فإن استخدام الشبكات الاجتماعية، على الأرجح، لن يعطي النتيجة المتوقعة. (ص١٣٩-١٤٠).

الفصل الثامن: المتوازيات التاريخية والحاضر

يشير الكتاب أن رياح ثورة الربيع العربي بدأت من أفريقيا وانتشرت على مساحة عربية كبيرة ثم تغيرت اتجاهاتها مرات عدة، لقد شعر بعواقب الطقس الثوري السيئ خارج المنطقة، مما شوه سمعة عدد من السياسيين وأجبرهم على البحث عن طريقة للخروج الجاف من الماء". (ص١٤١).

هبة الشعب العربي - التي وصفها الكاتب بأنها "صاخبة وعاطفية" - بدأت من تونس فمصر لتنتشر في اليمن والأردن والبحرين والمغرب. ومع ذلك، تطورت الأحداث بطرق مختلفة. في الأردن والمغرب ردت السلطات الملكية بسرعة كبيرة على ما كان يحدث ونفذت على عجل بعض الإصلاحات، التي قللت - إلى حد ما - من العواطف، مؤقتاً على الأقل. في البحرين، اتخذت الأحداث منعطفاً دموياً، تم قمع الاحتجاجات السلمية التي قام بها غالبية السكان الشيعة لرفض التدخل العسكري للمملكة العربية السعودية، (ص١٤٢). وبينما ظل الوضع هادئاً في سوريا طوال مارس إلا أنه "منذ أبريل / نيسان، اندلعت اضطرابات حادة، ولجأت الحكومة إلى اتخاذ إجراءات قمعية قاسية لإبقاء الوضع تحت السيطرة. بينما بذلت القوى الخارجية جهوداً متناغمة تماماً لضمان أن تتطور الأحداث وتتبع مسار الثورات الناجحة في أفريقيا".

الفرق الرئيس بين الدوافع الأمريكية والأوروبية للتدخل في المنطقة يرجع إلى القرب الجغرافي لهذه الأخيرة من أوروبا وبعدها عن الولايات المتحدة. إن خطر التطور غير المتوقع للوضع في المنطقة، التي تعد مورداً رئيسياً لموارد الطاقة في الاتحاد الأوروبي، يغذي الرغبة في إجراء إصلاحات فيها، وضمان ارتباطها بالاتحاد الأوروبي.

الفصل التاسع: الرؤية والواقع

ما هي مشروعية الثورات العربية وما الرؤية التي كان يجب أن تقدمها من أجل أحداث التغيير الذي تنتظره الشعوب؟

يرى الكاتب أنه منذ البداية، اتسمت الأحداث في المنطقة العربية بطبيعة سياسية وتحت شعارات علمانية، ولم تهدف إلى التغييرات الاجتماعية بقدر ما هدفت إلى التغييرات الشخصية. "شارك فيها الإسلاميون، ولم يتصرفوا كقادة أو مبادرين، ولكن فقط في دور المرافقين الذين سعوا، على الأرجح، إلى عدم البروز كثيراً حتى لا يوفروا سبباً للاضطهاد و (في النهاية تحركوا في ليبيا وسوريا)". (ص ١٦٦).

يرى الكاتب أن الإسلام بشكل عام دين مسيّس إلى حد ما، يعارض بشكل رسمي المصلحة الربوية ويدعو للعدالة الاجتماعية، فلا غرابة، أن يصبح الإسلام راية الثوار الذين يحلمون بالمساواة وإعادة بناء العالم، وليس فقط في الشرق". (ص١٦٦-١٦٧).

لكن رأي الكاتب أن خشية الولايات المتحدة وحلفائها من الانتفاضات الشعبية تحت قيادة وسيطرة الإسلاميين يتناقض مع التسريبات حول الدعم الأمريكي المقدم لهم. ويقرر أن الغرب كان "غاضباً بشكل خاص من القذافي عندما أعلن في مارس ٢٠١١ أنه مستعد لطرد جميع المستثمرين الغربيين وإبرام العقود فقط مع شركات من الهند والصين وروسيا".

كما يعتقد الكاتب أن الموقف السلبي تجاه القذافي المناهض للملكية من الممالك المنتجة للنفط في الخليج الفارسي (موضوعياً، منافسو ليبيا) ومن بعض قادة الاتحاد الأوروبي، بالإضافة إلى العداء الأمريكي القديم ضد سوريا، التي رفضت بعناد "توصيات" واشنطن لأكثر من ٤٠ عاماً، كل ذلك دفع الغرب إلى الإسراع بتقديم الدعم السافر للاحتجاجات المناهضة للحكومة في ليبيا وسوريا. (ص١٧٣).

الفصل العاشر: إدارة الاحتجاج

أدى وجود المعلومات الوفيرة التي تتحدث عن أحداث العالم العربي لوقوع الناس في ضبابية، فبرزت المعلومات متناقضة وغير موثوقة في الغالب أو أحادية. يقول الكاتب في تحليله لفيديو البوعزيزي أن: "جزءاً من المعلومات الواردة تم تصميمه بشكل واضح لمزاج وحالة معينة محددة الهدف".

فالغرض من معالجة المعلومات هو فرض مزيد من السيطرة و"تجنب إجراء تحليل فردي للعمليات من قبل الأفراد وجعلهم يدركون المواد المقدمة حسب الحاجة". (ص١٧٤).

في قصة البوعزيزي ركز المتلقي انتباهه على الآلام التي عاناها وتجاهل السلطات لذلك. ولكن توجد فروق دقيقة. هناك تلاعب متعمد بغرض "حشد خاضع للسيطرة" - الشائعات والدوران العاطفي (رد الفعل الدائري).

تمكِّن التقنية الحديثة "من اختبار الأساليب المعلوماتية النفسية لخلق وإعداد التقارير لغرض معالجة صورة افتراضية لما يحدث، والتي يمكن أن تكون مباشرة عكس الحقيقة عند الحاجة". (ص١٨٣-١٨٤). هذه التقنيات صيغت أثناء حربي العراق والبلقان. ويشير الكتاب إلى دور تقنيات الشبكة "أن نجاح تطبيق الشبكة بالتحديد خلال الربيع العربي حولها إلى الأداة الرئيسية تقريباً لتعبئة الجماهير المناهضة للحكومة في جميع أنحاء العالم. وتكمن ميزة الشبكة في البنية الأفقية، فبالتالي يتضاعف عدد المشاركين بما لا يمكن تخيله".

ينتهي هذا الفصل باستنتاج مفاده: "أنه بغياب الشروط الداخلية للانفجار الاجتماعي، لا يمكن لأي دافع خارجي أن يتسبب في انتفاضة ثورية ومظاهرات جماهيرية. ومن ناحية أخرى، فإنه من دون خلفية خارجية مناسبة، والدعم المعنوي والسياسي، وما لا يقل أهمية، الدعم المادي من الخارج، لا الثورة التونسية ولا المصرية ولا حتى الثورة الليبية سيكون لها أفق للحياة".

الفصل الحادي عشر: الديناميكيات والتوقعات

"لقد برزت درجة صعبة من تركيز القوة في أيدي الحكام الاستبداديين، يقول فاسيلييف: أنتجت انتهاك المعايير الدستورية من حيث المدد الرئاسية وطبيعة نقل السلطة، التناقضات الاجتماعية الهائلة، البطالة المرتفعة بشكل مهول، خاصة بين الشباب، الفساد الكلي، إهمال الرأي العام...المظاهرات المناهضة للحكومات التي بدأت كاحتجاج اجتماعي تحولت تحركات سياسية حادة موجهة ضد الأنظمة الحاكمة ذاتها". (ص١٩٥).

مزاج المجتمع العربي ليس في صالح الحكم التقليدي التاريخي للنظام، كما أن المجتمع يرفض الديمقراطية الشكلية، وبرلمانات "الجيب"، والسيطرة على القضاء ووسائل الإعلام.

يؤكد الكتاب أن الأنظمة الحاكمة ارتكبت "خطأ" واحداً، أو اثنين في مكان ما، ربما ثلاثة - أخطاء في النظام، وكان كافياً للانفجار الاجتماعي. أولاً: قمع الفساد للشركات الصغيرة والمتوسطة، والتي هي الوحيدة القادرة على التخفيف من مشكلة البطالة الجماعية. ثانياً: إن الجهود المبذولة لتلطيف التناقضات الاجتماعية الصارخة لم تتناسب مع الوضع الحالي. ثالثاً: استخدمت الأنظمة الاستبدادية، مورداً إدارياً قوياً لقمع الأحزاب وحركات المعارضة، بما في ذلك الحركات الإبداعية، الأمر الذي أدى في ظل أزمة النظام إلى فراغ سياسي؛ كان هذا الأخير مليئاً بالمعارضين الأكثر نشاطاً والأكثر تنظيماً للنظام. (ص ١٩٦).

يورد المؤلفون الكثير من الأسباب التي تكفي للشك فيما يتعلق بمستقبل المنطقة القريب والبعيد. أولاً: العسكريون يستحوذون الآن على وظائف السلطة بشكل أساسي، وهم ليسوا أفضل السياسيين والإصلاحيين. ثانياً: يبدو أنه حتى المدافعين عن الإصلاحات ليسوا إداريين ناجحين وأكفاء للغاية، ثالثاً: إن حجم وعمق المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية تدل على أن الإصلاحات ستأخذ وقتاً طويلاً، ودرجة عالية من التوتر الاجتماعي.

الفصل الثاني عشر: كيف حدث في تونس؟

مشهد اللحظة كان التالي: "من الصعب الحديث عن الثورة المصرية في ٢٥ يناير ٢٠١١، مستخلصة من ثورة ١٤ يناير في تونس. سقط النظام التونسي أولاً، بعد ٣٤ يوماً من بدء الأحداث الثورية فر الرئيس زين العابدين بن علي إلى الخارج. في مصر، بعد ١٨ يوماً تخلى الرئيس حسني مبارك عن السلطة". (ص١٩٧-١٩٨).

في كل من تونس ومصر، كانت السلطات واثقة من فعالية الإجراءات القمعية: فقد اعتاد كلا النظامين على قمع المظاهرات بعيداً عن أعين الصحفيين الأجانب في وقت قياسي. ومع ذلك، تمكنت وسائل الإعلام العالمية من ضمان بث الأحداث الثورية، مما أوصل نظامي الحكم في البلدين إلى طريق مسدود.

يشار إلى أنه "في بداية الثورة، اعترفت الولايات المتحدة بجماعة الإخوان المسلمين كقوة سياسية واجتماعية في البلاد، وبذلك فتحت صفحة جديدة في علاقاتها مع القيادة التاريخية للإخوان. وبحسب بعض المحللين المصريين والأجانب، فإن النظام السياسي المستقبلي في مصر إذا ما حدث توافق بين الإخوان والمجلس العسكري سيشبه النظام الباكستاني. يرضي هذا الخيار الولايات المتحدة ويحافظ على الصورة النمطية الموجودة في الغرب فيما يتعلق بالدول العربية والدول الإسلامية الأخرى. وقد يناسب جماعة الإخوان المسلمين وقيادة الجيش". (ص ٢١١-٢١٢).

الفصل الثالث عشر: خسائر الثقافة العالمية

يحذر الكاتب في هذا الفصل من كارثة محدقة بالموروث الثقافي والإبداعي للدول التي تدور فيها الصراعات المسلحة وأعمال الفوضى، بصرف النظر عن الأهداف العظيمة والنبيلة للثورة "فإن الكثير من الكتل أو العناصر الإجرامية اندست، كما هو الحال غالباً خلال الثورات. في الجوهر، كانوا غير مبالين بالشعارات الثورية، واستخدموا الارتباك الذي نشأ من أجل الإثراء الشخصي، وسرقة كل ما جاء في متناول اليد". (ص٢١٦-٢١٧). وقد أشار الكاتب إلى ما تعرضت له معارض المتحف المصري.

الآن العلماء - المؤرخون وعلماء الآثار وغيرهم - ينتظرون بقلق الضرر الذي لحق بالتراث الثقافي الغني في هذه البلدان. هذه المخاوف أكثر من مبررة. التاريخ الحديث للشرق مليء بالأمثلة عندما أدى تفاقم الوضع السياسي في منطقة معينة إلى خسائر ثقافية هائلة. لقد تم مسح تاريخ بابل القديم حرفياً بجنازير الدبابات.

يستشهد فاسيلييف ليس فقط بالسرقات التي تمت، ولكنه أيضاً يشير إلى ما أحدثته الآلة الحربية للتحالف الدولي من دمار بالموروث الحضاري والثقافي للعراق. وحاول الأمريكيون والبريطانيون تنظيم غطاء إعلامي للسرقة، ففي أبريل ٢٠٠٣، قال قائد القوات الأمريكية في منطقة الخليج العربي، الجنرال تومي فرانك، للصحافيين إنهم تمكنوا في ذلك الوقت من إعادة أكثر من ١٠٠ قطعة أثرية سرقها اللصوص إلى المتحف «وهذا من أصل ١٥ ألف!». (ص ٢١٩-٢٢٠).

يخلص الفصل إلى أن تدمير الآثار التاريخية والثقافية في مصر والعراق ودول أخرى في المنطقة من أعمال "التخريب"، كانت كارثة إنسانية حقيقية، لا تضر فقط بأفكارنا عن ماضي البشرية، بل تؤثر على مستقبلها.

الفصل الرابع عشر: ماذا ينتظرهم؟ (شمال أفريقيا: الثورات والاقتصاد)

يستند الكتاب هنا إلى مادة إحصائية غزيرة مستقاة من تقارير قد لا تكون في متناول يد الباحث دائماً ليحدد المقدمات الواقعية والخيالية للوضع الراهن، وجميع تلك البيانات تشير للوضع الجيد لكل من تونس ومصر في نواحي كثيرة قياساً بدول أخرى ثرية مثل السعودية ودول الخليج من خلال المقارنة بين معدل الناتج المحلي الإجمالي في الجانبين لنفس الفترة.

علاوة على ذلك، فقد تم اعتبار تونس عشية الثورة من خبراء مؤسسة هامة مثل برنامج الأمم المتحدة الإنمائي (UNDP)، بشكل عام كمؤشر جيد على نجاح التنمية البشرية وبرزت بين أفضل ثلاثة "عروض" بين البلدان النامية (كانت تونس الفائزة بين البلدان المتوسطة الدخل). (ص٢٢٥-٢٢٦).

وحول الأسباب الاقتصادية الأحداث يؤكد أن ما سمي الانتفاخ الشبابي المؤكد إحصائياً، لم يكن يحدث في مصر وليبيا والمغرب، ولكن كان في تونس، ولكن الثورة حدثت في تونس ومصر أولاً وليس في المغرب، فقد كانت الحكومة المصرية لا تزال تحاول حل المشكلة بأساليب السوق الموصى بها. خفف البنك المركزي بعض ضوابط العملة على واردات اللحوم والدواجن والسكر، آملاً بهذه الطريقة أن يخفض التجار أسعار السوق استجابة لانخفاض التكاليف، ولكن هذا لم يحدث.

كما يعرج على المصالح الروسية التي من المؤكد أنها ستتأثر بما يجري، حيث تحتل المرتبة السادسة بين شركاء التجارة الخارجية لمصر ولديها الكثير من الشركات المتوسطة والصغيرة المسجلة فيها. (ص ٢٤٥). ورغم أن حجم العلاقات التجارية مع تونس صغير، إلا أن السياح الروس يسافرون بنشاط أيضاً إلى هنا (حوالي ٢٠٠ ألف سنوياً). من غير المرجح أن يبقى هذا المؤشر دون تغيير.

ويخلص إلى أن الثورات العربية وجهت ضربة قوية للمصالح التجارية الروسية، "حدثت الصدمات على وجه التحديد في تلك البلدان التي تعاونت معنا بشكل أوثق من غيرها".

الفصل الخامس عشر: الأرض المتفجرة

الأرض متفجرة بالفعل، فجرتها حالة الاقتصاد وانتشار الفساد والمحسوبية في مؤسسات الدولة وتفاقم المشكلات الاجتماعية، وتضخم المشكلة الديموغرافية. تمتع الفساد في تونس بالحماية، وسيطرة عائلة الرئيس وعشيرة زوجته ليلى طرابلسي، على ما يصل إلى ثلث اقتصاد البلاد. كانت تونس مثالاً نموذجياً على شبه الديمقراطية وراء واجهة المؤسسات الديمقراطية الصورية. (ص٢٤٨- ٢٤٩).

ونخر الفساد حكم الرئيس مبارك الذي جاء منذ عام ١٩٨١ودرب ابنه الأصغر جمال كوريث للانتخابات الرئاسية عام ٢٠١١. كان الغضب في المجتمع المصري سببه الاستخدام المفتوح "للموارد الإدارية" وتزوير نتائج الانتخابات البرلمانية في نوفمبر ٢٠١٠.

لقد عانى القطاع المالي والمصرفي في تونس من العواقب السلبية للمشاكل المالية للنظام المصرفي في الاتحاد الأوروبي. انخفض عدد السياح الأجانب الذين يزورون تونس ومصر (معظمهم من مواطني البلدان الأوروبية). خفضت دول الاتحاد الأوروبي من استيعاب العمال الأجانب والخريجين المهاجرين المتخصصين، بما في ذلك من تونس ومصر. وأثرت أسعار الغذاء العالمية أيضاً على نمو المشاعر الاحتجاجية، ولعب الدعم المقدم للعملية الديمقراطية من جانب الدول الغربية دورا مهما في صعود الحركات الاحتجاجية في تونس ومصر وقد "تم الإعلان عن هذا الدعم، بما في ذلك الدعم المالي، من قبل الاتحاد الأوروبي والولايات المتحدة ومجموعة الثمان الكبرى". (ص٢٥١-٢٥٢).

أما الدول العربية الأخرى (اليمن، البحرين، ليبيا، سوريا)، فهذه الظواهر تضاف إليها عوامل بسبب تفاصيل التطور التاريخي لهذه البلدان، وهيكل المجتمع والوضع السياسي المحلي.

ويؤكد الكاتب أنه دون حل المشكلات الحقيقية التي دفعت بالناس للانتفاض، فإن الوضع لن يستقر ولن تحدث تنمية، برغم بدء تشكل المجتمع المدني.

الفصل السادس عشر: ومع ذلك لماذا "الربيع العربي"؟

يرى الكاتب، أن أسباب الأحداث التي بدأت في يناير ٢٠١١ في شمال أفريقيا كثيرة، وقد تراكمت على مر السنين والعقود. ومع ذلك، فإن الأسباب الجذرية بينها - برأي الكاتب – اثنان؛ أولاً: العامل الديموغرافي - النمو السكاني السريع – وثانياً: الأزمة الاجتماعية المتفاقمة - نمو البطالة الراكدة - ونتيجة لذلك، تم دفع جزء كبير من الشباب القادر على العمل إلى قاع المجتمع، وانخفاض قيمة العمل في المجتمع. (ص ٢٥٦).

يوجد الآن في العالم العربي الأفريقي، في المتوسط ٦.٥ طفل لكل امرأة أم، ونتيجة لذلك، ينضم جزء كبير من الشباب إلى الكتلة الهامشية من المجهولين والمقطوعين والمتسولين. تصل نسبتهم بين الشباب إلى ٧٠٪، وفي حالة حدوث أي أزمة أو انفجارات اجتماعية، فإن الشباب المهمشين هم الذين يخرجون إلى الشوارع ويشكلون الجزء الأكبر من المتمردين ومرتكبي الفظائع في كثير من الأحيان. (ص ٢٥٦).

ويشير الكاتب كذلك إلى الموقف السلبي من العمل المنتج الذي يميز الجماعات الكبيرة من السكان المسلمين. "يعمل الجزء الأكبر منه في أماكن عملهم ببرودة "من خلال الأكمام"، ولا يسعى لزيادة كفاءة العمل. ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى التقاليد التاريخية والظروف المناخية والتغذية منخفضة السعرات الحرارية وظروف المعيشة الصعبة". ذلك يفسر انخفاض كفاءة العمالة لماذا الوظائف التي كان عامل واحد كافياً لها في الظروف الأوروبية المتوسطة، على سبيل المثال في مصر يؤديها خمسة أشخاص

الفصل السابع عشر: هل ستحدث ثورات في الصحراء الجنوبية؟

يقدم الكتاب في هذا الفصل نقداً لموقف الاستشراق الروسي لعدم قدرته على وضع تعريف دقيق لما جرى في المنطقة العربية الأفريقية. فقد تعددت التعريفات التي وضعت من "أعمال الشغب الشبابية" و "الاضطرابات، التي يقودها المتلاعبون السياسيون ذوو الخبرة" إلى "تسونامي الثورات، كمظاهر لحقائق جيوسياسية جديدة ".

وبقراءة العلاقة بين الشمال والجنوب الأفريقي تتم ملاحظة "انهيار المجتمعات الأفريقية جنوب الصحراء كنظام ديناميكي مستقر وبيئة بشرية طبيعية، والتوسع العام لمجموعة من أفقر البلدان وأقلها نمواً، وترتسم صورة للتنمية الأفريقية باعتبارها "مناهضة للتنمية". و"بالحديث عن السمات الحضارية التي تفصل بين شمال وجنوب القارة الإفريقية، نلاحظ أولاً الاختلافات المهمة في درجة التجانس الثقافي والديني في المناطق المعنية. بالمقارنة مع

شمال أفريقيا، حيث يسود الإسلام بشكل مطلق، فإن سكان أفريقيا الاستوائية لديهم تكوين متعدد بشكل رئيسي". (ص ٢٦٠). على الرغم أن الإسلام انتشر قبل المسيحية.

تنتشر البطالة في كل أفريقيا الاستوائية، لكنها لا تثير أعمال شغب. الفجوة بين الأغنياء والفقراء معروفة لدى الجميع، فهي هنا في مرتبة أعمق مما هي عليه في العالم العربي، ولكنها غير معترف بها كأساس للاحتجاج الاجتماعي. يتم حل مشكلة تحقيق الذات لدى الشباب الأكثر نشاطاً من خلال الهجرة إلى أوروبا أو أمريكا، وينظر الجزء الرئيسي من الشباب إلى المشكلة على أنها أمر لا مفر منه». (ص ٢٦٥).

الفصل الثامن عشر: (المغرب: سر الاستدامة)

لاحظ الكتاب أن المغرب ليست بأفضل حال من بقية الدول العربية في مجالات الفساد والتنمية، ومع ذلك فقد نجت من موجة الثورات لأن "عتبة الاستدامة" للمجتمع المغربي لهذه المهيجات الاجتماعية كانت أعلى بكثير من تونس أو الجزائر أو مصر. (ص٢٦٥-٢٦٦). ويعزو أسباب ذلك إلى:

أولاً: اتبعت السلطات المغربية في السنوات الأخيرة (في عهد محمد السادس الذي اعتلى العرش عام ١٩٩٩)، سياسة اجتماعية فعالة إلى حد ما، تدعم أسعار السلع الأساسية والغاز الطبيعي. يتطور في المغرب قطاع التمويل متناهي الصغر للشركات الصغيرة والمتوسطة بحرية نسبياً، مما يخفف من الآثار الاجتماعية السلبية للبطالة. (ص٢٦٦).

ثانياً: المساهمة الكبيرة في استقرار المغرب يعود للشرعية الكبيرة للسلطة العليا فيها مقارنة بالجمهوريات العربية، ذلك لأنها متأصلة منذ حكم الأدارسة.

ثالثاً: إن استقرار المملكة المغربية يسمح بفهم أفضل للأسباب المباشرة لـ "الثورات العربية". يبدو أن السبب الرئيسي كان الانحطاط الأيديولوجي والسياسي ومأزق الجهود الأيديولوجية للأنظمة المصرية والتونسية واليمنية، والتي لم تتمكن على مر السنين من حل المشاكل الحالية في بلدانها أو عرض "صورة المستقبل" على السكان. لم يقرر حسني مبارك ولا زين العابدين بن علي ولا علي عبد الله صالح إجراء إصلاحات استراتيجية في المجال الاقتصادي والسياسي. (ص ٢٦٩).

الفصل التاسع عشر: الأزمة في ضوء المصالح الروسية والصينة والأفريقية

كانت الأحداث التي عصفت بشمال أفريقيا كفيلة بتوجيه الأنظار نحو سوق النفط حيث تتصادم مصالح الدول، ذلك أن حصة كل من نيجيريا، أنجولا، ليبيا والجزائر تمثل ٧٦٪ من إنتاج النفط الأفريقي. عندما وصل القذافي

للسلطة وطرد القواعد والشركات والبريطانية والأمريكية من ليبيا الأمر الذي جعل الدول الغربية تشعر بتهديد جدي.

في الظروف الراهنة "تقوم الشركات الأجنبية بإخلاء موظفيها وتعليق العمليات. أسعار النفط آخذة في الارتفاع، وقد تكون عواقب هذا الارتفاع سلبية ليس فقط على البلدان المستوردة للنفط، ولكن أيضاً على البلدان التي لديها احتياطيات نفطية، بما فيها روسيا". (ص ٢٧٠).

وبعد رفع عقوبات مجلس الأمن الدولي في ١٢ سبتمبر ٢٠٠٣، اقتحمت الشركات الروسية والصينية مجال العمل في ليبيا بل ووسعت فضاء نشاطها وحققت شركة (لوك أويل) الروسية نجاحات كبيرة.

كما أحرزت (جاز بروم) تقدماً في ليبيا، حيث نفذت ١٠ برامج في جميع الدول الأربعة الرئيسية المنتجة للنفط في أفريقيا. في العامين ٢٠٠٦ ـ ٢٠٠٧ فازت بسلسلة مناقصات لتطوير حقول النفط البحرية في البحر المتوسط. وقعت (جاز بروم) الروسية و(إيني) الإيطالية اتفاقية حول التطوير المشترك لاحتياطيات الغاز الضخمة في شمال البلاد (مشروع الفيل). وإلى جانب ذلك هناك برنامج التسلح بقيمة ١,٣ مليار يورو، واتفاقية بناء سكة الحديد. وهناك مصالح كثيرة وقعت للصين حيث تستثمر ٧٥ شركة هناك منها ١٣ شركة حكومية. ولذلك ليس مستغرباً حجم المخاوف الروسية على هذه المصالح.

الهجمات التي تعرضت الشركات الصينية وعمالها من قبل المتمردين دفعت الصين لإجلاء موظفيها من ليبيا. ومع اندلاع الحرب الأهلية انشلت الصادرات النفطية الليبية، وقد كانت الصين تستورد ٧ مليون طن سنوياً.

الفصل العشرون: "الربيع العربي" والهجرة العابرة للحدود

لقد غيرت ثورات الربيع العربي من طبيعة ومسار الكثير من العمليات العالمية، لقد أضحت أوروبا تعاني مخاوف الهجرة وتدفق المهاجرين غير المنضبط بسبب الثورات، ذلك التدفق يعني احتمال مراجعة اتفاقية شنجن.

على مدى العقدين الماضيين، كانت ليبيا هي التي "لعبت دور حاجز الهجرة الرئيسي بين أوروبا وأفريقيا شبه الاستوائية، حيث قامت بتنظيم واستيعاب جزء كبير من المهاجرين الأفارقة. والإجابات على الأسئلة حول المكان الذي سيذهب إليه أكثر من مليوني مهاجر عربي وأفريقي من ليبيا، وكيف ستؤثر الأحداث في المنطقة العربية على الهجرة الأفريقية عبر الحدود بشكل عام، وكيف ستغير سياسات الهجرة في دول الاتحاد الأوروبي والدول الأفريقية نفسها عقول ليس فقط السياسيين ورجال الأعمال، بل والعلماء". (ص٢٨٢).

لا يمكن حسب الكاتب إيجاد حل للمشاكل المرتبطة بالهجرة إلا عندما تستأنف التنمية الاقتصادية والاجتماعية للبلدان الأفريقية، وهو أمر مستحيل بدون الجهود المشتركة للدول الأفريقية والمجتمع العالمي بأسره. وفي الوقت نفسه، تراكمت بالفعل تجربة "سلبية" كبيرة في مساعدة بلدان القارة الأفريقية في الممارسة العالمية. (ص٣٠٠).

- الخلاصة:

كان انطلاق الربيع العربي تعبيراً عن ضيق الشعوب بأنظمتها التي طال أمد بقائها في السلطة وعجزت عن مواجهة معضلات التنمية بشقيها الاقتصادي والاجتماعي- السياسي، لكنه شكّل - من ناحية ثانية - نقطة تقاطع بين رغبة التغيير الداخلية وبين مصالح دولية متنافسة ومحتدمة.

كانت الولايات المتحدة تحاول - آنذاك- حماية هيمنتها العالمية متجاوزة حتى مصالح حلفائها الأوربيين، وكانت أيضاً مستعدة لاستخدام كافة الوسائل لمواجهة روسيا التي لا تحاول فقط العودة إلى مواقعها القديمة في الشرق الأوسط، بل الاستفادة - كذلك - من المتغيرات الجديدة وتعزيزها بمواقع جديدة. في الوقت ذاته، شكلت الصين عامل تهديد إضافي للزعامة الأمريكية العالمية، وذلك كله في ظل واقع أن أمريكا نفسها ليست مستعدة بعد للتسليم بحتمية التبديل التاريخي.

لقد ضاق الغرب بحلفائه في مصر وتونس واليمن، وكان لابد من استبدالهم بقوى جديدة قادرة على الإمساك بالأمور وإحداث بعض التحسينات التي تهدئ الشارع. ولم يعد الغرب قادراً على تحمل النظام السوري والليبي لما يشكلانه من تهديد لمشروع الشرق الأوسط الجديد القائم على ركيزتي: النفط الآمن والأمن الصهيوني.

لأن الجيش والأمن هي القوى الأكثر تنظيماً في الدول العربية، لذلك بدأ الغرب وأمريكا العمل لإيجاد قوى اجتماعية موازية من حيث التنظيم، لذلك عملت على تقديم تمويل مالي وفني لمنظمات كثيرة في الدول العربية.

شكّل الربيع العربي بصورته الدموية عامل قلق بالنسبة للروس، فقد عانت مناطق روسية كثيرة مثل الشيشان من التطرف الذي مولته الوهابية السعودية - وفقاً للأدبيات الروسية، فعلى سبيل المثال: كانت مذبحة مدرسة (بيسلان) واحدة من الفظائع التي علقت بالذاكرة الروسية، ولذلك وجدنا أن الكتاب قد احتوى نقداً لاذعا للعلماء الروس الذين درسوا الحركات الإسلامية ولكنهم يتجاهلون مخاطرها.

أخيراً، يأتي هذا الكتاب ليمثل إضافة للمكتبة الروسية ليس فقط للباحث والقارئ الروسي، بل ويعتبر بمثابة توصيات مهمة لصانع القرار الروسي حول كيفية التعامل مع الأحداث التي تعصف بالمنطقة العربية والأفريقية منها على وجه الخصوص، وكيفية إدارة المصالح الروسية فيها.

اليمن في حسابات الجيوبوليتيك الكبرى

"قراءة تحليلية من منظور إدراك صانع القرار"

د. سامي محمد السياغي

-أستاذ العلوم السياسية المساعد (علاقات دولية)

- مدير مركز حقوق الإنسان وقياس الرأي العام بجامعة صنعاء

- مدير تحرير مجلة مقاربات سياسية

مقدمة:

مع اندلاع الحرب العدوانية المتواصلة على اليمن منذ ٢٦ مارس ٢٠١٦م، ظهرت العديد من الكتابات وأطلقت العديد من التصريحات من قبل المتخصصين والخبراء والسياسيين بخصوص وجود ارتباط لتلك الحرب العدوانية بأبعاد الأهمية الجيوبوليتيكية لليمن. وفي واقع الحال؛ إن الأهمية الجيوبوليتيكية لليمن على المستويين الإقليمي والدولي ليست أمراً طارئاً ظهر في الوقت الراهن، بل إنها صفة طبيعية مميزة للجغرافيا السياسية اليمنية عبر التاريخ، كما أن لها انعكاسات كثيرة ارتبطت تاريخياً بمعطيات الوضع الحضاري لليمن (أرضاً وإنساناً).

في الصدد ذاته، وخلال العقدين المنصرمين تحديداً، يمكن التأكيد على أن اليمن لم تَغبْ مطلقاً عن ما يمكن تسميته "حسابات الجيوبوليتيك الكبرى"[1] في منطقة الشرق الأوسط عامةً والمنطقة العربية بصفة خاصة، كما ظلت اليمن حاضرةً بصورة قوية في محتوى الأحداث والتطورات والتحولات المحورية التي تشهدها المنطقة العربية منذ العام ٢٠١١م، وتحديداً ضمن الحسابات الخارجية التآمرية التي اقتحمت حراك الشعوب العربية في إطار ما عرف بـ: "ثورات الربيع العربي"، وهي الحسابات التآمرية التي طالت تداعياتها السلبية رقعة المنطقة العربية كافة، وذلك بهدف اكتساح ما كان قد تبقى من مقاومة الشعوب العربية لمشروع "الشرق الأوسط الكبير"، واجهاض عنفوان المشروع التحرري الناهض في المنطقة في إطار "محور المقاومة".

١- "الحسابات الجيوبوليتيكية الكبرى": هي حسابات المصالح والتهديدات والفرص والقيود التي تتقاطع فيها استراتيجيات وخطط وإرادات دول اقليمية وكبرى في إطار رقعة جغرافية محدودة كمنطقتنا العربية ومنطقة "الشرق الأوسط". واليمن في إطار هذا المفهوم تحتل مساحة مؤثرة في الحسابات الجيوبوليتيكية لعدد من الدول الاقليمية باختلاف أهدافها التي قد تكون في غير مصلحة اليمن (الامارات- السعودية - اسرائيل) أو متفقة مع مصلحة اليمن ومعززة لقدراتها الجيوبوليتيكية (ايران، سوريا، سلطنة عمان)، فضلاً عن الدول الكبرى التي تتنوع حدة أهدافها ومدى تعارضها مع المصلحة اليمنية (أمريكا، بريطانيا، فرنسا) و(روسيا، الصين، المانيا، كندا، اليابان).

كما أن ثورة الـ ٢١ من سبتمبر ٢٠١٤م قد كشفت بوضوح حقيقة الحضور القوي لليمن في إطار حسابات الجيوبوليتيك الكبرى إزاء المنطقة العربية ومنطقة الشرق الأوسط عامةً؛ حيث مثلت الثورة في ذلك التوقيت الدقيق والحاسم حجر عثرة قوية أمام اكتمال مخطط قوى الاستكبار العالمية في تفتيت المنطقة العربية تمهيداً لتوسع "إسرائيل الكبرى" في إطار مشروع الشرق الأوسط الكبير. حيث تمكنت ثورة ٢١ سبتمبر من ايقاف ما يمكن تسميته بـ: "الفصل اليمني" من ذلك المخطط التآمري، وهو الفصل الذي تبلور عنوانه في إطار ما عُرف بـ: "مشروع التقسيم الفيدرالي لليمن"[1]، ليأتي رد فعل قوى الاستكبار والتآمر الخارجية من خلال شنها حرباً عدوانية متواصلة على اليمن منذ ٢٦ مارس ٢٠١٥م.

في واقع الحال، مهما تكن طبيعة المبررات التي ساقتها قوى الاستكبار والتآمر الخارجية ممثلة في ما يسمى: "دول التحالف" لشن حربها على اليمن؛ فإن الطبيعة العدوانية لتلك الحرب وأبعادها وتداعياتها الميدانية[2] تؤكد على استنتاج مفاده أن المحرك الرئيسي لذلك العدوان هو استهداف المقومات الجيوبوليتيكية لليمن بالتدمير تارةً والنهب تارةً أخرى، وكذا محاولة إجهاض أي امكانية لنجاح ثورة ٢١ سبتمبر ٢٠١٤م في نزع فتيل مؤامرة تقسيم اليمن وزرع الفتن الداخلية بين أبنائها وجرهم إلى مربعات الاقتتال الأهلي وانتزاع استقلال قرارهم السياسي وسيادتهم الوطنية، وترك اليمن ساحة مفتوحة لتحقيق طموحات قوى الاستكبار العالمي (الصهيو - أمريكية) في تعزيز امكانيات نجاح مخططاتها التوسعية والاستعمارية في المنطقة العربية، بما في ذلك مشروع السعي لضمان قرن قادم من الأمن والتوسع الجغرافي للكيان الصهيوني على حساب الأراضي والحقوق العربية، وهو المشروع الذي بات يعرف بـ"صفقة القرن".

من المنطلقات سالفة الذكر، سنحاول في هذه الدراسة بيان أبعاد الجغرافيا السياسية والوضع الجيوبوليتيكي الراهن لليمن وموقعها في حسابات الجيوبوليتيك الكبرى، وذلك من خلال تسليط الضوء على الأهمية الجيوبوليتيكية لليمن من خلال القيام بقراءة تحليلية لبعض معطيات الجغرافيا السياسية لليمن وربطها بدلالاتها الجيوبوليتيكية، ومن ثم تناول البعد التاريخي للأهمية الجيوبوليتيكية لليمن، وكذا تحليل أبعاد العلاقات

١- تم ذلك من خلال قيام أنصار الله بتعطيل محاولة هادي وحلفائه تمرير مشروع الدستور دون التوافق عليه.
لتفاصيل حول مشروع التقسيم الفيدرالي أو مشروع الأقاليم الستة كشكل "اتحادي" للدولة اليمنية ودور أنصار الله في الصدد ذاته؛ يمكن الرجوع إلى:

- سامي محمد السياغي، "خيار الفيدرالية في اليمن وأقاليمها الستة: الترياق القاتل، مجلة مقاربات سياسية، العدد (٢)، السنة الثانية (يناير – مارس ٢٠١٧م)، ص ٤٧ – ٨٧.

٢- لتفاصيل حول المبررات التي ساقتها قوى التحالف لعدوانها على اليمن؛ يمكن الرجوع إلى:

- سامي محمد السياغي، "قراءة في مضامين وأبعاد قرار مجلس الأمن (٢٢١٦)"، مجلة مقاربات سياسية، العدد (١)، السنة الأولى، ٢٠١٦م، ص ٣١- ٥٦

الارتباطية بين ذلك الموقع وما تواجهه اليمن من عدوان سافر متواصل منذ مارس ٢٠١٥م، مع الاشارة إلى طبيعة دور صانع القرار اليمني - ممثلة في قائد الثورة السيد المجاهد عبدالملك بدرالدين الحوثي - في التصدي لمشروع العدوان بمعطياته المتشعبة، ودور المرجعية الناظمة لذلك التصدي والمتمثلة في «الثقافة القرآنية» بما تتضمنه تلك الثقافة من خلاصات وسنن إلهية كونية تضبط رؤية المؤمنين لتجليات الارتباط ما بين معطيات الجغرافيا (مقومات الجيوبوليتيك) وطبيعة السلوك الواجب إزاء تلك المعطيات في سبيل استغلالها وتعظيمها من ناحية، وحمايتها من أطماع الأعداء من الناحية الأخرى، وذلك في إطار مجموعة المبادئ التي وضعها قائد الثورة، وعلى رأس تلك المجموعة أربعة مبادئ تتضمن: (مبدأ الإعداد على قدر الاستطاعة - مبدأ وجوب تعظيم الامكانيات المتوفرة وبناء القدرات - مبدأ موالاة المؤمنين والبراءة من الظالمين - مبدأ وجوب رد العدوان بمثله).

أولاً: الأهمية الجيوبوليتيكية لليمن

١- التاريخ الجيوستراتيجي لليمن[١]:

مما لا ريب فيه أن اليمن ظلت عبر التاريخ القديم عنصراً أساسياً في ما يمكن تسميته بـ"الحسابات الجيوبوليتيكية الكبرى" وفق الظروف السياسية لتلك الحقبة التاريخية، وذلك في إطار دائرة جغرافية يمتد محيطها ليشمل - على أضيق تقدير - مناطق: (جنوب غرب آسيا والمحيط الهندي - البحر الأحمر وشرق أفريقيا - شبه الجزيرة العربية والخليج العربي – شرق وجنوب شرق المتوسط). ومن الثابت تاريخياً أيضاً أن اليمن كانت حاضرة - بشكل أو بآخر - ضمن معطيات التفاعل السياسي والاقتصادي والاجتماعي المتعلق بتلك المناطق.

قديماً، قبل الميلاد بألفي عام وبعده بقرابة نصف قرن، إبّان الممالك اليمنية القديمة (معين وسبأ وحضرموت وقتبان وأوسان وحمير)؛ شهد العالم (القديم) تفاعلاً عالي المستوى بين اليمن والمناطق سالفة الذكر، تفاعلٌ ضم بين جنباته مظاهر عدة للصراع والتعاون بحسب طبيعة كل ظرف تاريخي. وفي إطار ذلك التفاعل احتلت اليمن موقع العامل المستقل خلال

١- يقصد بمفهوم "التاريخ الجيوستراتيجي" ما يتعلق بالأبعاد الاستراتيجية التي ارتبطت تاريخياً بمعطيات الجغرافيا السياسية لليمن، وهذا المفهوم يعد الأقرب من الناحية التحليلية لمفهوم "الجيوبوليتيك".

فترات زمنية طويلة، كما احتلت موقع العامل التابع خلال فترات أخرى محدودة، وذلك انطلاقاً من عدة عوامل ترتبط بالتجربة الحضارية والإنسانية لليمن واليمنيين عبر التاريخ. ويمكن إجمال تلك العوامل في إطار ثلاث مجموعات، وذلك على النحو الآتي:

- **مجموعة عوامل تتعلق بطبيعة المكونات الإنسانية والثقافية والحضارية - النوعية والمتميزة للشعب اليمني، إذ يتميز الشعب اليمني بنقاء قيمه الإنسانية التي أثبتت له عبر التاريخ صفات التواصل الإنساني التعاوني والسلمي مع الحضارات المجاورة، وموارده الثقافية والحضارية العربية الأصيلة التي مكنته من بناء نسيجه الثقافي والاجتماعي الخاص به والقائم على شيم إنسانية أصيلة من قبيل: (الحرية - الاستقلال - الإباء وشدة البأس - النجدة ونصرة المظلوم - حماية الحرمات - احترام المرجعيات الأسرية والقبلية والدينية - قوة الانتماء والولاء للوطن... إلخ)، ناهيك -أيضاً- عن الصفات الحضارية لليمن التي تتجسد بعض مظاهرها في ما تركه قدماء اليمنيين من تراث انشائي تنموي تعاوني يتصل بتعزيز مستويات الرفاه لعموم اليمنيين، وكذا تلك الشواهد على مستويات ذلك الرفاه متمثلة في القصور والبيوت الملحقة بوسائل الخدمات(١).**

١- تثبت نقوش المسند اليمنية وما ورد عن اليمن "المجيد" (أرضاً وشعباً) في الكتب السماوية - بما فيها بل وعلى رأسها "القرآن الكريم" - وفي أسفار ومخطوطات وكتابات الرحالة والمؤرخين الإغريق والرومان أن اليمن قد اختبر عبر التاريخ مناسبات عدة تلاقت فيها وتدافعت مع الآخر (حضارياً وإنسانياً)، كما شهد تاريخها القديم قيام دول وممالك ذات شأن حضاري وحضور سياسي قوي بين أمم العالم القديم، ومرت اليمن عبر تاريخها القديم والوسيط بفترات من القوة والازدهار مستلهمةً خلالها عناصر قوتها، وفترات من الضعف والوهن والوقوع في مرمى الأطماع الخارجية عندما تفرق أبناؤها واختلفوا وتاهوا عن تلك مصادر عزتهم وكرامتهم وقوتهم.
لتفاصيل حول ما سبق؛ يمكن الرجوع إلى المصادر الآتية:

- د. يوسف محمد عبدالله، أوراق في تاريخ اليمن وآثاره (بحوث ومقالات)، بيرو، دار الفكر المعاصر، ط٢، ١٩٩٠م.
- د. محمد عبدالقادر فقيه (وآخرون)، مختارات من النقوش اليمنية القديمة، تونس، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٥م.
- زيد علي عنان، تاريخ اليمن القديم، (د. م. ن.)، المطبعة السلفية، (د. ت.).
- اغناطيوس غويدي (مستشرق ايطالي)، محاضرات في تاريخ اليمن والجزيرة العربية قبل الاسلام، (ترجمة: ابراهيم السامرائي)، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٦م.
- أحمد فخري، دراسات في تاريخ الشرق القديم، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ط٢، ١٩٦٣م.
- د. حميد العواضي و د. عبداللطيف الأدهم (جمع وترجمة)، "بلاد اليمن في المصادر الكلاسيكية (دراسة ومختارات)"، صنعاء، وزارة الثقافة والسياحة، سلسلة كتاب الثقافة، العدد (١)، ٢٠٠١م.

ولتفاصيل حول أبرز ملامح التأثيرات الثقافية الحضارية لليمن في محيطها العربي ومكانتها في الصدد ذاته؛ يمكن الرجوع للمصادر الآتية:

- توفيق محمد السامعي، اللغة اليمنية في القرآن الكريم، صنعاء، الهيئة العامة للكتاب، ٢٠١٢م.
- هاشم الطعان، تأثر العربية باللغات اليمنية القديمة، بغداد، مطبعة الارشاد، ١٩٦٨م.
- كارل بروكلمان، الأدبيات اليمنية في المكتبات والمراكز الثقافية العالمية، (ترجمة: صالح بن الشيخ أبوبكر)، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٥م.

- **مجموعة عوامل تتعلق بطبيعة ما تمتع به موقع اليمن من تميز جيوستراتيجي في محيطه الإقليمي المباشر والأوسع؛ إذ مثلت الجغرافيا اليمنية الرئة التجارية للجزيرة العربية وشمالها، والعالم القديم في القارة العجوز (أوروبا)، وشمال وشرق البحر الأبيض المتوسط. حيث مثلت اليمن ما يمكن تسميته بـ"المورد الحصري" لعدد من أهم وأغلى السلع التجارية ذات الأهمية الكبرى لمجتمعات تلك المناطق، وهي مواد تنتج اليمن بعضها كـ (المُر واللبان وبعض المنسوجات النادرة وبعض أنواع أسلحة ذلك الزمان كالسيوف اليمانية الشهيرة)، ومواد أخرى تحتكر اليمن استيرادها من جنوب شرق آسيا والهند أو استلامها من مورديها في الموانئ اليمنية وإعادة تصديرها إلى المناطق الثلاث سالفة الذكر(١).**
- **مجموعة عوامل تتعلق بما شهده التاريخ من استعداد فطري لدى الشخصية اليمنية للمشاركة في صياغة مفاصل التاريخ السياسي والاقتصادي والاجتماعي للمناطق الثلاث سالفة الذكر(٢)، وذلك انطلاقاً من مبادئ سلوكية تتضمن ضمان حماية وتأمين طرق التجارة قديماً ورفع الظلم ودفع الاعتداء ونشر راية العدالة والسلام في ظل حرص شديد على احترام إرادة وثقافات ومذاهب الشعوب الأخرى وعدم فرض الوصاية عليها على أي مستوىً كان.**

من تفاعل العناصر الثلاثة سالفة الذكر يمكن وصف أبرز الملامح التي افرزها التاريخ الجيوستراتيجي لليمن في إطار محيطه الإقليمي، وذلك على النحو الآتي:

١- لتفاصيل وافية حول تجارة اليمن القديم؛ يمكن الرجوع إلى المصدر الآتي:

- **محمد حمزة جار الله الشمري، موانئ شبه جزيرة العرب وأثرها في النشاط التجاري البحري قبل الاسلام، (رسالة دكتوراه)، كلية التربية، جامعة ابن رشد (بغداد)، ٢٠٠٤م.**

٢- من الثابت تاريخياً أن اليمنيين ظلوا حاضرين بقوة في تحديد مسار أحداث تاريخية كثيرة مرت بها المناطق الثلاث المشار إليها آنفاً؛ كما شاركوا بقوة في معارك تثبيت أركان رسالة الاسلام وانتشارها، حيث تمثلوا في بداية الدعوة بالأنصار (الأوس والخزرج) ذوي الأصول اليمنية الذين تعاضدوا في

- ظلت اليمن عنصراً فاعلاً في محيطها الإقليمي المباشر والواسع، واحتفظت بسيطرتها التجارية لقرون طويلة من الزمن، واستطاعت تحقيق الحماية لمصالحها التجارية.

لقد عاصرت اليمن حضارات كبرى (العراق، مصر، روما، أثينا، بيزنطة، الهند، الصين، الحبشة، بلاد فارس)، وكانت محل اطماع بعض تلك القوى (الحبشة، روما، بيزنطة)، وذلك في ظل ما تمتعت به اليمن من مستويات ثراء مادي وطبيعي غاية في التميز، وكذا سيطرتها آنذاك القوية على التجارة الدولية وطرق نقلها. وغالباً ما كان الضعف الداخلي اليمني بمثابة الثغرة التي استطاع بعض أولئك الطامعين تهديد اليمن واحتلالها.

لقد شاءت إرادة الله (جلّ وعلا) أن تصبح اليمن وشعبها موئل دِينِه الخاتم والحصن المنيع لنبيه الكريم محمد (صلى الله عليه وآله)، ومدد التضحية في نَصرة الإسلام عبر التاريخ الاسلامي. لكن اليمن عانت - في المقابل - من تهميش جائر لدورها السياسي وتراثها الديني والفكري من طرف مراكز الحكم الاسلامي في دمشق وبغداد، وذلك خلال عدة قرون من الزمن اختبرت اليمن في ظلها حالة من التجزؤ والتشرذم بما فيها عصر الدويلات اليمنية المتناحرة، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى احتلال اليمن من قبل الايوبيين والمماليك والعثمانيين والإنجليز.

كما تحركت خلال التاريخ والحديث المعاصر تطلعات الرحالة والعلماء والمؤرخين والمستشرقين الغربيين، وأطماع بعض ملوك أوروبا للبحث في مكنونات الموروث التاريخي والحضاري لليمن، ونقل مخطوطات علومها ومعارفها المودعة في خزائن المساجد والبيوت إلى مكتبات الكنائس والجامعات الأوروبية، وكذا لمعرفة أسرار تميز مكونات الشعب اليمني (الشخصية والنفسية والاجتماعية) وثقافته السياسية الفريدة من نوعها في إطار محيطه الجغرافي الحيوي([1]).

١- لتفاصيل حول تلك التطلعات والأطماع يمكن الرجوع إلى:
توركيل هانسن، من كوبنهاجن إلى صنعاء، (ترجمة: محمد أحمد الرعدي)، بيروت، دار العودة، (منشورات مركز الدراسات والبحوث اليمني – صنعاء)، (النسخة الالكترونية – ٢٠١٦م).

٢- المقومات الجيوبوليتيكية لليمن:

نسلط الضوء في هذه النقطة على المقومات الجيوبوليتيكية لليمن بالتركيز على المقومات المتعلقة بالجغرافيا تحديداً[١]، مع بيان مدى الأهمية الاستراتيجية لتلك المقومات سواء بالنسبة لليمن أو لمحيطها الخارجي (إقليمياً وعالمياً). ومن المعلوم أن الحديث عن مصادر الثراء الجغرافي لأي دولة هو حديث مجرد - في المقام الأول - عن مصادر القوة المادية (الطبيعية) التي تمتلكها الدولة مقارنةً بمكونات محيطَيها الجغرافيَين (المباشر والحيوي). لكن الحديث عن تلك المصادر من منظور استراتيجي يتجاوز مجرد السرد الكمي والوصف الكيفي لها إلى تحليل أبعاد ودلالات انعكاساتها على وضع الدولة على أرض الواقع من حيث القوة أو الضعف، أي أنه حديث عن الأبعاد الجيوبوليتيكية لمصادر الثراء تلك.

في واقع الحال، تتمتع اليمن - من المنطلق سالف الذكر - بالعديد من مصادر الثراء الجيوبوليتيكي، وقد مثلت تلك المصادر - في مراحل وظروف تاريخية وسياسية معينة - مرتكزاً وحافزاً لنهضة اليمن وتوسع دورها الحضاري على المستويين الإقليمي والعالمي، كما مثلت في مراحل أخرى محفزاً لأطماع العديد من القوى الخارجية للسيطرة على اليمن وغزوها واحتلالها.

في السطور الآتية، سنعدِّد بعضاً من المقومات الجغرافية لليمن باعتبارها مصادر للثراء الجيوبوليتيكي الذي يتمتع به اليمن ويشكل مصادر مادية (طبيعية) لقوة الدولة اليمنية.

(أ)- الموقع الجغرافي العام لليمن:

تقع اليمن في جنوب غرب آسيا (جنوب شبه الجزيرة العربية)، وتشرف على مضيق باب المندب الذي يربط البحر الأحمر بالمحيط الهندي عن طريق خليج عدن. واليمن بموقعها هذا تمثل أحد أركان زوايا قارة آسيا الأربعة؛ ما يعني أنها ليست بذلك العنصر الجغرافي المحشور بين جنباتها، ولا المستلقي على أحد أضلاعها، بل إنها تتفرد بإطلالة متحكمة في منعطف العبور الأهم بين منعطفات القارة القليلة (خليج عدن وباب المندب).

١- تتعدد المقومات الجيوبوليتيكية للدولة بحيث تضم إلى جانب المقومات الجغرافية ما يتعلق بالجوانب الاقتصادية والسكانية والاجتماعية والثقافية... إلخ. واليمن تتمتع - بصفة عامة - بمميزات نوعية كثيرة في تلك الجوانب، إلا أن محدودية حيز هذه المادة لا تتسع بطبيعتها لتناول كل تلك الجوانب. وقد أثبتت المرحلة الراهنة من معركة مواجهة العدوان مدى جدية دور تلك المقومات - بجوانبها المتنوعة - في تلك المعركة من خلال تظافرها جميعاً في التصدي المتواصل والمتصاعد للعدوان وكسر شوكته منذ أكثر من ست سنوات.

(خريطة رقم ١): الموقع الجغرافي العام لليمن (بالنسبة لجوارها الإقليمي ولقارة آسيا)

- دلالات الموقع الجغرافي:

يلاحظ من الخريطة السابقة (رقم: ١) أن اليمن تتوسط بالفعل مسارات التلاقح الحضاري وخطوط التجارة العالمية قديماً وحديثاً، كما يمنحها موقعها ذاك ميزات جيوبوليتيكية نوعية في إطار جوار جغرافي مباشر يعد فقيراً نسبياً إلى تلك الميزات ومحدود التنوع فيها كذلك.

كما أن اليمن تقع ضمن موقع جغرافي عالي الكثافة بالوحدات السياسية الدولية (انظر خريطة رقم: ٢)، ما جعلها تستحوذ على قدر عالي من نسبة اهتمام التفاعلات السياسية الإقليمية عبر التاريخ، حيث أن مركز محيطها الجغرافي المباشر لم يغب مطلقاً عن أهم الأحداث الإقليمية التحولية بارتباطاتها الدولية المعقدة، وذلك في إطار الحروب والفتوحات والصراع حول السيطرة منذ التاريخ القديم، ومروراً بفجر الإسلام وعصور انتشاره، وصولاً إلى حقبة الصراع الاستعماري الغربي على طرق التجارية الدولية، وانتهاءً بفترة توسع الدولة العثمانية[1].

١- كما أشرنا سلفاً فإن الممالك اليمنية القديمة (معين وسبأ وحمير) ظلت مهيمنة على طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب لقرون طويلة من الزمن. كما كانت اليمن - أيضاً - محل أطماع وغزو واحتلال منذ أواخر القرن الأول قبل الميلاد وحتى بواكير القرن العشرين، وذلك من قبل الامبراطوريات القديمة والحديثة (الرومان، الأحباش، البرتغاليون، الانجليز، العثمانيون).

(خريطة رقم ٢): موقع اليمن من الخريطة السياسية للعالم

(ب)- موقع الجوار (الحدود):

يَحُدُّ اليمن من الشمال المملكة العربية السعودية بشريط حدودي يبلغ طوله (١٤٥٨ كم)، ومن الشرق سلطنة عُمان بشريط حدودي يبلغ طوله (٢٨٨ كم)، ويبلغ إجمالي طول تلك الحدود البرية حوالي (١٧٤٦ كم)، كما يحدها من الجنوب بحر العرب ومن الغرب البحر الأحمر بساحل بحري متصل يبلغ مجموع طوله حوالي (٢٥٠٠ كم).

- دلالات موقع الجوار:

اليمن بجوارها المباشر ذاك تتمتع بميزة جغرافية تتمثل في "محدودية عدد دول الجوار الحيوي المباشر"، حيث يُفترَض بذلك الأمر أن يؤدي - بحسب مقولات علم الجيوبوليتيك - إلى محدودية احتمال مواجهة اليمن لحجم المشاكل التي عادة ما تنشأ بوتيرة أعلى في حال تعددت دول الجوار[1].

كما يلاحظ أن حدود اليمن تتخذ النمط الهندسي حيث تتبع خطوطاً مستقيمة وزوايا محددة تفصل بينها وبين دول جوارها (السعودية – عُمان). وذلك لا ريب يضيف لعامل الحدود مزية نسبية تضاف لقوة

١- يصدق ذلك الطرح النظري - بقدر كبير - عندما يتعلق الأمر بالجانب الكمي (عدد مشاكل الجوار وأطرافه)؛ لكن من ناحية تطبيقية، هناك العديد من حالات الجوار الجغرافي المحدود بين دول ضعيفة وأخرى قوية تعاني فيها الدول الضعيفة من حدة المشاكل مع جاراتها القوية، أي أن الجانب الكيفي للمشاكل - حتى في ظل محدودية عددها وأطرافها - يكون غاية في التعقيد والخطورة، ويصل في كثير من الأحيان إلى انتقاص سيادة واستقلال الدول الضعيفة. والنموذج السعودي - اليمني يعد أحد النماذج الصارخة في الصد ذاته؛ إذ فرضت طبيعة السياسات السعودية التدخلية تجاه اليمن منذ ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢م حتى ٢١ سبتمبر ٢٠١٤م مناخاً من التوتر السياسي والجيوبوليتيكي في وجه أي محاولات يمنية لبناء سياسات مستقلة عن الهيمنة السعودية، وانسحب ذلك ليس فقط على الجوانب السياسية والدبلوماسية بل أيضاً على جوانب تتعلق بتسوية ملف الحدود السياسية بين البلدين وتنمية الموارد واستخراجها وكذا جوانب تتعلق بالثقافة الوطنية والانتماءات المذهبية والانسجام المجتمعي بصفة عامة.

اليمن؛ حيث ييسر ذلك لليمن مراقبة وحماية حدودها وفق خطط انتشار وتموقع مرنة ومناسبة وقليلة الكلفة مادياً وبشرياً، كما يسهل ذلك درء مخاطر احتمالات الاجتزاء من تلك الحدود أو التلاعب بخطوطها المحددة.

ومن ناحية أخرى، تتمتع الحدود اليمنية الشمالية والشمالية الغربية بتضاريس جغرافية تشكل موانع طبيعية تساعد في الدفاع عن الدولة وحمايتها، وهي تعد أيضاً مواقع استراتيجية مسيطرة على ما يليها من أراضي الدولة المجاورة (السعودية)؛ حيث تستحوذ الجغرافيا اليمنية على أعلى المرتفعات الجبلية ضمن سلسلة جبال السراة المطلة على سهل تهامة والتي تبدأ من المناطق الوسطى والجنوبية الغربية في اليمن وتنتهي في أطراف منطقة تبوك السعودية، ويسجل جبل النبي شعيب (بني مطر) القمة الأعلى ارتفاعاً في تلك السلسلة، حيث يبلغ ارتفاعه حوالي (٣٦٦٦م).

(خريطة رقم ٣): موقع اليمن بالنسبة لجوارها الحيوي المباشر

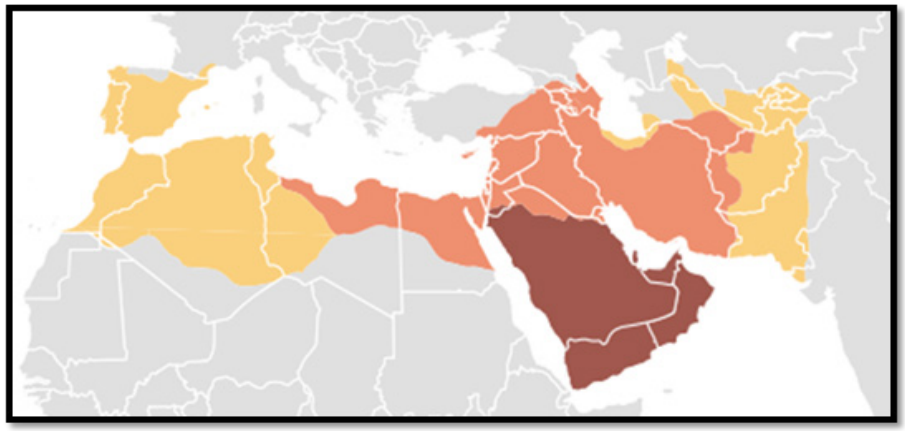

(ج)- حجم الدولة:

المساحة الكلية لليمن حوالي (٥٥٥،٠٠٠ كم٢). واليمن بحجمها هذا تشكل رقماً وازناً ضمن محيطَيها الجغرافيين المباشر والحيوي. وتقع ضمن مجموعة الدول كبيرة الحجم (بين ٣٥٠،٠٠٠ – ٢،٥ مليون كم مربع)، والتي تضم دولاً مثل: فرنسا والمكسيك.

- دلالات حجم مساحة اليمن:

لاتساع مساحة الرقعة الجغرافية لليمن أهمية خاصة في فترات الحرب، وتتمثل تلك الأهمية في العمق الاستراتيجي أو ما أطلق عليه علماء الجيوبوليتيك الألمان ميزة "الدفاع في العمق" الذي يوفره الحجم الكبير للدول، وذلك الحجم يوفر لليمن فرص أكبر لتعدد أنواع الموارد والثروات الطبيعية، ناهيك عن توسع أفق التنمية البشرية، وتكاتف الجهود والإمكانات والقدرات لصنع قوة استراتيجية وعسكرية يحسب لها الحساب في إطار ميزان القوى الإقليمي.

(د)- شكل الدولة:

من بين الأشكال الستة المعتادة للدول[١]، تتخذ الجغرافيا اليمنية الشكل المتراص المتماسك المندمج الأطراف، ويعد هذا الشكل بمثابة النمط المثالي لشكل الدولة؛ إذ يمتاز بقصر طول الحدود قياساً بالمساحة الكلية لأرض الدولة، أو انخفاض النسبة بين طول الحدود ومساحة الدولة.

- دلالة شكل الدولة اليمنية:

يسهل هذا الشكل على الحكومة والجهات الأمنية في اليمن عملية السيطرة الادارية والأمنية على أجزاء الدولة، كما يسهل على الجيش الانتشار في كافة أنحاء اليمن، ويسهل بالتالي عملية الدفاع عنها ضد أي عدوان خارجي، كما يوفر هذا الشكل فسحة واسعة وعمقاً استراتيجياً للمناورة العسكرية (هجوماً ودفاعاً) في حالة الحرب.

(خريطة رقم ٤): الجمهورية اليمنية

(هـ)- الطبوغرافيا (التضاريس)[٢]:

تتمتع اليمن بشكل طبوغرافي (تضاريس) متنوع ومؤثر في تنوع طبيعة المناخ؛ إذ تجمع الطبوغرافيا اليمنية ما بين السهول الساحلية الممتدة والمتصلة، والوديان والقيعان، والهضاب والجبال، والصحاري، والجزر ذات المواقع الاستراتيجية (انظر الخرائط: ٥، ٦، ٧). وتقسم تضاريس اليمن في الإطار ذاته إلى خمسة أقاليم جغرافية رئيسية، حيث يتمتع كل إقليم منها بتضاريس مختلفة عن الأقاليم الأخرى، وذلك على النحو الآتي:

- إقليم السهل الساحلي:

١- لتفاصيل حول شكل الدولة؛ راجع: عنصر "شكل الدولة" ضمن عرض المطلب الرابع من المحاضرات (الجيوبوليتيك وعنصر الدولة)، ص ٣٤.

٢- د. شهاب محسن عباس، جغرافية اليمن الطبيعية، صنعاء، مؤسسة الزهيري التعليمية، ١٩٩٤م، ص ٢٢ – ٤٣.

يمتد هذا الإقليم بشكل متقطع على طول السواحل اليمنية حيث تقطعه الجبال والهضاب التي تصل مباشرة إلى مياه البحر في أكثر من مكان، ولذا فإن إقليم السهل الساحلي لليمن يشتمل على السهول الآتية:

(سهل تهامة – سهل تبن – سهل ميفعة أحور – السهل الساحلي الشرقي ويقع ضمن محافظة المهرة).

ويتميز إقليم السهل الساحلي بمناخ حار طول السنة مع أمطار قليلة تتراوح بين (٥٠ – ١٠٠ ملم) سنوياً، إلا أنه يعتبر إقليماً زراعياً هاماً وخاصة سهل تهامة، وذلك ناشئ عن كثرة الأودية التي تخترق هذا الإقليم وتصب فيه السيول الناشئة عن سقوط الأمطار على إقليم المرتفعات الجبلية المحيطة بهذا الإقليم.

- إقليم المرتفعات الجبلية:

يمتد هذا الإقليم من أقصى حدود اليمن شمالاً وحتى أقصى الجنوب، وقد تعرض هذا الإقليم بقدرة الله وعبر ملايين السنين لحركات تكتونية (تحركات طبقات قشرة الأرض) نجم عنها انكسارات رئيسية وثانوية في الطبقات، بعض تلك الانكسارات يوازي البحر الأحمر وبعضها الآخر يوازي خليج عدن، ونجم عن ذلك تشكل هضاب ناتئة حصرت بينها أحواضاً جبلية تسمى قيعاناً أو حقولاً .

يعد هذا الإقليم غنياً بالأودية السطحية التي تُخَّددها إلى كتل ذات جوانب شديدة الانحدار، حيث تشكل تلك الكتل جداراً جبلياً يطل على سهل تهامة بجروف وسفوح شديدة الانحدار. وتعد جبال هذا الإقليم الأكثر ارتفاعاً في شبه الجزيرة العربية، حيث يتجاوز متوسط ارتفاعها (٢٠٠٠م)، وتصعد قممها لأكثر من (٣٥٠٠م)، فيما تصل أعلى قمة فيها (جبل النبي شعيب) إلى (٣٦٦٦م). كما يقع ما يُعرف بـ: "خط تقسيم المياه" في هذه الجبال حيث تنحدر المياه عبر عدد من الوديان شرقاً وغرباً وجنوباً، ومن أهم هذه الوديان: (وادي مور – حرض – زبيد – سهام – رسيان)، وهذه تصب جميعها في البحر الأحمر، أما الوديان التي تصب في خليج عدن والبحر العربي فأهمها: (وادي تبن – وادي بنا – وادي حضرموت).

- إقليم الأحواض الجبلية (القيعان):

يتمثل هذا الإقليم في الأحواض والسهول الجبلية الموجودة في المرتفعات الجبلية، وأغلبها يقع في القسم الشرقي من خط تقسيم المياه الممتد من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب وأهمها: (قاع يريم – ذمار – معبر ، حوض صنعاء، قاع عمران، قاع صعدة).

- إقليم المناطق الهضبية:

تقع إلى الشرق والشمال من إقليم المرتفعات الجبلية وموازية لها لكنها تتسع أكثر باتجاه الربع الخالي وتبدأ بالانخفاض التدريجي، إذ ينحدر السطح نحو الشمال والشرق انحداراً لطيفاً. ويتشكل معظم سطح

هذا الإقليم من سطح صخري صحراوي تمر فيه بعض الأودية وخاصة وادي حضرموت ووادي حريب ووديان الجوف.

وتنقسم المنطقة الهضبية إلى قسمين هما:

- **(الهضبة الغربية):** تتألف من صخور نارية أركية ومتحولة ويطلق عليها اسم (الكور)، وتبلغ الهضبة ذروة ارتفاعها في الغرب حيث يبلغ زهاء (٣٣٠٠م) بالقرب من مضيق باب المندب، ويتناقص علوها في الشرق فيصبح نحو (٢٠٠٠م).
- **(هضبة حضرموت):** وهي الهضبة الشرقية وتنقسم إلى قسمين كبيرين يفصل بينهما وادي حضرموت.
- **(**هضبة حضرموت الجنوبية**):** يبلغ ارتفاعها (١٢٣٠م) ويتناقص شرقاً ليصل إلى (٦١٥م)
- **(**هضبة حضرموت الشمالية**):** يبلع ارتفاعها إلي (١٣٥٠م) عنه في الشرق الذي يبلغ (٥٠٠م).

- إقليم الصحراء:

هو إقليم رملي يكاد يخلو من الغطاء النباتي باستثناء مناطق مجاري مياه الأمطار التي تسيل فيها بعد سقوطها على المناطق الجبلية المتاخمة للإقليم ويتراوح ارتفاع السطح هنا بين (٥٠٠-١٠٠٠) م فوق مستوى سطح البحر وينحدر دون انقطاع تضاريسي ملحوظ باتجاه الشمال الشرقي إلى قلب الربع الخالي والمناخ هنا قاسٍ يمتاز بحرارة عالية والمدى الحراري الكبير والأمطار النادرة والرطوبة المنخفضة.

- دلالة تضاريس اليمن:

يوفر تنوع تضاريس اليمن العديد من الفرص الواسعة جداً لتعزيز مستويات الانتاج الزراعي والصناعي والتعديني والسمكي، وذلك ما بين السواحل الطويلة المؤهلة كموانئ للتجارة والصيد والسهول المنبسطة وافرة المياه الجارية والجوفية، والهضاب والجبال المستصلحة للزراعة والغنية بتربتها المتجددة، والوديان والقيعان الخصبة ووافرة الأمطار والمياه الجوفية، والصحارى القابلة في أغلبها للاستصلاح الزراعي في حال تم استغلال مواسم جريان مياه الوديان التي تصب في أجزاء من تلك الصحارى خلال مواسم الأمطار التي تسقط على الجبال والهضاب الداخلية، وسد مأرب مثال عملي يمكن اعادة استنساخه حيثما كان ذلك ممكناً ومجدياً، بما في ذلك بعض المواقع ضمن منحدرات الهضاب والجبال الداخلية المطلة على بعض الوديان والقيعان الخصيبة.

كما يوفر تعدد تضاريس اليمن تعدد الظروف المناخية بين أكثر من منطقة وفي الوقت نفسه من السنة، وذلك يوفر في المقابل امكانيات واسعة وذات جدوى كبيرة لتنوع المنتجات الزراعية وتوافرها طيلة العام، ناهيك عما يوفره ذلك التنوع المناخي من امكانيات عملية لتنوع وتوسع الاستثمار في مجالات الانتاج والتصنيع التي تتطلب ظروفاً مناخية محددة، وكذا تنوع وتوسع الاستثمار في مجال تجارة الخدمات كالسياحة البيئية على سبيل المثال.

(خريطة رقم ٥): خريطة طبيعية لطبوغرافية اليمن (التضاريس)

(خريطة رقم ٦): خريطة طبوغرافية لليمن

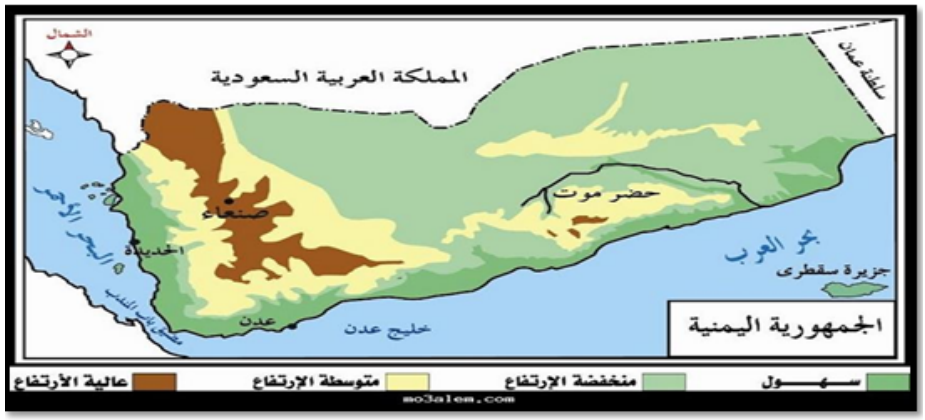

خريطة رقم ٧) خريطة طبوغرافية (أولية) لشبه الجزيرة العربية

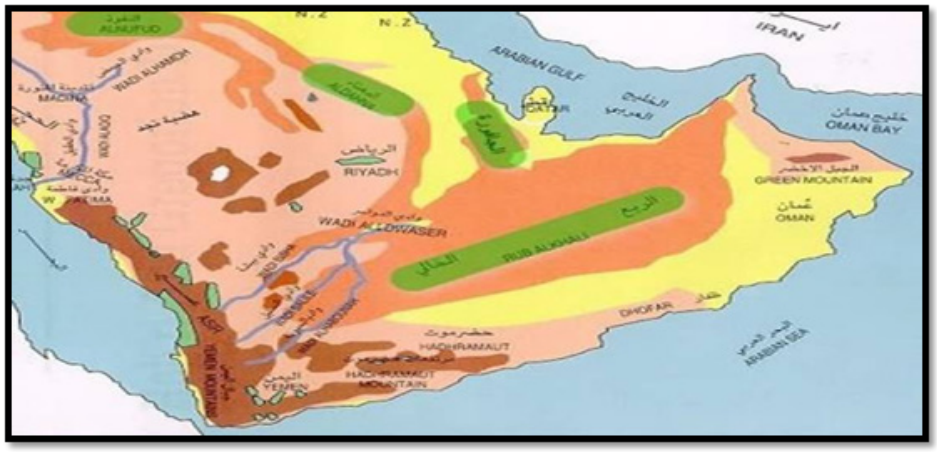

(و)- الموقع الفلكي والمناخ:

تقع اليمن بين دائرتي عرض (١٢- ١٩) شمالاً (١٥ درجة شمال خط الاستواء)، وبين خطي طول (٤١ و ٥٤) شرقاً (٤٨ درجة شرق خط جرينيتش). ويظهر من موقع اليمن الفلكي أنها تقع ضمن (٧ دوائر عرض) و (١٣ خط طول)، وهو ما يعكس شكل المساحة المتطاول.

مع أن موقع اليمن يعد ضمن المنطقة المدارية المتميزة بالمناخ الجاف؛ إلا أن وجود التباين في التضاريس في اليمن حال دون أن تكون أغلب مساحاتها صحراء من ضمن الصحاري المدارية الحارة كدول شبه الجزيرة العربية والمنطقة الصحراوية شرق اليمن (انظر الخريطتين رقم: ٨ و ٩).

(خريطة رقم ٨) موقع اليمن من خط الاستواء

(خريطة رقم ٩) خريطة مناخية للعالم

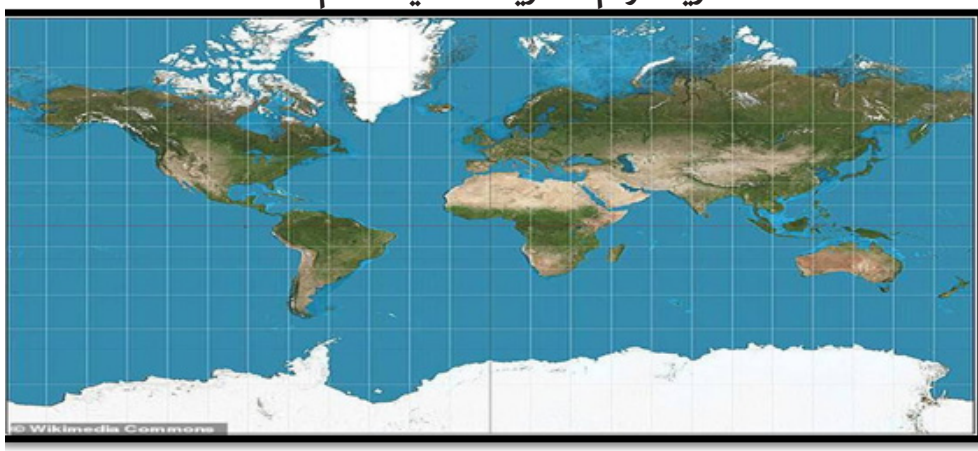

يعد مناخ اليمن - بصفة عامة - من بين أكثر مناخات العالم اعتدالاً طيلة العام، كما يتميز بتعدد الظروف المناخية ما بين منطقة وأخرى في الفصل نفسه. ويرتبط بذلك التميز والتعدد هطول كميات من مياه الأمطار تتناسب إلى حد بعيد مع احتياجات المواسم الزراعية - المتنوعة بطبيعتها - في مناطق اليمن بتضاريسها المختلفة ما بين السهل والوادي والقاع والهضبة والجبل.

بالرغم من أن اليمن تطل على بحرين هما البحر الأحمر والبحر العربي، إلا أن مناخ اليمن لم يستفد كثيراً من الخصائص البحرية لكلا البحرين سوى في رفع درجة الرطوبة الجوية على السواحل، حيث أن تأثير هذين البحرين في تعديل خصائص مناخ الجمهورية محدود جداً، إذ يقتصر ذلك على الرطوبة وتعديل بعض خصائص الرياح، كما أن دورهما في حالة عدم الاستقرار الجوي محدود.

تسقط الأمطار في اليمن في موسمين الموسم الأول خلال فصل الربيع (مارس - أبريل) والموسم الثاني في الصيف (يوليو - أغسطس) وهو موسم أكثر مطراً من فصل الربيع. وتتباين كمية الأمطار الساقطة على اليمن تبايناً مكانياً واسعاً؛ فأعلى كمية تساقط سنوي تكون في المرتفعات الجنوبية الغربية كما في مناطق (إب وتعز والضالع ويريم) حيث تتراوح كمية الأمطار الساقطة هناك ما بين (٦٠٠ - ١٥٠٠ مم سنوياً)، وتقل كمية الأمطار الساقطة في السهل الساحلي الغربي كما هو في الحديدة والمخا بالرغم من تعرضها للرياح الموسمية الجنوبية الغربية القادمة من المحيط الهندي العابرة للبحر الأحمر، وذلك نتيجة لعدم وجود عامل رفع لهذه الرياح الرطبة؛ إلا أن متوسط المطر السنوي يزداد مع الارتفاع من (٥٠ مم) على الساحل إلى نحو (١٠٠٠ مم) على سفوح الجبال المواجهة للبحر الأحمر.

لا يختلف الأمر في السواحل الجنوبية والشرقية للبلاد عن السواحل الغربية من حيث كمية الأمطار والتي تبلغ نحو (٥٠ مم سنوياً) كما في عدن والفيوش والكود والريان، ويرجع سبب ذلك إلى عدة عوامل أهمها أن اتجاه حركة الرياح الرطبة تسير بمحاذاة الساحل دون التوغل إلى الداخل لذا فإن تأثيرها يكون قليل جداً، وبالتالي فإن الأمطار الساقطة على تلك المناطق ليست ذات أهمية اقتصادية تذكر.

ومن حيث درجات الحرارة فإن السهول الشرقية والغربية تتميز بدرجات حرارة مرتفعة حيث تصل صيفاً إلى (٤٢ درجة مئوية)، وتهبط في الشتاء إلى (٢٥ درجة مئوية)، وتنخفض درجات الحرارة تدريجياً باتجاه المرتفعات بفعل عامل الارتفاع بحيث تصل درجات الحرارة إلى (٣٣ درجة مئوية) كحد أقصى وإلى (٢٠ درجة مئوية) كحد أدنى، وفي فصل الشتاء تصل درجات الحرارة الصغرى على المرتفعات إلى ما يقرب درجة الصفر وقد سجل شتاء عام ١٩٨٦م انخفاضاً في درجة الحرارة في ذمار إلى (سالب ٢ درجة مئوية).

أما الرطوبة فهي مرتفعة في السهول الساحلية تصل إلى أكثر من ٨٠ ٪ بينما تهبط باتجاه الداخل بحيث يصل أدنى نسبة لها في المناطق الصحراوية والتي تبلغ نسبة الرطوبة فيها ١٥٪.

- دلالة الموقع الفلكي والمناخ:

من الثابت جغرافياً أن ما تتمتع به اليمن من تميز نوعي في عامل التضاريس حال إلى حد بعيد دون أن يصبح الموقع الفلكي لليمن أحد مواطن الضعف في مقدرات اليمن البيئية ووزنها الاقتصادي؛ إذ أن الموقع الفلكي أحد العوامل الثابتة والمؤثرة في الظروف البيئية والاقتصادية، وذلك استناداً إلى عوامل تتعلق بطبيعة الغطاء النباتي والتربة والإنتاج الزراعي وعلاقتها بحجم ومعدل توافر المياه الصالحة للري. فموقع اليمن الفلكي وشكل تضاريسها مكن معظم تلك التضاريس وخاصة مناطق المرتفعات والهضاب الوسطى والداخلية من أن تشكل ما يمكن تسميته بـ"المصيدة المناخية" وخاصة في فصل الصيف، حيث تتلقف تلك التضاريس بمناخها البارد نسبياً موجات الرياح الموسمية الدافئة المشبعة بأبخرة الماء القادمة من الهند والمحيط الهندي، لتحتضن تلك الموجات دافعةً إياها بأمر الله لإنزال ما تحتمله من بخار الماء في شكل أمطار بكميات تتناسب وحاجة الزراعات المتنوعة في مناطق الجبال والهضاب ومن ثم القيعان والسهول والوديان الجارية، إلى أن يصل خير تلك الأمطار إلى أقاصي السهول والصحارى على امتداد الجغرافيا اليمنية.

(ز)- التنوع البيئي الحيوي:

تمتاز البيئة اليمنية بتنوعها الحيوي حيث لعب الموقع المتميز لليمن على ملتقى ثلاث مناطق حيوية بالإضافة إلى تدرج بيئاتها التضاريسية من الجبال إلى السهول فالصحارى حتى الجزر البركانية في إنتاج تنوع حيواني غزير سواء في بيئة البر أو البيئة البحرية ، فقد أدى تنوع المناخ في المناطق اليمنية إلى تنوع بيئي في أشجار الحراجيات والنباتات المختلفة وأنواع الحيوانات والطيور ، كما تعد جزيرة سقطرى ذات تميز بيئي حيث يمثل أحد النظم البيئة العالمية المتعارف عليها حيث توجد في الجزيرة نباتات وطيور وحيوانات مستوطنة لا تتوافر في مناطق أخرى من العالم مثل شجرة دم الأخوين، والعشرات من أنواع النباتات الأخرى التي تتميز بها الجزيرة ، وفيما يتعلق بالبيئة البحرية فهناك تعدد فيها نتج عن موقع اليمن الذي يشرف على بحرين لكل منهما خصائصه البيئية المختلفة.

وتعد اليمن من أغنى دول المنطقة العربية بالتنوع الحيوي فقد ساهم الموقع الجغرافي ومعالم التنوع الطبوغرافي في وجود تنوع كبير في البيئة الطبيعة كما أدت التغيرات المناخية التي شهدتها اليمن منذ أزمان مختلفة إلى وجود تنوع نباتي يتميز بفنائه وعدم تجانسه.

وتشير البيانات إلى أن عدد أنواع النباتات في اليمن بلغ (٣٠٠٠) نوع بينها قرابة (١٠٪) نباتات مستوطنة وهناك (٨٥٠) نوع من النباتات في جزيرة سقطرى منها حوالي (٢٩٣) نوع منها مستوطن ومعظمها من النباتات العصارية.

وقد سجلت الدراسات (٧١) نوعاً من الثدييات البرية تعود إلى (٨) رتب حيوانية بما فيا الخفاشيات كما سجلت الدراسات (٥) أنواع من الغزلان في اليمن وأكثرها شيوعاً هو غزلان "الآدمي" أو الغزال الجبلي الغربي، أما الأنواع الأربعة الأخرى فهي نادرة جداً عند ملتقى ثلاث مناطق حيوية.

كما لعب موقع اليمن دوراً في إحداث تنوع حيواني فقد ساهم أيضاً في وجود أصناف من الطيور ذات خليط من المواقع الثلاثة ،خصوصاً وأنه يعد نقطة توقف للطيور المهاجرة. كما أدي العزل الجغرافي بحرياً وصحراوياً إلى إنتاج (١٣) نوع مستوطن أو شبه مستوطن من الطيور. وتسجل الدراسات البيئية ما بين (٣٧٠) إلى (٤٠٠) نوع من الطيور منها (١٩٠) نوعاً في جزيرة سقطرى (٦) أنواع منها مستوطنة و(١١) نوع يشتبه في أنها مستوطنة.

وبرغم إشارة المختصين في مجال البيئة والتنوع الحيوي إلا أن البرمائيات والزواحف اليمنية لم تحظ بنفس الدراسة التي حظيت بها الطيور والثديات إلا أنهم يؤكدون أن هناك أنواعاً جديدة من البرمائيات والزواحف ما زالت تُكتشف وتُوصف بصورة مستمرة. ويبلغ عدد أنواع البرمائيات المسجلة في اليمن (١١٧) نوعاً منها (٨) أنواع من البرمائيات تتعلق بـ (٥٤) جنس و (١٨) عائلة.

ويحدد المختصون أنواع الزواحف في (٧١) نوعاً من السحالي، (٢٨) نوعاً من الثعابين، و (٣) أنوع من البرمائيات. وتقسم أنواع السلاحف في اليمن إلى (٦) أنواع منها نوع واحد بري ونوع واحد يتواجد في المياه العذبة و(٤) أنواع من السلاحف البحرية.

كما تم تسجيل حوالي (٣٠٠٠) نوع من العناكب البرية و (١٨) نوعا من الحشرات الرعّاشة في جزيرة سقطرى، وتعتبر (١٦) منها مستوطِنة في الجزيرة ولا توجد في أي مكان آخر من العالم، وفي مجال التنوع الحيوي الزراعي تم تسجيل (٤٠) صنفاً من التمور إلى جانب أعداد كبيرة من أصناف البن والعشرات من أصناف العنب.

(ح)- الموقع البحري (الواجهة البحرية وخطوط النقل الدولية - البحر الأحمر - الجزر اليمنية):

يتميز موقع اليمن البحري بأنه يتكون من جبهتين مائيتين (جنوبية وغربية)، بالإضافة إلى تحكمه بمضيق باب المندب أحد المضايق المائية المهمة باعتباره عنق الزجاجة بالنسبة للبحر الأحمر، حيث يتحكم المضيق بإمكانية مرور وسائل النقل البحري التجارية بين الشرق والغرب، إذ يمر عبره حوالي (٣،٣ مليون برميل نفط) يومياً، ويساوي ذلك ما نسبته (٤٪) من الطلب العالمي على النفط. كما تمر عبره (٢١ ألف سفينة سنوياً). كما تمثل الشحنات التجارية التي تمر عبر الممر ما يعادل (١٠٪) من الشحنات التجارية العالمية، ما يجعله يحتل المرتبة الثالثة عالمياً بعد مضيقي هرمز وملقا.

ولقد زاد من الأهمية الاستراتيجية لمضيق باب المندب وقيمته الاقتصادية، أنه يتيح لليمن التوسع في علاقاتها السياسية والاقتصادية والعسكرية (إقليمياً وعالمياً). كما أن الموقع البحري لليمن يمنحها - بصفة عامة - حدوداً طبيعية مثالية لما يشكله البحر من عازل طبيعي بين اليمن وغيرها من دول الجوار الإقليمي، وذلك على اعتبار أن حماية الحدود البحرية أقل كلفة إذا ما قورنت بمتطلبات الحماية للحدود البرية الواسعة، والتي تحتاج إلى قوة كبيرة للدفاع عنها، كما أن البحر يعطيها الأمان لتجارتها الدولية إذا ما تعرضت جبهاتها الأخرى لأي تهديد.

- الواجهة البحرية وخطوط النقل الدولية:

تمتد الواجهة البحرية لليمن على مسافة قدرها (٢٥٠٠ كم)، أي أن كل كيلو متر من الواجهة البحرية يقابله (١٨٢،٢ كم٢) من المساحة البرية. وبمقارنة هذا المعدل بالمعدل العام للوطن العربي والذي يبلغ (٦١٠/١ كم٢) نجد بأن سواحل اليمن تعد طويلة نسبياً بالنسبة للمساحة البرية، ما يجعل مختلف المناطق البرية قريبة من السواحل، وذلك يسهل حماية تلك السواحل من ناحية، ويعزز - من الناحية الأخرى - الانتشار السكاني المتوازن بين المناطق الداخلية والمناطق الساحلية، ويساعد - أيضاً - في تعزيز الروابط الاقتصادية والتجارية بين تلك المناطق كافة.

وتمتاز الواجهة البحرية لليمن بإطلالة معظم مناطقها على الممرات الصالحة للملاحة البحرية وخطوط النقل البحري عبر البحر العربي وخليج عدن والبحر الأحمر. والملاحظ أن سواحل اليمن على البحر الأحمر بصفة خاصة تكاد تستحوذ على معظم النقاط الصالحة للملاحة بقربها، كما تشكل في أغلبها مناطق صالحة لإقامة الموانئ التجارية. وقد أدرك القدماء تلك الحقائق ورسموا الخرائط البحرية التي تبين أهمية سواحل وموانئ اليمن في التجارة والنقل البحري، وهي الأهمية المستمرة حتى وقتنا الحاضر (انظر الخريطتين رقم:)، خاصة في ظل المشروع الاقتصادي – التجاري العملاق التي تتبناه مجموعة (البريكس) في إطار ما أصبح يعرف بـ: "طريق الحرير الجديد" أو "مشروع الطريق والحزام" الذي من المتوقع أن يشكل اختراقاً كبيراً في جدار النظام الاقتصادي - التجاري العالمي من خلال كسره دائرة احتكار العالم الصناعي الغربي لحركة نقل السلع وتدفق التجارة والاستثمارات العالمية، وذلك في ظل فتح آفاق مشاركة الدول النامية والأقل نمواً في تلك الأنشطة الاقتصادية (انظر الخرائط: ١٠، ١١، ١٢، ١٣).

(خريطة رقم ١٠): مجرى الملاحة الدولية في البحر الأحمر (خريطة قديمة)

(خريطة رقم ١١): مراقبة حركة النقل البحري (ON – LINE)

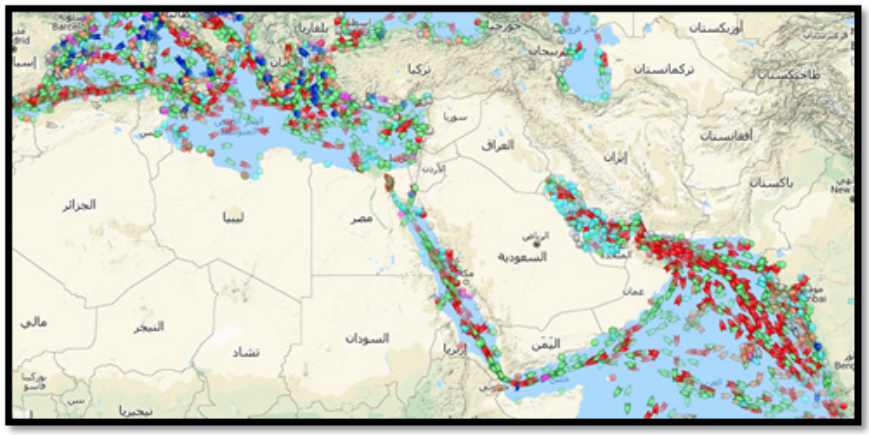

(خريطة رقم ١٢): مسار مشروع الطريق والحزام (تكتل البريكس)

(خريطة رقم ١٣): موقع اليمن من طريق الحرير الجديد (الطريق والحزام)

- البحر الأحمر والجزر اليمنية[1]:

- البحر الأحمر:

في واقع الحال، ومن منظور تاريخي، لا ريب أن تناول مسألة أمن البحر الأحمر والتنافس الدولي للسيطرة عليه كشريان (ممر) حيوي للربط ما بين الشرق والغرب، لا يقف عند حدود التاريخ الحديث أو المعاصر فحسب؛ إذ تثبت الوثائق والمرجعيات التاريخية أن تلك المسألة كانت على رأس أجندة السياسات العالمية منذ أواخر القرن الأول قبل الميلاد[2] - على أقل تقدير.

وأيضاً؛ لعل مما ينبغي الإشارة إليه في هذا المقام هو أن اليمن ظلت على الدوام بمثابة المعطى الجيوبوليتيكي الأهم - إن لم يكن الأوحد - ضمن حسابات السياسات الدولية المتعلقة بمسألة أمن البحر الأحمر ومحاولات السيطرة عليه[3]. بمعنى آخر؛ لا يمكن لأي دولة على المستويين الإقليمي أو العالمي التعامل مع مسألة أمن البحر الأحمر أو محاولة السيطرة عليه - بأي شكل من الأشكال - دون أن تكون اليمن (كمعطى جيوبوليتيكي) على رأس أولويات ذلك التعامل، إن لم تكن هي الرأس بذاته.

١- اعتمدت هذه الجزئية على:

سامي محمد السياغي، "مجلس الدول العربية والأفريقية المطلة على البحر الأحمر وخليج عدن: اليمن وتوسيع نادي الوكلاء الاقليميين" (ورقة تقدير موقف)، مجلة مقاربات سياسية، (العدد: ٦)، السنة الثالثة، ابريل – ديسمبر ٢٠١٩م ص ٢٤٥ – ٢٥٦.

٢- في ذلك الشأن؛ يمكن الرجوع إلى المصادر التاريخية التي تغطي تاريخ اليمن القديم خلال الفترة: (من أواخر القرن الأول قبل الميلاد وحتى القرن السادس الميلادي)، وهي الفترة التي شهدت الغزو الروماني لليمن (٢٤ ق. م.)، والغزو والاحتلال الحبشي (الأول والثاني) لليمن (٥٢٥ - ٥٧٦ ميلادي)، والوجود الفارسي في اليمن إبان طرد الاحتلال الحبشي (٥٧٦ ميلادي)، والذي تحول إلى احتلال فارسي فعلي لليمن (٥٧٦ - ٦٢٨ ميلادي).

٣- لا ريب أن تفرد اليمن بتلك الأهمية الجيوستراتيجية بالنسبة لأمن البحر الأحمر قد تغير نسبياً بعد حفر قناة السويس وتدشينها في (١٨٥٩م)؛ لكن ذلك التغير لم يمس حجم تلك الأهمية ومداها بقدر ما عَنى ظهور لاعب جيوستراتيجي جديد (شريك جديد) في البحر الأحمر (مصر - قناة السويس). وبالتالي لم تعد اليمن متفردة بالأهمية الجيوستراتيجية دون شريك، لكن حجم ومدى أهميتها تلك لم يتراجعا إن لم يكونا - في حقيقة الأمر - قد زادتا على خلفية وجود القناة؛ إذ - في التحليل الاستراتيجي النهائي - لا ريب أن حفر قناة السويس قد عظَّم من الأهمية الجيوستراتيجية للبحر الأحمر اجمالاً.

وبالتالي، لم تغب اليمن عبر التاريخ عن الأحداث السياسية الكبرى التي جرت على مسرح البحر الأحمر، محركةً لتلك الأحداث تارةً، وهدفاً لها تارة أخرى؛ ابتداءً من السيطرة اليمنية على الساحل الشرقي لأفريقيا، إلى محاولات غزو واحتلال اليمن من قبل الرومان والأحباش والفرس والمماليك والبرتغال والعثمانيين والبريطانيين، إلى المواجهة العسكرية بين العرب والكيان الصهيوني (إسرائيل)، إلى حوادث إلقاء الألغام البحرية (الإسرائيلية غالباً) في مياه البحر الأحمر بهدف تدويله، إلى محاولات اليمن (بقيادة الرئيس الشهيد ابراهيم الحمدي) انشاء تكتل عربي أفريقي لحماية أمن البحر الأحمر ووأد التدخل والوجود الأجنبي على مياهه، مروراً بتأجير إثيوبيا ومن ثم إريتريا بعض جزره - المقابلة للسواحل اليمنية - للكيان الصهيوني، ووصولاً إلى احتلال إريتريا للجزر اليمنية (حنيش الكبرى والصغرى وزقر)، ومن ثم انتهاءً بالحرب العدوانية الراهنة التي تشنها على اليمن قوى التحالف (العربي - الغربي - الإسرائيلي) المستمرة - بإصرار - في رهانها الخاسر على تكرار مسلسل التجارب التاريخية الفاشلة لاستهداف اليمن عبر خاصرته الرخوة على ساحل البحر الأحمر (الساحل الغربي).

- مساحة البحر الاحمر وأبعاده:

تبلغ مساحة البحر الأحمر حوالى (٤٣٨٠٠٠ كم٢)، وأقصى طول له يبلغ (٢٢٥٠ كم)، وإجمالي طول ساحله على الجانبين (٤٩٣٨ كم)، وأقصى عرض له - جنوباً - عند خط العرض (١٦) حوالى (٣٣٥ كم)، وأقل عرض له (١٩ كم) عند باب المندب، واقصى عمق فيه (٢٢١١ كم)، ومتوسط ذلك العمق (٤٩٠ م).

ويبلغ إجمالي طول سواحل الدول العربية الست على البحر الأحمر (٤٢٤٤ كم) وبنسبة (٨٤٪) من الطول الإجمالي لسواحله، أما ساحل اريتريا فبطول (٦٨٣)، وساحل "إسرائيل" (فلسطين المحتلة) بطول (١١ كم)، وبنسبة إجمالية لكليهما (١٦٪) من الطول الإجمالي لسواحله. والجدول التالي يبين تفاصيل تلك النسب والأرقام.

جدول رقم (١): اطوال سواحل الدول المشاطئة للبحر الأحمر ومتوسطاتها المئوية

م	الدولة	طول الساحل كم	(٪) من إجمالي طول ساحل البحر الأحمر
1	السعودية	1811 كم	٪ 36
2	مصر	1445 كم	٪ 28.8
3	السودان	498 كم	٪ 9.8
4	اليمين	442 كم	٪ 8.8
5	جيبوتي	40 كم	٪ 0.7
6	الاردن	8 كم	٪ 0.1
7	إريتريا	683 كم	٪ 15.6
8	"إسرائيل"(فلسطين المحتلة)	11 كم	٪ 0.2

- الجزر اليمنية:

تمتلك اليمن العديد من الجزر ذات الموقع الجيوستراتيجي الهام، ما يضاعف من الأهمية الاستراتيجية للموقع البحري لليمن، نظراً لما تمنحه تلك الجزر من ميزه الانتشار والتوزيع للمراكز التجارية والقواعد البحرية والجوية، وكذا موانع وحواجز دفاع متقدمة.وتنتشر الجزر اليمنية على امتداد المياه الإقليمية لليمن (البحر الأحمر – البحر العربي)، ولتلك الجزر تضاريسها ومناخها وبيئتها الخاصة. وأغلب الجزر اليمنية تقع في البحر الأحمر من أهمها: جزيرة كمران وهي أكبر جزيرة مأهولة في البحر الأحمر، وجزر أرخبيل حنيش وجزيرة ميون وهي ذات موقع استراتيجي لإشرافها وتحكمها بمضيق باب المندب (البوابة الجنوبية للبحر الأحمر). ومن أهم الجزر في البحر العربي أرخبيل سقطرى، وتعتبر جزيرة سقطرى أكبر جزر هذا الأرخبيل والذي يشمل إضافة إلى جزيرة سقطرى وجزر (سمحة ودرسة وعبدالكوري)، وتتميز جزيرة سقطرى بكثرة تنوعها الحيوي حيث تقدر نباتات سقطرى على اليابسة بحوالي (٦٨٠) نوعاً. كما تتمتع سقطرى بموقع جيوستراتيجي بالغ الأهمية ومتعدد الأبعاد، فهي – على سبيل المثال – تشكل عقبة أمام أي محاولة للقفز إلى البر الآسيوي (شبه الجزيرة العربية) وإلى البر الإفريقي، بالإضافة إلى وقوعها على طريق هام لنقل النفط العالمي عن طريق باب المندب وقناة السويس.

وفيما يتعلق بأهمية الجزر الواقعة في البحر الأحمر بصفة عامة، يمكن الإشارة إلى الأهمية النسبية للجزر اليمنية مقارنة بالجزر التابعة للدول الأخرى المطلة على البحر الأحمر، وذلك على النحو الآتي:

يوجد في البحر الأحمر (٣٧٩) جزيرة؛ منها (٢٥٣) جزيرة عربية، بنسبة (٦٧٪) من إجمالي الجزر، و (١٢٦) جزيرة إرتيرية، بنسبة (٣٣٪) من إجمالي الجزر. وأهم تلك الجزر وأقربها إلى خطوط الملاحة هي:

- جزيرة ميون (بريم):

تتبع اليمن. وتقع عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر داخل مضيق باب المندب، وتتحكم في المدخل الجنوبي للبحر. وبها مرفأ لرسو السفن، ومهبط للطائرات، وبها أكبر فنار في البحر الأحمر.

- مجموعة جزر عصب (فاطمة - حالب):

تتبع اريتريا. وتقع في خليج عصب عند الطرف الجنوبي من الساحل الاريتري، وتلي جزيرة ميون كونها أقرب الجزر إلى مضيق باب المندب. وهي مشرفة على الخط الملاحي القادم من مضيق باب المندب من اتجاه الممر الأفريقي.

- مجموعة جزر حنيش (١٠ جزر):

تتبع اليمن. وتقع شمال جزر مجموعة عصب (حالب) بين سواحل اليمن وأريتريا، وتتميز بقيمة استراتيجية بفضل ارتفاعها الذي يتيح مراقبة ورصد الأنشطة البحرية في المنطقة المحيطة.

ثانياً: جيوبوليتيك اليمن وإدراك صانع القرار

١- الإطار العام لعلاقة الجيوبوليتيك بإدراك صانع القرار:

في ظل ما أشرنا إليه سلفاً حول الأهمية الجيوستراتيجية لليمن وتميزها في محيطها الجغرافي الحيوي، وبالنظر إلى دلالة الأبعاد الجيوبوليتيكية لموقع اليمن وحجم وتنوع مواردها وثرواتها الطبيعية؛ يلاحظ أن اليمن عبر التاريخ وحتى الوقت الراهن غالباً ما تكون أمام أحد مشهدين؛ إما توافر إدراك يمني وطني لتلك الأهمية وذلك التميز والعمل على استثمارهما لتحقيق النهوض - من ناحية - ومواجهة الأطماع الخارجية من الناحية الأخرى، أو انشغال يمني بالصراع الداخلي، وبالتالي إضعاف نسيج قوة الدولة اليمنية وترك الساحة اليمنية عرضة للتدخلات والأطماع الخارجية.

وبالنسبة للمشهد اليمني الراهن؛ يمكن التأكيد - من ناحية تحليلية مجردة - على أن ثورة الـ ٢١ من سبتمبر ٢٠١٤م قد مثلت الحافز الرئيسي في عملية الاستدعاء التاريخي والمقارنة الحاضرة لتجليات ومشاهد التفاعل ما بين الفكرتين سالفتي الذكر؛ إذ أن موقع اليمن الاستراتيجي الفريد والأهمية الاستراتيجية لثرواته المتنوعة جعلته محط أطماع الغزاة الجدد (قوى تحالف العدوان)، ذلك من ناحية؛ أما من الناحية الأخرى، فإن ذلك التميز اليمني (الايجابي) الذي جر تلك التبعات هو نفسه الحائط المنيع الذي تكسرت عليه كل المحاولات الراهنة لقوى العدوان لفرض أي من تلك التبعات على صيرورة وجود اليمن (أرضاً وإنساناً).

وتُعدُّ مقومات اليمن الجيوبوليتيكية مصدراً كامناً للقوة، حيث تبلور دور تلك المقومات في تحقيق النهوض اليمني خلال فترات تاريخية متعددة ارتبطت بوجود قادة يمنيين أحسنوا استثمار تلك المقومات وتفعيلها. من ناحية أخرى، ظلت مقومات اليمن الجيوبوليتيكية - على الدوام - محفزة للأطماع الخارجية.

وبالنسبة لما تواجهه اليمن من حرب عدوانية، لا ريب أن هناك الكثير مما يمكن طرحه بخصوص أهداف دول التحالف من شنها لتلك الحرب العدوانية المستمرة على اليمن منذ خمس سنوات، ومن بين تلك الأهداف ما يتسم بعمق مدلولاته الجيوبوليتيكية ذات العلاقة بأطماع السيطرة على مصادر الثراء الجيوبوليتيكي لليمن سواء كان ذلك طمعاً في استغلال تلك المصادر أو حرصاً على وأد أي محاولة يمنية لاستثمارها في تحقيق نهضة تنموية وتعزيز دور اليمن في محيطه الجغرافي، أو كلا الأمرين معاً.

وبصفة عامة، يلاحظ - تاريخياً - أنه كلما تراجع الاستقلال الوطني وغاب الادراك الاستراتيجي لدى صناع القرار اليمني بطبيعة تأثير الأبعاد الجيوبوليتيكية في صياغة توجهات اليمن إزاء معطيات السياسات الإقليمية والدولية، وتواضعت قدراتهم على حساب حدود المصالح الوطنية لليمن والسبل الكفيلة بتحقيقها وحمايتها؛ كلما اكتفت القوى الإقليمية والدولية بمستوى التدخل السياسي في الشؤون اليمنية. ومتى ما حاول

صانع القرار اليمني تعزيز الاستقلال الوطني وتبلور إدراكه الاستراتيجي إزاء طبيعة تأثير الأبعاد الجيوبوليتيكية في صياغة توجهات اليمن إزاء معطيات السياسات الإقليمية والدولية؛ نجد أن تلك القوى الإقليمية والدولية ذات الأهداف التدخلية في اليمن تلجأ مباشرةً إلى التدخل العسكري.

والمسألة سالفة الذكر تعد في واقع الحال من أبرز المعضلات التي تواجه الدارسين والباحثين في مجال الجيوبوليتيك؛ إذ يواجه أولئك معضلة في تحليلهم لمدى توفر الإدراك الاستراتيجي في الدول الإقليمية والصغرى بخصوص تأثير الأبعاد الجيوبوليتيكية في صياغة توجهات دولهم إزاء معطيات السياسات الإقليمية والدولية ذات العلاقة بمصالح دولهم، وكذا مدى قدراتهم على حساب حدود المصالح الوطنية لدولهم والسبل المثلى لتحقيق تلك المصالح وحمايتها. حيث يبقى صانع القرار في الدول الإقليمية والصغرى تحت تأثير العديد من العوامل التي تحد من قدرته على امتلاك الإدراك سالف الذكر، لكن ذلك لا يعني غياب العديد من النماذج لقادة دول إقليمية وصغرى امتلكوا ذلك الإدراك الواضح وحاولوا التحرك لترجمته ميدانياً، وإن كانت محاولاتهم تلك قد تعرضت للإجهاض من قبل بعض الدول الكبرى والعظمى.

ويمكن القول تعقيباً على الخلاصة سالفة الذكر، أن أول الأسس المفترض توافرها لتشكيل ذلك الادراك هو الأساس الفكري أو العقائدي لدى صانع القرار، وكلما كان ذلك الأساس متيناً متماسكاً في معرض الاختبار لقدرته على الثبات الجدلي، ومستقراً كذلك في إطاره المرجعي عند تعرضه لمحاولات الجرح والتعديل؛ كلما كان إدراك صانع القرار أكثر قدرة على الثبات أمام أي محاولة لإجهاضه من قبل القوى الكبرى والعظمى، وأكثر قدرة أيضاً على مساندة التوجهات الاستراتيجية لدولته (الإقليمية أو الصغرى) لتحقيق مصالحها الوطنية وحمايتها.

ولعل المثال الأكثر حيوية وظهوراً على مسرح السياسات الإقليمية والدولية الراهنة إزاء ملف العدوان على اليمن هو الذي يجسده نهج السيد القائد عبد الملك بدرالدين الحوثي في تعامله مع معطيات ذلك الملف بجوانبه السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وذلك من خلال رؤية استراتيجية مستمدة من خلفية فكرية ذات بعد إيماني قرآني متين ومتماسك لا يفت في عضده معول الجدل ولا يهدد استقراره المرجعي (القرآني) أي محاولة للنيل منه جرحاً أو تعديلاً.

وخلاصة القول فيما يتعلق بطبيعة التأثير الذي يمارسه العامل الجيوبوليتيكي على اليمن أن التوجه في أعقاب ثورة الحادي والعشرين من سبتمبر ٢٠١٤م نحو استنهاض مكامن القوة للدولة اليمنية وانتزاع قرارها السياسي من براثن التدخل الإقليمي والدولي واستخلاص سيادتها الوطنية، قد استثار حمية دول التدخل والاستكبار لإجهاضه ووضع اليد مباشرةً على ثروات اليمن وأرضه في شكل احتلال مباشر.

وفي المقابل؛ أدركت القيادة في اليمن – ممثلة بالسيد القائد عبد الملك بدرالدين الحوثي – أبعاد تلك الحمية من قبل قوى الاستكبار الاستعمارية، واستوعبت العلاقة ما بين تلك الحمية والأبعاد الجيوبوليتيكية المتعلقة باليمن، فأحسنت استغلال المقومات الجيوبوليتيكية لليمن في مواجهة تلك القوى، وبما يتفق مع التطورات الحديثة في مجال الجيوبوليتيك. إذ تمكنت القيادة من تحقيق الصمود أمام الهجمات العسكرية لتلك القوى، ومن ثم الانتقال إلى مربع الهجوم عليها في عمق مقوماتها الجيوبوليتيكية، بل وثقب جيوبوليتيك تلك القوى في مقتل، وعلى رأسها أمريكا. ولتحتل اليمن بذلك موقعها الإقليمي – الراهن – كإحدى الدول الصغرى الفاعلة والقادرة على حماية مصالحها الوطنية وسيادتها وتأكيد استقلال قرارها الوطني، والمصممة على المضي في مشروعها النهضوي لبناء الدولة اليمنية الحديثة.

٢- إدراك قائد الثورة لأبعاد الجيوبوليتيك اليمني ومواجهة العدوان:

من المعلوم أن ناتج التأثير النهائي للعوامل الجيوبوليتيكية على وضع الدول وسياساتها تجاه محيطيها الإقليمي والدولي، يرتبط بمدى إدراك صانع القرار لطبيعة علاقة التأثير والتأثر بين الجيوبوليتيك وقوة الدولة. وبمعنى آخر؛ فإن لصانع القرار دور حاسم في تقدير مكامن المقومات الجيوبوليتيكية لبلده وللبلدان الأخرى، وكذا في تفعيل إمكانية استفادة بلده من تلك المقومات، وأيضاً في تحقيق الحماية المطلوبة لتلك المقومات في وجه الأطماع الخارجية. فإنه إذا توافر ذلك الإدراك بشكل سليم ومنهجي ومعزز بإطار فكري ثابت ومستقل؛ يصبح من المنطقي أن تكون معطيات التأثير والتأثُّر بين الجيوبوليتيك وقوة الدولة في صالح الدولة والأمة، والعكس بالعكس في حال عدم توافر ذلك الإدراك لدى صانع القرار.

وبالنسبة لطبيعة ناتج التأثير النهائي للعوامل الجيوبوليتيكية على الوضع الراهن لليمن وسياساتها تجاه محيطيها الإقليمي والدولي ومدى قوتها في ظل العدوان المتواصل عليها منذ مارس ٢٠١٥م؛ سنعمل على قراءة دور صانع القرار اليمني ممثلاً بقائد الثورة السيد المجاهد عبدالملك بدر الدين الحوثي (حفظه الله)، وذلك من خلال النظر في طبيعة إدراك السيد القائد لأبعاد الارتباط القائم بين المقومات الجيوبوليتيكية لليمن ومعطيات العدوان على اليمن وابعاده التفاعلية على المستويات المحلية والإقليمية والدولية.

وإجمالاً، تتجلى طبيعة الإدراك سالف الذكر لقائد الثورة في اتساع رؤيته الموضوعية والتاريخية للحدود الواقعية لساحة الصراع الدائر في اليمن بأطرافه المحلية والخارجية، وكذا وضوح رؤيته لطبيعة التحولات الراهنة في البيئتين الإقليمية والدولية، بالإضافة لدقة استيعابه من ناحية استراتيجية لطبيعة متطلبات مواجهة العدوان وفق رؤية لم تقتصر على جوانب الاستعداد العسكري الجيد فحسب، بل إنها استوعبت جوانب بناء الهوية الإيمانية وإحياء الثقافة القرآنية بناء الدولة وحفظ الأمن والاستقرار وتعزيز الجوانب الاقتصادية والتصنيعية وتحقيق الاكتفاء في جوانب الزراعة والتصنيع وتعزيز حماية منظومتي الزكاة والأوقاف، إلى غير ذلك من مكونات إدراك السيد القائد التي تنبئ بوجود منظومة متسقة من الاستيعاب الفكري والقيمي والسلوكي لما يجب أن تكون عليه حالة التأثير والتأثُّر بين المعطيات الجيوبوليتيكية لليمن وبين متطلبات بناء قوتها وتعزيز دورها الريادي المفترض في المنطقة والعالم إزاء حماية مصالح اليمن وسيادتها واستقلال قرارها الوطني، ومناصرة قضايا المستضعفين حيثما كانوا.

ومن خلال متابعة الخطاب السياسي والتثقيفي والتوجيهي لقائد الثورة السيد عبد الملك بدرالدين الحوثي، يلاحظ أنه يتمتع بإدراك عميق بخصوص طبيعة الحدود الواقعية (الحقيقية) لساحة الصراع الدائر

في اليمن، وذلك في إطار ادراكه للعلاقة بين ما يعتمل من صراع أوسع في المنطقة العربية ومحيطها الإقليمي وبين مسألة العدوان على اليمن. ويتجلى ذلك الإدراك العميق والواقعي من خلال تأكيد السيد القائد في خطاباته تلك على ثلاثة عناصر رئيسية تتشكل على ضوئها أبعاد الصراع وحدوده الموضوعية والجغرافية؛ حيث يتمثل العنصر الأول في القضية الفلسطينية، فيما يتعلق العنصر الثاني بمكون الهوية الإيمانية والثقافية الحضارية الإسلامية للأمة، أما العنصر الثالث فيتعلق بالأطماع الخارجية في موارد المنطقة وثرواتها.

وفي واقع الحال، تبدو العناصر الثلاثة سالفة الذكر متسقة تماماً مع معطيات الصراع الجيوبوليتيكي والحضاري الذي يؤطر نظرة القوى الخارجية إلى المنطقة العربية عبر التاريخ؛ إذ أن زرع الكيان الصهيوني - ممثلاً بدولة إسرائيل - في جسد الأمة العربية والإسلامية من قبل بريطانيا وفرنسا ورعاية ذلك الكيان وحمايته من قبل أمريكا وحلفائها من الدول الغربية مثّل أخطر اختراق للوجود العربي والاسلامي في المنطقة، ولا يزال وجود ذلك الكيان يمثل الخطر الأكبر الذي يهدد مستقبل العرب والمسلمين في المنطقة.

ومما لا ريب فيه أن جل إدراك قائد الثورة لأبعاد العدوان على اليمن وأهدافه غير المعلنة قائم على اعتقاده الإيماني الراسخ بالحقيقة سالفة الذكر، وهو ينطلق في ذلك من فضاء الصحوة الكبيرة التي انتشرت في أوصال الأمة على هدى من تيار إحياء الثقافة القرآنية الذي رعاه وأسس له السيد الشهيد القائد حسين بدرالدين الحوثي (رضوان الله عليه). لذا فإن قائد الثورة السيد عبدالملك بدرالدين الحوثي لم يألُ جهداً في التأكيد على مصيرية معركة مواجهة العدوان، باعتبارها معركة إيمانية تتعلق في المقام الأول بنصرة الحق على الباطل ونصرة المستضعفين في فلسطين(١). ولعل الوجه الأبرز لذلك الإدراك المستبصر والواعي أن السيد القائد قد استطاع تجذير المبدأ الأكثر حساسية في هذا التوقيت الحاسم من تاريخ الأمة، ألا وهو مبدأ تحديد العدو الحقيقي للأمة متمثلاً في الكيان الصهيوني، ووضع المثال الحي والمجسد على نقاء مسار الثورة على قوى الاستكبار وامكانيات نجاحها وتغلبها على أعداء الأمة، وذلك عبر تقديمه للأمة أجمع أسفار الانتصارات المتوالية المؤيدة من الله تعالى التي تحققها قوى الجيش واللجان الشعبية بأذرعها الميدانية على الأرض وفي الجو، داخل اليمن وفي عقر ديار الأعداء والمستكبرين.

كما أن السيد القائد يولي العنصر الثاني أهمية كبيرة من خلال تركيزه على تناول مسألة إحياء الهوية الإيمانية للأمة وحمايتها وتحصينها من الاختراق الخارجي، مع استيعابه الواضح والعميق لخطورة

١- أعتقد أن وضوح الارتباط القائم بين "إسرائيل" وأهداف دول العدوان على اليمن لا يترك مجالاً للشك في أن أبرز سبب لتكالب قوى العدوان عرباً ونصارى ويهود هو وقوف اليمن (شعباً وقيادة ثورية) مع نصرة حقوق الشعب الفلسطيني وفق أسس إيمانية لا تقبل المزايدة أو انصاف الحلول ولا تساوم في اظهار البراء من أعداء الله من اليهود ومغتصبي الحقوق والمستكبرين، وذلك من خلال شعار الصرخة: (الله أكبر، الموت لأمريكا، الموت لإسرائيل، اللعنة على اليهود، النصر للإسلام).

"الحرب الناعمة" والغزو الثقافي عبر الوسائل والتقنيات التي يزدوج تأثير استعمالاتها على جانبي النفع والضرر كالوسائل الإعلامية المتنوعة ووسائل التواصل الاجتماعي وتقنيات التواصل الحديثة.

أما عن العنصر الثالث؛ فمما لا ريب فيه أن السيد القائد يبدي في أكثر من مناسبة وتصرف إدراكه العميق لطبيعة الأطماع التي تحملها قوى العدوان على اليمن والقوى المتحالفة معها ليس تجاه موارد اليمن وثرواته فحسب بل والمنطقة ككل. لذا يبدو حرص السيد القائد في أكثر من مناسبة على عدم تقديم أي تنازل في مسألة السيادة واستقلال القرار الوطني مهما صغر حجم التنازل أو تهاون في أنفس بعض المتهاونين، لأن إدراكه العميق والثابت يتضمن رؤية إيمانية واضحة بأنه لا هوان في مواجهة وابتغاء القوم المستكبرين والمعتدين، فالهوان مدخل للتفريط بالحقوق والوجود، والتضحية والصبر والصمود مدخل للنصر والبقاء، إقراراً لسنة الله تعالى في كونه وفي شأن عباده المؤمنين المستضعفين، لذا فلا مجال لاستغراب روح التحدي النافرة من صدر القائد وشعبه المجاهد في وجه كبار المستكبرين في المنطقة والعالم واعتاهم جبروتاً مادياً وعسكرياً (السعودية، الامارات، أمريكا، إسرائيل، بريطانيا، فرنسا، ....إلخ).

الهيئة الاستشارية

١. الأستاذ الدكتور جاسم يونس الحريري (العراق)

٢. الأستاذ الدكتور إبراهيم المطاع (اليمن)

٣. الدكتور عبد الملك عيسى (اليمن)

٤. الدكتور سامي عطا (اليمن)

٥. الدكتور راشد الراشد (البحرين)

٦. الدكتورة بتول السيد (البحرين)

٧. الدكتور طلال عتريسي (لبنان)

٨. الأستاذ وضاح عيسى (سوريا)

٩. الدكتور محسن الدربي (اليمن)

١٠. الأستاذ محمد محسن الحوثي (اليمن)

مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية اليمني

مؤسسة بحثية تعني بدراسة وتحليل الشؤون اليمنية والإقليمية والدولية وتقديم مادة علمية تحليلية عن مختلف القضايا السياسية والإقتصادية والاجتماعية ومتابعة مسار التحولات والمستجدات السياسية. وأنماط التفاعلات الدولية والإقليمية. وتوقع مساراتها ونتائجها وإعداد التوصيات اللازمة بشأنها والإسهام في تنمية الوعي السياسي العام وترشيد القرارا السياسي.

من أهداف المركز

إعداد ونشر الدراسات والبحوث في المجالات الاستراتيجية المختلفة. إصدار المجلات والنشرات في المجالات المختلفة بما يتفق مع أهداف المركز. ترجمة ونشر الكتب والدراسات التي تتفق مع أنشطة وأهداف المركز. عقد وتنظيم المؤتمرات والندوات السياسية وورش العمل وحلقات النقاش. إجراء دراسات قياس الرأي العام والمسوحات الميدانية للظواهر ذات العلاقة باهتمامات المركز

الجمهورية اليمنية - صنعاء- حي الجراف

+٩٦٧١٣٢٣٠٢٨

٤١٩٠

yecscs@gmail.com

www.yecscs.com